معين الطاهر

تبغ وزيتون

حكايات وصور من زمن مقاوم

ذاكرة فلسطين





المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

تبغ وزيتون

حكايات وصور من زمن مقاوم

معين الطاهر



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الطاهر، معين

تبغ وزيتون: حكايات وصور من زمن مقاوم/ معين الطاهر.
416 ص.؛ 24 سم. - (سلسلة ذاكرة فلسطين)
يشتمل على ببليوغرافية (ص. 389-390) وفهرس عام.
ISBN 978-614-445-122-9

1. الفلسطينيون - تراجم. 2. النزاع العربي الإسرائيلي. 3. فلسطين - تاريخ - الاحتلال الإسرائيلي، 1948- 4. القضية الفلسطينية. 5. المقاومة الفلسطينية - تاريخ. 6. لبنان - تاريخ - الحرب الأهلية 1975-1990. أ. العنوان.
956.9405092

العنوان بالإنكليزية

Olive Trees and Tobacco leaves:
Tales and Images from a Time of Resistance

By Mueen Al Taher

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 11 4965 رياض الصلح بيروت 1107 2180 لبنان
هاتف: 8 00961 1 991837 فاكس: 00961 1991839
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، آذار/ مارس 2017

في عيون الشهداء رأيتُ بريقًا خاطفًا، يرسم لوحةً تجمع
بين شتلات تبغ في الجنوب وجذور زيتونة عتيقة في فلسطين
وتضم حكاياتٍ وصورًا من زمن مقاوم

المحتويات

كلمة لا بدّ منها: شهداء أحياء

اعتدنا أن نرثي الشهداء، ونعدّد مناقبهم وفضائلهم وشمائلهم، ونترفّع عن ذكر بعض صغائرهم إن وجدت، إذ إنّ للشهادة في ذاتها مدلولًا عظيمًا؛ فالتضحية بالنفس والشجاعة والإقدام ومواجهة الموت بلا تردد أو وجل يجعلها تسمو على كل شيء، وتمحو ما قبلها، وترسم نبراسًا ينير طريقنا ويحثّنا على اتّباع نهجهم وسلوك دربهم. كيف لا والله عزّ وجلّ قد خصّ الشهداء بهذه المنزلة العليا، فهم أحياء عند ربهم يُرزقون، وذكرهم في الدنيا لا ينقطع، وسيرتهم عطرة يفخر بها أبناؤهم وأحفادهم ورفاق دربهم.

لفت نظري، وأنا أعدّ نفسي للكتابة عن سيرة بعض شهدائنا الأبرار ورواية حكاياتهم واستنباط العبرة والمثل من حياتهم، أنّ ثمّة نوعًا آخر من الشهداء، وهو ما سأطلق عليه اسم الشهداء الأحياء، وهم ما زالوا بين ظهرانينا، لم يكتب الله لهم الشهادة وإن كانوا قاب قوسين أو أدنى منها، لامست الشهادة شغاف قلوبهم ثمّ ارتدّت إلى غيرهم، كانوا مثالًا لنا، وقدوة تُحتذى في نضالهم(ن) وحياتهم(ن) وشجاعتهم(ن) وعلاقاتهم(ن) مع إخوانهم واحترامهم(ن) للجماهير.

تساءلتُ، لم لا نكتب عن هؤلاء أو بعض منهم(ن)، عن الجنود المجهولين. ربما لهذا ابتُكر نصب الجندي المجهول؛ تخليدًا لأولئك الصامتين الذين لم تُروَ حكاياتهم(ن)، ولكنّ مآثرهم(ن) وشجاعتهم(ن) صنعت النصر، وحققت الصمود، أو ساهمت فيهما. عشرات من الشهداء والشهداء الأحياء هم

متماثلو الملامح، مؤتلفو الأرواح، متشابهون في السيرة والمسيرة، يأبى القلم أن يتوقف عن ذكرهم، لكنّ عذري أنّ للنصّ حدودًا لا بد من أن يتوقف عند نقطة فيها.

لعلّي وغيري نحكي في ما نروي قصصًا عن هؤلاء الأحياء قبل أن يفارقونا، كما نخلد ذكرى الشهداء الذين سبقونا، حتى تكتمل الصورة وتزداد بهاءً، فجميع هؤلاء الأحبة ورفاق لهم(ن) لم أتمكن من ذكر أسمائهم(ن) في الصفحات التالية، كانوا مشروعات شهادة مرت بقربهم، لامستهم، حملت معها أحبتهم، وسافَرت.

لشهدائنا الأحياء، ولمن سبقهم من الشهداء، ولجيل آتٍ يتطلع إلى الشهادة والتحرير، أُهدي هذه الأوراق.

مقدّمة

كنتُ قد بدأتُ في كتابة بعض أوراق هذا الكتاب على فترات طويلة ممتدة، قبل أن يفاجئني الصديقان العزيزان إلياس خوري وميشال نوفل برغبتهما في إجراء حوار معي عام (2013) يُسفر عن شهادة تُسجّل في **مجلة الدراسات الفلسطينية**[1]، إلّا أنّ الحوار امتد ليخرج عنه كتاب **الكتيبة الطلابية: تأملات في التجربة**[2]. ما جعلني أوقف العمل على كتابي هذا هو أنني شعرتُ أنّ جزءًا مهمًا من الذي أودّ قوله قد رويته في ذلك الكتاب الذي كان محكومًا بأسئلة المحاورين البارعين، إضافةً إلى أنّ عددًا من الإخوة والباحثين قد كان له فضل السبق في رواية أجزاء من تاريخ الكتيبة والتيّار، وفضل السبق دائمًا يجب أن يعود إلى أهله، فقد كتب الأستاذ منير شفيق (أبو فادي) كتابه **شهداء ومسيرة**[3]، والأخ فتحي البس كتابه **انثيال الذاكرة**[4]، والدكتور شفيق الغبرا (جهاد) كتابه **حياة غير آمنة**[5]، والأخ خليل النبتيتي كتابه **في الطريق إلى فلسطين**[6] والأخ محمد محمود يوسف (أبو علاء منصور) كتابه **على ضفاف**

(1) «من ملاحم الصمود في لبنان إلى إعادة التأسيس في فلسطين»، مقابلة مع معين الطاهر أجراها الياس خوري وميشال نوفل، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، السنة 24، العدد 94 (ربيع 2013).

(2) الياس خوري وميشال نوفل (محاوران)، **حوار مع معين الطاهر: الكتيبة الطلابية: تأملات في التجربة** (بيروت: منشورات ضفاف، 2015).

(3) منير شفيق، **شهداء ومسيرة: «أبو حسن وحمدي وإخوانهما»** (بيروت: مؤسسة الوفاء، 1994).

(4) فتحي خليل البس، **انثيال الذاكرة: هذا ما حصل** (عمان: دار الشروق، 2008).

(5) شفيق الغبرا، **حياة غير آمنة: جيل الأحلام والإخفاقات** (بيروت: دار الساقي، 2011).

(6) خليل النبتيتي، **في الطريق إلى فلسطين: سيرة نضالية** (عمان: دار الشروق، 2014).

النهر[7]، ونيكولا دوت بويار كراسته **اليسار المتحول للإسلام: قراءة في حالة الكتيبة الطلابية لحركة فتح**[8]، فضلًا عن صفحات عدة على مواقع التواصل الاجتماعي أقامها أفراد شاركوا في هذه التجربة أو أعجبوا بها لاحقًا، ممّا جعل قصة الكتيبة الطلابية ونهجها السياسي والفكري ومعاركها ومآثرها تُعرف على نطاق أوسع، وأنّ فراغًا كبيرًا في توثيق هذه التجربة قد امتلأ.

إلّا أنّني أدّعي هنا أنّ ثمّة جوانب مهمة ينبغي إضاءتها في هذه التجربة، في الوقت ذاته الذي أجزم فيه بعجزي الإنساني عن الإلمام بكلّ تفصيلاتها، أو بالقدرة على سرد كلّ حكاياتها، أو تذكّر كلّ شهدائها وأبطالها وصانعي تجربتها، فللقدرة الإنسانية حدود، ولمرور الزمن على الحوادث تأثيرٌ لا يُنكر في الذاكرة، إضافةً إلى أنّ قسمًا كبيرًا من صانعي هذه الرواية قد استشهد عبر مسيرتها الطويلة.

كان طموحي في الأساس أن نتمكن من كتابة ذاكرة جماعية يساهم فيها كلّ من شارك في بنائها بجزء ولو يسير منها. وعلى الرغم من النداءات المتكررة من أجل ذلك، فما وصلني - على أهميته - لم يكن بمستوى الطموح، لكنّ الأمل يبقى قائمًا بأن يُبادر عددٌ آخر من الإخوة والأخوات إلى تسجيل تجربتهم وملاحظاتهم وتقويمهم الإيجابي أو السلبي لما قُمنا به معًا فأصبنا وأخطأنا، لعلّ أجيالًا أخرى تعزّز التجربة وتستفيد منها وتُصحّح ما أخطأنا فيه، ذلك أنّه يبقى ثمّة ما يُقال وحكايات لم تُروَ وأبطالٌ مجهولون. كما أنّ هذه التجربة ما زالت تستحق الدراسة والتقويم والنقد بوصفها جزءًا من تجربة أكبر هي تجربة حركة فتح والثورة الفلسطينية، إذ إن ما لا شك فيه أنّ تاريخ الكتيبة الطلابية والتيار يمثّل جزءًا مهمًا ومتواضعًا في تجربة فتح والثورة الفلسطينية وحركة التحرّر العربية. وقد كُتب عن بعض جوانبه عدد من

(7) محمد محمود يوسف، **على ضفاف النهر** (عمان: دار الشروق، 2014).

(8) نيكولا دوت بويار، **اليسار المتحول للإسلام: قراءة في حالة الكتيبة الطلابية لحركة فتح**، ترجمة عومرية سلطاني، سلسلة مراصد؛ 2 (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 2010)، وعنوان النص الأصلي هو: **من بكين إلى طهران يولون الوجه شطر القدس: «ماويو فتح» والتجربة الفريدة في التحول نحو الإسلام**.

المقالات والبحوث والكتب ورسائل الدراسات العليا[9]، كما خرجت بعض الأفلام التسجيلية والحلقات الحوارية[10] في عدد من القنوات الفضائية، لتروي جوانب مهمة من هذه التجربة.

هنا أظنّ أنّه ينبغي تنبيه القارئ إلى أنّ هذه التجربة لم تكن معزولة عن كلّ ما هو حولها، بل كانت جزءًا مهمًا فيه ومتواضعًا منه، إذ إنّ عِظم دورها يرجع إلى أنّها كانت بمنزلة الحصوة التي تسند الخابية، وكان جهدها جزءًا مساعدًا ومكملًا لجهد المناضلين الآخرين. لذا ينبغي الحذر من المبالغة في دورها أو تحميلها ما لا تحتمل، إن سلبيًا أو إيجابيًا، أو عدّها محورًا للحوادث.

ثمّة أوراق شخصية بين دفتي هذا الكتاب، ولعلّ هذا ما ميّزه من الكتاب السابق **الكتيبة الطلابية: تأملات في التجربة**، وأضفى بعضًا من الحميمية عليه، فحياتنا بوصفنا مقاتلين من أجل الحرية لا تنفصل عن حياتنا ومشاعرنا أفرادًا، بقدر ما تمنحها معناها وقيمتها وغايتها. كما عنيتُ في هذه الأوراق أن أسدّ نقصًا في الرواية لم تسمح بسرده طبيعة الكتاب السابق المحكوم بأسئلة المحاورين، وإن كان بعض الأصدقاء ممّن تفضلوا بقراءة الكتاب ومراجعته قد ألحّوا عليّ ذكر المزيد من التفصيلات، خصوصًا تلك المتعلقة بحوادثٍ مرّت على مستوى مسيرة الثورة كلها، أو بإخوة أعزاء ومناضلين كبار عاصروا تلك الحوادث وساهموا فيها. إلّا أنّ هذا الأمر يحتاج إلى جهد أكبر قد يُخرج هذا الكتاب عن سياقه من حيث هو رواية لتجربة محددة وتفصيل صغير في مسيرة النضال الوطني الفلسطيني. وقطعًا فإنّ عدم الإسهاب في ذكر تلك الحوادث، أو سيرة هؤلاء الإخوة، لا يقلل على الإطلاق من أهمية دورهم الذي ربما يفوق في حقيقته ما قمنا به.

(9) ساري عرابي، «تحولات الأيديولوجيا والسياسة في الحركة الوطنية الفلسطينية: الكتيبة الطلابية نموذجًا»، رسالة ماجستير، جامعة بيرزيت، 2015.

(10) من أبرزها حلقات «كل الحكاية» (مع منير شفيق ومعين الطاهر) على تلفزيون **القدس**، والفيلم التسجيلي «من السرية إلى السرايا» على قناة **الجزيرة**، و«عمو نشأت» الذي بُث على قناة **العربية**، وحلقات أخرى بُثت على قناتي **فلسطين** و**عودة**.

هنا لا يفوتني أن أتوجه بالشكر إلى كل الأصدقاء الذين شاركوني قراءة صفحات هذا الكتاب، وزوّدوني بملاحظاتهم القيّمة، أو أولئك الإخوة الذين أنعشوا ذاكرتي بالحكايات التي سردوها وأضافوا بذلك الشيء الكثير إلى هذه الأوراق. كما أتوجه بالشكر الخاص إلى الباحثتين المتميزتين نورا جبران وهبة أمارة اللتين تفضلتا بمراجعة الكتاب وتحريره أكثر من مرة حتى وصل إلى الشكل الذي يشاهده القراء، وإلى الأخوين علي الشاب (أدهم) وحسن صالح اللذين راجعا جزءًا كبيرًا من نصوصه ونبّهاني إلى بعض مواقع الخلل فيه، ونافذ أبو حسنة الذي راجع النص النهائي، علمًا أنّه ذو فضل سابق في تحفيزي على كتابة هذه التجربة عندما استضافني في ثماني حلقات في برنامجه التلفزيوني القيّم «كل الحكاية»، ومن خلال متابعته البرنامج الوثائقي «من السرية إلى السرايا» الذي بثّته قناة الجزيرة، وكذلك الصديق أحمد جميل عزم الذي اختتم هذه المراجعات.

أمّا زوجتي ورفيقة دربي يسار التي عاشت معي هذه الفصول بحلوها ومرّها، وكانت خلالها الحافز القوي والمساعد الأمين الذي مكّنني من مواجهة كل ما مررنا به معًا من أوضاع صعبة وقاسية، فكانت بلسمًا على كلّ جراح. كما أنّها ذكّرتني بعدد من القصص التي كاد ضعف الذاكرة وتراكم الحوادث أن يطوياها، فلها منّي كل الحب والاحترام والتقدير.

كما لا يفوتني أن أتوجه بالاعتذار إلى جميع الإخوة الذين كان لهم دور مهم في هذه المسيرة، لكنّني لم أتمكّن من إيراد حكاياتهم كلها أو الإشادة ببطولاتهم، إمّا لعيبٍ في الذاكرة، أو لعدم قدرتي على أخذ إذنهم بأن أروي شيئًا عنهم، ويندرج هذا أيضًا على إغفالي المُتعمّد باقي أسمائهم، أو استبدالها بأسماء أخرى وهمية بعض الأحيان، أو عدم التعريف بهم كما ينبغي أن يكون، وهذا ليس لنقص في دورهم، أو خلل في أدائهم، أو للتقليل من شأنهم – وهو ما يحفظه لهم إخوتهم ورفاقهم بكل تأكيد – وإنّما يرجع إلى عدم معرفتي بوضعهم الحالي، ومدى تأثير ما أكتب في حياتهم الراهنة، خصوصًا أنّه قد خرج من رحم هذا التيار المئات من الأخوات والإخوة الذين تابعوا في ما بعد

تحصيلهم العلمي، وتقلّدوا مناصب مهمة في أقطارهم، أو نجحوا في مجالات تخصصاتهم وأعمالهم المختلفة، أو تدرّجوا في رتبهم العسكرية ومواقعهم التنظيمية، وتوزعوا في مختلف أصقاع الأرض.

في الختام، فإنّ ما قد يعتري هذه الأوراق من نقص أو قصور فيرجع إليّ، وأنا وحدي أتحمل مسؤوليته، أمّا ما تخلل صفحاتها من ظواهر مشرقة ومُثل كبرى، فإنّ الفضل فيه يعود إلى أولئك الذين صاغوا هذه التجربة، وقدّموا أرواحهم في سبيل فلسطين وحريتها وعلى طريق الثورة العربية. لهم وحدهم كل الفضل وكل الشكر، والمجد كل المجد للشهداء والأسرى ومن بقي على عهد فلسطين.. كل فلسطين.



الفصل الأول

بدايات

نابلس 8 حزيران/ يونيو 1967

تعالت الأصوات، ها قد وصلت الدبابات العراقية إلى البوابة الشرقية للمدينة. ركضتُ كغيري من الفتية لمشاهدتها والترحيب بها. امتلأت صدورنا حماسة وقلوبنا يقينًا بأنّ العودة إلى يافا ستتحقق في غضون ساعات أو أيام. كيف لا وقد تواترت أخبار الإذاعات معلنةً سقوط الطائرات الصهيونية كالذباب، وتقدّم الجيوش العربية على الجبهات المصرية والسورية والأردنية، وها هو الجيش العراقي يلتحق بها، وطلائع دباباته قد بلغت نابلس.

كان بيتنا قريب من المدخل الشرقي للمدينة التي كانت في ما مضى تبدأ من مبنى يُطلقون عليه اسم «العمارة»، وهو مقر للجيش والأمن وأجهزة الدولة. لا أعلم على وجه الدقة متى بُنيت «العمارة»، لكنّها كانت مقرًا للحكم البريطاني، ومن ثمّ للإدارة الأردنية، قبل أن تصبح مقرًا للحاكم العسكري الصهيوني. أمّا بعد اتفاق أوسلو فقد صارت مبنى لمحافظة نابلس، قبل أن تدمرها الطائرات والدبابات الصهيونية خلال الانتفاضة الثانية، لتُنهي وجود معلم تاريخي ميّز مدينة نابلس.

في طريقي إلى العمارة، مررتُ بثكنة الفرسان، وهي إسطبل صغير فيه خيول قوة الفرسان المرابطة في المدينة، وقد كنّا في طفولتنا كثيرًا ما نتودد للجنود للسماح لنا بالدخول إلى الإسطبل ومشاهدة الخيل. لفت انتباهي أنّ المكان فارغ. فدفعني الفضول إلى الدخول، لأجد الخيل تبكي وحيدة لمفارقة فرسانها. تقدّمتُ نحو العمارة فوجدتُ عددًا من الدبابات يرابط في زوايا الشوارع، وكلما جاءت أخرى يُصفق لها الجمهور الواقف على الأرصفة. أكّد أحد الحاضرين أنّها دبابات عراقية وصلت حالًا. كيف لا وقد جاءت من جهة

نابلس 8 حزيران/ يونيو 1967

تعالت الأصوات، ها قد وصلت الدبابات العراقية إلى البوابة الشرقية للمدينة. ركضتُ كغيري من الفتية لمشاهدتها والترحيب بها. امتلأت صدورنا حماسة وقلوبنا يقينًا بأنّ العودة إلى يافا ستتحقق في غضون ساعات أو أيام. كيف لا وقد تواترت أخبار الإذاعات معلنةً سقوط الطائرات الصهيونية كالذباب، وتقدّم الجيوش العربية على الجبهات المصرية والسورية والأردنية، وها هو الجيش العراقي يلتحق بها، وطلائع دباباته قد بلغت نابلس.

كان بيتنا قريب من المدخل الشرقي للمدينة التي كانت في ما مضى تبدأ من مبنى يُطلقون عليه اسم «العمارة»، وهو مقر للجيش والأمن وأجهزة الدولة. لا أعلم على وجه الدقة متى بُنيت «العمارة»، لكنّها كانت مقرًا للحكم البريطاني، ومن ثمّ للإدارة الأردنية، قبل أن تصبح مقرًا للحاكم العسكري الصهيوني. أمّا بعد اتفاق أوسلو فقد صارت مبنى لمحافظة نابلس، قبل أن تدمرها الطائرات والدبابات الصهيونية خلال الانتفاضة الثانية، لتُنهي وجود معلم تاريخي ميّز مدينة نابلس.

في طريقي إلى العمارة، مررتُ بثكنة الفرسان، وهي إسطبل صغير فيه خيول قوة الفرسان المرابطة في المدينة، وقد كنّا في طفولتنا كثيرًا ما نتودد للجنود للسماح لنا بالدخول إلى الإسطبل ومشاهدة الخيل. لفت انتباهي أنّ المكان فارغ. فدفعني الفضول إلى الدخول، لأجد الخيل تبكي وحيدة لمفارقة فرسانها. تقدّمتُ نحو العمارة فوجدتُ عددًا من الدبابات يرابط في زوايا الشوارع، وكلما جاءت أخرى يُصفق لها الجمهور الواقف على الأرصفة. أكّد أحد الحاضرين أنّها دبابات عراقية وصلت حالًا. كيف لا وقد جاءت من جهة

الشرق؟ تشجّع البعض وحاول التحدث إلى الجنود. ثمّ عاد ليقول للحضور إنّها دبابات جزائرية، مستدلًا على ذلك بأنّ جنودها يتحدثون عربية متعثرة، لذا فهم حتمًا جزائريون. علّق البعض: ليس مهمًا إن كانت عراقية أو جزائرية، المهم أنّها طليعة الجيوش العربية الزاحفة.

بينما الجمع منشغل بهوية الدبابات؛ عراقية كانت أم جزائرية، إذ برجل عجوز يحمل بندقية كندية قديمة، وزّع الجيش العربي الأردني أعدادًا منها على المواطنين صباحًا، ومع كل بندقية خمس طلقات فقط، يأتي مسرعًا للترحيب بما ظنّه مقدّمة الجيوش العربية المنتصرة. وما إن لمحه أحد الجنود حتى أطلق نيران مدفعه الرشاش نحوه، ليسقط الشيخ صريعًا مضرجًا بدمائه. فهرب الجميع.

ظهرت الحقيقة. أيّ كابوس قد حلّ بنا؟

لم يكن عام 1967 مثل غيره من الأعوام، وأغلب الظنّ أنّه قد غيّر مسار حياة مئات الآلاف من الشبان العرب، إضافةً إلى الندوب التي تركها في جسد الأمة. كنتُ قد عدتُ هذا العام إلى نابلس، في الضفة الغربية المحتلة، والتحقتُ هناك بمدرسة عمرو بن العاص الإعدادية، بعد أن استقر رأي العائلة أن أعود ووالدتي من الكويت، لنعيد تأسيس منزل العائلة في نابلس، علّه يُصبح الملتقى الصيفي لإخوتي المقيمين في الغربة.

الهجرة من يافا

تنتسب عائلتنا إلى عشيرة الجرادات المنتشرة على ضفتي نهر الأردن التي تعود أصولها إلى قبيلة جهينة العربية، وقد كنتُ كثيرًا ما أتندّر أمام أصدقائي مازحًا، بانتسابي إلى جهينة، مستخدمًا حديثًا منسوبًا إلى رسول الله ما معناه: من آذى جهينة فقد آذاني[1]. وقد عُرف عنّا أنّنا عائلة نابلسية يافاوية؛ إذ إنّ جدي

(1) يُنظر: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، **المعجم الكبير**، حققه وخرّج أحاديثه حموي عبد المجيد السلفي، ج 19، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، [د. ت.])، ص 317.

الأكبر لجأ إلى نابلس، ثمّ هاجر أحد أحفاده إلى يافا واستقر فيها. وهكذا كان أبي يافاويًا وأمي ابنة عمه نابلسية.

هاجرت عائلتنا من يافا في عام 1948 بعد استشهاد عمي فيصل[2] الكيماوي خريج جامعة القاهرة وخبير المتفجرات، في إثر انفجار عبوة ناسفة كان يحضّرها ليستخدمها الثوار العرب. المصادفة وحدها هي التي أنقذت العشرات من نساء العائلة ورجالها الذين كانوا يساعدونه في تنظيف القنابل الصدئة قبل إعادة تعبئتها بالبارود؛ إذ تصادف أن جاء من يدعوهم إلى الغداء، وألحوا عليه أن يرافقهم، فطلب منهم الذهاب على أن يلحق بهم بعد الانتهاء من العبوة التي كان يُعدّها لتسليمها للمجاهدين، بعد أن غادروا بدقائق دوى انفجار مروّع هزّ يافا بأسرها.

كان حظّنا أفضل من غيرنا من المهاجرين الذين اكتووا بنار النكبة؛ ذلك أنّ أبي وأعمامي تلقوا تعليمًا عاليًا قياسًا بذلك الوقت، ولدينا فرع نابلسي لمكتبتنا في يافا التي أُسست في مطلع القرن، وفقدناها بما تحوي من كتب ثمينة وقيّمة، وفرع آخر أُسس لاحقًا في عمّان، عبر كتب هذه المكتبة التي كنّا نجلس على سدتها ساعات طوالًا نهلتُ أول قطرات المعرفة. كما تملك عائلتنا بيوتًا في نابلس هي من وقف ذري[3] لجدي أسعد، وقد تضامن الفرع النابلسي مع أبناء عمومتهم الآتين من يافا، وتقاسموا السكن معهم في هذه البيوت، لذا لم يضطر أحد من عائلتنا إلى أن يلجأ إلى المخيمات التي أُقيمت على عجل، وإن كنّا قد حصلنا على بطاقات اللاجئين التي تخوّلنا الحصول على نصيبنا من المواد التموينية، وفي يقيننا أنّ بطاقة وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين «الأونروا» قد تكون مدخلنا إلى العودة.

ولدتُ في نابلس بعد أربعة أعوام من الهجرة. وعشتُ فيها سنوات

(2) مهندس كيماوي، تخرّج في جامعة القاهرة وكان ضمن أول بعثة تعليمية فلسطينية إلى الكويت، استشهد في يافا في 15/ 4/ 1948.
(3) الوقف الذري هو وقف لا يجوز التصرف فيه وينتقل من جيل إلى آخر عبر نسل الأبناء الذكور.

طفولتي الأولى. كانت تفصلني عن أخي الأكبر أحد عشر عامًا؛ لذا فقد كنتُ مدللًا يتنافس أقربائي ممّن هم أكبر منّي سنًا لاصطحابي إلى الدكان القريب من منزلنا، لنتقاسم ما يمكن أن تشتريه التعريفة (5 فلوس) من «ملبّس» حامض حلو[4]، أو «قراطيس النعّومة» المكونة من مسحوق الحمص المخلوط بالسكر، مطلقين عليّ لقب شريك الشركة.

أنهت أختي الكبرى نوال المترك[5] في عام 1954. وسرعان ما غادرت للعمل مدرّسة في الكويت، شأنها شأن الأخ الأكبر في مختلف العائلات الفلسطينية الذي توجه إلى الخليج مبكرًا ليتولى الإنفاق على باقي أفراد أسرته وتعليمهم. بعدها بعام أنهى أخي رشيد المترك، وتوجه لدراسة الهندسة في بغداد. إلّا أنّ التوتر الذي ساد أجواء الانضمام إلى حلف بغداد[6] أجبره على العودة، ليتوجه في العام الدراسي الذي يليه إلى الإسكندرية لدراسة الصيدلة. وتزامن وصوله مع العدوان الثلاثي على مصر. بعد ذلك بسنتين أنهى أخي بشير دراسته الثانوية والتحق بشقيقي الأكبر في الإسكندرية. وهنا استقر الرأي أن ألحق بهما مع أمي وأبي، لنقيم معًا في مصر توفيرًا للنفقات وجمعًا للشمل، وقد كان والدي فرحًا بذلك؛ إذ تمكّن من رؤية شقيقاته اللواتي يُقمن في القاهرة منذ الثلاثينيات.

الإسكندرية

على وقع موسيقى وأناشيد «الله أكبر فوق كيد المعتدي»، و«إحنا بنينا وادي إحنا حنبني السد العالي»، و«دع سمائي فسمائي مُحرقة، دع مياهي فمياهي مُغرقة، واحذر الأرض فأرضي صاعقة»، أو «وطني حبيبي الوطن

(4) ملبس حامض حلو: سكر مع نكهة فواكه ولون، ولعله النوع الوحيد من الحلويات المتاحة للأطفال في ذلك الوقت.

(5) حلّت الثانوية العامة مكان شهادة المترك لاحقًا.

(6) حلف بغداد أو الحلف المركزي ضمّ العراق وتركيا وإيران وباكستان وبريطانيا والولايات المتحدة الأميركية.

الأكبر.. يوم عن يوم أمجاده بتكبر.. وانتصاراته مالية حياته.. وطني وطني»، كنّا ندخل الصفوف كل يوم في مدرسة الشهيد صلاح مصطفى الابتدائية. والشهيد صلاح مصطفى ضابط مصري، أرسل الصهيونيون رسالة بريدية متفجرة إلى مقر عمله في السفارة المصرية في عمّان لعلاقته بمجموعات الفدائيين التي كانت تعمل في فلسطين ذلك الوقت (مجموعات مصطفى حافظ[7]).

في المدرسة حفظتُ قصص أحمد عرابي[8] ودنشواي[9] وجول جمال[10] وحصار الفالوجة[11] والأسلحة الفاسدة[12]، وقصة بناء السد العالي[13] الذي كان ابن عمتي أحد المهندسين العاملين فيه. ورضعتُ منها الوطنية وحسّ الانتماء القومي إلى الأمة العربية. وفي الإسكندرية درستُ المرحلة الابتدائية، مقتطعًا منها سنة واحدة بعد تخرّج أخي الأكبر وذهابه للعمل في الكويت. وعدنا فيها إلى نابلس حيث توفي والدي خلالها. ورجعنا أنا ووالدتي للإقامة مع أخي الذي ما زال في جامعة الإسكندرية.

كان بيتنا في الإسكندرية بيت الجالية الفلسطينية؛ فلا يأتي طالب من نابلس إلّا وينزل عندنا أيامه الأولى، وتمتلئ الدار في الأعياد والمناسبات

(7) ضابط مصري أشرف على إنشاء مجموعات فدائية في قطاع غزة في منتصف الخمسينيات.

(8) وزير الدفاع المصري وقائد الثورة العرابية ضد الخديوي توفيق، انتصر عليه الإنكليز في معركة التل الكبير في عام 1882، ونفوه إلى سيلان (سيريلانكا).

(9) دنشواي: قرية مصرية في محافظة المنوفية وقع فيها صدام بين ضباط إنكليز كانوا في رحلة لصيد الحمام وأهالي القرية أدّى إلى جرح سيدة مصرية، خلال فرار الإنكليز توفي أحدهم بضربة شمس، وشُكّلت محكمة حكمت بالإعدام على 4 أشخاص وسجنت عشرات من رجال القرية.

(10) ضابط بحري سوري تطوّع لقيادة زورق طوربيد مصري لتدمير المدمرة الفرنسية (جان بار) مقابل بور سعيد، خلال العدوان الثلاثي 1956 واستشهد في المعركة.

(11) الفالوجة بلدة فلسطينية تقع شمال شرق غزة، حوصر فيها الجيش المصري في عام 1948، ومثّلت رمزًا للصمود، وكان الرئيس جمال عبد الناصر أحد الضباط المحاصَرين.

(12) الأسلحة الفاسدة: فضيحة شراء أسلحة فاسدة للجيش المصري خلال حرب 1948 تورّط فيها رجال القصر الملكي ومثّلت أحد أسباب ثورة يوليو 1952.

(13) بُني لتنظيم تدفق مياه النيل وتوليد الكهرباء، ويُعدّ من أهم إنجازات الرئيس عبد الناصر.

بجميع أصدقاء إخوتي وأقاربنا من الطلاب الدارسين فيها. كما كنتُ أذهب مع والدي إلى النادي الفلسطيني لمشاهدة التلفزيون (أبيض وأسود) الذي لم يكن منتشرًا بعد في المنازل، ولكنّ جمال عبد الناصر أمر بوضعه في الميادين العامة، ليشاهده عشرات المصريين الذين يجلسون على مقاعد خشبية لمشاهدة هذا الاختراع الجديد في ساعات بثّه المحدودة.

في يوم الجمعة كنتُ آخذ مصروفي الأسبوعي، خمسة قروش كاملة كانت تكفيني كي أستقل الترام إلى محطة الرمل، وأذهب إلى السينما، وأتناول كوبًا من عصير القصب. كما كنتُ أذهب إلى محطة الإبراهيمية، أنتظر وصول قطار القاهرة، لأحصل على مجلة **سمير** قبل توزيعها بيوم.

بعد تخرّج أخي غادرنا مصر إلى الكويت التي التحقتُ بمدارسها، وأنهيتُ فيها المرحلة المتوسطة. كنتُ متفوقًا في دراستي، لكنّ ذلك لم يعجب الأستاذ المشرف على صفي، وأظنّه من آل الشريف؛ إذ وبّخني بشدة وضربني بالمسطرة على يديّ لأنّ أحد الطلاب العرب شاركني المرتبة الأولى، وقال لي يومها: «نحن الفلسطينيين يجب أن يكون سلاحنا العلم». وشأن جميع العائلات الفلسطينية رضعت عائلتنا السياسة مع حليب الأطفال على أمل أن نكتشف طريقًا ما تؤدي إلى فلسطين، وقد كان أخي الأكبر قوميًا أُبعد من الكويت إلى الأردن في بداية عام 1967 لنشاطه السياسي، وفي الأردن أصبح عضوًا في حركة فتح، كما كان أخي الآخر شيوعيًا ثمّ أضحى أحد كوادر الجبهة الديمقراطية.

تظاهرات

أقمتُ ووالدتي في نابلس في منزل لآل السيد، على مفترق الطرق بين المدرسة الصلاحية للبنين والعائشية للبنات. وعادت المكتبة ملاذي في أوقات الفراغ، حيث نقوم فيها ببعض الأعمال الخفيفة، ثمّ نلجأ إلى زاوية منها، نلتهم من كتبها ما استطعنا أنا وأبناء عمي. وفي المكتبة تعرفتُ إلى رشيد الكيلاني وجرجي زيدان وإحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ والعقاد، كما قرأتُ

ألكسندر دوماس الكبير وفيكتور هيغو وتشارلز ديكنز وهمنغواي، وعددًا من الكُتّاب الروس.

مشيًا على الأقدام كنتُ أسير يوميًا بين البيت والمكتبة. وخلال المسير أردّد «السلام عليكم» على كل من يجلس أمام دكانته، أو أصادفه مارًا في الطريق، لتتعالَى الأصوات بردّ السلام مصحوبة بعبارة «سلّم على عمك»، فالكل يعرف الجميع. وفي لحظات نادرة يأتي ردّ السلام مصحوبًا بالاستفسار من تكون، ومن هو أبوك باللهجة النابلسية القديمة: «ابن أمن أنيت؟».

في تشرين الثاني/نوفمبر 1966 اندلعت تظاهرات عارمة إثر الاعتداء الصهيوني على بلدة السموع قرب الخليل، تعطلت الدراسة والحياة الطبيعية. وأول مرة كنتُ أشارك في تظاهرة، بل أقوم بتحريض طلاب مدرستي على ترك الصفوف والنزول إلى الشارع. كان الطلاب الكبار في المدرسة الصلاحية أو مدرسة الجاحظ يبادرون إلى ترك الصفوف والتوجه نحو المدارس الأخرى؛ فما إن نسمع صوت الهتاف يقترب حتى نبادر إلى الخروج من صفوفنا والالتحاق بالتظاهرة. وما زلتُ أحفظ بعض الهتافات مثل «بدنا الوحدة باكر باكر مع هالأسمر عبد الناصر»، أو «يا عربي يابن المجرودة.. بيع أمك واشترِ بارودة.. والبارودة يوم همك.. تنفعك أحسن من أمك». وأعترف أنني حتى هذا اليوم لا أعرف معنى كلمة «المجرودة»، وإن كنتُ أُرجّح أنّها «المقرودة» باللهجة البدوية، وإن صح هذا التفسير، فلا أعلم لماذا أصرّ صاحب الهتاف أنّنا أبناء قردة.

في التظاهرات تردّد الجماهير الهتافات من دون أن تعي معناها أحيانًا؛ أذكر في مرحلة لاحقة خلال دراستي في لبنان، أنّنا خرجنا في تظاهرة تأييدًا للرئيس صدام حسين عندما قام بتأميم النفط العراقي. وسار على رأس التظاهرة كبار قادة الحركة الوطنية اللبنانية. وقد كانت أحزاب اليسار تغلي في ذلك الوقت وتشهد بروز اتجاهات يسارية جديدة، وتحوّلًا نحو الماركسية بمختلف اتجاهاتها، كما أنّ أفكار الكفاح المسلح والعمل الفدائي وحرب الشعب الطويلة الأمد تقوى وتشتد وتحصد في كل يوم أنصارًا جددًا. لكنّ بعض

الإخوة الذين غادروا أحزاب اليسار وانضموا إلى المنظمات الفدائية، ومن بينهم عدد من الإخوة والأصدقاء الذين ساهموا في تأسيس الكتيبة الطلابية في ما بعد، مثل رياض[14] وسعود المولى[15] وربحي وأدهم، خرجوا يومها بهتاف له جرسٌ موسيقي يقول: «صدام حسين منع الموت الطبيعي.. بدو يغتال كل مناضل شيوعي». وبدأت التظاهرة من أدناها إلى أقصاها تردّد هذا الهتاف وسط ذهول واستغراب منظمي التظاهرة وقادتها.

اندلعت الاشتباكات في مدينة نابلس بين قوى الأمن والمتظاهرين. وسقط قتلى وجرحى. وعُزّزت قوى الأمن بقوات حرس البادية. كما فُرض حظر التجول على المدينة واعتقل العشرات من أبنائها، ونُقلوا إلى معتقل الجفر الصحراوي. وقد كان من بين المعتقلين ابن خالتي الذي كان مسؤولًا عن «حزب البعث» في الضفة الغربية.

بدأت إذاعة **صوت العرب** المصرية بثّ مسلسل إذاعي سمّته «قلبي في نابلس»، يصف الحوادث التي وقعت في المدينة، وقد كانت الإذاعات المصرية مصدر الخبر الأول بالنسبة إلينا. وفي يوم الجمعة يُصغي الآلاف إلى مقالة محمد حسنين هيكل في جريدة **الأهرام** «بصراحة»، أو إلى برنامج أحمد سعيد[16] «حقائق وأكاذيب»، وقد مضت فترةٌ كان الاستماع لهذه الإذاعات جريمة يعاقب عليها بالسجن في الأردن. ومع نهاية أيار/مايو اندلعت التظاهرات مجددًا، لكن هذه المرة تأييدًا للتقارب الأردني - المصري؛ حيث علا هتاف «يا محلا لقاء البطلين عبد الناصر والحسين».

حزيران/يونيو 1967

بدأت الاستعدادات للحرب؛ فوُضع الورق اللاصق على شبابيك المنازل، لمنع تطاير الزجاج وتحوّله شظايا، كما طُليت بمادة زرقاء مستخرجة من

(14) المفوض السياسي للكتيبة لاحقًا.

(15) من كوادر التيار الأولى، أستاذ في علم الاجتماع في الجامعة اللبنانية وكاتب وباحث.

(16) مذيع مصري شهير في إذاعة صوت العرب مثّل رمزًا للدعاية الناصرية قبل حرب 1967.

حجر «النيلة» الذي يُستخدم في غسيل الملابس، لحجب الإنارة الداخلية عن الطيران المعادي. يومها لم تكن أجهزة تحديد الموقع معروفة بعد. سجلتُ اسمي للتدريب على السلاح واستلامه. كما تطوعتُ في الدفاع المدني. وازدانت ذراعي بشارة الإرشاد[17]. وأصبحت المدرسة الصلاحية مقابل بيتنا مركزًا لنا.

اندلعت الحرب، وتجدّد الأمل، والتهبت النفوس. وفجأة تبدّد الحلم وظهرت الحقيقة المرّة؛ احتل الجيش الإسرائيلي سيناء والجولان والضفة الغربية في غضون ستة أيام. ودخلت قاموسنا كلمة «النكسة» التي حلّت بعد رفيقتها النكبة. كان الجيش الصهيوني على أبواب نابلس، حيث قاتلت وحدةٌ من الجيش العربي الأردني ببسالة غرب المدينة في منطقة «عين بيت الما»، كما بقينا نسمع أصوات الرصاص طوال الليل في منطقة الجبل الشمالي مع مجموعة من الشباب المقاوم ببنادقهم القديمة وذخيرتهم المحدودة.

لا أعرف ما الذي دفعني للذهاب إلى المدرسة الصلاحية، مركز الدفاع المدني المفترض. ألم أتطوع في الدفاع المدني لأمارس عملي وقت الحرب؟ هذه هي الحرب قد جاءت إلينا بدلًا من أن نذهب إليها. عددتُ نفسي جنديًا وأنّ هذا مركزي. ولا شك في أنّ من يقودنا ويوجهنا ويرشدنا إلى مهماتنا سيحضر إليه، ولم يكن في هذا المركز المفترض شيءٌ على الإطلاق؛ غرف مدرسية ومقاعد خشبية فحسب. وجدتُ هناك فتاتين أكبر منّي سنًّا من طالبات المدرسة العائشية الثانوية تطوّعتا كمسعفتين، وهما أيضًا اعتقدتا مثلي أنّ واجبهما يحتّم عليهما البقاء في المركز الذي كان مبنى لا غير. لم تكن لدينا قطعة شاش طبي واحدة، ولم يكن هناك سوانا. وبقينا على أمل أنّ الآخرين حتمًا قادمون إلى هذا المركز الذي أنشئ ليتعامل مع هذه الأوضاع.

بدأ بعض جنود الجيش الأردني يتوافد إلى المدرسة ومعهم بدأت الروايات عن تقدم العدو. دفنّا بعض قطع السلاح في الساحة، واستبدل البعض

(17) الإرشاد: من أقسام الدفاع المدني التي تشمل الإسعاف والإنقاذ.

ملابسهم العسكرية بأخرى مدنية أحضروها من البيوت المجاورة. كان من السهل عليّ أن أذهب إلى منزلي القريب. ولكن كان لديّ ولدى الفتاتين شعورٌ بأنّ هذا هو موقعنا، وقد يكون لدينا ما نفعله في هذه المعركة. فقضينا ليلتنا في المدرسة ومعنا بعض الجنود الذين غادرونا صباح اليوم التالي بعد أن توقفت أصوات الطلقات المتناثرة.

ظُهرًا جاءت سيارة مدنية يقودها شاويش ومعه أحد الضباط اليهود. تحدّث الشاويش بلهجة مصرية سليمة. وطلب منّا إرشاده إلى إحدى المدارس غرب المدينة. ويبدو أنّ مهمته كانت تأمين الإيواء للقوات الإسرائيلية المتمركزة في نابلس. لا أعلم كيف تجرأتُ على الرغم من صغر سني أن أشترط إيصال الفتاتين إلى منزليهما. فركبنا ثلاثتنا في المقعد الخلفي للسيارة، حيث كان الخوف والتوتر باديَين على الفتاتين على الرغم من شجاعتهما. وصلنا إلى منزل الفتاة الأولى وهي من آل رينو في شارع الأمير فيصل قرب المقبرة، حيث وجدنا المنزل محترقًا ومهجورًا، فقالت إنّ لها عمًّا يعمل طبيبًا في المستشفى الحكومي، فأوصلناها إلى هناك، وزال بعض قلقنا. وصلنا إلى المدرسة وعدنا لإيصال الفتاة الثانية، وهي من آل الحنبلي، وكانت تقطن بالقرب من منزلي.

استمر فرض حظر التجول على المدينة أيامًا، تقرّر تفتيش منازلها بعدها. دخل الجنود بنايتنا في الصباح الباكر. فتّشوا الطبقة الأرضية. واقتادوا سكانه من آل قرمان إلى شقتنا. ثمّ فتشوا منزلنا. واقتادونا إلى الأعلى، إلى منزل آل السيد. لا أعرف لِمَ التفتيش عن السلاح والضفة الغربية بأسرها كانت خالية منه حينها. وضعونا في الصالة الرئيسة. وانتشروا للبحث في الغرف. كان عباس ابن جيراننا في الحمام بين الصالة وغرف النوم. فخرج بسبب أصوات الجنود مرتديًا ملابس النوم، يحاول فهم ما يجري. فأطلق عليه أحد الجنود صليّةً من رشاشه. ركض باتجاهنا والدماء تسيل منه، والجندي مستمر بإطلاق النار عليه، فسقط أرضًا أمامنا. ثمّ حمله الجنود إلى المستشفى الحكومي مصابًا بعدة طلقات في بطنه. كان هذا أول درس لي عن معنى الاحتلال.

جثم الاحتلال على صدر المدينة. جاء خالي أبو الخير ليودعنا. كان قد

اتفق مع مجموعة على عبور النهر؛ حيث سيذهب إلى عمّان لإحضار ابن شقيقه غسان الذي كان مجندًا في الجيش الأردني. حالف الحظ خالي ومجموعته، فعاد سالمًا، لكنّ العشرات استشهدوا على النهر. كان من بين الذين استشهدوا والد بائع الهيطلية[18] الذي يقف بعربته على زاوية مكتبتنا. كانت العربة مصدر دخل العائلة. وستمضي أيام طويلة حتى يُحضر الجثمان ويُدفن ويُقبل العزاء. اتفقتُ مع صاحب العربة أن يحضرها صباحًا وأتولى البيع نيابة عنه. وبجوار عربته أقمتُ في ما بعد ركنًا صغيرًا أبيع فيه البطاقات البريدية وبعض الهدايا لعلّي أساهم في بعض نفقات المنزل بعد أن توقّف وصول مصروفنا الذي كان يأتي من الخارج. في هذه الأيام تعرّفت إلى «فتح».

فتح

كان طولي يوحي بأنّ عمري أكبر من حقيقته بكثير؛ إذ كان طولي 200 سنتمتر في حين كان عمري لا يتجاوز الخمسة عشر عامًا. اتصل بي أحد الإخوة عارضًا عليّ الانضمام إلى «فتح»، ولم أكن حينها أعرف ما هي، ولم يكن يهمني أن أعرف تفصيلاتها، فكلّ ما أثار اهتمامي أنّها حركة مقاومة للاحتلال. كان هذا وحده كافيًا للإجابة عن أسئلتي، ولم أكن مهتمًا بسواه. وكان هاجسي أن أتأكد فعلًا أنّني مع المقاومة وفي صفوفها. فطلبتُ إثباتًا لذلك. في اللقاء الثاني كان معاوية يحمل مسدسًا. ويبدو أنّ هذا وحده كان كفيلًا بإقناعي.

كانت مهمتنا تتمثّل بالبحث عن السلاح والذخيرة من مخلفات الجيش الأردني. فأرشدتهم إلى ما سبق لنا دفنه في ساحة المدرسة، وذهبتُ إلى قرية لأقاربي حيث كانت دبابات الجيش الأردني مرابطة في أحد كروم الزيتون. بحثتُ بين الدبابات المحترقة بقذائف النابالم[19]. لكنّ النار قد أحرقت كل شيء، أو ربما أحدٌ ما قد سبقنا وجمع ما يمكن جمعه من مخلفات المعركة. وخرجنا في عدة طلعاتٍ على الدراجات الهوائية، لتحديد أماكن قد تكون

(18) الهيطلية: حلوى من الحليب والنشا يضاف إليها العسل وماء الورد.
(19) قذائف حارقة محرمة دوليًا استخدمها الطيران الإسرائيلي بكثافة في حرب 1967.

ملائمة لاستلام بعض الذخائر أو تسليمها. وبعد سنوات عرفتُ أنّه يُطلق على هذه الأماكن اسم النقاط الميّتة، وهي التي يُوضع فيها السلاح لخلايا المقاومة من دون الكشف عن هويتها. لم أتلقَ أي تدريب، إذ قالوا لنا إنّ هذا سيكون بعد اللقاء مع «الدكتور». بعد سنين عرفتُ أنّ الدكتور هو ياسر عرفات. لكنّي لم ألتقِ به في تلك المرحلة.

قرّرت عائلتي ضرورة خروجي ووالدتي إلى الأردن، بعد أن انقطعت مواردنا المالية، ولم يكن هناك أي إمكان للاعتراض الجدي؛ فأنا ما زلتُ طفلًا صغيرًا في نظرهم. وفي يوم الخروج، ومن نافذة الحافلة التي أقلّتنا إلى الجسر المقام على نهر الأردن، لمحتُ معاوية على دراجته الهوائية باتجاه منطقة الباذان، حيث يُفترض أن يتسلّم قطعة سلاح من إحدى النقاط التي سبق أن استطلعناها معًا. كان وحيدًا. لوّحتُ له، لكنّه لم يشاهدني. ومن عيني سالت دمعة.



الفصل الثاني

إربد 1968

في إربد، عروس الشمال الأردني، حطّت بنا الرحال. سكنتُ ووالدتي في منزل قريب من منزل أخي الذي استقر فيها بعد عودته من الكويت، وأقام صيدليته في الشونة الشمالية بالقرب من نهر الأردن. والتحقتُ بمدرستها الثانوية في الفترة المسائية التي استحدثتها الحكومة الأردنية لاستيعاب الطلاب النازحين من الضفة الغربية.

فور وصولي إلى إربد، جدّدتُ علاقتي بحركة فتح؛ فكان عملنا بداية يقتصر على جمع التبرعات وتجنيد الأعضاء الجدد. وفي هذه الفترة تعرّفتُ إلى الأخ هاني الحسن (أبو طارق)[1] الذي جاء إلى إربد مندوبًا عن القيادة. كنتُ أخرج من المدرسة مساءً، فأمرّ لاصطحاب أبو طارق من عيادة طبيب أسنان صديق له من أيام دراسته في ألمانيا، وسط المدينة، ونمضي مشيًا على الأقدام، نصف ساعة أو أكثر قليلًا إلى بيتنا في شارع حكما حاملًا حقيبتي المدرسية، بينما يحمل هو حقيبة ملأى بالنشرات الحركيّة ومواد التثقيف.

في ذلك الوقت لم يكن لدى هاني الحسن سيارة، وكان هذا اللقاء يتكرر مرات عدة في الأسبوع للاجتماع بالخلايا التي كنّا قد أنشأناها. في هذه الجلسات شرح لنا أبو طارق نشرات «فتح» الأولى مثل «بيان حركتنا»، و«لماذا أنا فتح»، و«الطلائع الثورية»، وقد كان الحسن يقضي معنا ساعات طوالًا، مع أنّ أعمارنا راوحت بين اثني عشر عامًا وثمانية عشر عامًا. تميّز الأخ هاني بلكنة خاصة في صوته، ربما بحكم هجرتهم من حيفا إلى الشام، إذ كان يمدّ بعض الأحرف، ما كان يجعلني أبتسم قليلًا. ولأنّه كان دائم التركيز على أنّ جيلنا هو من سيقود الثورة، فقد كان يعتقد أنّ ابتسامتي مرجعها عدم تصديق قوله هذا،

---

(1) من مؤسسي حركة فتح هو وأخواه خالد (أبو السعيد) وعلي (أبو أيمن)، أصبح لاحقًا عضوًا في اللجنة المركزية، توفي في عمّان في عام 2012.

فيعود مجددًا للتأكيد قائلًا: «أخونا كفاح – اسمي الحركي الذي لم أستخدمه أبدًا نظرًا لطولي المفرط الذي يستحيل معه إخفاء شخصيتي الحقيقية – لسّا مش مقتنع أنكم قادة الثورة». كانت تلك أيام النقاء والطهر الثوري.

تُذكّرني لهجة أبو طارق بلهجة أخي ورفيق دربي علي أبو طوق[2]؛ كنتُ وعلي معًا منذ البداية في إربد، ولكنّه كان يدرس في الفترة الصباحية، بينما أدرس أنا في الفترة المسائية. وفي أحد الأيام قرّرنا أن نُخرج المدرسة في تظاهرة احتجاجًا على زيارة جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية الأميركي إلى المنطقة. فأخرجنا الطلاب إلى الساحة بسهولة، ولم يكن لدينا من يتولى ترديد الهتافات. فحملت علي على كتفيّ. سألني ماذا يقول. قلت له: قل: «سيسكو سيسكو شو بدك منا ... خذ مشاريعك وارحل عنا»، ولم ألتفت حينها إلى لهجته الشامية الناجمة عن ولادته ونشأته في حمص. فبدأ يردد الهتاف الذي فقد عبر مدّ الأحرف أيّ وزن موسيقي أو إيقاع لازم. ضجّ الطلاب بالضحك وانصرف كلٌ إلى منزله. ومنذ ذلك اليوم أطلقنا على علي لقب «سيسكو».

ما بعد معركة الكرامة

في معركة الكرامة[3] ذهبتُ مع عدد من الإخوة نحوها في سيارة «بيك أب». توقفنا في منطقة وادي اليابس عند قاعدة للفدائيين يقودها الأخ نصر يوسف[4]. كان معنا بضع بنادق شمايزر وستن[5]. وأحضر لنا نصر ذخيرة من

(2) (شهيد)، ولد في حمص عام 1951 لعائلة حيفاوية، من مؤسسي الكتيبة الطلابية وقادتها، استشهد في مخيم شاتيلا في عام 1987 خلال حرب المخيمات، ولا يزال أبناء شاتيلا يتناقلون قصصًا وأساطير عن الشهيد عنه.

(3) معركة خاضها الفدائيون والجيش العربي الأردني في 21 آذار/ مارس 1968، وتعدّ أول انتصار عربي بعد هزيمة حزيران/ يونيو 1967، وقد شهدت فتح والمقاومة عمومًا نموًا كبيرًا بعد هذه المعركة.

(4) (فريق)، من مؤسسي حركة فتح وقادتها العسكريين، أصبح عضوًا في اللجنة المركزية للحركة في عام 1989، ثمّ قائدًا للأمن الوطني ووزيرًا للداخلية في السلطة الفلسطينية، وهو حاليًا عضو في المجلس الاستشاري للحركة، وهو مجلس يضم بعض القادة السابقين في فتح.

(5) رشاشات قصيرة المدى، الأولى صناعة صينية والثانية إنكليزية، كان استخدامهما شائعًا في الخمسينيات والستينيات.

الجيش الأردني، بقينا هنالك حتى الليل تحسبًا من تطوّر الهجوم، وقد كنّا لا نكاد نجيد فك البنادق وتركيبها. ولا أذكر أنّ أحدًا منّا سبق له أن أطلق رصاصة واحدة.

بعد الكرامة تمدّدت حركة فتح، حتى أصبح الناس من حولنا كلهم فتح؛ زملائي في المدرسة، وجيراني، وأخي الأكبر، وأساتذتي، فقد كان يصعب أن تجد أحدًا عاصر نهاية الستينيات في الأردن ولم تكن له علاقة ما بالثورة، حتى إنّ البعض تندّر في ما بعد في وصف المرحلة وسمّاها تنظيم «الباص»، إذ كان يكفي أن تقف حافلة في ساحة أي مدينة ويصيح سائقها مناديًا الشباب للتوجه إلى الأغوار حتى تمتلئ الحافلة عن آخرها.

نَمت مجموعتنا الطلابية وضمّت عددًا مميّزًا من الإخوة؛ فقد كان معنا موسى عامر (كفاح)[6] وشمس التيني[7] ونضال أبو الهيجا وعلي أبو طوق ونصر سامي[8] وناصر قشوع[9] وطلال الصالح[10] وسمير عويس[11] وصالح شعواطة[12] ومحمود البدر[13]. كما ضمّت عددًا كبيرًا من الأخوات مثل آمنة الخطيب[14] التي رئست اتحاد طلبة الضفتين، وماركو وليندا وأمل

(6) من مواليد دورا الخليل وقادة التنظيم الطلابي في شمال الأردن، أصبح عضوًا في لجنة شؤون الأردن بعد عام 1970، عمل لاحقًا سفيرًا في البرازيل ومن ثم في إسبانيا.

(7) من قرية شويكة قرب طولكرم، كان ضمن الخلية الطلابية الأولى في شمال الأردن، انضم لاحقًا إلى ناجي علوش بانضمامه إلى فتح (المجلس الثوري)، الذي كان يقوده صبري البنا (أبو نضال) قبل أن ينفصلا عنه ويؤسسا «حركة التحرير الشعبية العربية»، توفي في إربد في عام 2010.

(8) من الخلية الطلابية الأولى في شمال الأردن، عمل لاحقًا في الإدارة المالية، وهو الآن متقاعد ومقيم في رام الله.

(9) (شهيد)، التحق لاحقًا بالقوات، وأنجز دورة صاعقة وضفادع بشرية، وأصبح ضابطًا في القوة الخاصة. استشهد في بيروت.

(10) ضابط متقاعد في القوة البحرية، مقيم في الضفة الغربية.

(11) مهندس زراعي، نائب سابق في البرلمان الأردني عن دائرة إربد.

(12) مناضل فتحاوي، سُجن فترات طويلة في الأردن، انتخب نائبًا عن إربد في إحدى دورات البرلمان الأردني.

(13) عمل في الإدارة المالية بعد عام 1970. متقاعد ومقيم في رام الله.

(14) عملت في الهلال الأحمر الفلسطيني بعد تخرجها من الاتحاد السوفياتي، طبيبة اختصاص في الولايات المتحدة حاليًا.

ودمية وعشرات غيرهم وغيرهن، حتى إنّ تعداد التنظيم الطلابي المسلّح بلغ أربعمئة طالب وطالبة في عام 1970. وقد كان أغلبنا طلابًا في المرحلة الإعدادية والثانوية؛ أي إنّ أعمارنا كانت تقل عن ثمانية عشر عامًا، باستثناء مجموعة معهد المعلمين في حوارة التي كان يقود شعبتها موسى عامر. ولعلّ اللافت في الأمر هو الدور المميّز للطالبات في تلك الفترة المبكرة، إذ كان ثمّة ثلاثة اتحادات للطلاب، رئست طالبتان اثنين منها، وهما آمنة الخطيب وسهير التل[15] التي كانت رئيسة الاتحاد الوطني لطلبة الأردن، هذا فضلًا عن مشاركتهن الفاعلة في كل نشاط، بما فيها العسكري. كان التنظيم الطلابي متميزًا في ثقافته والتزامه.

ذكّرني أخي الشاعر زياد أبو الهيجا وهو أصغر منّي سنًّا بمشاجرة نشبت مع زميل له في مقر اتحاد طلبة الضفتين. وتصادف حضوري. فأعطيته ورقة حملها بيده بعد أن قرأها ومضى بها بكل التزام ووعي إلى معسكر الأشبال في منطقة حنينا بالقرب من مخيم إربد ليقضي فيه عقوبة بالسجن داخل المعسكر.

دُرّب الطلاب والطالبات في دورات متعددة، وسُلّح معظمهم. وشارك الجميع في مناوبات حراسة المدينة، خصوصًا بعد أن بدأت تتعرض لقصف مدفعي على فترات، هو رد صهيوني على العمليات الفدائية عبر نهر الأردن، ومساندة مدفعية الجيش الأردني لهم. وأقامت البلدية بعض الملاجئ العامة. لكن، بنى كل منزل ملجأه الخاص في حديقته أو في داخله. صمدت إربد. ولم ينجح العدو في إجبار أهلها على النزوح كما حدث في مناطق واسعة في الأغوار، ومنها الشونة حيث أصابت عدة قذائف المبنى الذي فيه صيدلية أخي، ما اضطره بعد نزوح سكانها إلى نقلها من الحدود مع فلسطين إلى الرمثا حيث الحدود مع سورية.

في تلك المرحلة اكتشفتُ أنّ لدي قدرة لا بأس بها على الكتابة. وفي

(15) كاتبة وصحافية يسارية في الأردن.

عيد الأم من ذلك العام طلب منّا أستاذ اللغة العربية أن نكتب في مادة التعبير اللغوي موضوعًا عن الأم. فكتبتُ موضوعًا أصوّر فيه إصابة أمي بقذيفة صهيونية قبل وصولها إلى الملجأ بأمتار. وسردت كلماتها الأخيرة لي وهي توصيني بأنّ أمي الحقيقية هي فلسطين. ولوهلة اعتقد الأستاذ أنّها قصة حقيقية وبدأ في مواساتي. هذه البدايات الأدبية وما رافقها بعد ذلك من محاولات شعرية خجولة لم يُكتب لها أن تستمر طويلًا بفعل تطورات الحرب في لبنان وانغماسي فيها، وعلى الرغم من الشكل الجاد الذي كان يفرضه علي واجبي ومسؤولياتي منذ أيام دراستي الثانوية، كنتُ أشعر دائمًا أنّ في داخلي طفلًا صغيرًا - شأننا جميعًا - يتوق إلى الحب والشعر والجمال والحرية.

للشعر معي قصة لا تخلو من طرافة؛ إذ في بداية السبعينيات استمر الميل الذي في نفسي نحو الأدب، فكتبتُ قصصًا قصيرة من وحي المقاومة، نُشر بعضها في مجلة **جبل الزيتون** التي كان يصدرها اتحاد طلاب فلسطين. كما حاولتُ أن أكتب الشعر حتى أصبح في جعبتي بعض الدفاتر التي كنتُ أسميها على سبيل المجاز شعرًا. لكن ذات يوم أضحت هذه الدفاتر وقودًا لحمام ماء ساخن. واختفى منذ ذلك اليوم شيطان الشعر من داخلي، وحلّ مكانه تذوّق ما يكتبه المبدعون الأصلاء والانتشاء به.

لعلّ سبب ذلك - إضافةً إلى ضعف ما كنتُ أكتبه - يكمن في الصدمة التي أصابتني وقتها عندما ازداد التصاقي بعدد من الأصدقاء الشعراء، مع الاعتذار إليهم جميعًا ولغيرهم أيضًا، وهي صدمة توازي الفرق بين التحليق عاليًا في سماء بعيدة، والارتطام مرة واحدة بالأرض؛ فقد كنّا نجلس نخبة من الطلاب الثوريين، نستمع إلى قصائد جمح الخيال بصاحبها وسحبنا معه عبر فضاءات متعددة نرى فيها تباشير غدٍ آتٍ، ونخال تأثيرها مثل نبوءة تتحقق، نعتقد أنّ قائلها هو صاحب العصر والزمان، ونبيّ الثورة المنتظر. لكن عندما تزول الحواجز كلها بيننا نحن وأصدقائنا الشعراء، وتهبط النفس الإنسانية إلى الأرض من عليائها لتعيش حياتها كالبشر، تأكل وتشرب وتتنفس وتحب وتكره،

نكتشف أنّه إنسان مثلنا له الملامح ذاتها والخصال البشرية نفسها تنقص أو تزيد، يخطئ ويصيب، له ما له، لكن عليه الكثير. اعتقدتُ يومها أنّ ثمّة مسافة كبيرة تفصل بين الشعر الجميل وقائله. لم أميّز أنّ شخوص الشاعر في قصيدته غير شخصه. لم أحتمل ذلك في حينه. فآثرتُ الابتعاد والتوجه نحو ممارسات عملية، لعلّي ورفاقي نستطيع أن نفعل بيدنا ما تصبو إليه القصائد. ولعلّ من حسن طالع الشعر العربي أنّه لم يُبتلَ بشاعر مثلي.

في ذلك الزمان، كانت الثورة حلم جيلنا، وكانت القصيدة تسبق الثورة وحلمها، وكان الحلم يتجاوز سلبيات اليقظة ليبقى حلمًا جميلًا وأملًا دائمًا ماثلًا أمامنا. أمّا الخيال فكان ملهمنا للتغيّر نحو الأجمل؛ نحو مدينتنا الفاضلة التي نسعى إليها كلٌّ بحسب رأيه ومعتقده. لكنّ الثورة في نظرنا كانت كفيلة بأن تضع هذا كله في بوتقتها لتصنع منه غدًا أفضل. وفي ذلك الزمان لم يكن الشعراء وحدهم هم الذين يجمح بهم الخيال. كلّا، في حقيقة الأمر كنّا كلنا شعراء نحلم بعالم أجمل، السياسي والطالب والكاتب والعامل والمقاتل والمرأة، وصارت القصيدة قلمًا وكتابًا وبندقية ولوحة وجمالًا، وتطلعًا نحو التحرر والمساواة والعدالة، كما أنّ الحب، وهو ما فُطر عليه الإنسان منذ بدء الخلق، كان مختلفًا، فالرومانسية أمست ثورية، وبلغ الحب قمّة تعبيراته في لوحة عروسين على الحدود لإسماعيل شموط، امتلأت بها بيوت العاشقين.

مع مرور الأيام ما عاد الخيال حكرًا على الشعراء والثوار؛ فقد نمت بذور الطائفية والمذهبية والاستبداد، وكادت أن تقتل كل حلم ما زال متجذرًا فينا. أمّا أولو الأمر فقد أصبح خيالهم جامحًا، حيث صار يحاسب على نيات الرعية وأحلامها التي قد تطرأ ولو بعد حين. واختلطت معاني استشراف المستقبل مع قتل أي طموح بالخلاص والحرية. وأصبح رنين الدراهم أقوى من صوت بقايا القصائد، وعذابات السجون أبلغ وأقوى تأثيرًا. وأتذكر اليوم أصدقائي الشعراء، وأرثي حال شعراء اليوم. وأتساءل أي شعر سيُكتب في عصر الخليفة والقوات الحليفة غير شعر الرثاء والبكاء على أطلال هجرها روادها منذ أن ابتعدوا عن القدس وفلسطين، أم ترى ما زال هناك فسحة من أمل وحلم آتٍ لغدٍ لم يولد بعد.

في إربد كنتُ أقضي أغلب وقتي بين العمل التنظيمي أو اتحاد الطلبة أو معسكرات الأشبال في حنينا ومخيم الحصن. وقد أتاح لي وجودي مع والدتي فقط هذا القدر من الحرية بما فيها قضاء أيام خارج المنزل في هذا المعسكر أو تلك القاعدة. كما أتاح اختلاطنا بمن هم أكبر منّا سنًّا في العمل التنظيمي اكتساب خبرات وثقافة ما كان يمكن لمن هو في عمرنا أن يكتسبها. وقد كنتُ حينها عضوًا في اللجنة الثقافية لمنطقة الشمال. فكان هذا يفرض عليّ قراءة الموضوعات والكتب الثورية وتلخيصها والمساهمة في نقاشها مع نخبة من المثقفين من الأكاديميين والأساتذة ومسؤولي التنظيم، على أنّ ثمّة شخصًا أثار اهتمامي وأدين له بالكثير، هو تيسير أبو كاملة. كان تيسير أمينًا لسر إحدى الشعب التنظيمية في إربد. ومع أنّ عمله كان مصلّحًا للدراجات الهوائية صيفًا وللصوبات شتاءً، فقد كان مثقفًا واسع الاطلاع؛ ذلك أنّه كان عضوًا سابقًا في الحزب السوري القومي، وقد تعلّم وتثقف تعلمًا ذاتيًا؛ إذ كان قادرًا على قيادة شعبته بكفاءة عالية. وقد حدّثني مرة عن جنازة زوج عمتي مصطفى ارشيد الذي كان رئيسًا للحزب السوري القومي إبان انتساب تيسير له، وكيف تلقّى أمرًا بالجلوس فوق ما اشتبه بأنّه عبوة متفجرة حتى مرور الجنازة بسلام. كان أبو كاملة يستلهم الثقافة والخبرة الشعبية ويجيّرهما في العمل التنظيمي والثوري.

على الرغم من كل ما كان في الثورة من إيجابيات، فالأمور لم تكن كلها ورديّة اللون، كما أنّ الثورة عندما تمتزج بالواقع تفقد جزءًا من مثاليتها؛ فمثلًا لم تتمكن الثورة من فهم تركيبة المجتمع في الأردن، وطبيعة العلاقات والمصالح والقوى الفاعلة والكامنة فيه، كما لم تتمكن من استيعاب عشرات الآلاف من الذين انضموا إليها، ولم تتمكن قطعًا من إعادة صوغهم وتربيتهم على مبادئها وقيمها، فحملوا إليها عددًا من الأمراض السائدة في المجتمع، وأصبحت توسم ممارساتهم بأنّها جزء من سلوكها، ما أدّى إلى مظاهر وسلوك لا يمتُّ لمبادئ الثورة بصلة. عاشت إربد أكثر من أسبوع على صوت إطلاق رصاص كان يمتد حتى الفجر، أمّا المناسبة فكانت عرسًا لأحد ضباط «فتح» يُدعى سعد أبو القناني. وقد ذكر الملك حسين هذه الحادثة في معرض انتقاداته المقاومة.

استغلّت قوى الثورة المضادة ذلك. وبالغت فيه. وساهمت في صنع جزء منه. كما استفادت من الانحرافات ذات النزعة الطفولية اليسارية وبعض السياسات والممارسات والشعارات الخاطئة؛ مثل: «كل السلطة للمقاومة»[16]، لتمرير مخططها في الاصطدام مع الثورة، وضربها وإخراجها من الأردن. بإيجاز لقد فشلت الثورة الفلسطينية في فهم بنية المجتمع الأردني وفي التعامل معه، فخسرت نتيجة ذلك جزءًا كبيرًا من التعاطف الذي حظيت به بعد حرب 1967.

أيلول/ سبتمبر 1970

بدأت بوادر أيلول[17] المؤسفة تطلّ، إذ فقدت الثورة قواعدها في القرى وانحسرت إلى المدن والمخيمات، واختفى قائد القطاع الشمالي[18] في إربد، وتولّى نائبه الشاعر خالد أبو خالد[19] قيادة «مليشيا فتح» التي عزّزها بمجموعة من الوحدات العسكرية التي لجأت إلى المدينة، فقد عيّنَ أبو خالد ثمانية أو عشرة نواب له، كنتُ أحدهم وأنا لم أبلغ الثامنة عشرة بعد، فهو يرى أنّ عليه الاحتفاظ بالطلاب قوة ضاربة. كان أبو خالد مفعمًا بالروح الثورية المشوبة بمثالية عالية، وحسٍ شاعري مرهف، لكنّه كان صلبًا كوالده الذي كان أحد قادة ثورة عام 1936، وخلال هذه الحوادث ولد ديوانه المعروف **وسام على صدر المليشيا**[20].

لم يحدث شيء يُذكر في إربد حينها، إذ دخلت القوات السورية وقوات من جيش التحرير الفلسطيني الأراضي الأردنية واشتبكت مع اللواء الأربعين

(16) شعار رفعته الجبهة الديمقراطية.

(17) هو الاسم الذي يشار به إلى حوادث أيلول/ سبتمبر 1970 الذي يطلق عليه أفراد الحركات السياسية الفلسطينية اسم «أيلول الأسود»؛ إذ دارت اشتباكات عنيفة بين فصائل المقاومة والجيش الأردني.

(18) معاذ العابدي (أبو سامي)، من مؤسسي حركة فتح (خلية قطر)، ما عاد له أي دور بعد عام 1971.

(19) كان مذيعًا في التلفزيون الكويتي قبل أن ينضم إلى حركة فتح 1967، غادر القوات وعاد إلى الإعلام بعد عام 1970، ويقيم حاليًا في دمشق، له عدد من الدواوين الشعرية.

(20) خالد أبو خالد، ديوان **وسام على صدر الميليشيا** (شعر) (بيروت: دار الآداب، 1971).

في الجيش الأردني، ووصلت طلائعها إلى أطراف المدينة ثمّ انسحبت بعد تحليق الطيران الصهيوني فوقها، وقد اقتصر عملنا على الحراسة والأمن وتقديم الخدمات الاجتماعية. لقد حافظ خالد أبو خالد على تماسك قوات المليشيا وثباتها حتى النهاية. وأذكر أنّ على الرغم من الاشتباكات المؤسفة في أيلول، والحزن الذي خيّم على مدينة إربد، فالرايات السوداء رفرفت بعفوية فوق السطوح كلها حزنًا على وفاة جمال عبد الناصر.

قبل اندلاع الاشتباكات المسلحة، في حزيران/ يونيو من العام نفسه، كان الرئيس عبد الناصر قد وافق على مشروع روجرز[21]، كان بحاجة إلى الوقت ليقوم بتركيب جدار الصواريخ المضادة للطائرات، والدفاع عن العمق المصري ضد الغارات الجوية الإسرائيلية. لم يطلب عبد الناصر من منظمة التحرير الموافقة على المشروع، وأيّد حقها في رفضه، لكنّ ردة الفعل الفلسطينية كانت عنيفة؛ إذ انتقدت الفصائل، بما فيها «فتح»، عبد الناصر بشدة، وقامت بتسيير تظاهرات حاشدة ضده، كما سيطرت على مكاتب منظمتين صغيرتين أيّدتا مصر، وهما منظمة فلسطين العربية بزعامة أحمد زعرور[22]، والهيئة العاملة لتحرير فلسطين التي كان يتزعمها عصام السرطاوي[23]. خلّفت هذه الحوادث آثارًا مؤسفة على علاقة الثورة بمصر، وعزّزت قدرة القوى المضادة لها على ضربها، وجعلت الثورة الفلسطينية مكشوفة الظهر عند اندلاع معارك أيلول. بعد ذلك بادر عبد الناصر إلى الدعوة لعقد قمة عربية في القاهرة في محاولة لوقف الاشتباكات بين الجيش

(21) مشروع روجرز: مبادرة قدمتها الولايات المتحدة الأميركية في آب/ أغسطس 1970 ونسبت إلى وزير خارجيتها وليام روجرز، تتضمن وقفًا لإطلاق النار وبنودًا لحل الصراع العربي – الإسرائيلي، وقبلتها مصر والأردن ورفضتها منظمة التحرير.

(22) ضابط قومي سابق في الجيش الأردني، أسس منظمة فلسطين العربية التي انشقت عن الجبهة الشعبية القيادة العامة.

(23) أسس «الهيئة العاملة لتحرير فلسطين» قبل أن ينضم إلى حركة فتح، كان من كبار المسؤولين عن فتح قنوات للحوار مع اليهود والصهيونيين، اغتيل على يد مجموعات أبو نضال في لشبونة في البرتغال في 10 نيسان/ أبريل 1983 في أثناء حضوره مؤتمر الاشتراكية الدولية، ولم يلتفت القاتل إلى شمعون بيريز الذي كان يقف على بعد أمتار منه.

الأردني والثورة، وما إن انتهت الاجتماعات حتى خرّ صريعًا، وأعاد الحزن عليه توحيد المدينة.

أسفرت حوادث أيلول وما تلاها عن فقدان الثورة الفلسطينية قاعدتها الارتكازية الأساسية في الأردن، ومثّل ذلك خسارة استراتيجية كبيرة لمشروع المقاومة، كما ستؤدي لاحقًا إلى تغيّرات عميقة في بنية النظام الأردني والعلاقات المجتمعية في الأردن.

لم أتمكّن من ارتياد كلية الهندسة في الجامعة الأميركية في القاهرة بعد حصولي على القبول فيها في عام 1971؛ بسبب منعي من دخول مصر، فقد كانت ثمّة إجراءات مصرية تمنع الشباب الفلسطيني من الدخول. وبسذاجة شديدة كتبتُ رسالة إلى مدير أمن المطار أستغرب فيها منع مناضل مثلي من دخول بلد عبد الناصر. وكانت نتيجة احتجاجي أن ذهب الضابط ولم يعد.

بالنسبة إليّ كان منعي من الدخول يمثّل فرحًا وصدمة في الوقت ذاته؛ فرحًا لرغبتي في العودة إلى دمشق وبيروت للالتحاق بالثورة، وصدمة إذ كيف يُمنع ثائر مثلي من دخول مصر التي نشأ وتربّى فيها؟ قضيتُ ليالٍ عدة في غرفة للترحيل في مطار القاهرة أظنّ أنّها لا تزال قائمة حتى اليوم، ويعرفها الآلاف من الذين مُنعوا من دخول القاهرة في فترات متفاوتة، وكان أن عدتُ إلى دمشق ومن ثمّ إلى بيروت لأتفرّغ نهائيًا للعمل الثوري، حيث انتصرت إرادتي على إرادة الأهل هذه المرة.



الفصل الثالث

لبنان 1973

طلقات عابرة

استشهد فايز... هكذا تطاير الخبر إلينا.

كان فايز صديقًا لنا، لم ينتمِ إلى أي من التنظيمات أو الفصائل. كان طالبًا مجتهدًا من غزة في جامعة بيروت العربية. كرّس وقته للدراسة، وعاش حياته طالبًا فيها بما لها وما عليها.

في بيروت أقام عند عجوز لبنانية أطلقنا عليها اسم «الحاجة»، في بناية الدامرجي، تلك البناية التي أصبحت في ما بعد مقرًا للرئيس ياسر عرفات. لم يهتم فايز يومًا بالسياسة، فقد كانت مشاغله واهتماماته مختلفة عنّا وعن جيلنا. كان يهتم بملابسه وتسريحة شعره ونظافة حذائه ورائحة عطره. وتحسبه كل مرة تراه فيها ذاهبًا للقاء حبيبته. لكن اختلافه هذا لم يمنع أن تنمو بيننا صداقة عميقة.

غادر فايز ساحة الجامعة مهرولًا إلى منزله الذي يبعد أمتارًا عن الجامعة، بعد أن سمع وزملاؤه أصوات طلقات الرصاص منطلقة من مستديرة الكولا والمدينة الرياضية باتجاه طريق الجديدة والفاكهاني، وكان يحمل كتبه بين يديه حين عاجلته رصاصة عابرة من إحدى مدرعات الجيش اللبناني، فسقط مخضبًا بدمائه على باب الجامعة.

الرصاص لا يستوقفك. إنّه لا يسألك عن هوية، أو يدقق في انتمائك وميولك. ولا يميّز ملابسك أو رائحة عطرك. إنّه لا يحيد عنك إذا كنت ذاهبًا إلى البيت، أو متمترسًا في خندق. هو لا يفعل ذلك أكنت جبانًا أم شجاعًا، رجلًا أم

امرأة أم طفلًا. هو لا يحاورك. ولا يستمع إليك. بل يسعى لأن يخترقك محاولًا أن يستقر في بقعة من جسدك، لتكمل طلقة بندقية أخرى، أو صلية رشاش آخر، أو قذيفة مدفع آخر، ما بدأته رفيقتها مع سواك.

قبل ذلك بشهر، كنتُ مع فايز جنبًا إلى جنب، ومع نحو نصف مليون مواطن لبناني وفلسطيني، نسير في تشييع جنازة الشهداء القادة كمال عدوان[1] وكمال ناصر[2] وأبو يوسف النجار[3] الذين قتلتهم القوات الإسرائيلية في عملية كوماندوز في حي فردان في بيروت[4]، وقد خرج لبنان يومها في جنازتهم بجميع أحزابه وقادته وطوائفه. لم يتخلف أحد عن الحضور، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.

لقد كان ذلك اليوم عرسًا لبنانيًا فلسطينيًا بحق. ولأنّ البعض لم يرُق له هذا العرس، وخشي من تأثيراته، وخاف من اتساع الثورة ونموها وامتدادها، فقد تحركت وحدات من الجيش اللبناني لحصار المخيمات ومحاولة اقتحامها والسيطرة عليها. وكان فايز الحسيني أول الشهداء.

تقدّمت آليات الجيش اللبناني من مستديرة الكولا باتجاه جامعة بيروت العربية، وهي تطلق نيرانًا غزيرة على كل ما يتحرّك. وفجأةً دوى صوت انفجار كبير، هدأ بعده كل شيء. وتوقّف التقدّم. وتراجعت آليات الجيش باتجاه المدينة الرياضية واليونسكو. من أين جاء غيفارا[5] وأبو حسن قاسم في تلك اللحظة؟ من أيّ سماء هبطا؟ لقد حسمت قذيفة آر بي جي واحدة أطلقها غيفارا بحماية أبو حسن الاشتباك. وتوقف كل شيء.

(1) (شهيد)، من مؤسسي حركة فتح وعضو لجنتها المركزية، كان مسؤولًا عن جهاز الأرض المحتلة، استشهد في بيروت 10/ 4/ 1973.

(2) (شهيد)، عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وكان مسؤولًا عن الإعلام.

(3) (شهيد)، محمد يوسف النجار من مؤسسي حركة فتح، وعضو اللجنة المركزية فيها، كان مسؤولًا عن الأمن في الساحة اللبنانية.

(4) عملية فردان 10 نيسان/ أبريل 1973، ويقال إنّ إيهود باراك كان قائدًا لها وكان متنكرًا في لباس امرأة.

(5) ضابط فلسطيني عمل مدربًا في القطاع الغربي لجنة 77، من أصول إيرانية.

غيفارا مقاتل فلسطيني من أصول سورية إيرانية، قصير القامة إلى درجة أنّ الجميع كان يتندر إذا سرنا أنا وهو معًا. كان غيفارا مدربًا محترفًا، وخبيرًا متمرسًا بالمتفجرات، يعود إليه الفضل الأول هو وعدنان أبو جابر[6] في تدريب طلائع الطلاب الأولى.

أمّا أبو حسن قاسم (محمد بحيص) المناضل الصلب ذو القسمات الحادة، فقد اختاره كمال عدوان ليكون ضابطًا لعمليات القطاع الغربي[7]. أقلّ ما يُقال عنه إنّه القائد الفعلي للتيار الذي عُرف لاحقًا باسم الكتيبة الطلابية. لكنّه كان أوسع مدًى وأكثر تأثيرًا. وامتد من الطلاب في بيروت إلى جنوب لبنان والأقاليم المختلفة. وضرب فأوجع في عمق الأرض المحتلة. هل كان أبو حسن قاسم يَعرف أنّه حين أطلق مع غيفارا تلك القذيفة لم يوقف الهجوم فحسب، وإنّما أطلق شرارة البدء لتأليف تيار واسع سيكون قائده الأول؟

محور الكولا – الجامعة العربية

هرعنا، نحن مجموعات من طلاب الجامعة، وبعض العاملين في مكاتب الإعلام، وبعض المرافقين، كل يحمل بندقية لم يفكّر يومًا أنّه سيستخدمها في هذا المكان. ولكن غيفارا وأبو حسن كانا قد أنهيا المعركة قبل وصولنا.

توالى تدفق أعضاء التنظيم من الطلاب والطالبات في الجامعات المختلفة إلى المكان. تولّى أبو حسن مسؤولية الدفاع عن منطقة جامعة بيروت العربية. وبدأنا جلب السلاح المُخبّأ في أماكن مختلفة من بيروت عبر حواجز الجيش والدرك.

(6) فدائي من حركة فتح، يعود إليه الفضل في تدريب المجموعات الأولى من طلاب الجامعات اللبنانية، توجّه إلى الأرض المحتلة في دورية قتالية عبر نهر الأردن، قام بتنفيذ عملية الدبويا في الخليل مع رفاق له، وقع في الأسر وحكم عليه بالسجن المؤبد قبل أن يُحرر في صفقة تبادل للأسرى، وعاد إلى الأرض المحتلة حيث تقاعد برتبة لواء.

(7) هو القطاع المسؤول عن العمل في الأرض الفلسطينية المحتلة، وقد تولى مسؤوليته الشهيد خليل الوزير (أبو جهاد) بعد استشهاد كمال عدوان.

في إحدى المرات كنتُ مع سامي[8] في سيارته الفولكس فاغن، فأوقفنا حاجز للفرقة 16[9] أمام مخفر حبيش في رأس بيروت، وكان كل منّا يحمل مسدسًا. طلب منّا الجنود النزول من السيارة. وبحركة لاإرادية وضع كلٌ منّا مسدسه بجوار الكرسي الذي يجلس عليه. فتّش الجندي ولم يعثر على شيء. لا أعلم إذا كان قد وجد المسدسين وتجاهلهما، أم أنّهما قد التصقا بحديد المقاعد ولم ينتبه إليهما.

بعض منا كان لديه سلاحه الخاص الذي اشتراه على نفقته مثل كولمبو[10]، لاعب الكاراتيه المحترف وأستاذ الطب لاحقًا الذي جاء حاملًا رشاش دكتريوف[11].

توزّع الجميع على مواقع وكمائن أطلقنا عليها أسماء مختلفة، مثل كمين الفلاحين الذي كان يقوده يوسف وأبو حسين البدوي[12]، ومجموعة الشرطة العسكرية التي تضم أبو الليل وزاهي ورفيق الحسيني[13] ويوسف ع. والعقيد نعمّان العويني[14]. وقد كان سلاحهم مميّزًا؛ فقد كان بنادق كلاشينكوف بكعب (أخمص) حديدي حصلوا عليها نتيجة علاقاتهم بالأجهزة الحركية[15]. في حين كان تسليحنا بنادق نصف آلية يُطلق عليها اسم سيمينوف ورشاشات صغيرة، وقد أزعج تسليحهم المميّز هذا سعيد أبو عمارة[16] السفير لاحقًا. فقال فيهم أبياتًا من الزجل على سبيل التندر والفكاهة.

---

(8) من الكوادر القيادية في التنظيم الطلابي، رئس جهاز المعلومات في القطاع الغربي لاحقًا قبل أن يكمل دراسته العليا.

(9) وحدة تدخل سريع في الدرك اللبناني.

(10) اسم حركي لأحد الكوادر اللبنانية في التنظيم، أصبح أستاذًا في كلية الطب.

(11) رشاش دكتريوف هو رشاش متوسط روسي.

(12) من كوادر التنظيم الطلابي في جامعة بيروت العربية.

(13) من كوادر التنظيم الطلابي، أستاذ جامعي ومدير مستشفى المقاصد في القدس.

(14) معروف باسم العقيد، رئيس اتحاد طلاب فلسطين في لبنان منتصف السبعينيات، عمل لاحقًا في الإدارة المالية، متقاعد في الضفة الغربية.

(15) أجهزة حركة فتح وكل جهاز يتبع لأحد أعضاء اللجنة المركزية. عن هذه المرحلة وطبيعة التنظيم الطلابي وعلاقاته الداخلية. يُنظر: البس، **انثيال الذاكرة**.

(16) من كوادر التنظيم الطلابي، عُيّن سفيرًا في أكثر من دولة لاحقًا بما فيها روسيا وسلطنة عمان.

إلّا أنّ الموقع الأبرز كان كمين الأخوات الذي كان في مبنى به سكن للطالبات يبعد مبنيين فقط عن مستديرة الكولا، حيث تكوّن هذا الموقع من ثلاث نقاط؛ نقطة مراقبة وقنص على السطح، ونقطة قتال خلف أكياس من الرمل على مدخل البناية، وحاجز ليلي على الطريق العام يتولى إيقاف السيارات الداخلة إلى المنطقة، والتدقيق في هوية ركابها الذين كانت الدهشة تغمرهم حين يُفاجأون بصوت أنثوي ناعم يطلب منهم إبراز بطاقاتهم الشخصية.

في إحدى المرات، أوقف الحاجز موكبًا كان فيه أبو عمار الذي فوجئ بملثّم يقترب من السيارة، حاملًا بندقية توازي طوله، ولكنّ الصوت كان صوتًا أنثويًا يستفسر بكل جرأة وثقة عن هوية الموكب. فترجّل أبو عمّار وقضى وقتًا مع الطالبات. وفي ذلك اليوم حصلنا على أول دفعة من بنادق الكلاشينكوف.

تعطلت الدراسة. وبقي الطلاب والطالبات في مواقعهم التي أصبحت محجًا لطلاب اليسار اللبناني وطالباته. فتحوّلت المواقع إلى مراكز تدريب وساحات حوار ونقاش، وتضاعفت أعداد التنظيم مع استمرار الأزمة بانضمام العشرات من كوادر اليسار اللبناني إليه.

أغلقت سورية الحدود مع لبنان. وقامت هي ومصر بالضغط على الرئيس اللبناني للوصول إلى اتفاق مع منظمة التحرير، إذ كانت سورية ومصر تُعدّان العدة لحرب تشرين[17].

نتيجة حوادث أيار/ مايو تمدّدت المنظمة في نطاق دفاعي أوسع حول مقارها ومكاتبها في منطقة الفاكهاني والطريق الجديدة. كما أبقت التعزيزات التي أحضرتها من سورية إلى الجنوب اللبناني. وبذلك عزّزت قوتها ووسّعت نقاط انتشارها في لبنان.

أسفرت حوادث أيار/ مايو عن تغييرات عميقة في بنية التنظيم الطلابي عبر انضمام العشرات إليه، والتقاء أعضائه من مختلف الجامعات والمدارس

---

(17) حرب العاشر من رمضان أو 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1973 شنّتها مصر وسورية ضد الكيان الصهيوني، ونجح الجيش المصري فيها في عبور قناة السويس وتدمير خط بارليف.

اللبنانية. كما أنهت قرارات الإقليم السابقة المتعلّقة بتنظيم جامعة بيروت العربية الذي اختارني مسؤولًا له. وشُكّل مكتب طلابي جديد يُشرف عليه حنا ميخائيل (أبو عمر)[18] بدلًا من نبيل شعث[19] ويضم في عضويته إضافةً إليّ كلًا من حسن صالح[20] وإدي زنانيري[21] وأنيس النقاش[22] ونعمان العويني. غادرنا أنيس بسرعة للعمل في مهمات خاصة. وعاد الطلاب إلى جامعاتهم ومدارسهم. لكن بقيت منطقة جامعة بيروت العربية في حراسة بنادق التنظيم الطلابي حتى حرب عام 1982.

ياسر عرفات وبداية التحوّل

ياسر عرفات، الزعيم الخالد الذي فجّر ورفاقه الثورة الفلسطينية المعاصرة، ورفع اسم فلسطين عاليًا في ساحات القتال كما في أروقة السياسة، وكتب مع شعبه ملحمة بطولية خالدة، في أوضاع غير مواتية تخلّلتها حملات الحصار والعزل والتطويق والتصفية. وأعاد فلسطين إلى واجهة العالم، وجعل اللاجئ والكوفية والبندقية روحًا واحدة لا تتجزأ. قاتل وتقدّم وانتصر، فاوض وتراجع، فأخطأ وأصاب. وامتلأت حياته بالانتصارات، كما امتلأت بخيبات

(18) (شهيد)، تخرّج في جامعة هارفرد والتحق بالثورة الفلسطينية بعد حرب حزيران/ يونيو 1967، عُين عضوًا في قيادة لبنان ومسؤولًا عن التنظيم الطلابي كما كان مسؤولًا عن لجنة 100 في القطاع الغربي، كلفته القيادة (20 تموز/ يوليو 1976) بالانتقال إلى الشمال اللبناني مع الشهيدين نعيم وأبو الوفا، حيث اختفت آثارهم في البحر، وهو يُعدّ من رموز التيار اليساري في «فتح».

(19) عضو لجنة إقليم لبنان والأستاذ في الجامعة الأميركية ومدير مركز التخطيط الفلسطيني، وعضو اللجنة المركزية لحركة فتح بعد المؤتمر الخامس لاحقًا.

(20) من مؤسسي السرية الطلابية وعضو في المكتب الطلابي لحركة فتح ومسؤول تنظيم الجامعة اللبنانية. تولى الإشراف على معسكر بيصور الذي أقامته السرية، كما عمل لاحقًا مفوضًا سياسيًا للكلية العسكرية، ورئس تحرير مجلة **البلاد**، ومن ثمّ انتُخب رئيسًا لبلدية أريحا بعد اتفاق أوسلو، وهو كاتب وباحث ومحام.

(21) أمين سرّ تنظيم الجامعة الأميركية، وعضو المكتب الطلابي الحركي، وعضو لاحق في الهيئة التنفيذية لاتحاد طلاب فلسطين ومن مؤسسي التيار، أصبح لاحقًا من قادة الجالية الفلسطينية في أستراليا.

(22) مسؤول الثانويات في المكتب الطلابي، سجن عشرة أعوام في فرنسا بعد محاولة اغتيال رئيس الوزراء الإيراني شهبور بختيار، وهو كاتب ومحلل سياسي وله مؤلفات عدة.

الأمل من ذوي القربى، ومن رفاقٍ له تركوه محاصرًا في أيامه الأخيرة. لكنّه بقي صامدًا وفيًا لمبادئه حتى مضى شهيدًا كما أراد.

شهدت مسيرة أبو عمّار انعطافات كبرى، صنع هو بعضها، والبعض الآخر استجاب له أو فُرض عليه؛ فقد كان هاجسه دائمًا أن يكون في دائرة الفعل وليس في مقاعد المتفرجين، مؤمنًا أنّ بإمكانه بالاستناد إلى عدالة قضيته أن يغيّر موازينها، أو أن يحدّ من تداعياتها في انتظار أوضاع أفضل لينقلب عليها ويتابع مسيرته.

كان أول تحوّل حاد لياسر عرفات في نهاية عام 1973، بعد حرب تشرين أول/ أكتوبر. وأذكر أنّنا نظمنا في نهاية كانون الأول/ ديسمبر من ذلك العام دورة تدريبية وتثقيفية لطالبات الجامعات اللبنانية وطلابها في معسكر مصياف في سورية، أشرف عليها حنا ميخائيل (أبو عمر)، وحضر عدد كبير من المفكرين والكوادر لإلقاء محاضراتهم فيها، من بينهم منير شفيق[23] وناجي علوش[24] وصخر أبو نزار[25] وقدري[26].

في ذلك الوقت كانت سُحب مؤتمر جنيف للسلام[27] تخيّم على المنطقة،

(23) (أبو فادي) سُجن في معتقل الجفر الصحراوي في الأردن لانتسابه إلى الحزب الشيوعي، انضم إلى «فتح» بعد حرب عام 1967، وكان ضمن هيئة تحرير صحيفتها المركزية، عمل مديرًا لمركز التخطيط الفلسطيني، وله عشرات المؤلفات عن الماركسية وحرب الشعب والقضايا الفلسطينية والإسلامية، يُعد أهم رموز التيار الذي انبثقت منه الكتيبة، الأمين العام للمؤتمر القومي الإسلامي سابقًا.

(24) (أبو إبراهيم) عضو سابق في المجلس الثوري لحركة فتح، ومن رموز التيار اليساري القومي فيها، تحالف لفترة من الوقت مع صبري البنا (أبو نضال) قبل أن يُشكّل الحركة الشعبية العربية، كاتب قومي له عشرات المؤلفات عن القضايا الفلسطينية والقومية، توفي في عمّان في 29/ 7/ 2012.

(25) يحيى حبش عضو في اللجنة المركزية لحركة فتح، ومعتمد إقليم لبنان وأمين سر مجلسها الثوري، شاعر وأديب، توفي في رام الله في عام 2010.

(26) سميح أبو كويك، كان مسؤولًا للجنة شؤون الأردن وانتخب في المؤتمر الرابع عضوًا في اللجنة المركزية، انضم للانشقاق وما لبث أن غادره لاحقًا. هو الآن مقيم في دمشق.

(27) مؤتمر دعت إليه الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي برعاية الأمم المتحدة في كانون الأول/ ديسمبر 1973 بحضور الدول العربية وإسرائيل، ولم تحضره سورية ولا منظمة التحرير. لم يُعقد منه سوى جلسة واحدة، حيث استبدل لاحقًا بسياسة الخطوة خطوة التي ابتدعها وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر وأسفرت عن اتفاقات فك الارتباط على الجبهتين المصرية والسورية.

وتثير نقاشًا عاصفًا داخل المعسكر وخارجه، مترافقة مع الغيوم الكثيفة والأمطار والعواصف التي تعرفها مصياف في ذلك الوقت من العام.

في إحدى الليالي العاصفة، وصل أبو عمّار إلى المعسكر، كان غاضبًا، إذ يبدو أنّ أخبار النقاشات الحادّة داخل المعسكر قد بلغته. اجتمعنا - أكثر من مئة طالبة وطالب - في خيمة كبيرة للقاء القائد الذي جاهد ليعلو صوته فوق صوت الرعد والأمطار الغزيرة التي تضرب سطح الخيمة وتنساب إلى داخلها. قال أبو عمّار إنّ ثمّة تسوية مقبلة بعد حرب تشرين أول/ أكتوبر، وإنّنا يجب أن نكون جزءًا منها، وأن نقبل بدولة فلسطينية حتى لو كانت في مدينة أريحا فحسب، مذكرًا إيانا بما حدث في عام 1948 حين أُلحقت غزة بمصر، وضُمّت الضفة الغربية إلى الأردن، ما حال دون قيام كيان فلسطيني يمثّل قاعدة للتحرير.

خالف أغلبية الطلاب رأي أبو عمّار، ورأوا أنّه انحراف عن أهداف الثورة في تحرير كامل التراب الفلسطيني، وإقامة الدولة الفلسطينية الديمقراطية التي تتعايش فيها الأديان كلها، وأنّ هذا لا يمكن تحقيقه إلّا عبر الكفاح المسلح وحرب التحرير الشعبية الطويلة الأمد. وأضافوا أنّ «فتح» انطلقت قبل احتلال الضفة وغزة، وأنّ واجب استعادة هذه الأراضي يقع على عاتق من أضاعوها، إذا كان هناك من مجال لاستعادتها عبر تسوية ما، وبعد عودتها إلى أيدٍ عربية، يقرّر شعبنا مصيرها ويقيم عليها سلطته الثورية دون أن تتورّط المنظمة في التفاوض والاعتراف، وتبقى المنظمة مكرّسة لتحقيق أهدافها الأصلية بتحرير كامل التراب الفلسطيني.

احتدّ النقاش كثيرًا حتى إنّ البعض منّا تجاوز حدود اللباقة. فاختتم أبو عمّار النقاش قائلًا: «يعني انتو عايزينا نسيب الضفة للملك حسين؟». وأطلق علينا اسم «الهاشميين الجدد»، متوعدًا أبو عمر والمحاضرين الآخرين بالمحاسبة لإفسادهم عقول الطلاب.

انتهت الدورة التي شهدت بداية اصطفافات جديدة، وولادة لتيار فكري متماسك داخل «فتح». وعُدنا إلى بيروت. لم يحاسب أبو عمّار أحدًا. واستمرّ يستمع نهارًا إلى انتقادات الطلاب للبرنامج المرحلي المنطلقة من ميكروفونات

جامعة بيروت العربية قرب مكتبه، وينام ليلًا في حراسة بنادقهم. لكن منذ ذلك اليوم بدأ البرنامج السياسي لـ «فتح» ومنظمة التحرير الفلسطينية في التغيّر والتراجع التدريجي عن المنطلقات والثوابت؛ تارةً عن رغبة في المشاركة في مشروعات تسوية مطروحة أو ستُطرح، وتارةً أخرى للخلاص من مأزق، أو للخروج من دائرة الجمود.

أصبح الهاجس الأساس كيف يمكن ضمان مقعد في قطار التسوية. وكان أعداؤنا من الذكاء بأن اقترحوا مقعدين فقط يتنافس عليهما ثلاثة، الأردن وسورية ومنظمة التحرير، بما يشبه لعبة الكراسي الموسيقية. شهدت تلك المرحلة تغيرًا دوريًا في التحالفات بين هذه الأطراف الثلاثة. وأصبح لبنان الورقة المتنازع عليها التي تعطي صاحب النفوذ فيه حظًا أكبر في ركوب القطار المزعوم.

يُسجّل لأبو عمّار أنّه على الرغم من كلّ هذه المسيرة المتعرجة، لم يتخلَّ عن بندقيته. بل خاض أشدّ معاركه العسكرية ضد العدو الصهيوني وهو يسعى للّحاق بقطار التسوية وتحسين شروطه فيها. بل يُسجّل له أيضًا أنّه اكتشف عقم اتفاق أوسلو[28] باكرًا، وأنّه وصل إلى طريق مسدودة عقب مباحثات كامب ديفيد 2000[29]، حيث أدرك أنّ بين ما يسعى إليه، وما هو معروض عليه، هوة كبرى لا يستطيع أن يقفز عنها. فسعى إلى الالتفاف حولها عبر تشجيع الانتفاضة الثانية التي انطلقت من الأقصى عقب زيارة شارون له، بل دعم عسكرتها وموّلها، في محاولة منه للحصول على نتائج سريعة وإجبار خصمه على الإذعان للحد الأدنى من مطالبه.

كانت نهاية عام 1973 التاريخ الفعلي لبداية تغيير المسار، وإن استمر التمسّك بالبندقية بموازاة هذا التغيير، وهو ما ترك آثاره قطعًا في استراتيجية

(28) اتفاق بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، في 13 أيلول/ سبتمبر 1993، والمعروف باسم إعلان المبادئ حول ترتيبات الحكم الذاتي والانتقالي.

(29) مباحثات دامت أسبوعين على مستوى القمة بين الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني، برعاية أميركية في منتجع كامب ديفيد في 11 تموز/ يوليو 2000، وأخفقت في الوصول إلى أي اتفاق.

الثورة وتكتيكها وتحالفاتها وتطوّرها ونموّها وتراجعها، فثمّة فرق كبير بين مشروعين مختلفين؛ مشروع التسوية ومشروع حرب التحرير الشعبية الطويلة الأمد، وإن استمر التقاطع بينهما إلى مرحلة أوسلو.

بعد كامب ديفيد (2000) حاول أبو عمّار العودة مرة أخرى إلى بندقيته، ليس بهدف الانقلاب على عملية السلام برمّتها، فالمسار الذي قطعه فيها كان طويلًا، بل بهدف تعديل شروطها لتلائم الحد الأدنى على الأقل من تطلعاته الوطنية.

قابلتُه آخر مرة في عام 2000. ونقلتُ إليه ما سمعته عن بعض رموز الفساد. فقال لي يومها: «مرحلة وستمر، لن يحاسبني التاريخ على هؤلاء، سيحاسبني إذا ما أضعت القدس أو استرجعتها». ومضى كما أراد شهيدًا شهيدًا.

إضراب الجامعة الأميركية

«الإمبريالية الأميركية نمر من ورق» شعار أطلقه الزعيم الصيني ماو تسي تونغ، وارتدّ صداه في أرجاء المعمورة، وحيث تناضل حركات التحرّر الوطني للخلاص من الاستعمار والاحتلال الأجنبي والاستبداد الذي يقبع تحت جناح الولايات المتحدة الأميركية، بعد أن حلّ النفوذ الأميركي بالتدريج مكان النفوذ الاستعماري لبريطانيا التي أفلت شمسها، وهي التي كانت توصف بأنّها الإمبرطورية التي لا تغيب عنها الشمس.

في تلك الأجواء شهدت الحركة الطلابية اللبنانية تمايزًا بين اتجاهين رئيسين؛ **الأول** اتجاه تدعمه أحزاب الحركة الوطنية اللبنانية، ومن أبرز رموزه أنور فطايري[30] وسعد الله مزرعاني[31] ونصير الأسعد[32]، ويقف شأن الحركة

(30) رئس الاتحاد الوطني لطلاب الجامعة اللبنانية وهو من قادة الحزب التقدمي الاشتراكي، اغتيل في عام 1988.

(31) صحافي وكاتب، أصبح عضوًا في المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني.

(32) من قادة منظمة العمل الشيوعي قبل أن يغادرها إلى تيار المستقبل، صحافي بارز توفي في عام 2012.

الوطنية اللبنانية موقفًا مؤيدًا للمقاومة الفلسطينية، إلّا أنّه يركّز بالأساس في النضالات المطلبية. والاتجاه **الثاني** وهو ما عُرف باسم الجبهة الوطنية الطلابية التي تشكّلت من الإخوة اللبنانيين في تنظيم فتح في الجامعة اللبنانية الذي كان يقوده حسن صالح ومروان الكيالي، ومعهم نخبة من الطلاب اللبنانيين والفلسطينيين، ومنظمة «كفاح الطلبة» ذات الاتجاه القومي الذي كان يقوده الرفاق معن بشّور[33] وبشارة مرهج[34]، ومن أبرز رموزه الطلابية الرفاق ربيع الأسير وهاني سليمان، وطلاب الحزب السوري القومي الاجتماعي ومن أبرز رموزهم يوسف شويري[35]، وقوى أخرى ملتزمة المقاومة الفلسطينية. ويرى هذا الاتجاه أنّ المدخل الرئيس للتغيير في لبنان والمنطقة يكون بالنضال الوطني في مواجهة العدو الصهيوني. ومن المهم الانتباه إلى أنّ هذا الخلاف بين وجهتي النظر كان آخذًا بالتفاعل داخل قواعد الأحزاب اللبنانية ذاتها، خصوصًا في قواعد منظمة العمل الشيوعي وبين كوادرها، ممّا أدّى إلى خروج جماعي من صفوفها لنخبة من كوادرها باتجاه فصائل المقاومة الفلسطينية.

في أحد الأيام ولدى احتدام المعركة الانتخابية في الجامعة اللبنانية أُثيرت حولنا ضجة كبيرة بأنّنا الطلاب الفلسطينيين وتنظيم فتح الطلابي لا ندعم أحزاب الحركة الوطنية اللبنانية. واستغلت بعض الفئات من (يسار) «فتح» ذلك للتحريض علينا. في تلك الانتخابات انقسم الطلاب الوطنيون في الجامعة اللبنانية إلى معسكرات انتخابية عدة، هي: معسكر ائتلاف الحزب التقدمي الاشتراكي والحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي، الجبهة الوطنية الطلابية، حركة المحرومين (أمل)، وحركة طلابية أطلقت على نفسها اسم حركة الوعي من أبرز قادتها في السبعينيات الصحافي والأديب بول شاؤول.

في إثر ذلك شكانا قادة من الحركة الوطنية إلى أبو إياد (صلاح

(33) مناضل بعثي قديم ومؤسس لتجمع اللجان والروابط الشعبية، وأمين عام سابق للمؤتمر القومي العربي.

(34) مناضل بعثي قديم ومؤسس لتجمع اللجان والروابط الشعبية، ووزير سابق للداخلية في لبنان.

(35) من القادة الطلابيين للحزب السوري القومي الاجتماعي وأستاذ جامعي لاحقًا.

خلف)[36] الذي استدعانا وفي نيّته أن يطلب منّا الانسحاب من الانتخابات، ظنًا منه أنّ الطلاب الفلسطينيين ينافسون الطلاب اللبنانيين فيها، ويتدخّلون في ما لا يعنيهم. قرّرنا ألّا يذهب أيّ طالب فلسطيني للقاء أبو إياد، حيث ذهب فقط الإخوة من أصول لبنانية كي يشرحوا له ولقيادة الإقليم أنّ الطلاب من أصول فلسطينية أو عربية لا يُسمح لهم بالمشاركة في انتخابات الاتحاد الوطني لطلاب الجامعة اللبنانية، وأنّ التنافس يجري بين طلاب لبنانيين، وعلى أساس برامج سياسية ووطنية وطلابية. فوجئ أبو إياد بذلك. وأُجريت الانتخابات التي تشكّل في ضوء نتائجها قيادة للاتحاد ضمّت ممثلين عن جميع القوى بمن فيهم صلاح بكري[37] من قيادة التنظيم في الجامعة اللبنانية.

تمكّنت الجبهة الوطنية الطلابية من الفوز أيضًا باتحاد طلاب جامعة بيروت العربية، وحكومة كلية بيروت الجامعية، ومجلس الطلبة في الجامعة الأميركية الذي رئسه محمد مطر[38]. وبذلك أصبحت الجبهة الوطنية قوة طلابية وطنية كبرى شاركت بفاعلية في مختلف النضالات الوطنية، ومن أبرزها المرابطة في قرية كفر شوبا الحدودية المدمرة، والسعي لإعادة إعمارها، ففي 12 كانون الثاني/ يناير 1975 وتحت سنديانة عتيقة في ساحة الجامع المدمر في كفر شوبا أمّ بنا الصلاة الإمام موسى الصدر الذي دعا الشباب في خطبته إلى التسلح والالتحاق بالمقاومة الفلسطينية[39]. وكنّا قبل ذلك وخلال اقتحام الجيش الإسرائيلي البلدة قد توجّهنا - أكثر من مئة طالب - ورابطنا على تلال البلدة ومحيطها لأيام عدة، لتعزيز وحدة من «فتح»[40] تمكّنت من الصمود في وجه محاولات اختراق إسرائيلية، قبل أن نعود ونُطلق حملة شعبية لإعادة إعمار كفر شوبا، ونتوجه إليها هذه المرة بصفتنا طلابًا سلاحنا الفأس والمعول،

(36) (شهيد)، من مؤسسي حركة فتح وعضو لجنتها المركزية، ومسؤول جهاز الأمن الموحد في منظمة التحرير الفلسطينية، استشهد في تونس بتاريخ 14/1/1991.

(37) من قادة فتح الأوائل في الجامعة اللبنانية وفي البقاع، يعمل حاليًا في سلك المحاماة في لبنان.

(38) رئيس مجلس الطلبة في الجامعة الأميركية، أصبح من المحامين البارزين في لبنان وترافع في قضية اغتيال الرئيس رفيق الحريري أمام المحكمة الدولية.

(39) جريدة **السفير** اللبنانية، 20/1/1975.

(40) الكتيبة الثانية من قوات اليرموك التي كان يقودها أبو خالد العملة.

إضافةً إلى إنشاء معسكرات عمل في المخيمات والقرى، والتدريس في مدارس المخيمات، أو الخدمة في مستوصفاتها الطبية. بل أصبح هنالك توزيع كامل للمهمات؛ فهنالك مجموعة من الطالبات والطلاب تعمل على الدوام في مخيم تل الزعتر وأخرى في شاتيلا أو في البرج الشمالي، ما أوجد صلة متينة بين الطلاب والمخيمات في لبنان.

في ظلّ هذه الأجواء قرّرت إدارة الجامعة الأميركية في بيروت رفع الأقساط الجامعية[41]، وقرّر التنظيم الطلابي في الجامعة الأميركية بقيادة إدي زنانيري خوض المعركة والدعوة إلى الإضراب بعد التشاور مع مختلف الاتجاهات الطلابية بما فيها اليمين اللبناني الذي أيّد الإضراب بداية ثمّ ما لبث أن انسحب من فاعلياته.

حاول أبو عمّار إقناعنا بعدم جدوى هذه المعركة، وأنّ ثمّة استحقاقات أهم تقتضيها المرحلة. لكنّه لم يوفّق في ذلك فاختتم اللقاء بقوله «خوضوا معركتكم كما تشاءون، لكن تذكّروا أنّها ليست معركتي».

رفض رئيس الجامعة التراجع عن قراراته. وهنا باتت الفرصة مواتية للبدء في الإضراب الكبير ومواجهة «الإمبريالية الأميركية» في عقر دارها. احتل الطلاب مباني الجامعة وعلّقوا الدراسة فيها. وحاصروا منزل الرئيس في الحرم الجامعي. وأمام تعنّت الرئيس، لم يُفلح الجهد الساعي لحلّ الإشكال، بما فيه وساطة عدد من كبار الشخصيات، بينهم وزير التعليم السابق نجيب أبو حيدر الذي كان معروفًا بمواقفه الوطنية. استمر الإضراب من 19 آذار/ مارس 1974 إلى 24 نيسان/ أبريل 1974 حيث اقتحمت قوات الأمن اللبنانية الجامعة، واعتقلت جميع الطلاب والطالبات الموجودين داخلها. دامت فترة الاعتقال في سجن رومية لمدة تزيد على الشهر، في حين أُفرج عن الطالبات بالكفالة بعد أيام. أرسل مكتب أبو عمّار كميات كبيرة من الطعام والملابس للمعتقلين مع رسالة تقول إنّهم على الرغم من عقوقهم يظلّون أبناءه.

(41) للمزيد عن الإضراب أنصح بمراجعة كتاب فتحي خليل البس، **انثيال الذاكرة: هذا ما حصل**، (عمّان: دار الشروق، 2008).

قرّرت إدارة الجامعة طرد 103 طلاب. ومرة أخرى لم يُثمر أيّ جهد لثني الإدارة عن موقفها، بما في ذلك إرسال أبو الزعيم[42] مندوبًا عن أبو عمّار إلى رئيس الجمهورية اللبنانية سليمان فرنجية. وتبعًا لذلك قرّر 15 طالبًا بقيادة فتحي البس احتلال أحد مباني الجامعة لتسليط الأضواء على قضيتهم. في اليوم الرابع اقتحمت قوات الأمن المبنى واعتُقل الطلاب، وتصادف في لحظة الاقتحام أن كنتُ و(الشهيد) سعد جرادات ونعمّان العويني نحاول إيصال عدد من البطانيات للطلاب المعتصمين. وفي الطريق وبالقرب من مخفر حبيش اعتقلونا، فادّعينا أنّنا من الهلال الأحمر، وكنّا في طريقنا إلى أحد المخيمات. لم يقتنع رجال الأمن بروايتنا. وزجّونا مع طلاب الجامعة الأميركية في السجن نفسه (ثكنة السيّار). وفي اليوم التالي أُفرج عنا بعد تدخّل أبو إياد، في حين أُفرج عن الطلاب اللبنانيين بعد أسبوعين ورُحّل فتحي إلى القاهرة. وبدأ الطلاب الذين فُصلوا رحلة البحث عن دولة ما تقبل بهم، بهدف العثور على مقعد جامعي يعادل لهم ما درسوه سابقًا.

نجم نجم

تمكّن بعض الطلاب المفصولين بوساطة منظمة كفاح الطلبة من الحصول على مقاعد جامعية في بغداد، من بين هؤلاء كان نجم نجم الطالب في كلية الهندسة، على أنّ الدراسة في بغداد لم تكن أمرًا سهلًا. في ذلك الوقت كان صبري البنا (أبو نضال)[43] يحظى فيها بنفوذ واسع. سعى أبو نضال لتجنيد الطلاب الآتين من بيروت ضمن مجموعات العمل الخارجي التابعة له. كان هؤلاء صيدًا ثمينًا بالنسبة إليه؛ فهم يتقنون لغات عدة، وفي مقتبل العمر،

(42) العميد عطا الله عطا الله، مدير جهاز الاستخبارات العسكرية في منظمة التحرير، نظّم محاولة انشقاق فاشلة في عام 1986.

(43) عضو في المجلس الثوري لحركة فتح قبل انشقاقه وتأليف فتح المجلس الثوري، اشتهر باغتيال كوادر منظمة التحرير في أوروبا بدعوى محاربته عملية التسوية وبتصفيته المئات من أنصاره في سورية ولبنان وليبيا، بمن فيهم زملاء له في القيادة، وتوزّع ولاؤه على دول عدة وأجهزتها الاستخبارية، قُتل في بغداد في عام 2002.

يحملون جوازات مختلفة، وينتمون إلى عائلات ثرية. جرّب معهم أساليب الترغيب والإغراء كلها. وعندما أخفق لجأ إلى التهديد والوعيد، وعمد إلى توقيف البعض والتحقيق معهم بذرائع مختلفة. ووصل الأمر حدّ تعذيبهم في داخل سجونه مستخدمًا سياسة الترغيب والترهيب. ومن هؤلاء كان نجم نجم.

علم (الشهيد) أبو حسن قاسم بما يحدث في بغداد. فكلّف سامي الذي كان قد تخرّج في الجامعة الأميركية وعمل مسؤولًا لمكتب المعلومات في القطاع الغربي، بالسفر إلى بغداد وإعادة الإخوة إلى بيروت. وصل سامي واجتمع إلى بعضهم في شقة أحدهم. وعندما علم بجميع التفصيلات قرّر أنّ عليهم مغادرة بغداد فورًا، بل منع البعض من التوجه إلى سكنه لإحضار أغراضه الشخصية؛ فممّا سمعه علم أنّهم تحت المراقبة، وأنّ أبو نضال يمكن أن يتخذ إجراءات قاسية ضدهم إذا عرف بقرارهم العودة إلى بيروت. في الليلة نفسها عاد بعض إخوتنا إلى لبنان عن طريق الحدود السورية، أنقذتهم حكمة أبو حسن قاسم وسرعة بديهة سامي من موت محقق على يد أبو نضال. لكنّ الأمل باستئناف الدراسة في جامعة أخرى تلاشى. أمّا نجم فقد تعرّض للاعتقال والتعذيب في سجون أبو نضال ولدى أجهزة الاستخبارات العراقية قبل أن يُفرج عنه ويعود إلى بيروت.

مع اندلاع الحرب الأهلية في لبنان، شارك هؤلاء في بداية تأسيس السرية الطلابية، وانتشروا على خطوط التماس في الشياح والبرجاوي والخندق الغميق. كما شارك نجم ضمن فصيل في معركة الدامور. إلّا أنّ هاجسهم الأكبر تمثّل بضرورة عودتهم إلى مقاعد الدراسة وسط إصرار غريب من إدارة الجامعة على عدم إعادة الطلاب المفصولين.

كان نجم نجم يغلي من داخله وهو يرى مستقبله يضيع أمامه. لم يصارح أحدًا بما ينوي فعله. لكنّه في صباح أحد الأيام توجه إلى الجامعة، وقام بقتل الدكتور غصن عميد كلية الهندسة التي كان يدرس فيها، والدكتور نجيمي عميد شؤون الطلاب، واحتجز رئيس الجامعة وعددًا من الموظفين رهائن. حاصرت قوات الأمن اللبنانية المبنى، اتصلت السلطات اللبنانية بصلاح خلف (أبو إياد)

الذي أرسل مجموعة من رفاق نجم لإقناعه بالاستسلام، حيث حُجز في سجن رومية بالقرب من بيروت.

أصبح واضحًا لإدارة الجامعة أنّ مئة قد فُصلوا، وفي ظلّ أوضاع الحرب التي أخذت تعصف بلبنان، تساوي تهديدًا قائمًا ومستمرًا، اضطُر رئيس الجامعة إلى أن يُذعن لنداء العقلاء في الجامعة والدولة اللبنانية، وأصدر قرارًا بإعادة الطلاب المفصولين فورًا إلى الجامعة.

استولت قوات الكتائب على سجن رومية بعد انهيار مؤسسات الدولة اللبنانية. وحلّ حراس من الكتائب مكان الدرك اللبناني. كان نجم نجم مسجونًا في زنزانة واحدة مع سجين لبناني معروف من طرابلس يدعى القدور. أدرك الاثنان أنّ مصيرهما القتل على يد الكتائب. واستغلا فرصة عدم معرفة الحراس الجدد بمداخل السجن ومخارجه للهرب. صنعا حبلًا من قماش الأغطية تسلّقا بواسطته سور السجن. كان نجم يعرف المنطقة؛ فقد سبق له أن قام بالتدريس متطوّعًا في مدارس مخيم تل الزعتر الذي لجأ إليه. كان المخيم تحت الحصار، وقاتل نجم مع أهل المخيم. ونجح في الخروج منه بعد سقوطه، لتختفي آثاره بعد ذلك.

بعد أعوام، في عام 1983 تحديدًا، وبينما كنتُ أتلقى العلاج في أحد المستشفيات البريطانية، دخل غرفتي شاب لم أعرفه، كان نجم نجم بملامح مختلفة، عرفته من صوته، اطمأن عليّ وغادر بسرعة كما جاء، بعد وعد منه بالمرور مرة أخرى. ولم يفعل. كان حريصًا في جميع تنقلاته. ولعلّ هذا الحرص هو ما مكّنه من البقاء طليقًا. مؤخرًا عرفتُ من صديق كان قد التقى بأحد أقاربه، أنّ نجم ذهب إلى أستراليا وعاش فيها حتى توفاه الله بمرض السرطان. هذا إذا كان القريب يعرف شيئًا.

صراع ضمن الوحدة

في ظلّ أجواء برنامج الحلّ المرحلي، والنقاط العشر، والتحضير لمؤتمر جنيف للسلام، بدأت التحضيرات للمؤتمر العام السابع للاتحاد العام لطلبة فلسطين الذي عُقد في الجزائر في آب/أغسطس 1974.

سبق المؤتمر انتخابات لاختيار المندوبين جرت في جميع فروع الاتحاد في العالم، ومن ضمنها لبنان، حيث انتُخبتُ لعضوية المؤتمر مع عدد من الزملاء. كان لافتًا أنّ جزءًا لا بأس به من المندوبين هم ممّن يعرف بـ «يسار فتح». وبذلك انقسم طلاب «فتح» في هذا المؤتمر إلى ثلاث كتل رئيسة: الكتلة التقليدية التي أطلقنا عليها مجازًا اسم كتلة اليمين وتضم قيادة الاتحاد الذي يرئسه لمعي القمبرجي[44]، وكتلة تضم أنصار أبو إياد عضو اللجنة المركزية للحركة، ومن أبرز رموزها الإخوة صخر بسيسو[45] وتوفيق الطيراوي[46] وأحمد عبد الرازق[47]، وكتلة أوسع تضم ما سنطلق عليه مجازًا اسم اليسار بجميع أطيافه، وتضم إدي زنانيري وعاطف أبو بكر[48] وعزام الأحمد[49] وناصر القدوة[50] وآخرين. وهنا لا أودّ الخوض في مدى دقة هذه التصنيفات، فقد بيّنت التجارب اللاحقة مدى هشاشتها، ولكن من الواضح في ذلك الوقت أنّ طلاب «فتح» في الأقاليم المختلفة قد توزّعوا على هذه الاتجاهات الثلاثة.

في بيروت بدأ حوارٌ جاد وعميق بين مجموعة اليسار والمجموعة القريبة من أبو إياد الذي شارك في أجزاء منه. كان ثمّة اتفاق على ضرورة تغيير الهيئة

---

(44) رئس الهيئة التنفيذية للاتحاد منذ المؤتمر السادس، ومن الكوادر التنظيمية الأولى في حركة فتح.

(45) رئس اللجنة التنفيذية للاتحاد العام لطلبة فلسطين بعد المؤتمر السابع، وأصبح عضوًا في اللجنة المركزية لحركة فتح بعد المؤتمر السادس للحركة.

(46) أصبح مديرًا للمخابرات العامة في السلطة الفلسطينية ومن ثمّ عضو اللجنة المركزية لحركة فتح بعد المؤتمر السادس.

(47) أصبح سفيرًا في منظمة التحرير الفلسطينية.

(48) من كوادر «فتح» الأولى وعضو الهيئة التنفيذية لاتحاد الطلاب بعد المؤتمر السادس للاتحاد، عمل سفيرًا للمنظمة قبل أن ينضم لـ «فتح» المجلس الثوري بزعامة أبو نضال وبعد ذلك قاد حركة تصحيحية ضده.

(49) رئيس اتحاد طلاب فلسطين في بغداد وسفير فلسطين فيها ومن ثمّ عضو اللجنة المركزية لحركة فتح بعد مؤتمرها السادس.

(50) أصبح رئيسًا للهيئة التنفيذية للاتحاد بعد المؤتمر الثامن، ومن ثمّ سفيرًا لفلسطين في الأمم المتحدة وعضو اللجنة المركزية لحركة فتح بعد مؤتمرها السادس.

التنفيذية للاتحاد، إلّا أنّ الحوار الأساسي دار حول البرنامج السياسي للاتحاد في ظلّ أطروحات البرنامج المرحلي التي كنّا نرفضها بشدة. لم نكن مهتمين كثيرًا بكيفية توزيع المقاعد قدر اهتمامنا بالنص الذي سيتضمنه البرنامج السياسي.

بالنتيجة توصلنا في الحوار إلى برنامج سياسي متوازن يتكلم على حق الشعب الفلسطيني في إقامة سلطته الوطنية المقاتلة على أي شبر يُحرّر من الاحتلال، وكان عرّاب الاتفاق عاطف أبو بكر الذي لم يلتحق بنا في الجزائر لأسباب أجهلها. أخذت اللجنة المركزية قرارًا بأن يُشرف على المؤتمر هايل عبد الحميد (أبو الهول)[51] وصلاح خلف.

في الجزائر وافق المؤتمر دون معارضة تُذكر على البرنامج السياسي المتفق عليه في بيروت. واستخدم أبو إياد دهاءه المتميّز به، ليقنع أبو الهول أنّ هناك استحالة لاتفاق أبناء «فتح» على تركيبة موحدة للمجلس الإداري والهيئة التنفيذية، بعد أن أخفقت لقاءات وحوارات عدة للتوفيق بين الأطراف المختلفة، وأنّ الحلّ يكمن في إتاحة التنافس الديمقراطي بينهما، بعد تحييد «الجبهة الشعبية» عبر ضمان مقاعدها. وهكذا وأول مرة في تاريخ العمل النقابي الفتحاوي أُلّفت قائمتان، كلٌ منهما تدّعي تمثيل «فتح». فازت قائمتنا كاملة في سابقة هي الأولى من نوعها.

سافر أعضاء المجلس الإداري المنتخب، وأنا من ضمنهم، إلى القاهرة مقر الهيئة التنفيذية لانتخابها. مثّل لبنان في المجلس الإداري الجديد توفيق الطيراوي ونعمّان العويني وإدي زنانيري وريما خلف[52]، إضافةً إليّ، حيث رفضتُ الانضمام للهيئة التنفيذية معربًا عن رغبتي في العودة إلى بيروت التي كانت الأوضاع فيها تتطوّر بسرعة، وحلّ مكاني الأخ ناصر القدوة. انتخبنا هيئة تنفيذية

---

(51) (شهيد)، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح ومسؤول جهاز الأمن المركزي، تولى مسؤولية جهاز الأرض المحتلة بعد استشهاد أبو جهاد، اغتيل في تونس مع أبو إياد بتاريخ 1991/1/14.

(52) أنهت الدكتوراه في الاقتصاد، ثمّ أصبحت وزيرة للتخطيط ونائبة لرئيس الوزراء في الأردن، ومساعدة للأمين العام للأمم المتحدة.

جديدة برئاسة صخر بسيسو، وعضوية أحمد عبد الرازق وإدي زنانيري وعزام الأحمد وتوفيق الطيراوي وياسين جابر[53] وناصر القدوة، وثلاثة من الجبهة الشعبية هم: نبيل الطاهر ومحمود سعد وكايد الغول[54].

غضب ياسر عرفات ممّا حدث غضبًا شديدًا. وتوترت العلاقة بينه وبين أبو إياد، متهمًا إياه بالترتيب المسبق لجميع ما تمّ، وهو أمر لا يبتعد عن الحقيقة. لكنّ تلاحق الحوادث في لبنان ونشوب الحرب الأهلية طويا هذه الصفحة.

في ذاك الزمن كان اتحاد طلاب فلسطين قوة فاعلة ومؤثرة يضمّ عشرات الآلاف من الطلاب. في ما بعد أصبح أكثر رؤساء فروع الاتحاد سفراء للمنظمة في بلدانهم فقد صقلتهم التجربة السياسية والنقابية، وحسبنا أن نذكر أنّ ياسر عرفات ورفاقه استهلّوا عملهم من أجل فلسطين عبر رابطة طلبة فلسطين في القاهرة.

تكرّر هذا الأمر لاحقًا في بلدان عدة، وكانت القوائم القريبة من اتجاهنا تفوز في أغلب الانتخابات. كما تكرّر أيضًا في لبنان في انتخابات جامعة بيروت العربية. وهنا أروي قصة طريفة؛ إذ إنّ أعضاءً في الاتحاد ينتمون إلى الحزب الشيوعي و«الجبهة الديمقراطية»، أرادوا تضمين البيان السياسي فقرة فيها اعتراف بقرار مجلس الأمن رقم 242[55]، وكان الموقف الرسمي لمنظمة التحرير ولحركة فتح في ذلك الوقت ما زال يرفض هذا القرار. انضم إخوة لنا من «فتح»، ممّن كان لهم علاقة بجهاز أمني إلى موقف الحزب الشيوعي. وعدّوا رفضنا القرار مخالفًا لتوجهات القيادة التي لم تكن قد اعترفت به بعد. تطوّر النقاش إلى ملاسنة سرعان ما أعقبها مشاجرة تخللها تراشق بالكراسي وإنهاء للاجتماع، فكلّف أبو عمار الأخ أبو اللطف[56] بجمع الفرقاء وحلّ الإشكال. بعد أن شرح

---

(53) رئيس اتحاد طلاب فلسطين في دمشق، وعضو اللجنة التنفيذية للاتحاد.

(54) من كوادر الجبهة الشعبية وعضو مكتبها السياسي لاحقًا، مقيم في غزة.

(55) قرار صدر عن مجلس الأمن في أعقاب حرب 1967.

(56) فاروق القدومي أحد مؤسسي «فتح» وعضو لجنتها المركزية، ومدير الدائرة السياسية في منظمة التحرير.

أبو اللطف الموضوع وأنّب الإخوة على موقفهم المتسرع مؤكدًا، رفضنا قرار مجلس الأمن، تحدّث عن ممارسات أبو عمّار خلال ترؤسه رابطة طلبة فلسطين في القاهرة في محاولة لإضفاء جو إيجابي على الجلسة، إذ كانت هنالك انتخابات للرابطة ولم يكن أبو عمّار مستعدًا لها، وخاف من إطاحته، فأراد أن يؤجلها إلى حين. لم توافق الهيئة العامة للرابطة على التأجيل، فما كان منه إلّا أن أحضر ورقة وطبع عليها قرارًا بتأجيل الانتخابات بوصفه صادرًا عن الاستخبارات المصرية وعلّقها في مقر الرابطة، أمّا الختم فكان قطعة معدنية من فئة عشرة قروش مصرية كان يتوسطها شعار النسر.

في وسط غابة البنادق كانت ألف زهرة تتفتح، وكانت حركة فتح من المرونة حيث تمكّنت من استيعاب الجميع.

معسكر اللبوة

اللبوة قرية صغيرة هادئة من قرى منطقة بعلبك – الهرمل اللبنانية، ذهبنا إليها في بداية نيسان/ أبريل 1975 لإقامة معسكر تدريبي فيها، أُقيم خصيصًا لطلاب حضروا من ألمانيا وبعض الدول الأوروبية، وكُلّفت بالإشراف على الدورة. كان في الدورة زهير المناصرة[57] وعيسى[58] وعباس الأقاليم[59]، وعدد كبير من الذين شغلوا في ما بعد مواقع نضالية متقدمة. لا أعلم ما الذي دعانا لاختيار تلك المنطقة لإقامة المعسكر التدريبي. لكن لا شك في أن كان لطراد حمادة[60] وسعود المولى ومعتصم دمشقية[61] دورٌ في هذا القرار لما لهؤلاء الإخوة من روابط في

(57) كادر فتحاوي قديم من تنظيم ألمانيا، عمل في مؤسسة صامد والقطاع الغربي، كما شغل موقع محافظ جنين بعد أوسلو وعضو في المجلس الثوري للحركة.

(58) من كوادر التنظيم في ألمانيا، ومن مسؤولي الجمعية العلمية ولجنة الأقاليم.

(59) المهندس عدنان أبو عياش من الكادر التنظيمي الأول في ألمانيا ومسؤول لجنة الأقاليم في القطاع الغربي.

(60) أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية ووزير لبناني سابق، من كوادر التيار الأولى وانضم بعد حرب 1982 إلى المقاومة الإسلامية.

(61) كادر تنظيمي في الجامعة الأميركية في بيروت.

تلك المنطقة. في حينه لم تكن الإمكانات متوافرة لدينا لإقامة معسكر تدريبي. فكان أن لجأنا إلى (الشهيد) قائد كتيبة الجليل الحاج حسن[62] الذي كان قد ترك كلية الشرطة الأردنية، وامتهن التدريس في السعودية قبل أن يلتحق بحركة فتح في عام 1966، ويتخرج في كلية تشرشال العسكرية في الجزائر، ليكون من أوائل القادة العسكريين في قوات العاصفة. كان الحاج قائدًا عسكريًا متميّزًا في جنوب الأردن، حيث أُطلق عليه اسم الحاج بوتاس؛ لأنّه آل على نفسه ألّا يشاهد دخان مصنع البوتاس الإسرائيلي، وفي ما بعد تحوّل إلى الحاج تابلاين لقيامه بنسف خط أنابيب النفط المتجه إلى حيفا عبر الجولان السوري المحتل؛ ما أدّى إلى اعتقاله من قِبل النظام السوري مرات عدة. أمّا الأرض المحتلة فقد كانت همه الأول، وكان يترك كتيبته شهورًا متسللًا إلى الأردن مع رفيقه حمدي وأبو حسن قاسم للإشراف على عبور الدوريات القتالية إلى فلسطين. إضافة إلى ذلك، كان مثقفًا ثوريًا بجميع ما تحمل هذه الكلمة من معنى. وانعكست خبرته القتالية وثقافته الثورية على الوحدات التي كان يتولى قيادتها، التي ضمّت وخرّجت خيرة المقاتلين والكوادر. وبهذا كان الحاج حسن من النواة الأولى التي ساهمت بفاعلية في صوغ الأفكار الثورية وتبنّي الممارسات العملية التي عُرف بها هذا التيار.

أرسل إلينا الحاج حسن سيارته العسكرية وسائقه وعددًا من الخيم والفرشات والمواد التموينية والأسلحة وكادرًا تدريبيًا متميّزًا، أذكر منه عدنان أبو جابر وعمر أبو ربيعة[63] اللذين انضما إلى الكادر السياسي الذي ضمّ سعود ويزيد[64] ومعتصم وكاظم[65].

(62) (شهيد)، عبد الإله الدراغمة، استشهد في معركة شكا في شمال لبنان في عام 1976 خلال محاولته فتح جبهة جديدة لتخفيف الحصار عن مخيم تل الزعتر، وهو من ضباط قوات العاصفة الأوائل في حركة فتح، ومن الكوادر المؤسسة في التيار.

(63) ضابط من كتيبة الجليل.

(64) أصبح أستاذًا جامعيًا، وباحثًا، وكاتبًا في الدراسات الاستراتيجية.

(65) أصبح طبيب أسنان.

في أحد أيام الدورة دعانا سعود لزيارة منزل عائلته في قريته حربتا التي لا تبعد كثيرًا عن اللبوة. في المنزل سمعت جدّته العجوز أحدنا ينادي يزيد باسمه، فما كان منها إلّا أن انتفضت وأخذت تولول قائلة «يا شحاري يزيد ببيتي، وبطعميه وبشربه بإيدي» مستحضرة من عمق ذاكرتها الشعبية قصة كربلاء ومقتل الإمام الحسين، متخيّلة أنّ يزيد الذي يقف أمامها هو يزيد بن معاوية. تدخّل سعود بسرعة ليقنعها بأنّ اسمه زيد وليس يزيد وأنّها سمعت الاسم خطأ، موفرًا على نفسه وعلينا عناء جدل عقيم مستمر منذ نحو 1400 عام ولم يحسم بعد.

بعد ذلك بسنوات، سألتني ابنتي الكبرى عقب التحاقها بدراستها الجامعية في بيروت، في أول اتصال هاتفي لها: بابا إحنا «سُنّة» ولا «شيوعية»؟ لتعرف كيف تجيب أقرانها الذين كانوا يستفسرون منها عن انتمائها المذهبي. للوهلة الأولى لم تُدرك أنّهم يسألون عن مذهبها الفقهي إن صح التعبير، فقد نشأت في بيئة لا تعرف إلّا إسلامًا واحدًا، وهي مثلي لم تعرف أنّ هنالك انقسامًا مذهبيًا يسترجع الذين يغذونه ويعتاشون عليه وقائع حدثت قبل أربعة عشر قرنًا، كأنّ رحى معركتها تدور في هذه اللحظة.

ما أعرفه عن المذاهب في طفولتي لا يعدو كون أبي حنفيًا، وأمي على مذهب الإمام أحمد بن حنبل. وقد لمستُ هذا الفارق نتيجة استغراق أمي في بعض السنن وقتًا أطول من أبي. تعلّمت في مدارس الأردن ومصر والكويت، وكانت صفوف التاريخ ودروس الدين منحازة تمامًا للإمام علي في مواجهته مع معاوية، حتى حسبتُ أنّ الصراع بين «شيعة» علي و«جمهور» معاوية درس من دروس التاريخ الذي انقضى وفات. أمّا في عاشوراء فقد كانت أمي الحنبلية تطهو لنا طعامًا تسميه عاشوراء مصنوعًا من حبات القمح، اكتشفتُ لاحقًا أنّ أهلنا في الجنوب اللبناني يعدّون ما يشبهه في المناسبة ذاتها، كما أنّها كانت تقضي يومها في الصلاة والدعاء لسيدنا الحسين وآل البيت.

في الجنوب اللبناني احتضننا أبناؤه «الشيعة» في مواجهة العدو الصهيوني، وتقاسمنا معهم الخبز والشهادة. ولمّا كنّا نصلي خلف العالم الوقور السيد

عبد الرؤوف فضل الله والد السيد محمد حسين فضل الله في عيناتا وبنت جبيل، أو خلف الشيخ راغب حرب[66] في جبشيت، لم يسألنا أحد يومًا لماذا نضع أيدينا حول وسطنا ولا نرسلها. كنّا في بيوتنا وبين أهلنا وإخوتنا.

إذَن من أين هبّت ريح السموم، وحوّلت الخلاف على المصالح والسياسات إلى ممارسات طائفية بغيضة، في سعي محموم للبقاء في السلطة تارةً، أو الانقلاب عليها تارة أخرى، محوّلة التباين المذهبي إلى هويات قاتلة؟ كيف يمكن أن نُبرّر تفتيت النسيج الاجتماعي الوطني في مجتمعاتنا؟ وهل يمكن التمييز بين فتاوى تكفير الشيعة، وما يقوم به داعش من تفجير للمساجد؟ ألا تمهّد هذه لتلك؟ ما الفرق بينهما إن كان ثمّة فارق؟ وهل يكفي أن يستنكر بعض العلماء والفقهاء تفجير المساجد بوصفه قتلًا للأبرياء أو عبثًا بالأمن، أم أنّ الأساس تحريم تكفير المسلم الأمر الذي يوجب قتله إن لم يكن اليوم فغدًا، ويدعم الأساس النظري الذي قام عليه داعش وإخوته، ويُخفق جهد محاربته، ويُدخل بلادنا في حروب أهلية لا تنتهي؟

في الجانب الثاني لا يقلّ الأمر قتامة؛ إذ تحاول قوى تحترف الاستبداد والإقصاء المذهبي تجييش المشاعر الطائفية عند إخوتنا «الشيعة»، ونبش التاريخ، وتصوير الأمر وكأنّنا اليوم نعيش كربلاء، عبر إعادة إنتاج بعض الرموز الدينية، ورفع شعارات مثل «يا لثارات الحسين»، والتشكيك في بعض الصحابة والتطاول عليهم، وكأنّنا اليوم نقف بالقرب من سقيفة بني ساعدة في المدينة، أو نقارع بالسيف في صفين وكربلاء، حيث يتخيّل المسلم «الشيعي» أنّ أخاه المسلم «السني» هو أحد جنود يزيد في معركة تدور رحاها اليوم، وأنّ ثأر الحسين والانتقام لـ «ضلع فاطمة» هو ما يُعبأ به الحشد الشعبي لتهيئته للمعارك التي تشهدها الساحات العربية، ووسط صمت قاتل من المراجع المختلفة ذات الاحترام والتقدير، «سُنية» كانت أو «شيعية»، عن جميع ما يجري.

بينما يتحدّث الطرفان عن عزمهما محاربة داعش، ونبذهما الاتجاهات

(66) (شهيد). إمام بلدة جبشيت، ومن مؤسسي المقاومة الإسلامية بعد حرب 1982.

التكفيرية، يجري على الأرض ما لا يصبّ في هذا الاتجاه، بقدر ما يضع الحَبّ في طاحونة داعش، إذ لا يستقيم الوضع ضمن الاتجاهات المتزايدة في التحريض على إخوتنا «الشيعة» بل تكفيرهم في بعض الأحيان، فهذا هو الأساس النظري الفقهي الذي يستند إليه دعاة تفجير المساجد. كما لا يستقيم الأمر باستحضار معارك الماضي وعَدّ «السُنة» اليوم كأنّهم جيش يزيد أو أنصار داعش، وسط التشكيك في عدالة الصحابة والاعتداء على قدسيتهم. كما لا يجوز استخدام الموروث الديني والتاريخي لدعم الاستبداد ورعاية الفساد ونصرة الدكتاتوريات من هذا الطرف أو ذاك، واستغلال عواطف الجماهير لتحقيق أغراض دنيوية على حساب مبادئ الدين الحنيف، والأهم من ذلك كله إعادة تحديد العدو الرئيس لأمتنا، وإنهاء المعارك الجانبية ونبذ الانقسام والتجييش الطائفي والمذهبي، والتمسك بالوحدة، ورفض الاستبداد والفساد والإقصاء، والتفرغ لمقاومة العدو الصهيوني. حينها فقط يُشرق خط المقاومة من جديد، ويصبح شعارنا يا لثارات فلسطين ودير ياسين وقانا وبحر البقر، وهو الاتجاه الذي يوحّد جهد الأمة كله، ويُصلح لها دينها ودنياها.

فجأةً وبعد أن قاربت الدورة على نهايتها، ظهرت في السماء غيوم سوداء؛ فقد هوجم باص في منطقة عين الرمانة كان يُقلّ رجالًا ونساءً وأطفالًا، في طريقه من الطريق الجديدة إلى مخيم تل الزعتر. كانت تلك الشرارة التي أشعلت الحرب الأهلية في لبنان[67]. أقفلنا المعسكر وعدنا إلى بيروت. تكرّرت تجربة إقامة المعسكرات مع تطوّر الكتيبة وانتشارها وكان أهمّها معسكر عين دارة، تلك القرية المسيحية الهادئة التي تدرّب خيرة أبنائها وبناتها في هذا المعسكر، ومعسكر صبرا، ومعسكر بيصور الذي امتدّت مهمته لتشمل تدريب أفواج من المليشيات والحركة الوطنية اللبنانية، ولا سيما في الحزب التقدمي الاشتراكي.

---

(67) 13/4/1975.



الفصل الرابع

الحرب الأهلية 1975

بدلًا من المقعد المزعوم في قطار التسوية الأميركية المرتقبة، اشتعلت في لبنان حرب أهلية ضروس، وانقسم لبنان معسكرين؛ معسكر الحركة الوطنية اللبنانية تدعمها المقاومة الفلسطينية، ومعسكر الكتائب اللبنانية وحلفائها. وعمليًا انقسم لبنان إلى معسكر مسلم ومعسكر مسيحي. ولم يكن هذا التقسيم فكريًا وعقائديًا وطائفيًا فحسب، وإنّما امتد إلى الأرض ليشمل تقسيم لبنان مناطق بحسب الهُوية الطائفية لأغلبية سكانها، مع ما رافق ذلك من عمليات تطهير مذهبي وتهجير للسكان، كما حدث في مناطق الجبل والدامور والمسلخ والنبعة وتل الزعتر.

منذ أيار/مايو 1973 وبوادر الصراع الداخلي تتصاعد، بين القوى والأحزاب اللبنانية، وبين الجيش والأحزاب اليمينية من جهة والمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية من جهة أخرى، وكانت أرضية هذا الصراع ممهدة نتيجة طبيعة النظام الطائفي الهش القائم في لبنان.

أدّى نمو المقاومة الفلسطينية وخروج المخيمات عن سيطرة المكتب الثاني اللبناني (الاستخبارات) إلى شعور الطوائف الإسلامية وأحزاب الحركة الوطنية بأنّ ثمّة تغييرًا في ميزان القوى قد يسمح لهم بإعادة النظر في المعادلة الطائفية السائدة، في الوقت الذي تمسّك الموارنة والأحزاب اليمينية بهذه المعادلة، وبسيطرتهم على الجيش ومؤسسات الدولة وقاموا بإعداد أنفسهم لمقاومة أي تغيير محتمل أو إجهاضه في مهده.

بدأت كرة الثلج بالتدحرج؛ إذ أصدرت جمعية المقاصد الإسلامية بيانًا احتجت فيه على التمييز الطائفي في الجيش، وقارنت بين السلطات الهائلة لرئيس الجمهورية الماروني والسلطات المحدودة لرئيس الوزراء المسلم،

أمّا صائب سلام[1] رئيس الوزراء اللبناني فقد قدّم كرسيه في أحد الاحتفالات المقامة في قاعة اليونسكو ليضعه بموازاة كرسي رئيس الجمهورية، في حين أعلن رشيد كرامي[2] عزمه على الترشح لرئاسة الجمهورية، كما نظّم السيد موسى الصدر مسيرتين جماهيريتين واحدة في صور والثانية في الهرمل ضمت كل منهما ما يقارب مئة ألف بينهم نحو 15 ألف مسلّح، ودعا إلى الإصلاح السياسي وتسليح سكان الجنوب لمواجهة إسرائيل[3]. أمّا رئيس الجمهورية سليمان فرنجية[4] فقد نصح قادة الأحزاب اليمينية بأن «لا يتكلوا بعد اليوم على الجيش وأن يتكلوا على أنفسهم»[5]، ورأت المارونية السياسية أنّ الوجود الفلسطيني مصدر تهديد للدولة واعتداء صارخ على السيادة.

في 26 شباط/ فبراير 1974 أطلق جنود من الجيش اللبناني النار على معروف سعد[6] السياسي اللبناني البارز في أثناء تظاهرة في صيدا دعمًا للصيادين المحتجين على قرار لرئيس الجمهورية سليمان فرنجية بمنح شركة يملكها رئيس جمهورية سابق (كميل شمعون)[7] احتكارًا لصيد الأسماك، وما لبث أن استشهد متأثرًا بجراحه.

شيّع معروف سعد في صيدا 150 ألف شخص في حين شهدت المنطقة الشرقية من بيروت تظاهرة تأييدًا للجيش ضمت 35 ألف شخص. واتهم الرئيس رشيد كرامي دوائر رسمية بمساعدة الأحزاب اللبنانية على

(1) (1905–2000) شغل مرات عدّة منصب رئيس الحكومة اللبنانية.

(2) سياسي لبناني من طرابلس، شغل منصب رئيس الوزراء 8 مرات، اغتيل في إثر تفجير طائرة عمودية عسكرية كان يستقلها في 1/ 6/ 1987، وأدين سمير جعجع قائد القوات اللبنانية بتدبير الاغتيال.

(3) يُنظر: يزيد صايغ، **الكفاح المسلح والبحث عن الدولة: الحركة الوطنية الفلسطينية، 1949–1993**، ترجمة باسم سرحان (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2002)، ص 515–516.

(4) (1910–1992) رئيس الجمهورية اللبنانية بين عامي 1970 و1976.

(5) كريم بقرادوني، **لعنة وطن: من حرب لبنان إلى حرب الخليج** (بيروت: عبر الشرق للمنشورات، 1991)، ص 135.

(6) (1910–1975) مؤسس التنظيم الشعبي الناصري في لبنان، ورئيس بلدية صيدا (بين عامي 1963 و1973).

(7) (1900–1987) ثاني رئيس للجمهورية اللبنانية، ورئيس حزب الوطنيين الأحرار.

تهريب السلاح، كما حثّ الإمام موسى الصدر الجيش على البقاء بعيدًا من السياسة، أمّا بيار الجميّل زعيم حزب الكتائب، فقد دعا إلى تجميد كامل للنشاط الفدائي. وكانت الحكومة اللبنانية قد رفضت عرضًا ليبيًا بتزويد لبنان بوحدات دفاع جوي، كما رفضت قرارًا لمجلس وزراء الدفاع العرب بمنح لبنان 300 مليون ليرة لبنانية لبناء تحصينات في المخيمات الفلسطينية ضد الغارات الإسرائيلية[8]، وأصدرت قيادة الجيش اللبناني تعليمات لقادة المناطق العسكرية بإعداد خطط لإعادة سيطرة الدولة على بيروت وتجريد المخيمات من الأسلحة الثقيلة.

في وسط هذه الأجواء وقعت حادثة باص عين الرمانة التي أدّت إلى مقتل 26 شخصًا وجرح 29 آخرين، كانوا عائدين إلى مخيم تل الزعتر بعد حضورهم احتفالًا أُقيم في جامعة بيروت العربية، وادّعى حزب الكتائب في حينه أنّه قبل هذه الحادثة بيوم قام مسلحون مجهولون بإطلاق النار من سيارة مسرعة على كنيسة كانت تشهد قداسًا يحضره رئيس الحزب بيار الجميل، ما أدى إلى مقتل شخص واحد.

أثارت حادثة الباص حالة من التوتّر والهياج وإطلاق النار على مكاتب للكتائب. وفي اليوم التالي للحادث دعت أحزاب المعارضة والمقاومة الفلسطينية في اجتماع مشترك إلى عزل حزب الكتائب عن الحياة السياسية في لبنان، وتضمنت الدعوة استبعاد وزرائه من الحكومة، وحل الحزب ومصادرة أسلحته وأمواله[9].

تردّد ياسر عرفات بشأن تبنّي الدعوة إلى عزل الكتائب، لكنّه اضطُر إلى ذلك تحت ضغط شركائه في المقاومة الفلسطينية وفي المعارضة اللبنانية وفي بعض التيارات اليسارية داخل «فتح» نفسها؛ إذ كانت لديه هواجسه من أن يؤدي هذا القرار إلى نزاع أهلي شامل، وأن يُعرّض استراتيجيته الدبلوماسية منذ حرب تشرين أول/ أكتوبر للخطر، في الوقت الذي يدرك

(8) صايغ، ص 515.

(9) جريدة **السفير**، 16/ 4/ 1975.

فيه أنّ مشاركته في عملية السلام تقتضي منه المحافظة على قاعدته في لبنان[10].

فجأة، وجد التنظيم الطلابي نفسه أمام مرحلة جديدة فرضتها عليه أوضاع الحرب الأهلية وعودة عدد من منتسبيه إلى مدنهم وقراهم وأحيائهم، ما فرض عليهم مهمات جديدة في الدفاع عن هذه المناطق ومحاولة منع الممارسات الطائفية فيها، وبهذا امتدت مهماته لتشمل عمليًا جميع لبنان من شماله إلى جنوبه، ومن بقاعه وجبله. حلّت البندقية مكان الكتاب، وأصبح تلاميذ الأمس قادة للمحاور وروادًا للعمل السياسي والعسكري والاجتماعي في أحيائهم ومناطقهم، إضافةً إلى المرابطة في خطوط التماس أشرفنا على إنشاء اللجان الشعبية والوطنية لتسيير أمور الأحياء، وأقمنا نوادي ومستوصفات طبية وروابط اجتماعية لخدمة الجمهور.

وُجد عدد كبير منّا في بيروت الغربية، كما وجدت كوادر مهمة في المناطق المختلفة؛ فكان خالد وشريف[11] وأبو نضال[12] في المسلخ والنبعة، وعصمت وأبو داود وأبو شوقي وأحمد في شمال لبنان، وربيع وحاتم ومحمد وأبو وجيه وأبو محمود في الجبل والشوف، وسامي ورضوان وأبو أسعد وأبو خالد وإنعام في البقاع، وطراد في الهرمل، ومع هؤلاء المئات من إخوانهم ورفاقهم. وعندما اتسعت المهمات وطُلب منّا التوجه نحو محاور جديدة مثل الشويفات وصنين وعينطورة[13] والزعرور والكحالة وبحمدون، كانت المناطق كلها ترفد السرية بمئات المقاتلين. وخلال الحرب توزّع الشهداء على المناطق كلها في لبنان.

(10) قارن بـ: صايغ، ص 519.
(11) من مؤسسي الكتيبة، قاتل في النبعة، وعمل في الجنوب مسؤولًا عن العلاقات الجماهيرية، وحاز شهادة الدكتوراه في الاقتصاد.
(12) محمد نور الدين، مناضل بروليتاري ونقابي ومن الرعيل الأول في التيار، وكان من قادة القطاع العمالي في منظمة العمل الشيوعي، شارك في القتال في النبعة ولاحقًا في الجنوب.
(13) قرية لبنانية في قضاء المتن.

كانت الحرب الأهلية فرصة كبيرة لنمو التيار وانتشاره؛ فمن جهة اعتُمد تأليف السرية الطلابية بقيادة (الشهيد) سعد جرادات، وحظيت بدعم كبير ومساندة قوية من (الشهيد) جواد أبو الشعر قائد قوات المليشيا وعضو المجلس الثوري لحركة فتح، وبدأت مهمات السرية تتسع من حي الشياح، حيث وُجد أدهم وربحي، واستشهد فهيم البرغوثي[14] أول شهيد للسرية الطلابية، إلى حي البرجاوي، ذلك الزاروب الضيق بين رأس النبع[15] والأشرفية الذي وجدنا أنفسنا عالقين فيه طوال الحرب، ليمتد المحور الذي يقع تحت مسؤوليتنا من منطقة البرجاوي حتى منطقة الخندق الغميق في بيروت الغربية. كما شارك إخوتنا الآخرون في الدفاع عن مناطقهم في الجنوب والجبل والشمال والبقاع. لم نسأل يومًا عن مذهب أحد أو دينه أو بلده، كان طموحنا عروبيًا ملتصقًا بخط الجماهير وعاداتها وتراثها العربي والإسلامي، لذا كان في صفوفنا مناضلون من جميع البلاد العربية، ومن الطوائف والمذاهب كلها.

منذ حرب تشرين أول/ أكتوبر الوطنية بدأ تيارنا في التشكل متأثرًا بالتجربة الفيتنامية والصينية، مختلفًا عن المجموعات الأخرى من «يسار فتح» واليسار اللبناني والفلسطيني المرتبط بالنمط التقليدي المشابه للأحزاب الشيوعية العربية من حيث التزامها الخط السوفياتي وتبعيتها له، فهو إضافة إلى موقفه المبدئي الرافض للتسوية والبرنامج المرحلي لمنظمة التحرير، فإنّه يؤيد أيضًا تعزيز التضامن العربي والابتعاد عن سياسة المحاور، والتمسك بحرب التحرير الشعبية الطويلة الأمد، ويقف ضدّ شعار عزل حزب الكتائب، بوصف ذلك يقوّي حزب الكتائب ويكرسه قائدًا للمعسكر المسيحي، كما وقف بصلابة ضدّ تقسيم لبنان وضد أوهام إمكان تحقيق انتصار حاسم في الحرب الأهلية، وضدّ محاولات عزل القوى التقليدية في الصف الوطني، داعيًا إلى تأليف جبهة وطنية عريضة، وإلى إعادة تصحيح اتجاه البنادق السورية والفلسطينية

(14) (شهيد)، طالب في جامعة بيروت العربية.
(15) رأس النبع: حي من أحياء بيروت الغربية.

واللبنانية نحو العدو الصهيوني، وهو يعدّ القيادة الفلسطينية قيادة وطنية وإن كان يختلف معها في نظرتها إلى التسوية السلمية.

أدّت وجهات النظر هذه إلى خروج مجموعة بقيادة ناجي علوش وأبو داود[16] عن هذا التيار الذي أصبح أكثر تمايزًا وترابطًا وقوة ووحدة. أمّا على الصعيد العملي، ومع اتساع رقعة المعارك فقد كان التيار في طليعة المقاتلين في بيروت الغربية والجبل وصنين وبحمدون والشمال اللبناني، وقدّم خيرة قادته وأبنائه شهداء على هذه الطريق، رافعًا شعار إنهاء الحرب الأهلية والعودة إلى قتال العدو الصهيوني في الجنوب اللبناني.

البرجاوي

في الساحة تجمّعنا، أنا وسعد جرادات وعلي أبو طوق ومروان كيالي ونذير[17] وإدي زنانيري وأبو حسن قاسم وحمدي وأبو زياد[18] ومعتصم وأبو فادي وأبو حسين وغسان بركات[19] وسمير الشيخ[20] وعدنان أبو الهيجا[21] وعبد الفتاح الجيوسي[22] وعدد آخر من الإخوة. جلسنا على برندة بيت تطلّ على ساحة البرجاوي الرئيسة التي كان رصاص القنص الصادر من برج الناصرة في الأشرفية يسيطر عليها تمامًا.

يا إلهي، ماذا لو سقطت قذيفة الآن! تنبّه بعضنا لخطورة هذا التجمع،

(16) محمد داود عودة، عضو المجلس الثوري لحركة فتح وقائد المليشيا في عمّان، أصدر كتاب من **القدس إلى ميونخ** أعلن فيه تفصيلات كاملة عن عملية ميونخ ودوره فيها، توفي في دمشق في عام 2010.

(17) مناضل لبناني من مؤسسي الكتيبة الطلابية والتيار، توفي بمرض السرطان في سن مبكرة.

(18) ميشال نوفل، باحث وصحافي لبناني بارز، ومن مؤسسي اتحاد الخلايا الماركسية اللبنانية قبل أن ينضم إلى التيار، عمل في صحف **النهار** و**السفير** و**المستقبل** وفي مجلة **الدراسات الفلسطينية**.

(19) من كوادر التنظيم الطلابي، صحافي وأستاذ جامعي لاحقًا.

(20) (شهيد)، تخرّج في الجامعة الأميركية في بيروت، وأصبح بعد حرب 1982 من أبرز القادة في بيروت، اغتيل في منزله في بيروت مع زوجته وأطفاله وهم نيام في أسرّتهم.

(21) رئس الاتحاد العام لطلبة فلسطين، ثم أصبح عضوًا في الهيئة التنفيذية للاتحاد، وسفيرًا لفلسطين في بلدان عدّة، آخرها الهند.

(22) من كوادر التنظيم الطلابي ومسؤول قسم المعلومات في جهاز الأرض المحتلة.

واقترح أن ننصرف جميعًا، ونُرتب نظامًا للمناوبات في الموقع، فالمعركة ما زالت طويلة ونحن في أيامها الأولى. كنّا قد هرعنا جميعًا إلى المنطقة إثر استغاثة من معتصم والشيخ عبد الله الشعار وأهل الحي، بعد محاولة قوات الكتائب السيطرة عليه، لا أعرف أي جنون هو الذي دفعنا إلى ذلك؛ فالحي من ناحية جغرافية زقاق صغير يسكنه مسلمون فقراء ممتد أسفل حي الأشرفية الذي تُسيطر عليه بالنيران من مبانيها العالية، حيث يصبح الدخول إليه والخروج منه محفوفين بالمخاطر.

أوكلت مهمة الدفاع عن المنطقة إلى علي ومعتصم. واتخذنا من مدرسة عزيزة الطيارة مقرًا لقيادة محور رأس النبع– البرجاوي. ورُتّب نظام للمناوبات شارك فيه أخوات وإخوة من مختلف مناطق بيروت. في البرجاوي استشهد أحمد القرى[23] و(الشهيد) عزمي إبراهيم[24] وجرح علي وعدنان أبو الهيجا ومعتصم وحمدي وأبو ربيع وغسان وماجد وعاطف[25] وآخرون.

كانت الاشتباكات في البرجاوي أمرًا يوميًا، ونيران القنص تسيطر على المنطقة. في أحد الأيام وأنا عائد من البرجاوي عبر طريق الشام، لمحتُ بعض الأشخاص يحاولون اقتحام أحد المنازل بهدف سرقتها، توجّهت نحوهم وتخلّيت عن حذري من نيران القنص، فما كان من رصاصة قناص إلّا أن مسّت جلدة رأسي مسبّبة بعض الحروق وقليلًا من الدماء.

إلّا أنّ المعركة الأعنف كانت حين تمكنت القوات الكتائبية مع حلفائها من احتلال مبنى «الطبية» وهو معهد فرنسي للطب، وتمكّنت من عزل إحدى

(23) (شهيد)، من الكوادر الأساسية في منظمة الاشتراكيين اللبنانيين قبل انضمامه إلى حركة فتح ومساهمته في وضع اللبنات الأولى للتيار، اهتم بالجانب المتعلق بالعمل الشعبي وتأسيس المستوصفات الطبية في أحياء بيروت الغربية ومنها مستوصف رأس النبع الذي ساهم في إدامته متطوعون أصدقاء من النرويج ومن بينهم على ما أذكر أمل؛ وهو الاسم الحركي الذي أطلقته على نفسها إحدى الممرضات المتطوعات.

(24) (شهيد)، سليم فرج الله، من فلسطين المحتلة 1948، عمل مترجمًا للغة العبرية في مركز المعلومات مع الشهيد أبو حسن قاسم، وكان مقاتلًا قوي البنية متميزًا في أدائه.

(25) (شهيد)، من كوادر الكتيبة الأولى استشهد في مخيم البداوي في عام 1983.

مجموعاتنا خلفها، وبدأت التقدّم محاولة السيطرة على طريق الشام وبعض مباني رأس النبع والقضاء على مجموعاتنا في البرجاوي. صمدت هذه المجموعات وفيها بعض الأخوات، كما صمد علي أبو طوق ومنع تقدّم القوات المعادية مستخدمًا القنابل اليدوية حتى وصلته التعزيزات الكافية.

قرّر (الشهيد) سعد استعادة «الطبية» فورًا. ودون أدنى تأخير وقبل أن يحلّ الليل ويقوم العدو بتعزيز قواته، ألّف مجموعتين؛ الأولى للاقتحام بقيادته ومعه أبو الراتب[26] وسعيد[27] وعبد الفتاح وحمدي وعلي وحسنين وماجد وأبو إلياس وآخرون، ومجموعة إسناد وحماية بقيادة جهاد[28] كانت مهمتها تأمين تغطية نارية للمجموعات الأولى خلال تقدّمها وقطعها طريق الشام واقتحامها مبنى «الطبية» ومحيطه، على أن تتبع المجموعات الأولى فور قيامها باقتحام المبنى لتشارك في تطهيره.

تمّت العملية بنجاح كبير، وأُعيد تحرير «الطبية» والسيطرة على طريق الشام وفك الحصار عن مجموعاتنا داخل حي البرجاوي. ومن مفارقات ذلك اليوم أنّ الإخوة أحضروا إلى مدرسة عزيزة الطيارة جثمانًا لشاب أشقر ممتلئ ظانين أنّه سعيد، وأنّه قد استشهد، وبعد لحظات حضر سعيد وتبيّن أنّ الجثمان هو لقائد مجموعة من تنظيم نمور الأحرار[29]، وتبيّن بعد ذلك أنّ هذا الشخص اصطدم بأبو إلياس وسأله عن اسمه فأجابه أبو إلياس، ومرّ عنه معتقدًا أنّه من إخوتنا، بينما اعتقد قائد المجموعة القتيل أنّه من طرفهم بحسب اسمه (أبو إلياس)، بعدها مرّ ماجد الذي انتبه إلى البندقية التي يحملها المقاتل الآخر أنّه

(26) (شهيد) إسماعيل خضر (أبو الراتب) من قرية الخضر نائب قائد السرية الطلابية عند تأليفها، كان يستعد للذهاب في دورية باتجاه الأرض المحتلة كجزء من خطة لإقامة قواعد ارتكاز في الداخل. استشهد في بيصور في منطقة الجبل.

(27) سعيد كراجة، من الكوادر الأولى في الكتيبة وفي لجنة 77 في القطاع الغربي، متقاعد في حلحول في الضفة الغربية.

(28) شفيق الغبرا، تخرّج في الولايات المتحدة والتحق بالكلية العسكرية لحركة فتح، وشارك في تأسيس الكتيبة الطلابية منذ بداياتها، وأرّخ لها في كتابه **حياة غير آمنة** الصادر عن دار الساقي، كاتب مقالات في صحف عربية عدة وأستاذ العلوم السياسية في جامعة الكويت.

(29) أحد تنظيمات القوات اللبنانية.

من الخصوم. وهكذا تبادل كلاهما النار فكان أن قُتل قائد المجموعة وأصيب ماجد إصابة طفيفة، فيأتي آخرون ويعتقدون أنّ القتيل هو سعيد ويقومون بنقل الجثمان.

مع حلول ساعات المساء، كان لا بد من التأكد أنّ المنطقة بأسرها قد أصبحت خالية من القوات الكتائبية، ذهبتُ برفقة مجموعة للتفتيش بعد ورود أنباء عن سماع أصوات بالقرب من المقبرة الموجودة في المكان. كانت المرة الأولى التي أدخل فيها مقبرة مسيحية، ولم أكن أعرف أنّها تمتلئ بالتماثيل. وفي ظلّ ضوء القمر المكتمل، التفتُّ إلى الخلف لأكتشف ظلًا خلفي تمامًا. للوهلة الأولى شعرتُ بالخوف، وأيقنتُ أنّ ثمّة معركة مقبلة، وأنّنا وقعنا في كمين، قبل أن أكتشف خلال ثوانٍ أنّه ظلّ لتمثال حجري.

كانت معركة «الطبية» معمودية إضافية بالنيران للسرية التي خاضتها بنجاح. ليلًا حضر جواد أبو الشعر وأبو داود وعدد من قادة الفصائل وكوادر الحركة الوطنية لتهنئتنا على هذا الإنجاز، إلّا أنّ مهمتنا في رأس النبع والبرجاوي وبيروت الغربية كانت أكثر تعقيدًا من كونها معركة عسكرية فحسب، حسبي أن أذكر أنّ سكان رأس النبع من إخوتنا المسيحيين لم يُهجّروا من منازلهم، وقمنا بحماية ممتلكاتهم بالقوة أحيانًا من بعض الطارئين على المقاومة والحركة الوطنية الذين أرادوا أن يحوّلوا المعركة معركة بين الطوائف، وحافظنا على مركز الراهبات القريب من الطبية سالمًا، وأقمنا حوارًا دائمًا ومفيدًا مع الراهبات اللواتي وُجدن فيه، وكان أبو زياد وأبو المنى رائدين في هذا العمل المهم. بقينا في البرجاوي حتى نهاية الحرب الأهلية.

الكلية العسكرية

طلب منّي أبو جهاد[30] أن أحضر لمقابلته. وهناك فوجئتُ بقراره تعييني مفوضًا سياسيًا للكلية العسكرية لحركة فتح. وأردف قائلًا بأنّهم قرّروا أن

(30) خليل الوزير (1935–1988)، أحد مؤسسي حركة فتح، ونائب القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية، اغتيل في تونس بعملية نفذها الموساد الإسرائيلي.

يكون المفوض السياسي في أي موقع نائبًا لقائد الموقع، وبناء عليه سأكون نائبًا لقائد الكلية العسكرية. وهو قرار لم يُحترم كثيرًا في بداياته.

سابقًا كان المفوض السياسي للكلية العسكرية مازن عز الدين[31]، وكانت لديه مهمات أخرى، فهو المفوض السياسي لقوات اليرموك. أمّا الآن فعليّ أن أكون متفرغًا تمامًا للمهمة الجديدة، وأضع برنامجًا للتثقيف السياسي للكلية، وأرتب حضور محاضرين متخصصين وقادة فلسطينيين إلى الكلية. كنتُ قد تخرجتُ حديثًا في الجامعة وعمري لا يتجاوز اثنين وعشرين عامًا.

أعطاني أبو جهاد قرارًا بشراء سيارة. فذهبتُ بالقرار إلى الإدارة المالية حيث أرشدوني إلى سيارة فولكس فاغن في بعلبك بمبلغ خمسة آلاف ليرة لبنانية. لم أكن أعرف قيادة السيارات، فقادها أحد الإخوة إلى بيروت بعد أن قمنا بتغيير مجرى المقعد الأمامي وإعادته إلى الخلف ليلتصق بالمقعد الخلفي كي أتمكن من قيادتها نظرًا إلى طولي المفرط. في بيروت وخلال ساعتين تولى حسام عمّار[32] تعليمي قيادة السيارة في ساحة «سبينس» في الرملة البيضاء. بعدها قدتُ السيارة عائدًا إلى منزلي في القرب من الملعب البلدي.

صباح اليوم التالي ذهبتُ وحيدًا إلى سورية. الطريق كانت سهلة إجمالًا إلى أن وصلتُ ظهرًا إلى دمشق في عزّ الازدحام، في ساحة السبع بحرات وسط المدينة لم أعد أسيطر على السيارة التي كان محركها يتوقّف كلما سرتُ مترًا إلى الأمام. لم أكن أعرف تمامًا كيف أوازن ما بين الضغط على دواسة البنزين وعلى دواسة تبديل السرعات (Gear) في الوقت ذاته، أظنّ أنّني قضيتُ أكثر من ساعة قبل الخروج من الساحة محملًا بعشرات الشتائم ومتجهًا إلى حموريا في غوطة دمشق حيث مقر الكلية العسكرية. بعدها أتقنتُ ذلك تمامًا وأصبحتُ أسافر بين بيروت ودمشق أكثر من مرة في الأسبوع. في إحدى المرات كان معي حمدي وكان يسافر بهوية لبنانية مزورة، في حين كنتُ أتنقل بالهوية العسكرية لـ «فتح». في نقطة الجديدة على الحدود السورية كان مئات اللبنانيين

(31) (لواء) متقاعد، مقيم في رام الله، عضو في المجلس الاستشاري في حركة فتح.
(32) من مؤسسي السرية الطلابية، وهو رجل أعمال حاليًا.

ينتظرون دورهم في حين أنهيتُ ختم بطاقة الحدود على الخط العسكري خلال دقائق. أبلغتُ حمدي بأنّي لا أستطيع انتظاره؛ إذ كان ثمّة محاضرة في الكلية العسكرية. ابتسم حمدي وقال: «هيّا إلى السيارة»، تساءلت: «كيف؟». أخذ بطاقتي المختومة. ولحس بطاقته ليجعلها رطبة. ووضع بطاقتي فوق بطاقته وضغط عليها بكلتا يديه. أصبح على بطاقته ما يشبه الختم. نظر إليها الجندي على الحاجز وأعادها إلينا، فثمّة لون أحمر على البطاقة، ومضينا إلى دمشق.

كان في الكلية العسكرية طاقم متفاهم وعلى قدرٍ عالٍ من الكفاءة والاحتراف. قائد الكلية الرائد مطلق حمدان (أبو فوّاز) وهو ضابط نشمي من شرق الأردن، ترك الجيش الأردني في حوادث أيلول/ سبتمبر والتحق بالمقاومة، والنقيب سميح نصر[33] رئيس هيئة المدربين والملازم أول يونس العاص[34] قائد سرية التلاميذ وعدد آخر من الضباط.

بعد فترة وجيزة من بدء الدورة جاءتنا تعليمات بالذهاب إلى لبنان والمشاركة في القتال الدائر فيه؛ إذ إنّ رئيس الجمهورية أصدر تعليماته للجيش اللبناني بالمشاركة في القتال إلى جانب قوات الجبهة اللبنانية. وأدّى هذا القرار إلى انقسام الجيش اللبناني خلال أيام، عندما رفض الضباط المسلمون والمنتمون إلى الحركة الوطنية القرار، وقاموا بتأليف ما عُرف باسم جيش لبنان العربي بقيادة الملازم أول أحمد الخطيب.

تحرّكت الكلية العسكرية عبر الحدود السورية اللبنانية وبتنسيق كامل مع القيادة السورية، وكل من فيها من التلاميذ الضباط لهم خبرة عسكرية طويلة سابقة، إذ نُسّبت غالبيتهم من القوات العسكرية. نمنا ليلتنا الأولى في شتورا والتقينا بأبو جهاد الذي كان يُشرف على إعادة موضعة القوات هناك. في هذه اللحظات أعلن عن جيش لبنان العربي. فكُلّفنا بمهمة السيطرة على حاجز

(33) من ضباط الجيش الأردني الذين انضموا إلى الثورة عقب حوادث أيلول/ سبتمبر 1970، شغل مواقع عدة منها قائد كتيبة ومدير للتدريب قبل أن يتقاعد برتبة لواء.
(34) من ضباط الجيش الأردني الذين انضموا إلى الثورة عقب حوادث أيلول/ سبتمبر 1970، مدير التدريب في الأكاديمية الأمنية في أريحا برتبة لواء.

الجيش اللبناني في منطقة المديرج لفتح الطريق إلى بيروت؛ لذلك تحرّكنا إلى منطقة بوارج ونمنا ليلتنا في منازل رفاق من الحزب السوري القومي. في الليلة التالية تحرّكت بعض المجموعات للسيطرة على نقطة الجيش اللبناني الذي كان قد أخلاها قبل وصولنا.

بعد عشرة أيام عادت الكلية العسكرية إلى دمشق واستؤنفت الدراسة فيها، إلّا أنّ تطور الحوادث في لبنان، وتغيّر الموقف السوري منها لاحقًا، منعَا عددًا من التلاميذ الذين فضّلوا العودة إلى وحداتهم الأصلية والمشاركة في القتال عوضًا عن متابعة الدراسة في الكلية. وعندما خُرّجت الدورة طلبتُ من أبو عمّار اعتماد هؤلاء بالرتبة نفسها لزملائهم. وقد استجاب لذلك. وهكذا عدتُ إلى موقعي في السرية الطلابية.

أم بالرضاعة

سهرة جميلة تلك التي جمعتني بالصديق العزيز سعيد «أبو منير»، حيث حلّقنا فيها نحو بضعة أعوام. أحسستُ أنّ أحباءنا الشهداء ورفاقنا الأحياء يشاركوننا سهرتنا ويشاطروننا أحزاننا وأشجاننا، ويضيئون ليلنا بومضات الفرح التي تلمع بين حكاية وأخرى. وعلى الرغم من ضيق المكان فقد كان رحبًا لاستقبالهم جميعًا، يأتون من بين ثنايا الذاكرة، وخفقات القلب، وماء العين.

امتدّ الحوار ساعات، منذ أيام سجنه في الخليل إلى التعرّف إلى (الشهيد) حمدي، إلى الأردن ولبنان وحربه الأهلية في البرجاوي وصنين وعاريا وبحمدون، إلى مواجهة العدو في بنت جبيل ورب ثلاثين. ومع كل قصة كنّا نسترجع موقفًا، أو نذكر صديقًا، وندفن شهيدًا تلو الشهيد وكأنّنا نقبض على الأمس بلحظتنا الراهنة.

من بين هذه الحكايات على أهميتها، استوقفتني قصة الدامور[35]؛ أذكر

(35) معركة الدامور شنتها القوات الفلسطينية - اللبنانية المشتركة بقيادة العقيد أبو موسى لفتح طريق صيدا - بيروت، وأسفرت عن تهجير سكانها المسيحيين، للمزيد يُنظر: خليل النبتيتي، **في الطريق إلى فلسطين: سيرة نضالية** (عمّان: دار الشروق، 2014).

أنّ السرية الطلابية شاركت بفصيل في معركة الدامور، بقيادة (الشهيد) أبو الراتب، وكان قائد إحدى المجموعات، ونائب قائد الفصيل سعيد، في حين كانت المجموعات الأخرى بقيادة (الشهيد) عاطف حسين وأبو الخل (خليل النبتيتي).

بعد أن أنجز الفصيل مهماته القتالية التي كُلّف بها، لم يوافق على التجاوزات التي حدثت بحق المدنيين، فتلاسن (الشهيد) أبو الراتب مع العقيد أبو موسى[36] الذي كان قائدًا للمنطقة، وأبلغه أبو الراتب قراره بالانسحاب مع فصيله احتجاجًا على حوادث القتل والنهب وحرق البيوت التي كان يقوم بها بعض الوحدات المشاركة، من دون أن يتدخل العقيد أبو موسى لوقفها. يومها اتصل أبو الراتب (بالشهيدين) أبو حسن قاسم وسعد جرادات اللذَين وافقا على قراره، وأرسلا حسام عمّار والعقيد نعمّان العويني لإعادة الفصيل إلى بيروت.

في ذلك الحين اتهَمنا العقيد أبو موسى بالفرار من المعركة. فشُكّلت لجنة تحقيق برئاسة أبو إياد وخلصت إلى أنّ الفصيل أدّى مهماته القتالية على أكمل وجه. فاستدعى الأخ أبو إياد أبو الراتب وكان معه العقيد نعمّان العويني و(الشهيد) سعد جرادات، وقال لهم عبارته المعروفة «أنتم ضمير فتح».

في سهرتنا تلك، أضاف سعيد إلى تلك القصة التي أصبحت معروفة حكاية جديدة، قال: «كانت مهمتنا دخول الدامور من جهة البيارات في الناحية الشرقية، فاستطلعتُ المنطقة مع أبو الراتب، وانقسم الفصيل إلى قسمين، وحدّدنا نقطة لقاء، وعند ساعة الصفر كنّا أول من تقدّم وأطلق الرصاص، وقد كان معي في المجموعة ممّن لا أزال أذكر أسماءهم؛ (الشهيد) حماد حيدر[37] وأبو الفوز ونجم نجم. وكان الهجوم كبيرًا ومن محاور عدة. وطهّرنا منطقتنا.

(36) سعيد موسى مراغة (العقيد أبو موسى)، ضابط سابق في الجيش الأردني، وقائد لقوات القسطل، ونائب لمدير العمليات المركزية. تولى قيادة «فتح الانتفاضة» 1983 (الانشقاق)، توفي في دمشق عام 2013.

(37) (شهيد)، طالب ثانوي، من بلدة بدنايل في البقاع، وقد كان يجري إعداده للمشاركة مع الشهيد أبو الراتب في دورية لإنشاء قاعدة ارتكاز داخل الأرض المحتلة. استشهد في فنادق بسكنتا في عام 1976.

توجهتُ إلى نقطة اللقاء المتفق عليها مع أبو الراتب. وفي الطريق وجدتُ مقاتلًا من أحد الفصائل اللبنانية يقود رجلًا وامرأة وطفلين بملابس النوم. فأوقفته. وسألته: إلى أين؟ تأخذهم؟ فأومأ لي بإشارة إلى أنّه ينوي قتلهم، فنهرته وهددته بالقتل إن لم يبتعد. فغادر، إذ كان القتل على الهُوية سمة سائدة في الحرب الأهلية اللبنانية.

أخرجتُ من جيبي حبات حلوى (ملبّس) كنّا نحملها لتقينا جفاف الحلق الناجم عن الركض والمسير وتوتر المعركة، وأعطيتها للطفلين. وسرنا جميعًا حتى بلغنا أول بيت في الناعمة[38]، حيث أردتُ أن أؤمّن هذه العائلة عند أصحاب البيت. فتحت الباب سيدة عجوز، رحّبت بنا والتفتت إلى المرأة التي معي، وسألتها: هل أنت ابنة فلانة؟ أجابت المرأة: نعم. فسألتها العجوز: أنت فلانة؟ فأجابت المرأة بذهول: نعم. فاحتضنتها العجوز بشدة، وقالت: أنت ابنتي، ابنتي بالرضاعة، أرضعتك وأنت صغيرة، يوم كنتم جيراننا، بينما نحن واقفون، لا نكاد نصدق ما نراه.

دخلنا المنزل لنحتسي كوبًا من الشاي ونرتاح، في حين انهمكت العجوز والمرأة في تحضير ما تيسّر من الطعام. وبعد دقائق، إذ بالمقاتل الذي خلّصنا المرأة والطفلين منه يدخل المنزل. فوقفتُ فورًا ووجهتُ سلاحي نحوه، وبدأتُ أكيل له الشتائم وأهدده بالقتل إن لم يغادر فورًا ويترك هذه العائلة وشأنها، حيث ظننتُ أنّه يتبعنا. فقال لي: لكن هذا بيتي. جاءت العجوز بسبب صراخنا. وقاطعتنا متحدثة إلى المقاتل: «تعال سلّم على أختك، اللي دايمًا بحكيلك عنها». بكى الجميع. ولعلّ تلك الدموع التي انهمرت كانت تحاول أن تغسل آثام الحرب».

بغال صنين

«صنين»[39]، من لا يعرفها؟ تلك التي غنتها فيروز وغنت معها عينطورة.

(38) بلدة في القرب من الدامور.

(39) أحد جبال لبنان الغربية يرتفع 2695 مترًا عن سطح البحر، ويعدّ ثاني أعلى قمة جبلية في لبنان.

تزدان قمم صنين باللون الأبيض على مدار العام، ومعنا أزهر ثلجها قبل أوانه، فتحوّل إلى اللون الأحمر القاني عندما روته دماء الشهداء.

اقتحم نذير الأوبري (رحمه الله)، صنين في ليلة عاصفة. فردّ عليه قائد محور عينطورة – صنين عندما أرسل عبر اللاسلكي يبلغه: دخلنا الموقع، دخلتم التاريخ.

في صنين استشهد قمر الشهداء جورج عسل (أبو خالد)[40] الذي أطلق عليه الشاعر الفلسطيني معين بسيسو اسم «غزال صنين» في قصيدته التي حملت هذا الاسم، والتي قال فيها:

استشهد الماء ولم يزل يقاتل الندى

استشهد الصوت ولم يزل يقاتل الصدى

وأنت بين الماء والندى

وأنت بين الصوت والصدى

فراشة تطير حتى آخر المدى

أمّا طوني النمس فقد ارتدى فيها ثوب الشهادة بعدما رمى ثوب التخرج في كلية الهندسة في الجامعة الأميركية، ولم يحضر الحفل الذي انتظره وزملاؤه طوال أعوام الدراسة، ليحضر حفل معمودية النار والدم وسط الثلوج الباردة. بعد أن شاهد رفاقه يستعدون للذهاب إلى صنين، فترك حفل التخرج وذهب معهم.

في صنين أزهرت ورود الشهداء جورج عسل وحسنين[41] وحرب

(40) (شهيد)، من قادة العلاقات الخارجية في حركة فتح، ومن مؤسسي الكتيبة الطلابية والتيار. استشهد في 2/ 8/ 1976 في صنين.

(41) (شهيد)، من كادر لجنة نابلس في القطاع الغربي، اعتقل داخل الأرض المحتلة، كان يجري إعداده للمشاركة في دورية مطاردين داخل الأرض المحتلة، استشهد في صنين في عام 1976.

جمجوم[42] ومحمد شبارو[43] وأيمن برقاوي[44] وجمال القرى[45] وحمّاد حيدر ونقولا عبود[46] وطوني النمس. وجُرح فيها العشرات من زملائهم. ولم يبقَ أحد منّا إلّا أمضى فيها أيامًا وأسابيع، نتناوب على المكوث فيها زرافات ووحدانا، فنتأخر أحيانًا لعدم وجود وقود كافٍ لرحلة الذهاب والعودة. في إحدى المرات حصلنا على عشرين لترًا بصعوبة من أبو عمّار مباشرة، فالكمية لا تكفي إلّا للذهاب. تأخرنا عن الإخوة هناك، ذهب البديل، وبقيت السيارة والمجموعات المستبدلة أيامًا عدة في موقع استراحة خلفي حتى أمّن غالون وقود إضافي من قيادة المنطقة.

من تجربة صنين نبتت عشرات الموضوعات الفكرية التي تضمّنها كتاب **أفكار ثورية في ممارسة القتال**[47]. العائدون من صنين سيماهم في وجوههم الناجمة عن انعكاس أشعة الشمس على الثلوج البيضاء، لتبدل بشرتهم بأخرى أنقى وأطهر. «صنين» وشهداؤها، غناهم ابن الجبل، حاتم ملاعب، المنشد الشعبي بثلاث أغانٍ؛ في الأولى حوّر كلمات أغنية فيروز، فأنشد:

الله الله يا تراب عينطورة
كيف التاريخ نفسه بعيد
عملوكِ عن أوروبا صورة
رجعتِ عربية من جديد

---

(42) (شهيد)، من كوادر لجنة نابلس في القطاع الغربي ومسؤول التدريب فيها.

(43) (شهيد)، من بيروت وتخرّج في كلية الهندسة في الجامعة اليسوعية، وكان مهتمًا بالتصوير ويجلب معه الكاميرا الخاصة به، ويقوم بتصوير جزء من المعارك. استشهد في صنين.

(44) (شهيد)، طالب في جامعة بيروت العربية، استشهد في صنين في عام 1976.

(45) (شهيد)، الشقيق الأصغر للشهيد أحمد القرى استشهد في فنادق بسكنتا في عام 1976.

(46) (شهيد)، من قرية دير ميماس في الجنوب اللبناني وقد دفن فيها في تأبين جماهيري وسياسي حاشد في كنيستها، قبل أن يستولي على القرية سعد حداد. استشهد في صنين في عام 1976.

(47) كتاب **أفكار ثورية في ممارسة القتال** تضمن خلاصة وتحليلًا فكريًا للتجارب والممارسات العملية، شارك في تجميعه عدد كبير من الإخوة، وصاغه منير شفيق وصدر باسم (الشهيدين) سعد جرادات وأبو خالد جورج تكريمًا لهما.

وكتب منير شفيق (أبو فادي) قصيدة غنّاها حاتم ملاعب في رثاء شقيقه أبي خالد جورج، وجميع الشهداء، فأبدع حين قال:

وداعًا وداعًا لكل شهيد
أحب بلادي، أحب الوطن
أحب الأيادي، تصبّ الحديد
وتزرع في الأرض دون وهن
فمات لينفخ فينا الصمود
وروح الجهاد أمام المحن
وداعًا وداعًا أيا أمّنا
كبرنا وأثمر فينا التعب
فطيري جنانا وغنّي لنا
كبرنا وفي اليد سيف اللهب

في صنين سُميت المواقع بالأرقام 1، 2، 3، 4. الموقع الثالث كان يُدعى أيضًا بالغرفة الفرنسية، أمّا الموقع الرابع فهو الأبعد والأعلى، وفيه استشهد العدد الأكبر من الشهداء، ودارت فيه أعنف المعارك. وفي إحدى الهجمات التي شنتها قوات الجبهة اللبنانية على مواقعنا في صنين محاولةً استردادها، سقط في صفوفها 300 إصابة من دون أن تحقق أي تقدّم[48].

على سفح الجبل، بالقرب من «ترشيش»، وسط بساتين الكرز، أُقيمت نقطة إدارة وتموين، وكانت سيارة التموين تصل إلى هذه النقطة وتتوقف، فلا طريق بعدها إلّا سيرًا على الأقدام، حيث يلزمك أكثر من أربع ساعات لتصل إلى الموقع الرابع.

بعد أسابيع عدة من مرابطتنا هناك، وسقوط عدد كبير من الشهداء، وصعوبة نقل الجرحى، أحضر هلال رسلان (أبو محمود)[49] وأبو حسن قاسم

---

(48) صايغ، ص 569.

(49) عمل سفيرًا لسورية في الصين، ومحافظًا لحلب، وحاول تأسيس الحزب الشيوعي العربي، وساهم في تأسيس اللجان الوطنية في الجبل ويُعدّ من رواد تأسيس التيار.

(رحمهما الله) جرافة. ومع مرور الأيّام شُقّت الطريق نحو الأعلى، وأذكر آخر زيارة لي إلى صنين، حيث كان حسن صالح (أبو حسين) يتابع ما بدأه إخوانه، وأصبحت الطريق إلى الموقع الرابع تستغرق عشرين دقيقة فقط.

كان لفصيل الإدارة قائد يتبدل مع كل تبديل، أمّا جنوده الأشاوس فكانوا مجموعة ثابتة من البغال أحضرناها من بيصور في جبل لبنان الأشم، والبغل هجين من الحمير والخيل، له من صفات كل منهما. وقد أجاد أخونا الكبير محجوب عمر[50] في سرد صفات الحمير والبغال في أغنية كتبها للأطفال، يقول بعض أبياتها:

أنا اسمي حمار
أنا اسمي حمار
شيخ الشطار
أحمل وأشيل
والحمل تقيل
أنا اسمي حمار

وكان يغضب إذا شتمت أحدًا ونعته بالحمار، ويعدّها إهانة للحمار؛ فالحمار في نظره صبورٌ جَلِد، ووطني يحنّ إلى بيته، ويعود إليه بلا مرشد أو دليل، وهو قائد بالفطرة، فلا تجد حمارًا يسير خلف قطيع من الأغنام، إضافةً إلى أنّه المهندس الأول عبر التاريخ، حيث يرشدك إلى أسهل الطرق لصعود المسالك الجبلية، وبعدها يقوم المهندسون بالسير على خطاه وشقّ الطريق وتعبيدها.

في طفولتنا كانت الحمير والبغال مصدر تسليتنا ولهونا، عندما نذهب لزيارة أقاربنا في قراهم، نتزاحم على ركوب الحمير أو الاستلقاء على لوح

(50) رؤوف نظمي، مناضل عربي كبير، اعتقل أعوامًا عدّة في السجون المصرية بصفته أحد مناضلي الحزب الشيوعي المصري، التحق بحركة فتح في عام 1967 في جنوب الأردن، عمل نائبًا لمدير مركز التخطيط الفلسطيني إلّا أنّه كان يعدّ نفسه دائمًا أحد فدائيي العاصفة، توفي في القاهرة في عام 2012.

الدراس الذي يجرّه بغل لدرس المحصول، في حركة دائرية لا تنتهي، فيتسلل القش إلى أجسادنا وتغمرنا الضحكات.

يروي حسن الخطيب[51] وهو مناضل من عائلة مناضلة اجتمع جميع أفرادها ذات يوم في سجون الاحتلال، كيف كانت مشاعره عندما وردته رسالة من والده وهو في بيروت تفيد بموت البغل الذي يملكونه ويعتمدون عليه في حراثة الأرض والنقل، وأنّه في اليوم التالي قابل (الشهيد) حمدي صباحًا والألم والحزن باديان على وجهه، وعندما استفسر منه حمدي عن سبب ذلك روى له قصة البغل، ليعود حمدي وأبو حسن مساءً وقد قدّرا أهمية البغل لهذه الأسرة القروية المناضلة، وسلّماه ثمن بغل ليرسله إلى والده.

في صنين أدركنا عمق هذه الصفات للحمير وأقربائها من البغال؛ فعلى هذه البغال يُنقل يوميًا التموين من الخضراوات والخبز واللحوم، كذلك الأسلحة والذخائر والمعدات، إلى المواقع المتباعدة، وما إن يكتمل تحميل البغال حتى تنطلق عارفةً طريقها ومعها أحيانًا مجموعات التبديل الآتية من بيروت، وعندما تُنهي مهمتها تعود وحدها إلى ترشيش. أما عند اندلاع المعارك فإنّها تتحوّل إلى سيارات إسعاف تحمل الجرحى وتنقل الشهداء. لقد كانت عماد حركتنا والزائر اليومي لمواقعنا في قمم صنين.

في أحد الأيام توقف الزائر اليومي عن الحضور؛ ظللنا نترقب وصوله أيامًا عدة متتالية، لكنّه لم يصل، فازداد اعتمادنا على مخزوننا المتواضع من المعلبات والمواد الجافة، وازداد قلقنا، فقد كان وصوله إلينا يضفي بعض الحيوية على الموقع وسط حالة الانتظار والترقب الدائمة. كانت البغال صلتنا الوحيدة بعالم آخر حولنا، فنزلتُ وبعض الإخوة إلى موقع الإدارة لمعرفة سبب توقف البغال عن الصعود إلينا. ولمّا وصلنا إلى الموقع، وجدنا أكداسًا من صناديق الخضراوات وربطات الخبز تملأ ساحة الموقع، والبغال مربوطة وحزينة في إحدى الزوايا، وكان المشرف على الموقع، الطالب في السنة

(51) مناضل في صفوف الكتيبة ولجنة 77، اعتقل وعائلته في سجون الاحتلال، كان عضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح، وأستاذًا جامعيًا وأحد قادة الانتفاضة الأولى.

النهائية في تخصّص الأدب الإنكليزي، يجلس في ظلّ إحدى شجرات الكرز يقرأ كتابًا. فصحنا به: «لماذا لم تحمل البغال التموين؟» فأجاب: «نفد العلف ولم أستطع إحضار علف لها، حاولت الاستعانة بالإخوة في الجبل فاعتذروا لعدم توافر وقود للسيارة لديهم، ووعدوا بإرسال العلف مع مجموعة التبديل التالية. فجاعت البغال وأبت المسير، وبقيتُ أنتظر بلا حول ولا قوة».

نظرنا إلى صناديق الخضراوات وربطات الخبز المتناثرة هنا وهناك، وسألناه باستنكار شديد: «لماذا لم تُطعم البغال بعض خضراوات أو بعض الخبز؟» فالتفت إلينا مستنكرًا، وهو يُصحح وضع نظاراته: «ليش هي البغال بتاكل خبز وخضراوات؟!».

سعد جرادات

كانت مناوبتي فوق قمم صنين حين استلمتُ برقية كي أنزل منها إلى موقع الإدارة في مجدل ترشيش حيث ثمّة رسول بانتظاري. بعد ثلاث ساعات من السير على الأقدام وجدتُ ربيع الجبل بانتظاري، قال لي إنّ الإخوة أرسلوا في طلبي لأمر مهم، وهم يترقبون حضوري في منزله بضهور العبادية[52]. ولم يتحدّث معي ربيع بشيء على الرغم من محاولاتي الاستفسار عن ماهية هذا الطارئ الذي استدعى مغادرتي موقعي، باستثناء حديثه عن معركة حامية في عاريا[53]، واستشهاد محمود الحسنية[54] ورفاق له فيها، وأنّهم يحاولون إحضار جثامين الشهداء، فزاد هذا من ريبتي، لماذا يحضر ربيع لاصطحابي وهو من الكادر الأول ويفترض أن يكون منشغلًا بذيول معركة عاريا، فأيقنتُ أنّ ثمة أمرًا مهمًا قد حدث.

في العبادية وجدتُ أبو فادي (منير شفيق) بانتظاري، وعلى وجهه علامات

(52) ضهور العبادية: بلدة في جبل لبنان.

(53) عاريا: بلدة في جبل لبنان في القرب من الكحالة.

(54) (شهيد)، استشهد في معركة عاريا، وهو كادر متقدم في اللجان الوطنية من جبل العرب في سورية.

قلق وحزن عميق، وبعد مقدمة قصيرة كنّا قد اعتدنا سماعها وترداد مثلها عند سقوط الشهداء، وإذا به يقول لي: «استشهد سعد واتّفق الإخوة أن تتولّى قيادة السرية، وأن يكون (الشهيد) مروان كيالي نائبًا لك». رغمًا عنّي انهمرت الدموع من عيني ولم أستطع إيقافها، وقد كنتُ أذرف الدموع في داخلي عند كل شهيد، حيث توجع القلب، لكنّ دموعي تمرّدت حينها، إذ كان سعد شقيق الروح ورفيق الدرب الطويل.

سعد (عبد القادر جرادات) القائد الأول للسرية الطلابية، والكادر الأكثر شجاعة وتميّزًا، كان على موعد في اليوم نفسه مع أهل عروسه للتقدّم لخطبتها. في صباح ذلك اليوم أرسل رسالة إلى أبو حسن قاسم الذي كان موجودًا في الجبل عن عزم بعض الوحدات والفصائل شنّ هجوم على منطقة الأشرفية في محاولة لتخفيف الضغط عن مخيم تل الزعتر، وأنّه يُجري الحشد لذلك من منطقة رأس النبع، وسيتم الهجوم انطلاقًا من مواقعنا في البرجاوي، وأعرب سعد عن رفضه مشاركة وحدة من السرية في الهجوم الذي يفتقر إلى قيادة حصيفة وتنظيم متقن.

مساءً قرّر سعد قبل أن يتوجه إلى منزل عروسه، أن يتفقد المنطقة، فهالته حالة الفوضى وتراجع المقاتلين وهروبهم من أرض المعركة، فأخذ بندقية أحدهم معتقدًا أنّه إذا تقدّمهم سيتبعونه، فلم يتبعه أحد. استشهد سعد. حاول إخوته في السرية البحث عنه وقاموا بتمشيط المنطقة التي تقدم إليها دون جدوى، وفي اليوم التالي علمنا أنّ قوات الكتائب عثرت على جثمانه وسُحل الجثمان في شوارع الأشرفية، مرتديًا البدلة البيضاء الخاصة بخطوبته.

لم يكن سهلًا أن تكون مكان سعد، ولا أن تتحلّى بحكمته ووعيه وشجاعته. بعد الاتفاق مع الإخوة، قرّرتُ التوجّه إلى أبو جهاد وطلب سحب وحدات السَرية الموجودة في صنين، فقد كانت خسائرنا كبيرة، والأهم أنّ ثمّة خلافًا مع قائد المحور أبو خالد العملة[55] على المواجهة المقبلة. كان أبو خالد

(55) محمد موسى العملة، ضابط سابق في الجيش الأردني، انضم إلى الثورة في عام 1970 ضمن قوات اليرموك، كان قائدًا للكتيبة الثانية فيها، عضو في المجلس الثوري ومن رموز الاتجاه=

دائم التحريض في ذلك الوقت على قتال السوريين، وأنّه سيجعل من عينطورة التي سماها الجيب الأحمر مقبرة للجيش السوري، فأدّى هذا الموقف إلى ملاسنات كثيرة معه، إذ كنّا نعتقد أنّ الواجب يقضي بتصحيح اتجاه البنادق الفلسطينية والسورية، والخروج بسرعة من مأزق الحرب الأهلية، والتوجه إلى الجنوب اللبناني، في حين كان هو ومجموعات من اليسار اللبناني والفلسطيني مسكونين بهاجس تحرير لبنان والسيطرة عليه.

وافق أبو جهاد على ذلك وقام باستبدالنا بوحدات أخرى، وجُمّع الجزء الأكبر من السرية في معسكر بيصور[56] الذي تولى قيادته حسن صالح، لإعادة تدريبها وتأهيلها استعدادًا للمرحلة المقبلة.

الاقتتال السوري – الفلسطيني: برقيّة

«200 متر يمين، 300 متر يسار، ارم، أصبت الهدف، تحرك، تقدم، تراجع»، هذه الكلمات كانت تتردد على أجَهزة الاتصال اللاسلكي في مقر قيادة أبو جهاد في كيفون في جبل لبنان الأشم.

تقدّمتُ من مأمور المحطة وفي يدي ورقة بمنزلة تقدير موقف للوضع السياسي الراهن كي يرسلها عبر الأجهزة إلى الإخوة من أبناء السرية في ضهور العبادية، ومشارف بحمدون، وأبواب عاليه، فنظر إلى الورقة وأعادها إليّ بسرعة، معلقًا بسخرية: «وهل هذا وقته؟» فأعطيتُ الورقة إلى أبو جهاد الذي قرأها بتمعّن، وكانت تتحدّث عن أهمية الصمود لساعات إضافية أمام تقدّم القوات السورية في انتظار نتائج الاتصالات العربية التي تسعى لترتيب وقف دائم لإطلاق النار، وإنهاء الحرب الأهلية اللبنانية، والاستعداد للتوجه إلى الجنوب، فطلب أبو جهاد من مأمور اللاسلكي تعميم هذه البرقية على جميع الوحدات.

= اليساري في الحركة، قاد «فتح الانتفاضة» في الانشقاق المعروف في عام 1983، واعتقل في سورية لاحقًا لاتهامه بعلاقته مع فتح الإسلام، وفصله رفاقه، وأفرج عنه بوساطة من بعض مسؤولي الفصائل، حيث وضع في الإقامة الجبرية إلى أن توفي في دمشق في عام 2012.

(56) معسكر تدريبي أقيم في القرب من قرية بيصور في جبل لبنان وجرى فيه تدريب أفراد السرية الطلابية ومجموعات متتالية من الحركة الوطنية اللبنانية.

قبل ذلك بأسابيع كنّا نتوقع مواجهة حامية في بحمدون مع القوات السورية، بعد أن انهارت جبهة عينطورة – صنين التي كان يقودها أبو خالد العملة، مع أول رشقة صواريخ سوريّة. وبانهيار هذه الجبهة، عادت السيطرة على مقاليد الأمور لأبو عمار وأبو جهاد بعد أن اهتزت قبضتاهما عليها لفترة من الوقت بحكم توجهات اليسار اللبناني والفلسطيني.

وُجد في بحمدون عشرات الإخوة بقيادة محمود العالول[57]، وجهاد، وعمّار[58]، وحسام (فلاح الزعبي)[59]، وعدنان أبو جابر، وغيفارا. وقاتلنا في بحمدون مع أنّنا لم نكن على الإطلاق من دعاة الاشتباك مع الجيش السوري، لكنّنا رأينا أنّ الصمود في بحمدون كفيل بإعادة التوازن إلى العلاقة السورية – الفلسطينية وتصحيح اتجاه بنادقها، وكان في تقديرنا أنّ بعد ذلك علينا الاستعداد للتوجه نحو الجنوب اللبناني وقد تحوّلنا إلى كتيبة محترفة.

ليلة اليوم الأول من المعركة توجهتُ برفقة حسام عمّار إلى بحمْدون التي كانت قد صدّت الموجات الأولى لهجوم الجيش السوري، التقينا هناك مع خليل الوزير الذي وصل إليها بعدنا بلحظات. وبقينا لنجول على المواقع حتى لحظات الفجر الأولى. ثمّ عدنا معه بعد أن تركتُ سيارتي الفولكس فاغن للإخوة هناك، لتُدمّر مع الموجة الثانية للهجوم. وبعد قتال ضارٍ استشهد فيه عدد من الإخوة، أقيم خط دفاع جديد يمتد من ضهور العبادية إلى مداخل عاليه[60].

---

(57) (أبو جهاد) من مؤسسي الكتيبة والتيار، كان عضوًا في لجنة نابلس في القطاع الغربي، ومن ثمّ عمل مساعدًا للشهيد خليل الوزير، وعين محافظًا لنابلس بعد أوسلو، وهو عضو اللجنة المركزية لحركة فتح بعد المؤتمر السادس.

(58) (لواء) عاطف بدوان، التحق بحركة فتح شبلًا، وعمل في أكثر من موقع في الكتيبة الطلابية وفي لجنة 77 في القطاع الغربي، وسُجن في الأردن مرات عدة، وأُصيب بجراح أكثر من مرة. توفي في رام الله في عام 2012.

(59) مناضل عربي سوري ساهم في تأسيس الكتيبة وعمل فيها في أكثر من موقع وتميّز بقدراته على تأهيل الكادر وتربيته. أسس دارًا للنشر والتوزيع وتوفي في بيروت في عام 2015.

(60) للمزيد عن معركة بحمدون ودور السرية فيها، يُنظر: شفيق الغبرا، **حياة غير آمنة: جيل الأحلام والإخفاقات** (بيروت: دار الساقي، 2011) والياس خوري وميشال نوفل (محاوران)، **حوار مع معين الطاهر: الكتيبة الطلابية: تأملات في التجربة**.

رابطت قوة أخرى من السرية على خطّ سكة الحديد في الطريق المؤدية إلى عاليه، وكذلك في منطقة ضهور العبادية، وذلك لصدّ أي هجوم للجيش السوري لو أراد التقدّم من بحمدون التي سيطر عليها. في إحدى اللحظات أوقف سائق إحدى السيارات المقبلة من اتجاه بحمدون سيارته، وقال للإخوة المرابطين على خطّ السكة: إنّ قائد كتيبة الدبابات السورية المرابطة في الأعلى حمّله رسالة لهم بأن يتراجعوا قليلًا إلى الخلف ويختبئوا بين المنازل؛ لأنّه يراهم ويخشى أن تأتي له أوامر بقصفهم. كان ثمّة شعور متبادل بين الرجال في الميدان بأنّ على هذه المعركة أن تتوقّف.

بتوقيع اتفاق الرياض الذي قرّر وقفًا لإطلاق النار بين الأطراف كلّها من تاريخ 21 تشرين الأول/أكتوبر 1976 توقّفت المرحلة الأولى من الحرب الأهلية اللبنانية. ويُقدّر يزيد صايغ في كتابه **الكفاح المسلح والبحث عن دولة** خسارة «فتح» وجيش التحرير الفلسطيني بـ 900 شهيد، ومثلهم خسارة التنظيمات الفلسطينية الأخرى مجتمعة، أمّا خسارة الحركة الوطنية اللبنانية في هذه الحرب فيُقدّرها ما بين 700 و900 شهيد، تكبّدت السرية الطلابية والتيار في المناطق اللبنانية المختلفة ما لا يقل عن 300 إصابة بين شهيد وجريح. ولعلّ هذا يُعطي صورة إضافية عن الدور الذي قمنا به في هذه الحرب المفروضة علينا.

في ذلك الوقت كان سعد حداد[61] قد استولى على ثكنة الجيش اللبناني في مرجعيون، وبدأ في محاولة التوسع باتجاه منطقة بنت جبيل. واستعدادًا منّا للمرحلة المقبلة التي كنّا نراها وشيكة، تحركت قبل معركة بحمدون برفقة مروان وأدهم لاستطلاع الجنوب ومعرفة أوضاعه عن قرب، إذ دار في صفوفنا حوار وجدل حول مهماتنا في المرحلة المقبلة، وكان ثمّة تقدير للموقف بأنّ الحرب الأهلية ستشهد نهاياتها قريبًا، وأنّ الجنوب اللبناني سيعود ساحة للصراع مع العدو الصهيوني، وأنّ خيارنا أن نكون في طليعة المقاتلين في الجنوب.

---

(61) (الرائد) ضابط انشق عن الجيش اللبناني وعمل مع الكيان الصهيوني في تأسيس ما عرف باسم الشريط الحدودي، وتوفي بمرض السرطان في عام 1984.

في صور كان في استقبالنا علي يوسف[62] وعبد الحسن الأمين (أبو ميسون)[63]، ومن هناك بدأنا جولتنا ولقاءاتنا، وعُدنا بنتيجة مفادها أنّ المعركة في الجنوب مع قوات سعد حداد هي مسألة أيام.

كانت قوات القطاعين الأوسط والغربي بقيادة (الشهيدين) بلال الأوسط[64] وعزمي الصغير[65]، والمكلّفة بالدفاع عن هذه المنطقة موجودة في منطقة شرق صيدا في مواجهة القوات السورية، والجنوب بأسره يكاد يكون لقمة سائغة بيد الصهيونيين وسعد حداد، فقدّمنا تقريرًا بذلك إلى أبو جهاد، وأعلنّا استعدادنا للتحرّك باتجاه الجنوب اللبناني. ولم تمرّ بضعة أيام حتى هاجمت قوات حداد قرية حانين[66]، بلدة علي يوسف، وأحرقتها وهجّرت سكانها، كما قصفت مدينة بنت جبيل وأنذرت سكانها بالاستسلام، في حين قدمت من شرق بيروت عبر الكيان الصهيوني مجموعة مسلحة بقيادة إيلي حبيقة[67] الذي سمّى نفسه إدوار، وتولّت تنظيم المجموعات المسلحة في القرى المسيحية والسيطرة عليها، وإفشال محاولات إحلال السلم الأهلي بين قرى المنطقة التي كان يرعاها البطريرك الماروني مار أنطون بطرس خريش، والمتحدر أصلًا من قرية عين إبل. وفي هذا السياق قامت هذه القوة بقتل إخوتنا الشهداء عادل وطفي ومحمود قواص ونزيه دياب على مدخل قرية عين إبل خلال عودتهم من قرية حانين.

طلب منّا أبو جهاد الاستعداد للتحرك باتجاه بنت جبيل. لكنّه تريّث قليلًا في انتظار تأكيد الأنباء عن اتفاق وقف إطلاق النار. وليلًا أرسل إلينا رسالة

---

(62) مناضل من جنوب لبنان ومن قيادة حزب البعث في لبنان (جناح صلاح جديد).

(63) مناضل جنوبي وكاتب وصحافي رئس تحرير مجلات ودوريات عدة.

(64) (شهيد)، محمود السمودي قائد كتيبة القطاع الأوسط. استشهد بعد حرب 1982 حيث لم ينسحب من المنطقة وعاش لفترة ضمن دورية مطاردين إلى لحظة استشهاده.

(65) (شهيد)، قائد كتيبة الشهيد أبو يوسف النجار، استشهد في صور 1982.

(66) هوجمت قرية حانين في 16/ 10/ 1976 الساعة الحادية عشرة ليلًا وأسفر عن نهب البلدة وسرقة مخزون التبغ فيها، وحرقها كاملة، كما أدى إلى مقتل 14 من سكانها الذين لم يبدوا أي مقاومة.

(67) أحد قادة مليشيات القوات اللبنانية، والمسؤول عن مجزرة صبرا وشاتيلا 1982، لاحقًا انتقل إلى المعسكر السوري، وأصبح وزيرًا ونائبًا. اغتيل في بيروت بتاريخ 24/ 1/ 2002.

بالتحرك فورًا باتجاه بنت جبيل. فغادرتُ على الفور برفقة حسام عمار وأدهم. وبعد بضع ساعات تحرّكت السرية كلها لتتموضع على تلال البلدة، ولتبدأ مرحلة جديدة لخّصتها أنشودة لحاتم بعنوان «من صنين إلى الجنوب» قال فيها:

الغيم يتعب في الوصول إليه
والثلج يثقل رأسه فوديه
والريح تضربه على جنبيه
والدمع من فيروز في عينيه
أقدامنا في الريح فوق الغيم فوق الثلج قد وقفت على كتفيه
صنين دار برأسه نحو الجنوب، مضرجًا بدمائنا، وتظلما
ورنا إلينا ثمّ قال أحبتي، هل تقسمون على الوفاء وأقسما
الريح لطخ بالوحول الأنجما
ناء الظلام على الجنوب وخيما
لفّ القرى متوعدًا متجهما
والناي يبكي نازفًا متألما
نادى الجنوب محشرجًا بندائه، فأتت مشاعلنا تخضبها الدما
أقدامنا في الوحل في وجه الظلام تدافع الريح السموم عن الحمى
فحنا الشقيف على بنادقنا، وقال أتقسمون على الصمود وأقسما

لم تكن أناشيد حاتم ملاعب، اللبناني الدرزي ابن بلدة بيصور، أغانيَ وموسيقى ثورية فحسب بقدر ما كانت وسيلة تعبئة وتقدير موقف ورؤية سياسية ومنهجية.



الفصل الخامس

الجنوب 1976

عند وصولنا إلى الجنوب طلبت منّا قيادة إقليم لبنان أن نختار بين أن نكون جزءًا من الإقليم (التنظيم)، أو أن نصبح جزءًا من القوات العسكرية النظامية. لقد حزنتُ كثيرًا من هذا الطلب غير المبرر؛ فقد كان واضحًا أنّ من يقف خلفه يستهدف قطع الصلة بين السرية الطلابية والتنظيم الطلابي وامتداداته في المناطق، واعتقدَ مخطئًا أنّه بهذا الأسلوب يستطيع إعادة السيطرة على التنظيم الطلابي، وهو بهذا قد غلّب النظرة الضيقة والصراع الداخلي والرغبة في تقليص التيار على المصلحة العامة.

ترحّمنا كثيرًا على (الشهيد) جواد أبو الشعر، قائد قوات المليشيا، وصديق السرية الطلابية، وأحد أكبر مؤيديها وداعميها، فقد كنّا نقضي ساعات طويلة كل ليلة معه، نمرّ بها على المواقع ونختتمها بوجبة من المناقيش أو الإفطار فجرًا في مطعم أبو خضر، على كورنيش المزرعة قبل أن نفترق ساعات قليلة.

كان جواد ينظر إلى السرية الطلابية بوصفها نموذجًا قابلًا للتعميم. وكنّا نبحث معه دائمًا عن الدور الحقيقي لقوات المليشيا بعد انتهاء الحرب الأهلية وفي مواجهة العدو الصهيوني. وخلصنا إلى ضرورة ربط كل وحدة تنظيمية بوحدة عسكرية، تتدرب معها وتقاتل معها، ويُستبدل أفرادها دوريًا، حيث يخدم كل عضو فيها فترة من السنة في الوحدة ذاتها، وعند إعلان حالة التأهب تلتحق الوحدة التنظيمية بالوحدة العسكرية. وكان هذا حلم جواد أبو الشعر وحلمنا؛ ففيه تعزيز للوحدات العسكرية وربطها بالواقع التنظيمي والسياسي والفكري، وفيه زيادة في صلابة التنظيم وقوّته. لكنّ هذا الأمر أزعج بعضًا من الاتجاهات داخل الحركة التي خشيت أن يؤدي هذا النموذج المتقدّم إلى إخلال ببعض التوازنات الداخلية.

قرابة الظُهر، مرّ علينا جواد. وشربنا قهوة الصباح معًا. ثمّ ذهب للقاء أبو عمّار الذي كان عائدًا من السفر، على أن يعود بعدها مباشرة لنتوجّه معًا إلى معسكر بيصور. وحين ذهب جواد، عاجلته قذيفة على الطريق إلى مكتب القائد العام. وباستشهاده انتهى حلم كبير.

واجهنا في بدايات وجودنا في الجنوب عقبات كبيرة من قائد القوات في ذلك الحين العقيد أبو موسى الذي لم يرغب في رؤيتنا بين قواته، ولم يقدّر أهمية ذلك؛ فبدأ باستخدام صلاحياته لخفض حصتنا التموينية على الرغم من القرارات المتلاحقة التي كنّا ننجح في الحصول عليها من أبو عمّار وأبو جهاد، كما رفض إدخالنا ضمن شبكة اتصال القوات في حينه. وهكذا كان علينا أن نصمد في مواجهة قوات الشريط الحدودي في الوقت الذي نواجه فيه المناكفات الداخلية.

اختار عشرات الإخوة التفرّغ كليًا في الكتيبة، والاندماج في جسم قوات العاصفة. وأصبحنا بالتدريج نحمل رتبًا عسكرية. وأُوفد عدد كبير من الإخوة إلى الكلية العسكرية، وإلى دورات عسكرية في الخارج. تعلّمنا الحرب بالحرب، وعبر خوض غمارها نمت تجربتنا العسكرية التي آن لها أن تتأطر وتكتسب المزيد من العلوم النظرية والخبرة. لكن بقيت لنا ميزة مهمة من باقي الوحدات؛ فما أن تُعلن حالة طوارئ (استنفار) حتى يتضاعف عدد السرية بانضمام الإخوة القادمين من بيروت والمناطق اللبنانية المختلفة. ولم تُفلح محاولات البعض في إيقاف ذلك. وأصبحت معروفة تلك العلاقة المميزة بين التنظيم الطلابي ولجنة الـ 77 في القطاع الغربي واللجان الوطنية في المناطق اللبنانية وكتيبة الجرمق. ورغبة منّا في الاندماج الكلي في جسم قوات العاصفة، تحسبًا من تكوّن شعور لدى هذه القوات بأنّنا جسم غريب عنها، أو أنّ لدينا بعض الامتيازات الخاصة، رفضنا البقاء وحدة بإمرة القيادة العامة. وأمام إصرارنا أصبحنا الكتيبة الرابعة في قوات القسطل[1] المرابطة في الجنوب اللبناني.

(1) تتكون قوات القسطل من ثلاث كتائب إضافةً إلى كتيبة الجرمق: الأوسط، وشهداء أيلول، وبيت المقدس، إضافةً إلى سرية الدفاع، ووحدة الهندسة الموضوعتين بإمرة قيادة القوات.

رابطت الكتيبة بداية في منطقة بنت جبيل. وتشاركنا فيها المسؤولية مع كتيبة القطاع الأوسط التي كان يقودها بلال الأوسط. ومن ثمّ انتقلنا إلى محور رشاف – حاريص – قانا – زبقين قبل أن نعود إلى بنت جبيل بعد شهور معدودة. وبعد حرب 1978 تمركزنا داخل منطقة قوات الطوارئ الدولية في ديردغيا ودير قانون، كما تولينا مسؤولية الطريق الساحلية بين جسر القاسمية والزهراني، قبل أن ننتقل في بداية عام 1980 إلى قاطع النبطية – الشقيف.

أصبح اسمنا كتيبة الجرمق[2] بدلًا من السرية الطلابية التي بقيت اسمًا مرادفًا لنا. وأصبحنا جزءًا من قوات العاصفة. لم تكن مهمتنا سهلة في الجنوب؛ فقد كان علينا واجب التصدي لقوات سعد حداد والدفاع عن القرى الجنوبية، والتواصل مع الأهالي والقوى السياسية والفاعليات الشعبية. وفي ظلّ غياب أجهزة السلطة اللبنانية، فإنّ الحفاظ على أمن المواطنين يُضاف إلى مسؤولياتنا، كما أنّ قائد وحدة فتح في المنطقة يصبح تلقائيًا قائدًا للقوات المشتركة الفلسطينية – اللبنانية.

عملنا كخلية نحل كاملة، (الشهيد) حسان شرارة[3] ويوسف بوصي، وأبناء بنت جبيل مع جهاد وخالد ورياض يساهمون في الجهد العسكري، وفي الوقت ذاته يبذلون جهدًا كبيرًا لتلبية متطلبات أهالي المنطقة والتواصل مع فعالياتها. أمّا أدهم وربحي وراسم[4] وأبو حديد[5] وعمّار وحسام فيهتمون بالتحصين والمواقع، ويقودون الدوريات العسكرية باتجاه الشريط الحدودي. ومحمد عرندس[6]، وأبو نضال قلوية، وعشرات من الكوادر من

(2) نسبة إلى جبل الجرمق في شمال فلسطين.

(3) نموذج للمثقف الثوري الملتزم قضايا شعبه، من أبناء بنت جبيل، استشهد دفاعًا عنها وعلى تلالها في 15 آذار/مارس 1978.

(4) (شهيد)، يعقوب سمّور، من مؤسسي الكتيبة، استشهد في قلعة الشقيف في 6/6/1982.

(5) سليمان عمران (لواء) من الكوادر الشجاعة الأولى في الكتيبة، انتقل إلى فلسطين بعد أوسلو حيث تقاعد برتبة لواء بعد أن شغل مواقع متقدمة في الأمن الوطني.

(6) من كوادر التيار الأولى في الجنوب، ومسؤول تنظيمي في بلدات القطاع الأوسط، التحق بالمقاومة اللبنانية لاحقًا، وشغل مواقع نقابية وإعلامية قيادية.

أبناء الجنوب، وبمتابعة حثيثة من (الشهيد) مروان كيالي وشريف، يتابعون الوضع في الجنوب والتواصل مع أهله في محاولة لنسج ملامح علاقات ثورية متميزة.

أدّى هذا أحيانًا إلى التهديد باستخدام السلاح ضد بعض الممارسات الخاطئة تجاه الأهالي. لكنّنا بالإجمال نجحنا في فرض الأمن وإنهاء أي تجاوزات ضد السكان في المناطق التي وجدنا فيها. وعمليًا أصبح يُنظر إلينا في الجنوب اللبناني بأنّنا نموذج مختلف عسكريًا وسياسيًا ومسلكيًا.

بابور الكاز

«أيّها اللغّام، تذكّر، خطأك الأول هو خطأك الأخير»، هكذا دوّى صوت عدنان أبو جابر، وهو يبدأ درسه الأول عن تصنيع المتفجرات الشعبية. همست إحداهن لزميلتها: «ماذا سأقول لأهلي إن عدتُ ناقصة يد أو ساق؟». كانت دورة خاصة لبعض طالبات الجامعات اللبنانية الآتيات من الأردن أو دول الخليج العربي، أقيمت في نهاية السبعينيات.

كنّ في بداية العشرينيات، جميلات بلا شك، ومن عائلات ثرية وذات نفوذ في مجال الأعمال أو العمل العام، ومن أصول فلسطينية أو عربية، ومن أديان ومذاهب عدة، لا فرق، فلم يكن أحد يسأل، فهذا سؤال لم يكن يعني شيئًا في تلك الأيام الجميلة؛ إذ كان التنظيم الطلابي يضم عربًا من جميع الجنسيات، ومن مختلف الطوائف والمذاهب، ومن الطبقات كافة، يجمعهم/ن الانتماء إلى قضية العرب الأولى «فلسطين»، ومعركة التحرّر العربية من جميع ما يعوق تحرير فلسطين وتحريرهن.

جاءت هؤلاء الأخوات المناضلات إلى الكتيبة في الجنوب بطلب من (الشهيدين) أبو حسن قاسم وحمدي سلطان، مع رجاء أن تُحاط الدورة بأقصى درجات الأمن والسرية. كان هدف حمدي وأبو حسن إيجاد بؤر تدريبية في أي مدينة يعدن إليها بعد الانتهاء من دراستهن، لعلّ إحدى الأخوات من الأرض

المحتلة تصل إليه بذريعة ما، فتجد هنالك من يستطيع تدريبها على بعض المبادئ على الأقل، دون إثارة ريبة العدو وظنونه.

أوكلت المهمة إلى الأخ علي أبو طوق. فجهّز بيتًا في مخيم البص بالقرب من مدينة صور، واختار نخبة من المدربين الأكفاء للتدريب على الأسلحة الخفيفة، وتصنيع المتفجرات الشعبية من وسائل بدائية متوافرة في الأسواق، إضافةً إلى بعض المحاضرات في الأمن والتنظيم والعمل السري.

بعد أكثر من ثلاثين عامًا على ذلك، دعيتُ إلى عشاء في إحدى الدول العربية، فاجأتني مضيفتي التي أصبحت تشغل منصبًا رفيعًا جدًا، وهي إحدى الأخوات في هذه الدورة، بدفترها الذي سجلت فيه طرق تحضير المتفجرات الشعبية، وملاحظات أخرى عن الدورة. قالت لي إنّها نقلت الدفتر معها إلى أكثر من بلد وهي تخبئه مثل أثمن مجوهراتها. وذكّرتني بنوادر تلك الدورة وبالنقاشات العاصفة في ما بعد عندما كتب منير شفيق موضوعاته عن المرأة، ما أثار ضجة واحتجاجًا في صفوفهن. روت لي كيف كانت تخترع ورفيقاتها في التنظيم كذبة أين سهرن ليلة رأس السنة: «لم نحتفل بها قط طوال سنوات دراستنا، فقد كنّا نذهب إلى منطقة جامعة بيروت العربية لنسير في مسيرة المشاعل بمناسبة انطلاقة الثورة، ونبدأ العام الجديد بزيارة مقبرة الشهداء، ثمّ نعود إلى سكن الجامعة للاستماع إلى رواية الفتيات عن الليلة الصاخبة الماضية». وروت لي ضاحكةً كيف تعرّضن لجلسة نقد ونقد ذاتي لحضورهن حفلة عيد ميلاد أقامها أحد الطلاب الأصدقاء في ما اعتبره مصباح ومنصور تمسكًا بتقاليد برجوازية، وخروجًا عن التقاليد الثورية. حملتنا الذكريات في تلك الأمسية إلى سنين خلت لكنّها ما زالت نابضة في قلوبنا.

جهّز علي المنزل بعدد كافٍ من الفرشات والأغطية والمواد التموينية، وبعض الصحون والملاعق ومواد التنظيف. ثمّ أضاف إليها شيئًا غير معتاد في تموين القواعد، وهو علبة قهوة سريعة ومبيض للقهوة، للاحتفاء بضيوفنا الجدد، وبالطبع لم ينس «بابور الكاز» وعبوة كاز ونكاشات للبابور.

في صباح كل يوم كان علي يُحضر التموين الطازج من الخضراوات والفواكه والخبز واللحمة أو الدجاج، تاركًا لهن حرية طبخ ما يشأن، وخدمة أنفسهنّ.

كان يحضر المدربون في أوقات محددة بدقة؛ ينهي المدرب حصته ويغادر، ليأتي آخر ضمن برنامج معدّ مسبقًا، وفي أوقات الفراغ يترك للفتيات حرية التصرف في أوقاتهن للطبخ والغسيل والتنظيف. وضمن البرنامج، كانت هنالك جلسة مع الأخ علي للحديث عن الدورة، وتقويم المدربين، وتقويم أداء الفتيات، وحاجاتهم، وملاحظاتهن وممارسة بعض النقد والنقد الذاتي.

في إحدى الجلسات، لفت انتباه علي أنّ بابور الكاز نظيف أكثر من المعتاد، ففكّر أنّ الفتيات ربما يعتنين بالنظافة أكثر، لكن علبة القهوة السريعة لم تُفتح، ربما لم تتوافق مع نوع القهوة التي يفضلنها! دفعه الفضول إلى أن يطلب منهن كوبًا من الشاي. فنظرن في وجوه بعضهن، تغامزن وضحكن، ثمّ بادرت إحداهن: «بصراحة لا نعرف كيف نشعل بابور الكاز». فسألهن: «كيف تأكلن؟». فأجبن: «نعتمد على المعلبات ونشتري الأجبان والبسكويت والعصائر من بقالة قريبة، أمّا اللحوم والخضراوات فنوزعها على الجيران».

ضحك علي الذي لم يجُل في خلده أنّ بابور الكاز قد انقرض من هذه البيوت منذ زمن. قال لهنّ: «يبدو أنّ ثمّة خطأ في برنامج التدريب يحتاج إلى تعديل؛ فالدرس الأول تأخر قليلًا، لكن لا بأس، موضوع درس اليوم كيف نشعل بابور الكاز، غدًا سأحضر لأتغدى معكنّ (مقلوبة)».

لا أعلم ماذا حدث في اليوم التالي، قطعًا شرب علي الشاي فقد أتقنّ إشعال بابور الكاز. أمّا المقلوبة فلا شك عندي في أنّه هو الذي أعدّها. يبدو أنّ الدورة كانت في حاجة أيضًا إلى بضعة دروس في الطبخ.

ثلاث معارك

ثلاث معارك كبرى شهدتها بلدة مارون الراس المرابطة على الحدود اللبنانية - الفلسطينية، وتقع على قمة يبلغ ارتفاعها 940 مترًا فوق سطح البحر،

وتطل من جهة على مستوطنة أفيفيم وقرية صالحة الفلسطينية المهجورة، ومن جهة أخرى على بلدة بنت جبيل حيث تُسيطر عليها بالنار، وكذلك على المنطقة الممتدة حتى بيت ياحون.

منذ وصولنا إلى بنت جبيل، كانت محاولات العدو الصهيوني مستمرة لربط طرفي الشريط الحدودي المنقسم بين المنطقة التي يسيطر عليها الرائد سعد حداد في القليعة ومرجعيون، والمنطقة التي يسيطر عليها الرائد سامي الشدياق في رميش وعين إبل ودبل، الأمر الذي تطلب السيطرة على مجموعة من القرى المحاذية للحدود، مثل الطيبة، ورب ثلاثين، وحولا، وميس الجبل، وعيترون، وصولًا إلى مارون الراس وبنت جبيل، لوصل الجناحين.

حال وصولنا المبكّر إلى بنت جبيل دون سيطرة قوات حداد عليها بعد أن وجّه إنذارًا لأهلها بالاستسلام في إثر قصفه البلدة في يوم الجمعة الواقع فيه 21 تشرين الأول/ أكتوبر 1976، وهو اليوم الذي تشهد فيه سوقها الأسبوعية، ما أدّى إلى استشهاد 14 وجرح 27 من المواطنين المتوافدين على السوق من مختلف قرى المنطقة.

بعد ذلك، في 24 شباط/ فبراير 1977، شنّت قوات سعد حداد هجومًا على تلال بنت جبيل. أخفق الهجوم على تلة مسعود، إلّا أنّ قوات حداد تمكّنت من السيطرة على تلة شلعبون التي تقطع بالنار طريق بنت جبيل - بيت ياحون. ويومها توجهتُ مع (الشهيد) بلال قائد القطاع الأوسط في سيارته التي اخترقت رصاصة مقعدها الخلفي عبر هذه الطريق إلى بنت جبيل. وفي غضون ساعات، كانت قوة مشتركة من الجرمق والأوسط بقيادة أبو أحمد خميس وجهاد قد استعادت التلة.

في هذا اليوم اطمأن الأهالي في بنت جبيل بعد مدة من الخوف والقلق على الأرض والمصير إلى وجود من يدافع عنهم ويحميهم، ولا بد من أنّ جزءًا من المتقدّمين في السنّ بينهم شاهدوا بأم أعينهم هجرة الفلسطينيين من قرى الجليل في عام 1948، كما رووا لأبنائهم وأحفادهم ما رافق ذلك من مآسٍ وآلام نتيجة ضياع الأرض والتشتت والهجرة، ولعلّ هذا الإحساس بالطمأنينة

ولّد عند المواطنين شعورًا بأنّ هناك ملائكة تقوم بحراستهم وتقاتل للدفاع عنهم، فقال بعض سكان المناطق المحاذية لنقاط الاشتباك إنّهم شاهدوا فرسانًا على جياد بيضاء يقاتلون إلى جانب الفدائيين، وأنّ البعض قد شاهد الخضر الأخضر[7] وهو يجول في المنطقة شاهرًا سيفه.

في محاولة أخرى، احتلت قوات حداد قريتَي الطيبة ورب ثلاثين[8]. وأخفق الهجوم المضاد الأول. إلّا أنّ هجومًا مضادًا منسقًا لوحدات من قوات القسطل، شاركنا فيه بقوة فصيل بقيادة أدهم تمكّن من استعادتهما والدفاع عنهما. وأخفق سعد حداد في هجومه المضاد. واضطُر العدو الصهيوني إلى التدخّل عبر تغطية مدفعية مكثفة من مدافع الميدان لإنقاذه من دبابته التي دُمّرت على أبواب قرية رب ثلاثين، حيث جُرح أدهم خلال التصدي للهجوم المضاد. لا بد من الإشارة إلى أنّنا كنّا قد طلبنا من قيادة القوات الموافقة على مشاركة فصيل من «حركة أمل» في هذه المعركة بالتوازي مع مشاركة فصيل من الحركة الوطنية في معركة استعادة الخيام. وهكذا كان، وقد سقط لهم في هذه المعركة عدد من الشهداء والجرحى.

قرّر العدو الصهيوني التدخّل مباشرةً في المعركة لحسمها. إلّا أنّ هجومًا مفاجئًا آخر بقيادة (الشهيد) محمد علي أبو يعقوب تمكّن من تحرير بلدة الخيام في القطاع الشرقي، ما جعل العدو يوقف تدخّله المباشر في تلك المرحلة، ويكتفي بقصف مدفعيته الثقيلة، وتدمير الآليات التي تركها سعد حداد بعد أن أخفق هجومه المضاد؛ إذ إنّ تدخّل القوات الصهيونية كان يعني الدخول في معركة واسعة تشمل القطاعين الأوسط والشرقي، وهو ما لم تكن تسمح به الأوضاع الإقليمية.

بعد إخفاق قوات حداد في تحقيق إنجاز عسكري على الأرض، لجأ العدو الصهيوني إلى سياسة الترغيب والترهيب؛ إذ بدأت آلياته في دخول القرى التي تقع بموازاة الحدود اللبنانية – الفلسطينية، وجمع أهلها في الساحات

(7) أحد أولياء الله الصالحين، وهناك يُرجعه إلى النبي إدريس.
(8) 1977/3/30.

ومطالبتهم بالانضمام إلى الشريط الحدودي، وإلّا سيواجهون عواقب وخيمة نتيجةً لرفضهم، عارضًا عليهم فرص العمل والطبابة والتجارة داخل الكيان الصهيوني.

إضافة إلى ذلك لجأ العدو إلى محاولة إغراء أهل بعض القرى بالسلاح، مستفيدًا من النزاعات الحزبية والعائلية والولاءات القديمة لبعض قوى الإقطاع السياسي، كما حدث في قرية عيثرون، حيث علمنا بأنّ العدو قام بتسليم عدد من قطع السلاح لبعض أهالي البلدة الذين يدينون بالولاء لزعامات سياسية تقليدية. رغبت بعض القوى الوطنية في اجتماع القيادة الموحدة أن يُدفع باتجاه حصار القرية وتجريد المسلحين من سلاحهم بالقوة، إلّا أنّنا رأينا أنّ ذلك سيُمثّل خطرًا على وحدة القرية، وثغرة سينفذ منها العدو وعملاؤه. لذا تحرّكنا بمساعدة كبيرة من أبو جبران بعلبكي أحد قادة الحزب الشيوعي والحركة الوطنية في المنطقة، وعدد من الشخصيات، حيث جرى حوار مع عدد من الذين استلموا السلاح الإسرائيلي، وأُقنعوا بأن يُستخدم هذا السلاح لحراسة القرية والدفاع عنها، وأن يشاركوا في هذا الواجب مع أبناء قريتهم المنتسبين إلى فصائل الحركة الوطنية. وقد وافقت الأغلبية على ذلك، في حين جُرّد خمسة عشر شخصًا فقط من أسلحتهم، بعد رفضهم المشاركة وخروجهم عن إجماع القرية. كانت هذه ضربة كبرى لجهد العدو وعملائه في زرع الفتنة داخل القرية الواحدة.

أدركنا منذ البدء أنّ المعركة هنا معركة سياسية بالدرجة الأولى، تتواجه فيها إرادتان؛ إرادة العدو وإرادة الثورة والقوى الوطنية، وأنّها تحتاج إلى حشد القوى كلّها، من الفصائل والأحزاب إلى المخاتير والوجهاء والفعاليات السياسية والوطنية والقوى التقليدية، وأنّ رفضًا جماهيريًا لتدخّل العدو على أيدي أعيان هذه القرى، سيكون أنجح ألف مرة من تدمير دبابة في هذه القرية أو تلك، يتخذها العدو حجة لقصف هذه القرى واستباحتها.

استمرّت هذه المعركة شهورًا عدة، كثفنا فيها لقاءاتنا وزياراتنا لجميع القرى والمواقع والفاعليات. وكانت معركة أصعب وأقسى من المعارك

العسكرية. وفي أحد الأيام هدّد أحد ضباط جيش لبنان العربي، إضافةً إلى أحد الفصائل الفلسطينية اليسارية، بقصف قرية ميس الجبل بعد أن دخلتها دورية لقوات حداد، فتدخلنا على الفور وأوقفنا هذا العمل المتهور. ولقي تصرفنا هذا ارتياحًا من أهل البلدة والقرى الأخرى الذين تصدوا للعدو بفاعلياتهم الجماهيرية، ومنعوه من دخول قراهم. وبعد أيام، زارنا المفتي الجعفري الممتاز الشيخ عبد الأمير قبلان، وهو من بلدة ميس الجبل ذاتها. ونشأت منذ ذلك التاريخ صداقة عميقة. وكان له دور بارز في توجيه الحراك الشعبي ضد محاولات العدو الصهيوني وعملائه للسيطرة على المنطقة الحدودية، أستطيع القول إنّها إحدى اللحظات الفاصلة التي تركت أثرًا عميقًا في أهل الجنوب وفاعلياته المختلفة، وأثبتت أنّ الموقف السياسي الصحيح يحصد نتائج سليمة بعيدًا عن فرسان الجمل الثورية.

مارون الراس واحدة من القرى الحدودية، لكنّها تميّزت بموقعها المسيطر على طرفي الحدود، حيث وضعت فيها القيادة العربية الموحدة تحصينات لنقاط ملاحظة للمدفعية، كما رابط فيها مراقبون من قوات الأمم المتحدة. ومن مارون الراس المشرفة على أجزاء واسعة من الجليل، ومن الجنوب اللبناني، ويلتقي عندها خطّا الحدود الجنوبي والشرقي، تستطيع أن تشاهد بعض أحياء مدينة صفد التي تبعد عنها بالسيارة 17 كيلومترًا، كما بإمكانك أن تشاهد منارة ميناء حيفا.

على أنّ ما كان يميّز القرية - شأنها في ذلك شأن عدد من القرى في لبنان وفلسطين وربما المنطقة كلّها - هو انقسامها بين عائلتين متصارعتين على النفوذ. وتاريخيًا كانت إحدى العائلتين تؤيد تيارًا سياسيًا، في حين تؤيد العائلة الأخرى تيارًا مضادًا. وفي حالتنا اشتهرت إحدى العائلتين بالولاء للحركة الوطنية، في حين سعت الأخرى إلى تمتين علاقاتها بزعامات تقليدية، أو أجهزة الدولة، وأخيرًا ارتبط بعض أفرادها بالعدو، إلى أن نجحت المقاومة الوطنية والإسلامية في مرحلة لاحقة، بعد تراجع نفوذ الإقطاع السياسي، في توحيد هذه القرى في بوتقة واحدة.

بالطبع كنّا نعرف ذلك. لكنّنا نجحنا في إبرام ميثاق شرف بين العائلتين والقوى السياسية ينصّ على تحييد القرية وعدم السماح بدخولها لأي من الأطراف. وكنّا ندرك حساسية وضع القرية وأحوالها، وموقعها الاستراتيجي الذي يعطي أفضلية تكتيكية كبيرة للجهة التي تسيطر عليها من حيث إطلالتها المتميّزة على جانبي الحدود.

حيال إخفاق سياسة إرغام القرى الحدودية على الانضمام إلى الشريط الحدودي، لجأ عملاء العدو بقيادة الرائد سامي الشدياق إلى إطلاق طلقتهم الأخيرة بقيامهم فجر 2 آذار/مارس 1978 بالسيطرة بالقوة المسلحة على بلدة مارون الراس واحتلالها، وتهجير سكانها إلى مناطق الجنوب الداخلية. وضع الشدياق خطة المعركة بإشراف من قيادة الجبهة الشمالية في الجيش الإسرائيلي، وجرى حشد القوات وانطلاق الهجوم من مستعمرة أفيفيم القريبة، ورافقت القوة المهاجمة سرية هندسة من الجيش الإسرائيلي، تولّت مهمة تفجير الصخور التي كانت تعوق حركة الآليات التي قُدّرت بثماني عشرة آلية، دخلت اثنتا عشرة منها إلى داخل البلدة، في حين رابطت ست آليات على مداخلها. كانت السيطرة على مارون الراس تعني حسم المعركة في القطاع الأوسط، ووصْل طرفي الشريط الحدودي.

استيقظتُ فجر ذلك اليوم في مقر قيادة الكتيبة في بلدة تبنين على صوت مأمور اللاسلكي، وهو يحمل بيده برقية من جهاد قائد سرية الشهيد سعد جرادات الموجودة في بنت جبيل: «لقد احتلت قوات الرائد سامي الشدياق بلدة مارون الراس، وهنالك قنص من البلدة باتجاه بنت جبيل وهجرة لمئات السكان». أيقنتُ أنّ هنالك معركة كبرى في انتظارنا، كنّا قد بحثنا الأمر سابقًا، واتفقنا أنّه إذا احتل العدو مارون الراس فعلينا استعادتها في غضون ساعات قليلة، وإلّا فإنّ أي معركة لاحقة فيها، ستُكلّفنا خسائر فادحة، أو قد نضطر إلى الانسحاب بضعة كيلومترات حتى خط حداثا - الطيرة. وهو ما سيتيح للعدو احتلال بنت جبيل وإقامة حزام أمني كامل عبر ربط طرفي الشريط الحدودي.

توجّهتُ على الفور إلى بنت جبيل، واجتمعتُ بالإخوة هناك على عجل، وكان جهاد قد دفع ببعض الإخوة للتمركز في نقاط أمامية باتجاه البلدة. فقرّرنا القيام بهجوم معاكس قبل الظهر، ومشاغلة العدو حتى ذلك الوقت، كي لا يتمكّن من التموضع في نقاط ارتكاز مطلة، أو القيام بأي تجهيزات هندسية أو زراعة حقول ألغام في المنطقة الفاصلة. لم نُبلغ أحدًا بخطتنا. وإنمّا دفعنا بعشرات المقاتلين للتمركز على الخط الأمامي باتجاه سفوح مارون الراس. ووُضع فصيل للجبهة الشعبية ليتقدّم باتجاه طريق مارون الراس - يارون لقطع طريق الانسحاب أو الإمداد. في حين يتقدّم جهاد من الوسط ويتبعه (الشهيد) هاني كمال[9] مع قوة مؤلفة من 80 مقاتلًا من «فتح» ومنظمة العمل الشيوعي. وبسيطرة هذه القوة على الحدّ الأمامي لمارون الراس المطلّ على بلدة بنت جبيل سيندفع عمّار (الشهيد عاطف بدوان) على رأس قوة مشتركة محمولة ومسلحة بالرشاشات والمدافع المضادة للدبابات عبر الطريق العام. ويتقدّم بقوة إلى داخل البلدة، في الوقت نفسه الذي بدأ رائد[10] وربحي وحسام في قصف بمدافع الهاون على الحدّ الأمامي، بدأت المدفعية الثقيلة بقيادة واصف عريقات[11] قصف مواقع العدو.

تولّى علي أبو طوق إمدادات الذخائر والتموين واستقبال المقاتلين الآتين من بيروت، ودفعهم إلى بنت جبيل. أمّا الدور المميّز فقد كان (للشهيد) بلال، قائد القطاع الأوسط، الذي بادر للالتحاق بمقرّ قيادة الكتيبة في تبنين، حيث طلبتُ منه البقاء هناك، وتولّى إقناع قيادة القوات بخطتنا القائمة على شنّ هجوم فوري قبل أن يتمكّن العدو من تعزيز مواقعه وتحصينها، وسط معارضة البعض من قيادة القوات ذلك، ورغبتهم في تأجيل الهجوم بضعة أيام إلى حين حشد

(9) (شهيد)، نائب قائد سرية في كتيبة الجرمق، تخرّج في كلية تشرشال العسكرية في الجزائر، انضم لاحقًا إلى مجموعات أبو نضال هربًا من المنشقين، وصُفّي ضمن أعداد كبيرة قرّر أبو نضال التخلص منها.

(10) رائد عيسى، كادر في الكتيبة وقائد لفصيل مدفعية الهاون، توفي نتيجة إصابته بمرض عضال.

(11) (لواء)، ضابط سابق في الجيش الأردني، تلقى تدريبه في مدرسة المدفعية في الولايات المتحدة، وأصبح قائدًا لكتيبة المدفعية الأولى في الثورة الفلسطينية.

قوات ملائمة من مختلف الوحدات العسكرية، مثلما حصل سابقًا في الطيبة ورب ثلاثين. كانت ثقة (الشهيد) بلال بنا وبقدراتنا كبيرة. وحسم الموقف هو والحاج إسماعيل جبر[12] قائد قوات القسطل حين ردّا على المعترضين بأنّ هذه كتيبة الجرمق، وتركا حرية التصرّف لنا. وتولّى بلال بمساعدة خالد ترتيب الدعم المدفعي وتنسيقه ليتلاءم مع خطة الهجوم.

واجه جهاد (شفيق الغبرا) لحظات عصيبة قبل أن يتمكّن ومجموعته من تدمير إحدى الدبابات التي تقف أمام طريق تقدّمه (وقد وصف لحظات المعركة كاملة في كتابه **حياة غير آمنة**). في حين تمكّن رائد من إصابة الدبابة الأخرى بقذيفة هاون سقطت على برج الدبابة مباشرة. ووصل هاني في الوقت الملائم. وفي اللحظة التي بدأ الاشتباك القريب فيها، انطلق عمّار بسياراته المحمولة، ليُعطي للهجوم زخمًا جديدًا، وتولى فصيل الجبهة الشعبية قطع طريق الانسحاب والإمداد.

بإيجاز، كانت معركة نموذجية حيث دُمّرت أربع دبابات، وقُتل ما لا يقلّ عن ثمانية عشر جنديًا من قوات شدياق، امتلأت بهم ثلاجات مستشفى تبنين قبل تسليمهم إلى ذويهم من خلال الصليب الأحمر، وسُلّمت دبابة شيرمان وثلاث مدرعات سليمة تركها الجنود الفارون إلى جيش لبنان العربي الذي صرّح قائده الرائد لقمان الزين بأنّه يجب إقامة تمثال في ساحة بنت جبيل يُعبّر عن أولئك المقاتلين الذين اقتحموا مارون الراس نهارًا.

كان ضمن حصيلة هذه المعركة أسير واحد، سلّمه جهاد إلى مسؤول أحد الفصائل اللبنانية لإحضاره إلى مقر القيادة في بنت جبيل. فما كان منه إلّا أن قام بإعدامه في ساحة البلدة وسط ذهولنا جميعًا. كانت أغلبية القتلى من قرية دبل، ما أثار غضبًا شديدًا على سامي الشدياق الذي اضطر خوفًا من الأهالي إلى أن يغادر الشريط الحدودي نهائيًا، ويقيم في نهاريا في فلسطين المحتلة.

(12) قائد قوات القسطل في الجنوب اللبناني، وقائد الأمن الوطني في الضفة الغربية بعد اتفاق أوسلو، وهو الآن مستشار للرئيس محمود عباس لشؤون المحافظات.

من ناحيتنا، لم يُصب أحد بأيّ أذى خلال المعركة، كما فوجئ العدو الصهيوني بردة فعلنا السريعة، ولم يستطع أن يقدّم أي مساعدة تُذكر إلى قوات الرائد سامي الشدياق باستثناء قصف مدفعي كثيف لمدة نصف ساعة، ساد المنطقة بعدها هدوء شامل. أُصيب مردخاي غور رئيس الأركان الإسرائيلي بصدمة عندما عرف نتائج الهجوم، لكنّه أعطى تعليمات صارمة بعدم التدخّل؛ إذ أدرك أنّ قدرة الشريط الحدودي على التمدّد بواسطة عملاء إسرائيل تلاشت، وأنّ الأوان قد آن للتدخل الإسرائيلي المباشر. وهكذا ساد الجبهة صمت ثقيل في انتظار الأيام المقبلة.

تعزّزت ثقتنا بأنفسنا؛ إذ كان الهجوم على مارون الراس هجومًا مُنسقًا في وضح النهار على مستوى كتيبة كاملة. كانت هذه المعركة تتويجًا لمعاركنا في صنين وبيروت والطيبة ورب ثلاثين. لكنّنا في تلك المواقع، كنّا جزءًا من قوات أكبر، وكانت حدود مسؤوليتنا الدفاع عن موقع أو محور، أو المشاركة في هجوم ضمن واجبات جزئية. كانت مارون الراس معركة الكتيبة الطلابية بحق، وقد أثارت إعجاب كثيرين من بينهم أبو عمّار الذي أرسل إلينا رسالة تقدير وتحية، قال فيها: «باسمي شخصيًا، وباسم قيادة الثورة نعبّر عن اعتزازنا بالدور البطولي الذي قامت به كتيبة الجرمق، وجميع قوات الثورة الفلسطينية الموجودة معها في القطاع، على المعركة الرائعة التي قاموا بها بجانب إخوانهم في الحركة الوطنية اللبنانية وجيش لبنان العربي، وذلك باسترداد بلدة مارون الراس من القوى الانعزالية والإسرائيلية، إن هذا يأتي الدليل الحي على روعة هذه الروح الثورية التي يتمتع بها إخواننا الأبطال في قوات الثورة الفلسطينية. ونحن معًا وسويًا في هذه المسيرة الثورية البطولية إلى أرضنا الحبيبة فلسطين».

لكنّ بعض اليسار في «فتح» حاول التشكيك في المعركة، ونفي حدوثها، والزعم أنّ المدرعات التي غنمتها قواتنا تعود لجيش لبنان العربي. إلّا أنّ مشاركة فصيل من منظمة العمل الشيوعي والجبهة الشعبية، وروايتهما عن المعركة، وما رواه (الشهيد) بلال الأوسط – وهو الذي شارك في قيادتها مشاركة ميدانية – أخرس جميع الألسن. لقد أرغمت معركة مارون الراس الجميع على الاعتراف بالكتيبة الطلابية كتيبة متميّزة ضمن قوات العاصفة.

انتهت المعركة ولم تنتهِ نتائجها؛ فقد صعدتُ إلى مارون الراس لتفقّد الإخوة هناك، والتأكد من مواقعهم الجديدة. وتنشقّتُ هواء فلسطين العليل، حيث لا تبعد فلسطين سوى أمتار عن مارون الراس. بدأ العدوّ في إخلاء جميع مستوطناته هناك. وأصبحت الحركة شبه معدومة، ما عدا مرور بعض الدوريات الروتينية بين الحين والآخر. قدّرتُ على الفور أنّ التدخل المباشر من العدو الصهيوني هو مسألة ساعات أو أيام؛ فقد انتهت وإلى الأبد حكاية الشريط الحدودي، وأصبحت المواجهة من الآن وصاعدًا مع العدو الصهيوني مباشرة.

تموضع في مارون الراس بضع عشرات من المقاتلين، منهم فصيل من الكتيبة والباقي من فصائل فلسطينية ولبنانية مختلفة. واستلم ربحي قيادة مارون الراس. وعاد جهاد وهاني إلى مواقعهما الأصلية.

بدأ الاستعداد لمعركة جديدة في مارون الراس بعد هدوء شامل من الثاني من آذار/مارس حتى مساء الرابع عشر منه، تخللته أيام شتاء عاصفة ربما تكون السبب في تأخر الهجوم الصهيوني. بدأ ربحي يُرسل الملاحظات تباعًا عن تحركات كثيفة للقوات الإسرائيلية باتجاه الحدود اللبنانية – الفلسطينية. وعند منتصف الليل تمامًا اشتعلت المنطقة بقصف مدفعي وصاروخي، وغارات ليلية للطيران المعادي الذي أضاء المنطقة بقذائف الإنارة، حيث أصبح ليلها نهارًا.

ربحي المقاتل الفدائي من أوائل من ساهم في تأسيس الكتيبة. وهو شاب لبناني ذو خلفية يسارية، إذ كان في منظمة العمل الشيوعي قبل أن يتركها ويلتحق بالمقاومة الفلسطينية. وقد عرفته شوارع بيروت في تظاهراتها واحدًا من أبرز قادة التظاهرات فيها. كما عرفته شوارع الشياح قائدًا لأحد محاورها مع رفيق دربه أدهم. وهكذا التقى الرفيقان ابن الجنوب وابن بيروت في رحلتهما للكلية العسكرية لحركة فتح. وما إن تخرّجا مع جهاد وسامي ومحمد حتى عادا إلى صفوف كتيبتهما في الجنوب.

ما إن بدأت علامات تحرك الجيش الإسرائيلي تظهر حتى قرّر ربحي بحركة ذكية أن يغادر موقعه مع فصيله باتجاه فلسطين. انتشر الفصيل على خطّ

الحدود، في حين قام الطيران الإسرائيلي بقصف الموقع وتدميره تمامًا، أعقبه اقتحام وحدات من نخبة قوات غولاني للموقع وتطهيره بقاذفات اللهب. كان ربحي يراقب المشهد من مخبئه. فأوقف أيّ اتصال لاسلكي مع جهاد. وانتظر حتى اطمأن الجنود الصهيونيون إلى عدم وجود مقاومة تُذكر. وبدأوا بالاحتفال والرقص حول الموقع، وإشعال النيران ليتمتعوا ببعض الدفء من برد آذار/ مارس. فتسلل ربحي وإخوانه بهدوء إلى موقعهم من جديد وحاصروه. ومن مسافة صفر أطلقوا قذائفهم ورصاصهم. فدارت معركة ضارية استمرت عشر دقائق انسحب بعدها ربحي إلى بنت جبيل، بكامل قوّته ومن دون أي إصابات.

في اليوم التالي، أعلن مردخاي غور عن وجود مقاومة عنيفة في مارون الراس من قبل وحدات متميّزة، واعترف بمقتل ثمانية جنود وعدد من الجرحى في مارون الراس وحدها. ويبدو أنّ الحظ السيىء لازم قوات غولاني في مارون الراس؛ المكان هو نفسه، أمّا الزمان ففي عام 2006، والمقاتل هو المقاتل الفلسطيني اللبناني العربي، تغيّر اسمه فقط من فتح إلى المقاومة اللبنانية أو الإسلامية، أمّا الشكل والمضمون والعدو والهدف فبقيت كلّها واحدة.

صمدت مارون الراس كما صمدت بنت جبيل في هذه الحرب. وسجّلت ملحمتها الثالثة في قتال العدو الصهيوني. وهنا لعلّي أذكر قصة أبو عمر الذي رئس شبكة المتعاونين مع الاحتلال وسهّل دخولهم إلى مارون الراس في عام 1978، ونال عفو المقاومة في عام 2000 عقب انسحاب الجيش الإسرائيلي من الجنوب. غادر أبو عمر منزله في مارون الراس عند بدء الحرب في عام 2006، لتقتله قذيفة إسرائيلية سقطت فوق سيارته على مدخل البلدة[13].

دلال المغربي

دلال فتاة سمراء، من تنظيم الثانويات الذي أُطلق عليه اسم «أولاد علي أبو طوق». حملت البندقية في وقت مبكر. وسهرت لياليَ في كمائن زاروب

(13) يُنظر: شفيق الغبرا، **حياة غير آمنة: جيل الأحلام والإخفاقات** (بيروت: دار الساقي، 2011).

البرجاوي بين رأس النبع والأشرفية للدفاع عن أهل بيروت. وانتقلت إلى معسكر بيصور حيث تلقّت تدريبها. وعملت ضمن طاقمه مع أبو حسين (حسن صالح) حتى حان وقت انتقالنا إلى الجنوب فانتقلت معنا إلى بنت جبيل.

أنشأنا في بنت جبيل مستوصفًا داومت فيه دلال مع بهية والدكتور خالد؛ الطبيب اللبناني المتخرج حديثًا في فرنسا، وعُقبة، المقاتل الشجاع والممرض الذي تابع دراسة الطب وأصبح أستاذًا جامعيًا في علم التخدير. وفي وقت لاحق التحق به وأشرف عليه عزت الأسمر الفلسطيني الآتي من تنظيم ألمانيا، وممرضتان متطوّعتان من النرويج.

في بيروت، ووسط أجواء التنظيم الطلابي، كان سهلًا على دلال أن تكون في أي موقع قتالي متقدّم مع إخوانها وأخواتها من الطلاب والطالبات. وقد شاركت إخوتها في بيروت في مواقعهم القتالية في البرجاوي والخندق الغميق. وكان ذلك مقبولًا من المجتمع المحلي. وفي حوادث أيار/ مايو 1973 تولّت الطالبات مسؤولية مبنى بأكمله يطلّ على مستديرة الكولا، وكان من أكثر المواقع يقظةً وحذرًا وانضباطًا وشجاعة؛ أذكر منهن ريما وعايدة وسلوى وسحر وشيرين وهيام وعزيزة ونادية وعشرات غيرهن. وبقين في هذا الموقع أكثر من شهر إلى أن تمّ التوصل إلى اتفاق.

في بيروت وفي إطار الجامعات والمدارس، لم يكن ثمّة مشكلة بالاختلاط. كانت الدورات مختلطة أكانت تثقيفية أم عسكرية، في معسكرات مصياف وبيصور وشاتيلا وعين دارة كان للأخوات خيمتهن الخاصة للمبيت. لكن ما عدا وقت النوم فكل شيء مشترك، ولا يوجد أيّ تمييز في المعاملة أو التدريب أو المشاركة في الواجبات بين شاب وفتاة.

أدّت الأخوات دورًا مهمًا في الحياة التنظيمية، وشاركن في مبادرة الجبهة الوطنية الطلابية لإعادة إعمار كفر شوبا وفي ورش العمل في المخيمات والقرى. وكنّ دائمًا في مواقع قيادية في مجالس اتحادات الطلاب. وكان لهنّ دور بارز في الإضراب الشهير للجامعة الأميركية في بيروت. واعتقلن وقضين

أيامًا في السجن بعدما دهمت قوات الأمن الجامعة، وصدرت قرارات بإبعاد غير اللبنانيات منهن. ولعلّ من الطريف أن أذكر أنّه في كل مرة كان يُقبض على ريما وتقتادها دورية من الفرقة 16 إلى الحدود اللبنانية – السورية، تكون سيارة عسكرية من كتيبة نسور العرقوب في انتظارها على الحدود لتعيدها إلى بيروت بناءً على اتصال من جواد أبو الشعر مع نعيم، وربما تصل ريما إلى بيروت قبل وصول سيارة الشرطة إلى ثكنتها.

في الحرب الأهلية اللبنانية شاركت الأخوات في حمل السلاح دفاعًا عن مناطقهن. وكان من المعتاد والمألوف أن تراهنّ في رأس النبع والبرجاوي وعاريا ومناطق أخرى. أذكر في أحد الأيام كان دور مناوبتي في البرجاوي مع حمدي وحسام وأبو النور وغيرهم، وكانت معنا دينا، ما زلت أذكر عينيها اللامعتين كنمر متوثب يتهيأ للانقضاض على فريسته. شنّت قوات الكتائب هجومًا على الحي، طلب منها حمدي الوقوف خلف رشاش دكتريوف بالقرب من إحدى النوافذ لتغطيتنا بنيران رشاشها ونحن نتقدّم للالتفاف على المهاجمين وإفشال محاولة حصارنا. لم تنقطع طلقاتها، ولم تتراجع خطوة واحدة إلى الخلف، أو تختبئ اتقاءً للقصف المتواصل، ظلّت وثّابة كنمرة.

عشرات بل مئات من هذا النموذج كانت تتكرّر في مختلف المناطق. وبرزت قائدات للعمل النسوي مثل أم خالد وأم أحمد البرج، وبهية، ونجاة، وآمنة.

في تلك المرحلة لمع دور ما أطلقنا عليه «بنات علي أبو طوق» من طالبات الثانويات؛ مثل آمنة ومارينا وأمل وندى ومنى ودلال المغربي وغيرهن، وكذلك بنات نادي الظريف والبسطة والخندق والبرج والجامعات، لم يشغلهن واجبهن العسكري عن دورهن الاجتماعي والثقافي والإنساني؛ فأقمن المستوصفات والمراكز الصحية والاجتماعية واهتممن بالتعليم ونشر الوعي في المخيمات والأحياء الفقيرة. وفي الجبل شُكّل فصيل كامل من الأخوات وكان مقرّه في معسكر بيصور.

في الجامعات والمدارس والمدن والمراكز الحضرية لم نواجه مشكلة في

الاختلاط، ولا في مساواة المرأة بالرجل، والفتاة بزميلها الشاب ضمن تقاليد ثورية ونضالية وأفكار مفادها أنّ معركة تحرير المرأة هي جزء من معركة تحرّر المجتمع بأسره ولا تنفصل عنه.

عند انتقالنا إلى الجنوب حاولنا تأليف فصيل مستقل من الأخوات. وهي فكرة راودتنا طوال الحرب الأهلية. ونجحنا في ابتكار أشكال مختلفة منها في بعض الأحيان.

لكنّ الفكرة لم تنجح في الجنوب. واقتصرت مشاركة الأخوات في عملنا هناك على الخدمات الطبية، والقيام بزيارات اجتماعية للأسر، وزيارة المواقع نهارًا والعودة منها عند حلول الظلام. أمّا الأخوات في باقي المناطق فقد انحصر دورهن في تعبئة أكياس الرمل، والمساهمة في التحصين، أو في التعليم والخدمات الطبية في القرى والمخيمات، وأحيانًا في نشاط مثل تجهيز كنزة للمقاتل، أو إحضار حلويات وأطعمة في المناسبات، إضافة بالطبع إلى دورهن التنظيمي والسياسي.

لم تقنع دلال بهذا الدور على الرغم من أنّ جهاد سمح لها بمغادرة المستوصف والبقاء في موقع تلة مسعود نهارًا. لكنّي في الحقيقة لم أجد ذلك مقبولًا ومتلائمًا مع عادات الجماهير في الجنوب اللبناني. وناقشت دلال كثيرًا في أهمية دورها في المستوصف والخدمات الاجتماعية والطبية وفي هذا الموقع المتقدّم، إلى حين تمكنّا من إنشاء فصيل كامل متفرغ للأخوات. لكنّها لم تقتنع وأصرّت على أن تكون فدائية مقاتلة مثلها مثل أي شاب آخر. ثمّ ما لبثت أن غادرتنا دلال للانضمام إلى مجموعة خاصة كان يعدّها (الشهيد) خليل الوزير. وقبل موعد دوريتها بأيام زارت أم أحمد (والدة الشهيدين أحمد وجمال). وأمضت ليلة كاملة عندها. يبدو أنّها كانت تريد معرفة شعور الأم عند فقدان ولدها. وفي وصيتها ذكرت دلال زملاءها في الكتيبة، وأثنت تحديدًا على (الشهيدين) سعد جرادات وعلي أبو طوق.

في 11 آذار/ مارس وبعد معركة مارون الراس بأيام، أقامت دلال دولتها

في فلسطين المحرّرة لساعات. وأنهت هذه العملية البطولية[14] الجدل القائم حول احتمالات الاجتياح الصهيوني الجنوب الذي بدت ملامحه تطلّ علينا من يوم معركة مارون الراس.

حرب الأيام الثمانية: آذار/ مارس 1978

مساء الرابع عشر من آذار/ مارس دُعيت إلى اجتماع في قيادة القوات في صيدا؛ إذ أوفد العقيد فخري شقورة مندوبًا لغرفة العمليات المركزية في الجنوب. وفي طريقي للاجتماع تساءلت: كم تأخر هذا الاجتماع! إذ منذ معركة مارون الراس والتقديرات كلها تشير إلى حتمية التدخل العسكري الصهيوني المباشر، بعد أن استنفد سعد حداد دوره وأصبحنا تمامًا على طرف الحدود. وجاءت عملية الشهيد كمال عدوان التي قادتها (الشهيدة) دلال المغربي لتحسم الأمر في غضون ساعات.

قبل أن أصل إلى صيدا، بدأت برقيات ربحي تتوارد على جهاز الإرسال اللاسلكي عن تحرّك كثيف للجيش الإسرائيلي باتجاه الحدود. باللغة العسكرية، هذا يعني أنّ ساعات قليلة فقط أصبحت تفصلنا عن معركة كبيرة. وأمام هذا السيل من البرقيات الذي بدأ يتعزّز أيضًا من المواقع الأخرى، أحسستُ بأنّ كل دقيقة تمضي كأنّها ساعة أو تزيد. واستأذنتُ لمغادرة الاجتماع قرابة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين ليلًا. وكان أمامي أكثر من ساعة لأبلغ بنت جبيل. عند وصولي بالقرب من صور بدأ الهجوم واستأنفتُ طريقي باتجاه تبنين مقر قيادة الكتيبة من دون أضواء.

أضاءت الطائرات والمدفعية الإسرائيلية سماء الجنوب بقذائف الإنارة، وبدأ قصف جوي ومدفعي وصاروخي على جميع القطاعات وجميع المواقع. وفي منتصف الليل تمامًا بدأ الاجتياح الإسرائيلي للجنوب في ما عُرف لاحقًا بحرب الأيام الثمانية.

(14) أسفرت عملية الشهيد كمال عدوان التي قادتها دلال المغربي عن مقتل 32 إسرائيليًا، وجرح 82، في حين استشهد 9 من أفراد المجموعة من بينهم دلال، وأُسر اثنان بعد إصابتهما بجروح.

كان لتوقّع الهجوم أثرٌ حاسم في عدم وقوع أي إصابة خلال القصف التمهيدي، فقد تقدّمت جميع مواقعنا ليلًا إلى المنطقة الحرام الفاصلة بين قواتنا والعدو، على تلال بنت جبيل في تلة مسعود، غادر حسان شرارة وماهر فاعور (بشار) التلة وتقدّما حتى أصبحا على مقربة من مواقع حشد العدو في عين إبل، وكذلك فعل أبو خالد الشحيمي في تلة شلعبون. ولم يكن نتيجة ذلك تفادي القصف والغارات الجوية فحسب، وإنّما مفاجأة العدو بالاشتباك معه من نقاط قريبة لا يتوقّع وجودًا لقواتنا فيها. وبكل أسف فإنّ بعض الرفاق من التنظيمات الأخرى لم يستجيبوا لهذه التعليمات وفضّلوا البقاء في مواقعهم فكانوا أول ضحايا هذه الحرب.

توجّهتُ إلى مقر قيادة الكتيبة في تبنين. ومن مواقع القيادة العربية الموحدة[15] بدأتُ أراقب سير المعركة؛ إذ كانت خطتنا تقضي بأن نثبت في المواقع لامتصاص صدمة الهجوم وإعاقته وتأخيره قدر الإمكان، لإتاحة الفرصة لقواتنا الموجودة في مارون الراس للانسحاب بعد اشتباكها مع العدو الصهيوني هناك، والتحوّل بعد ذلك إلى حرب عصابات تستنزف العدو وتعوّق تقدّمه؛ أيّ علينا المزج بين أسلوب الحرب النظامية والتثبت بمواقعنا ومنع العدو من احتلالها، وحرب العصابات المتحركة التي تقوم على عمل كمائن على نقاط تقدّم العدو.

أمّا لحظة الانتقال بين أسلوب في المواجهة وآخر، فقد كان قرارها يخضع لتقدير بشري للموقف؛ ففي لحظة مبكرة من وجهة نظري أخذ جهاد قرارًا بالانسحاب من المواقع الأمامية. ولم أعتقد أنّ هذا القرار كان صائبًا في لحظتها من حيث التوقيت، إذ لا توجد لدينا معلومات دقيقة عن قواتنا في مارون الراس، فقد استشهد الفدائي المغوار أبو وجيه العنداري الذي قاد سابقًا الدوريات من الجبل إلى مخيم تل الزعتر، وهو يحاول الاتصال بوحدتنا في مارون الراس، كما أنّه لا بد من الاصطدام مع العدو والحدّ من قوة اندفاعه وامتصاص زخم هجومه. أعرف تمامًا أنّ قرار الصمود سيوقع في صفوفنا عددًا من الشهداء، لكنّني أقدّر

(15) نقاط واستحكامات أقامتها القيادة العربية الموحدة في الجنوب اللبناني.

في الوقت نفسه أنّ انسحابًا مبكرًا قبل أوانه سيوقع في صفوفنا خسائر أكبر، إذ سيجعل العدو يندفع بسرعة ويشتّت قوتنا ويُلحق بها خسائر كبيرة.

دفعني تقدير الموقف هذا إلى إلغاء الأمر الصادر عن جهاد لحظة صدوره، والتوجه فورًا مع حسام إلى بنت جبيل، وقد كنتُ أُدرك تمامًا حرص جهاد على إخوانه الذي أشاركه فيه؛ فكل قطرة دم من مقاتل يجب أن تنزف في مكانها الصحيح. لكنّ رؤيتي للأمر كانت تتعدى ذلك إلى ضرورة حماية باقي إخوتنا ووحداتنا، وإعاقة العدو وترتيب مقاومة ضارية ضده ووقف اندفاعه.

وصلتُ إلى بنت جبيل قرابة الرابعة فجرًا. والتقيتُ جهاد وإخوانه، وكان القصف عنيفًا، والاشتباكات تدور في كل مكان. فرأيتُ أنّ من الملائم استبدال جهاد وتعيين خالد قائدًا للقوة. أصرّ جهاد على البقاء مع خالد في بنت جبيل. ووافقته على ذلك؛ فقد كان شجاعًا متمالكًا ذاته. وقدّرتُ أنّ وجودهما معًا سيساعد على اتخاذ قرارات صحيحة. ولم يشعر أحد بهذا القرار ولم يعرف أحد بحيثياته. بعد بضعة أيام سيكون جهاد قائدًا للمواجهة في تبنين، وبعدها سيعود مرة أخرى إلى المواجهة في العباسية، وكما كانت مواقع سريته أول من اشتبك مع العدو فإنّه في العباسية سينجح في الحيلولة دون وصول العدو إلى نهر الليطاني. وستكون الرصاصات التي سيطلقها آخر رصاصات في هذه الحرب.

بعد أن اطمأننتُ على الوضع في بنت جبيل، توجهتُ إلى تلال الطيرة لترتيب خط دفاع ثانٍ من حداثا إلى الطيرة وبيت ياحون وكونين، وتمكّن إخوتنا من وقف الهجوم الإسرائيلي على تلال بنت جبيل، بل حمله على التقهقر لإعادة تنظيم قواته. وعاد القصف المدفعي والغارات الجوية من جديد على مواقعنا. وتمكّن ربحي من الانسحاب من مارون الراس بعد مواجهة عنيفة. وأرسل مع قواته إلى الخطوط الخلفية.

استمر القصف والاشتباكات حتى الظهر حيث توجّهت مرة أخرى إلى بنت جبيل. وعلى مدخلها في نقطة تُدعى صفّ الهوا، التقيت بالإخوة مجددًا، وكان عمّار قد وصل من إجازته في بيروت هو وعدد من إخوانه.

صوت الاشتباكات ما زال مستمرًا على التلال، وكنا نشاهد من موقعنا ضراوتها في تلة شلعبون. اندفع عدد من الإخوة بقيادة خالد أمام صفّ الهوا لتقديم ما يمكن من دعم وإسناد لتلة شلعبون وتلة مسعود ومنع العدو من الالتفاف عليهما.

لخّص لي جهاد وخالد الموقف؛ كانت الأمور تُنبئ بوقف تقدّم العدو واستمراره في القصف كي يعيد محاولة اقتحام مواقعنا.

غادرتُ بنت جبيل إلى تبنين. وبعد الظهر تمكّن العدو من احتلال تلة مسعود وتلة شلعبون، وبدأ يحاول التقدّم باتجاه صف الهوا. وعصرًا قدّرت أنّه آن أوان الانسحاب إلى خطٍ ثانٍ، والبدء بتطبيق الجزء الثاني من خطتنا الدفاعية.

مع احتدام المعارك حضر إلى بنت جبيل عدد من المصورين ورجال الصحافة؛ كان من بينهم مجموعة من مؤسسة السينما الفلسطينية تضم إبراهيم ناصر (مطيع)، وحافظ الأسمر (عمر)، ورمزي الراسي، الطالب في الجامعة الأميركية الذي التحق بمؤسسة السينما الفلسطينية بعد تخرّجه. قامت المجموعة بتصوير الغارات الإسرائيلية على بنت جبيل والاشتباكات التي تدور بين المقاومة والقوات الإسرائيلية. تجمّع عدد من الصحافيين والمصورين في منطقة صف الهوا على مدخل بنت جبيل، لتصوير الاشتباكات الدائرة في تلة شلعبون ومراقبتها. قام العدو الصهيوني بقصف المنطقة بمدافع الدبابات. كما شنّت طائراته غارات جوية عدّة على المنطقة، ما أدّى إلى تفرقهم. وأمام اشتداد القصف الجوي والمدفعي، لجأ عمر ومطيع ورمزي إلى الاختباء في أحد الملاجئ القريبة. استمر القصف فترة طويلة من الوقت كانوا خلالها يخرجون من الملجأ ويقومون بواجبهم المهني في التصوير ثمّ يعودون إليه. مع ساعات العصر والمساء اقتربت الدبابات من المنطقة وقام الجنود الصهيونيون بإعدام (الشهداء) عمر ومطيع، في حين أُسر رمزي الذي أظهر هويته اللبنانية. وعلى الرغم من تعرّضه للضرب المبرح فقد نفى أي علاقة له بالمقاومة؛ وأُفرج عنه بعد فترة. وفي تلة شلعبون أعدم الجنود أيضًا (الشهيد) أبو خالد الشحيمي بعد نفاد ذخيرته، في حين لجأ زميله أبو الفدا للاختباء في إحدى المغارات

الموجودة في التلة، وهي مقبرة قديمة فيها عدد من القبور التي اختبأ بينها. ألقى الجنود بعدد من القنابل اليدوية داخل المغارة، إلّا أنّ القبور قد حمته ولم يُصب بأذى، وخلال الليل تمكّن من التسلل والالتحاق بإخوانه.

في حرب الأيام الثمانية استشهد نخبة من المقاتلين في طليعتهم حسان شرارة وماهر فاعور (بشار) وقاسم بزي (زيتون) وفؤاد دباجة وأبو وجيه العنداري وأبو خالد الشحيمي ومحمد حمدان وأبو بهيج وجعفر السلحوت، وبعضهم من أبناء بنت جبيل ذاتها وبعضهم الآخر من فلسطين أو جبل لبنان وشماله وجنوبه وبقاعه.

بعد تحرير الجنوب في عام 2000 أقام الإخوة في المقاومة اللبنانية مهرجانًا كبيرًا في بنت جبيل حضره عشرات الألوف، وخطب فيه أحد رفاق الشهداء. كما ألقى السيد حسن نصر الله (أمين عام حزب الله) كلمة أشاد فيها بدور الكتيبة المتميّز وبالمقاومة الفلسطينية في الدفاع عن الجنوب. ودُشّن نصب تذكاري في بنت جبيل تخليدًا لهؤلاء الشهداء الذين جُمعت رفاتهم وأُعيد دفنها في هذا النصب وسط احتفال مهيب. بعد حرب تموز/يوليو 2006 أقيم نصب تذكاري آخر على مدخل المدينة ضمّ صور ستة شهداء من أبناء بنت جبيل، استشهد ثلاثة منهم في صفوف الكتيبة في آذار/مارس 1978، واستشهد ثلاثة في صفوف المقاومة الإسلامية في حرب تموز/يوليو 2006.

قتال العُقد

توقّف اندفاع العدو في قطاعنا عند بنت جبيل. وبدأنا الانتقال إلى الخطة البديلة؛ إذ توقّعنا أن يستمر العدو في تقدّمه. فجهزنا عُقدًا قتالية في بيت ياحون وكونين والطيرة وحداثا بقيادة حسام. ثمّ أقمنا تجمعًا أكبر في بلدة تبنين بقيادة جهاد وعمّار. وهكذا ظلّ العدو يواجه مقاومة ضارية في كل نقطة يتقدّم فيها. وعندما يشعر أنّه يواجه مجموعات صغيرة ويقرّر التقدّم بسرعة، يُفاجأ بعُقد قوية ومجموعات متعددة، فيقرّر التوقّف من جديد. في اليوم السابع للحرب،

توجهت إلى بلدة جويا مقر قيادة القطاع الأوسط حيث (الإخوة الشهداء) بلال ونائبه نور علي[16] وكان معهما أبو الفتح[17] الذي كان قائدًا للمليشيا في المنطقة.

بعد أن شربنا الشاي قرّر بلال نقل المقر إلى مبنى آخر لا يبعد عنه سوى خمسين مترًا. وبعد وصولنا إلى المقر الجديد بدقائق، قام الطيران الصهيوني بقصف المقر القديم في الوقت الذي كان حراسه ما زالوا ينقلون أمتعتهم وتجهيزاتهم، ما أدّى إلى إصابة بعضهم بجراح.

حُشرنا في زاوية ضيقة، وكان المبنى يهتز، وشظايا القصف تصيب الجدران الخارجية وتحطم الزجاج كلّه. شاهدنا جميعًا الموت أمام أعيننا، ونضحك كلّنا كلما سقط صاروخ بقربنا ولم يُصبنا، وقد غمرتنا في تلك اللحظات الحرجة روح النكتة.

ما إن انتهى القصف حتى هرع إلينا خالد الذي كان قد فارقنا قبل لحظات، ليقوم بتجميع مجموعاته في جويا، إذ اعتقد أنّنا في عداد الشهداء. افترقنا على أن تقوم مجموعات من القطاع الأوسط بالقتال على محور حاريص – قانا، وأن تقوم مجموعات مشتركة من الأوسط والجرمق بالقتال على محور الشهابية – جويا، وأن تقاتل الجرمق على محور ديردغيا العباسية.

في اليوم الثامن للحرب سعى العدو للوصول إلى الساحل. إلّا أنّه توقّف على أبواب البازورية بالقرب من مخيم البرج الشمالي بعد المواجهة العنيفة الممتدة من الشهابية إلى جويا بقيادة خالد، حيث وُضعت مجموعة من الكمائن على الطريق ما لبث أن تجاوزها العدو بعد اشتباكات قصيرة، إلّا أنّه فوجئ بمجموعات أكبر متموضعة في بلدة جويا. كما توقف بالقرب من العباسية بعد

(16) (شهيد) مقدّم عبد الكريم عبد الخالق، استشهد في الغارة الجوية الإسرائيلية على منطقة حمام الشط في تونس، بتاريخ 1/ 10/ 1985.

(17) ذياب العلي، انضم إلى حركة فتح في عام 1965 وانضم إلى الكتيبة ضابط عمليات، في عام 1978، أصبح قائدًا للكتيبة المحمولة، اعتقل لدى السلطات السورية، ومن ثمّ كان قائدًا لمنطقة جنين وللأمن الوطني في الضفة الغربية بعد اتفاق أوسلو. تقاعد برتبة لواء.

أن اشتبك معه جهاد وخضر، وبعد أن قامت طائراته بقصف مسجد البلدة مُوقعةً عشرات الشهداء.

لم يتمكن العدو من الوصول إلى الطريق الساحلية أو محاصرة صور واحتلالها. وبدأ وقف لإطلاق النار، تبعه وصول قوات الطوارئ الدولية التي فوجئت بوجود قواعدنا خلف قوات الاحتلال الصهيوني التي انسحبت إلى الشريط الحدودي. وبهذا حافظنا على وجودنا العسكري وحرية حركتنا داخل منطقة قوات الطوارئ الدولية.

علي أبو طوق

هذه صفحات من كتابٍ خطّه علي أبو طوق بدمائه؛ أجتزئها من الذاكرة كما هي، من دون خيال أو رتوش، وبلا تدخّل أو إضافة من جانبي، بل قد يعتري هذه الصفحات كثير من النقص، ويتملكنا الإحساس بالقصور تجاه ذكراه؛ إذ إنّ للذاكرة الإنسانية عذرًا في ضعفها، وعذرنا نحن أنّ الفعل الإنساني يتفوّق دائمًا على محاولات تدوينه، خصوصًا إذا كان الفعل ينبض بحيوية علي وتفانيه عن ذاته، ويلتحم بالشعب ويعمل من أجله، فينزرع في تراب الوطن، ويتّحد مع دماء الشهداء.

أعترف منذ البدء أنّ السير بمحاذاة علي لم يخلُ من صعوبة على كثيرين من رفاقه؛ إذ إنّ عليًا كان يؤمن بأنّنا لم نُقدّم جميع ما نملك من أجل الارتقاء بالثورة، وتصعيد كفاحها، وتصليب بنائها؛ فالثورة في نظره فعل مستمر، لا يهدأ ولا يتوقّف، لذا فإنّ أي جهد يُبذل هو خطوة من أجل بذل جهد أكبر منه، وأي إنجاز يُسجل لا يعدو كونه علامة مضيئة على طريق تسجيل إنجاز أكثر أهمية. كان علي ينشد الكمال التام والغاية القصوى في كلّ ما يفعله، لكنّه كان يُدرك أنّ ثمّة مسافة – تصغر أو تكبر – بين الجهد الإنساني ومثله الأعلى، ومع أنّ عليًا لم يكن قط مثاليًا – بالمعنى الفلسفي – بقدر ما كانت أفكاره تندمج في الواقع، ويعبّر عنها من خلال الممارسة العملية.

لعلّي أسجّل هنا أنّه لم يُحفر خندق لم يضرب فيه علي ضربة معول، ولم

يُبنَ موقع أو دشمة (تحصين عسكري) لم تُدمَ فيها يداه، ولم يتألم مقاتل إلّا وكان علي بجانبه، يمسح على جروحه ويخفف بعض ألمه ومعاناته. ولأنّ عليًا كان كذلك فإنّ شعور إخوانه بالمسافة التي سبقهم فيها، سرعان ما يتحوّل من شعور بصعوبة اللحاق به، إلى الأمل بمواكبته والسير معه وعلى خطاه. وحيثما كان علي، وفي أي موقع حلّ، أكان في الأردن أو لبنان، بنت جبيل أو الشقيف، البقاع أو طرابلس، البداوي أو شاتيلا، فإنّ بصماته الخاصة سرعان ما تطبع المكان بطابعها المميّز، وسرعان ما يُطلق وجوده شارة البدء لبناء نموذج ثوري متقدّم.

تُرى كم مرةً جرُح علي؟ أحاول أن أتذكر؛ فهو قد جُرح الجرح فوق الجرح فوق الجرح.

أذكر أنّ أول مرة، كانت في عام 1976، حين كان يشغل موقع قيادة منطقة رأس النبع في بيروت، وتمكّن مع إخوانه من حماية المنطقة، بل وإنقاذ حي البرجاوي المجاور والممتد على شكل شريط ضيق داخل حي الأشرفية، ومنع قوات الكتائب من احتلاله، وضمن بذلك سلامة المناطق الإسلامية في رأس النبع والبسطة. على أنّ الإنجاز الأهم الذي سجّله تمثّل بحماية أمن سكانها، مسلمين ومسيحيين، من نهب عملاء الأجهزة ومروّجي الفتنة الطائفية وتجار الحروب المتسترين ببعض اللافتات الوطنية وترويعهم؛ ففي رأس النبع أنقذ علي أرواح العشرات من سكانها المسيحيين، وعزّز روابط الوحدة والمحبة بينهم وبين إخوانهم المسلمين، وأقام اللجان الشعبية من سكانها؛ فأصبحت المنطقة بأسرها أسرة واحدة كبيرة.

لم يرُق هذا لجمع من المتضررين، فكان أن دبروا محاولة لاغتياله، وهنا افتعل بعض المشبوهين مشكلة، أطلق خلالها أحدهم النار عليه من بندقية كلاشنكوف، فكان أن أمسك علي بعد إصابته بالبندقية ويد القاتل قابضة على زنادها، وحوّلها من صدره إلى صدر القاتل، وخرج علي يومها بجراح وكسور في الساق وحروق شديدة في اليدين. وقبل أن يمضي شهر على ذلك، عاد علي إلى رأس النبع التي كانت نيران القناصة تؤرق بعض شوارعها، وأراد مشاركة

إخوانه في بناء متراس يحمي رؤوس الأطفال الأبرياء من الطلقات الغادرة. إلّا أنّ القناص المتربص الذي هاله منظر الشاب الذي يحمل كيس رمل بيد، ويتكئ على عكازته باليد الأخرى، عاجله بطلقة أصابت الساق الملفوفة ذاتها، وليترك الجرح وسامًا دائمًا تجلّى في عرجة خفيفة ظلّت تميّز شبح علي حين يطل علينا من بعيد.

في عام 1980 حاز علي وسامًا آخر، بينما كان يقوم مع عدد من إخوانه بتنفيذ خطة تجهيز هندسي على الحدّ الأمامي في منطقة كفر تبنيت بالقرب من قلعة الشقيف؛ إذ انفجر لغم نالته منه شظية أصابت ساقه الأخرى، ولم تمضِ أيام حتى كان على رأس عمله من جديد. يومها انتقد بعض إخوانه موقفه هذا، عبر رسالة وجهوها إليه، واستهلّوها بالقول «إنّ عليًا قدوة لإخوانه المقاتلين ومثلٌ لهم، وقد علّمهم أنّ الفدائي ملك للثورة والشعب، لذا فإنّهم ينتقدون سلوكه الذي يتضمّن استهتارًا بالإصابة، وعدم الاهتمام الكافي باستمرار العلاج». يومها، أشرق وجه علي خجلًا، وبعناده المعهود حاول المقاومة والدفاع، واستخدم جميع المبررات الممكنة للردّ على هذا النقد. وفي نهاية المطاف استسلم لمنطق النقد الموجه إليه من أحبائه وإخوانه. وعُمّمت الرسالة بعد تذييلها بوعد من علي بأن يهتم أكثر بجراحه وصحته. لكن لعلّه الوعد الوحيد الذي لم ينفّذه.

أمّا في مخيم البداوي في عام 1983، فقد أصيب علي بجراح طفيفة ناجمة عن صاروخ ضل طريقه، وجاء يسعى لاقتلاع الثورة من جذورها، ورميها إلى البحر والمنافي. لكن خلف هذه الجراح الطفيفة، استقر جرح عميق في وجدانه منذ أن بدأت الطلقات التي ضلت الطريق تدوّي في سماء البقاع. وكان علي يدرك بحدس الثائر أنّ هدف هذا الاقتتال إبعاد المقاتلين عن ساحة الصراع ضد العدو الصهيوني. لذا وسط أتون الطلقات الضالة ظلّ علي يتحيّن الفرص لتنفيذ عملية أو إرسال دورية ضد العدو الصهيوني، لعلّ انفجار لغم تحت دبابة صهيونية يلفت هؤلاء ويجذب البنادق إلى اتجاهها الصحيح. وفي شاتيلا جُرح علي أكثر من مرة. وفي إحداها كان عدد الجرحى كبيرًا، فانتظر علي تضميد جراح الجميع، رافضًا بإصرار منحه أيّ أولوية، حتى فرغ الطبيب

يانو من علاج الجميع، ورفض علي البقاء في المستشفى وأصرّ على العودة إلى الخنادق ليطمئن على من بقي من رفاقه.

أم أحمد

لا يستقيم الحديث عن علي دون أن نذكر أم أحمد، أم الشهيدين، أحمد وجمال القرى؛ حيث كان علي ينتظر أم أحمد قبل كلّ عيد؛ إذ تأتي إلى الجنوب تحمل ما صنعته يداها من الحلوى، وتصرّ على الرغم من عمرها على توزيعها بنفسها على المواقع كلها. وقد كانت أم أحمد تنتظر عليًا وإخوانه صبيحة كل يوم عيد على مائدة الإفطار في بيتها بعد زيارة مقبرة الشهداء.

بين علي وأم أحمد ودٌّ خاص؛ كانت أم أحمد ترى في علي ابنها الأصغر، جمال الذي استشهد في صنين، وكان هو يرى فيها والدته التي لم يرَها منذ أكثر من خمسة عشر عامًا. ذات يوم أطلقت أم أحمد على علي اسم عمر بن الخطاب. وعندما سألتها عن سبب التسمية، قالت: «كنتُ في الجنوب لتوزيع حلوى العيد على المواقع، وطوال الطريق لم يتناول علي شيئًا منها على الرغم من إصراري عليه. وفي الموقع الأخير بقيت قطعة كعك واحدة، ناولتها له وقلتُ له جاء دورك الآن، وبينما يهمّ بتناولها؛ وإذ بأحد الإخوة يصل إلى الموقع، فما كان من علي إلّا أن ناوله قطعته، وعاد معنا وهو مسرور الخاطر، وأنا ساهمة أفكر في تفانيه وزهده».

شروق الشمس

ثمّة عادة لم يتخلّ عنها علي؛ إذ كان يسأل مساء كل يوم عن جدول الحراسة، ليتعرّف إلى آخر حارس، ويُعلم الضابط المناوب بوجوب إيقاظه في الصباح الباكر. ودائمًا كان آخر حارس يقابل ذلك بابتسامة ماكرة ترتسم على شفتيه؛ فالجميع يعرف أنّ ثمّة علاقة خاصة بين علي وشروق الشمس، ذلك أنّ الشمس تظلّ تتثاءب في مكانها خلف البحر إلى أن ينهض علي ويمدّ يده إليها لتأذن ببدء نهار جديد، كما أنّهم يعرفون أنّ هناك ساعة داخلية لعلّها مزروعة

في قلبه، توقظه في الوقت الذي يشاء، وما إن يلمح علي ابتسامة الحارس حتى يبادره القول بنبرة جادة: «معلش هذا واجبك إنت، مش تنسى تصحيني، في شغل ضروري لازم نخلصه». وفي الصباح الباكر، قبل أن يُدرك الحارس أنّ الوقت قد حان، يقف علي أمامه وفي يده إبريق شاي ساخن.

علي الإنسان

لم يكن همّ علي الأوحد منصبًّا على إنجاز خطة التحصين فحسب، بقدر ما كان موجهًا إلى الإنسان المقاتل الفدائي الذي سيشغل هذه المواقع ويدافع عنها. كان علي يؤمن أنّه لا يوجد مقاتل سيئ، بقدر ما توجد تربية خاطئة، وأوضاع اجتماعية قاهرة ناجمة عن فقدان شعبنا وطنه وحياته في الشتات؛ لذلك كانت موضوعات مثل بناء الذات، وإعادة صوغها والتربية الثورية تحتل لديه المقام الأول. وعندما كنّا نواجه بعض الإحباطات في هذا السياق، كان تفسير علي لها يتلخص في كوننا لم نبذل الجهد الكافي والمطلوب؛ فالمقاتل عندما قرّر الالتحاق بالثورة المسلحة، كان مستعدًا في الوقت ذاته أن يبذل الغالي والنفيس، وهو قد حزم رأيه على ذلك بعد طول تردد، وبعد أن وصل إلى موقف تغلبت فيه النوازع الإيجابية على النوازع السلبية التي بقيت كامنة في داخله.

من هنا كان علي يرى أنّ الكادر هو المسؤول الأول عن عدم ثبات مقاتل ما في صفوف الثورة؛ إذ إنّه سمح للعوامل السلبية بالظهور ثانية، ولم يستطع تطوير العوامل الإيجابية. ولعلّ تلك كانت مشكلة الكادر الدائمة معه، فعلي الذي كان مقتنعًا بسلامة هذا المنطق، لم يكن يتخيّل أنّ ثمّة حدودًا للقدرة البشرية، وإذا حدث ووافق على وجود تفاوت في القدرات، فإنّما لينطلق من هذا ليؤكد ضرورة السعي الدائم إلى تطوير الذات وإعادة صوغها. كان علي جادًا وحازمًا، كما أنّ لكنة صوته المميّزة تعبّر عن تصميم شديد. وقد يتبادر إلى الذهن أنّ خلف هذه الجدية وذلك الحزم والتصميم قسوة بالغة، وكثيرًا ما آلمه أن يُساء فهمه على هذا النحو؛ إذ ما هي إلّا سويعات حتى يُدرك المرء أيّ طفل يخاطب فيه.

نجح علي في إقامة علاقة من نمط خاص مع إخوانه؛ فهو مهاب الجانب بلا شك، إلّا أنّ تفوّقه الرئيس تمثّل دائمًا بصعوبة منافسته؛ فقد كان مثلًا أعلى في تقديس العمل والمثابرة، وكان بحق زاهدًا في كل شيء. وبقدر اندفاعه وتحفزه للعمل، كان واسع الصدر خلال النقاش. وإذا أحسّ أنّه قد أخطأ مع أحد إخوانه أو أسيء فهمه، فلم يكن يهدأ حتى يوضّح موقفه، ولو استغرقه ذلك ساعات طويلة. وهو على استعداد لأن يقضي ساعات أطول لسماع مشكلة مقاتل، أو البحث الصامت والخجول عن مصدر معاناة فدائي؛ لذا على الرغم من كلّ جديته المعهودة، أكنت اتفقت معه أم اختلفت، أردت ذلك أم رغمًا عنك، كان علي دائمًا قريبًا من القلب.

آمن علي بربط النظرية الثورية بالممارسة العملية، ورأى فيها الضمانة الأكيدة للوحدة والرأي السديد والمساهمة الجماعية في الارتقاء بالعمل وتطويره. ولذا تراه حريصًا على عقد الاجتماعات الدورية لقادة مجموعاته وفصائله، ولكلّ مجموعة أو فصيل على حدة، ولعلّ النقطة الأولى التي كانت تحظى باهتمامه بعد شرح الوضع العسكري وتقدير الموقف السياسي هي وضع المقاتلين؛ فقد كان يحفظ أسماء الجميع، ويسأل عنهم فردًا فردًا، من حيث قدراتهم، وتطوّرهم، مشكلاتهم الخاصة، وأوضاعهم الأسرية، والانسجام الداخلي في المجموعة، حتى تحسّ أنّه يرعاهم كما يرعى نبتة صغيرة يتفقدها كل صباح. وفي جميع هذه الاجتماعات تراه كالحمل الوديع يقبل النقد برحابة صدر، ويستمع إلى الآخرين بلا ملل، ويعالج قضاياهم برفق وحكمة ودراية.

بقدر ما كان حريصًا على استمرار عمله بهذه الوتيرة، فقد كان دائم الشكوى من تأجيل بعض اللقاءات الدورية على مستوى الكتيبة. وللحق فإنّ لذلك قصة لا تخلو من طرافة؛ ذلك أنّ عليًا لا يقتنع بسهولة أنّ ثمّة أعباء قد تحول أحيانًا دون سير الأمور على وتيرتها المعهودة، وكثيرًا ما تكون هذه الأعباء أعباءه هو، فمثلًا كنّا نتفق على لقاءٍ ليلًا، فكان علي يحضر ويجلس على فراش ملقى على الأرض وقد أنهكه تعب النهار المضني، وما إن نبدأ الحوار حتى يغالبه النوم ثمّ ما يلبث أن يستسلم له، فننزع عنه حذاءه العسكري، ونرتب له فراشه، ونحن نعلم أنّ نصيبنا منه في اليوم التالي سيكون اللوم لأنّنا لم نوقظه وأضعنا فرصة ذهبية للقاء،

ونرضى بذلك ما دام قد نال قسطًا إجباريًا من الراحة. يتكرّر ذلك فنتفق على لقاء آخر ظهرًا، وعندما يحين الموعد المرتقب نجد برقية اعتذار منه فثمّة عمل ما. وما إن نلتقي حتى يبتسم ويمضي نحو مهمة جديدة.

خالد وبهية

استشهد جورج ثيودوري الطالب في كلية الهندسة في الجامعة الأميركية في القدس خلال تحضيره عبوة ناسفة في عام 1975، في حين استشهد في صنين جورج عسل (أبو خالد جورج) وطوني النمس ونقولا عبود المعروف بالحاج نقولا في عام 1976 إذ يطلق إخوتنا المسيحيون لقب حاج على كلّ من يحمل اسم نقولا. أمّا خالد بشارة فقد استشهد بالقرب من بلدته دير ميماس في عام 1977 في كمين نصبه مع مجموعته لقوات سعد حداد التي احتلت بلدته.

أذكر أنّي ذهبتُ إلى دير ميماس، ووقفتُ في محراب كنيستها لتأبين الشهيد الحاج نقولا في ذكرى الأربعين لاستشهاده، قبل أن يستولي عليها بالقوة سعد حداد ويضمها إلى شريطه الحدودي. وبعد تحرير دير ميماس وعودتها إلى أبنائها المسيحيين العرب الأقحاح، وعودة رايات الوطن ترفرف عليها، وقف السيد هاني فحص في المكان نفسه، ومن على منبر الكنيسة ومحرابها ليؤبن الشهيد خالد بشارة وباقي شهداء القرية. كانت الكتيبة نموذجًا يضم المناضلين من شتى الطوائف والمذاهب والمنابت والأصول. كان همّنا وهاجسنا واحدًا، فلسطين، وثورة عربية من أجل تحريرها، والنهوض بأمتنا العربية وتوحيدها.

على أنّ ثمّة نماذج تبقى صورتها ماثلة في الذهن مهما مرّت الأيام وانقضت السنون. ومن هذه النماذج تشرق صورة خالد وبهية. ولا أظن أنّي أبالغ إذا قلت إنّ هذين التوأمين يمثّلان صورة نموذجية حية للمقاتل الثوري العربي الذي يؤمن بأنّ فلسطين قضيته المركزية، بكل ما يعنيه ذلك من قيم ثورية متميزة، ونبل وأخلاق وخصال حميدة، والتصاق بالأرض والتاريخ والحضارة العربية الإسلامية، بوصفها جزءًا أساسيًا في بناء منظومة المستقبل.

التقى خالد بهية أول مرة في رحاب الكنيسة، حيث ساهما في تأسيس مجموعة عُرفت باسم «مسيحيون من أجل القدس». وعندما تجمّعت سحب

الحرب الأهلية السوداء، اختارا الانحياز إلى القيم التي ناضلا من أجلها، وقرّرا الوقوف مع فقراء حي النبعة في بيروت، وجلّهم من الجنوب اللبناني سعيًا وراء لقمة الخبز. وفي هذا الحي حملا السلاح ضد محاولات اقتلاعه وتهجيره وإبادة سكانه. وسرعان ما أصبح خالد القائد الميداني للحي. وعند الاتفاق على إخلاء منطقة النبعة كان خالد جريحًا، حيث أنقذته العناية الإلهية ورعاية بهية التي غدت زوجته وبعض الأصدقاء الأرمن من موت محتم، إثر نقض قوات الكتائب الاتفاق الذي كان يفترض انسحابًا آمنًا للمقاتلين والمدنيين.

ما إن شُفي خالد من جراحه حتى التحق بإخوانه في الجنوب الذي ينتسب إلى إحدى قراه الحدودية. أسماء العائلات في قريته هي نفسها أسماء العائلات في الجليل الفلسطيني، وثمّة قرابة أكيدة بينها. وفي الجنوب استلم خالد مهماته قائدًا على فترات للقوات المشتركة الفلسطينية - اللبنانية في بنت جبيل أو في رشاف، مدافعًا عنها ضد اعتداءات الصهيونيين وبعض ذوي القربى من قريته الحدودية ممن غرر بهم العدو.

وجد خالد مع الشهيد حسان شرارة وإخوانه من أبناء بنت جبيل الذين وثقوا بقيادته لهم، وهم يعرفونه زميلًا لهم في الجامعة، أو جارًا لهم في المنطقة التي درسوا في مدارسها، أو رفيقًا لهم في النضال والقتال. لقد كان وجود هذه المجموعة معًا أبلغ دليل على إخفاق المشروع الطائفي في لبنان، وعلى أنّ الطريق إلى فلسطين كفيلة بتوحيد الجهد والسواعد الثورية كلّها.

بقي خالد في بنت جبيل قائدًا ميدانيًا إلى أن غادر ليتلقّى تدريبًا عاليًا في إحدى الدول الصديقة. أمّا بهية فلم تفارق بنت جبيل بدورها، إذ أسست هناك مستوصفًا طبيًا لخدمة الجمهور من أبناء الشريط الحدودي كافة، ومعها كانت (الشهيدة) دلال المغربي، وصديقات متطوعات من النرويج، والدكتور عزت الأسمر، والدكتور خالد اللبناني الجنوبي المتخرج حديثًا في فرنسا، وعقبة الذي أصبح لاحقًا أستاذًا جامعيًا ومتخصصًا بعلم التخدير.

في فجر أول أيام حرب آذار/ مارس 1978، كان خالد ضابط عمليات الكتيبة، توجهنا معًا من تبنين حيث قيادة الكتيبة إلى بنت جبيل. كان القصف

شديدًا للغاية. تقاتل مجموعاتنا على تلال بنت جبيل، والاتصال مقطوع مع القوة الموجودة في مارون الراس. فرأيتُ أنّ من الملائم تعزيز القيادة الموجودة في بنت جبيل. وعيّنتُ خالد قائدًا لها. فأنجز مهمته بنجاح تام، واستطاع إدامة القتال في البلدة حتى وصول القوة الموجودة في مارون الراس بعد قتال عنيف مع العدو الصهيوني، وكان هو وجهاد آخر من خرج من بنت جبيل.

خلال هذه الحرب التقينا مرة أخرى في بلدة جويا مقر قيادة القطاع الأوسط. اتفقتُ مع (الشهيد) بلال قائد القطاع الأوسط على أن يتولى خالد قيادة المجموعات المشتركة للقطاع الأوسط والجرمق، حيث خاض معركة مشرفة مع العدو الصهيوني.

أمّا في النبطية فقد تولى (الشهيد) علي أبو طوق قيادة الحد الأمامي، في حين تولى خالد قيادة سرية الإسناد المناط بها واجب إسناد الحدّ الأمامي التي تشكّلت من فصيل للرشاشات الثقيلة، وفصيل مضاد للدبابات، وفصيل مدفعية وصواريخ.

في تلك المراحل كلّها كانت بهية دائمًا مع خالد، وحولها ومعها تتشكّل بؤر للعمل النسائي أو الطبي. إلّا أنّ السمة الأبرز في خالد كانت وعيه المتميّز، وإيمانه العميق بالجماهير، وعلاقته المتميّزة مع إخوانه، وحفاظه على درجة عالية من المسلكية الثورية.

في رمضان شهر الصوم، كان بعض إخوانه المسلمين يفطر تحت ذرائع مختلفة، أمّا خالد فلا أذكر أنّه شوهد يومًا ما، وهو المسيحي الماروني، مفطرًا. وبالمناسبة لم يكن السؤال عن الدين أو المذهب أو البلد مطروحًا لدينا، بل كان من نافل القول، إنّ فلسطين تجمعنا، وتختفي أمامها جميع الفوارق والمنابت والمذاهب، وتتوحد الأفكار والقيم والمثل.

بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، شهدت أجواء الكتيبة والتيار جدلًا كبيرًا حول دور الإسلام في معركة التحرير. وذهب البعض منّا إلى ضرورة اعتناق الفكر الإسلامي. بينما نفر البعض الآخر من بعض المبالغة في الممارسات والأفكار الإسلامية التي طرأت. وقد شارك خالد بعمق في هذه النقاشات كلها. وكان رأيه أنّنا لم نتغيّر، فنحن في الأساس متمسكون بخط

الجماهير، خط الشعب، وأنّ مسألة الإيمان تبقى مسألة فردية طالما نحن جميعًا متفقون على احترام عادات الجماهير وتقاليدها، ومتمسكون بجوهر حضارتنا العربية الإسلامية. وكان يسخر من أولئك الذين يغادروننا إلى مواقع أخرى أكان ذلك لرغبتهم في مزيد من التعمّق في الفكر الإسلامي، أو لشعورهم بأنّنا ذهبنا بعيدًا في هذا الاتجاه. ويرى أنّ ثمّة قصورًا في فهمهم أهدافنا.

تألّم خالد كثيرًا للاشتباكات التي حدثت بين فصائل فلسطينية ولبنانية مع حركة أمل. ورأى فيها إشارات خطر حول مستقبل المقاومة وعلاقتها بأهل الجنوب. أذكر أنّه في أحد الأيام حرّك خالد سريته لتطويق حشد فصائلي تمركز في مخيم النبطية المهجور، وبدأ في نصب مدافعه لقصف قرية حاروف التي شهدت اشتباكًا بين الطرفين. قال لي يومها لو أُطلقت طلقة واحدة من هذا المكان المهجور، فسيُقال غدًا في كل الجنوب أنّ حاروف قُصفت من المخيم الفلسطيني المهجور. وفي مرة أخرى، تحرّكت سريته للفصل بين الحزب الشيوعي وحركة أمل في قرية أنصار، بعد اشتباكات دامية بينهما. يومها قال للحاج إسماعيل قائد قوات القسطل: «ماذا سيقول أهلي في الشريط الحدودي الذين غادرتهم وعارضتهم لو قُتلتُ الآن؟ أريد أن أعود وسريتي إلى مواقعنا الأمامية لقتال إسرائيل». ردّ الحاج إسماعيل: «لا أستطيع استبدالكم، فأنتم الوحيدون المقبولون من جميع الأطراف في ظلّ هذا الوضع الداخلي المعقّد».

بإيجاز كان خالد توأم علي أبو طوق، وشبيهَ مروان كيالي، ونسخة مكررة من أبو خالد جورج، ومثّل مع بهية قصة حب ثوري خالدة. وكانوا جميعًا نموذجًا قلّ مثيله. ولا شك لديّ في أنّهما من أولئك الشهداء الأحياء.

في وداع الولد العاملي: السيد هاني فحص

وداعًا أيها الولد العاملي كما سمّيت نفسك في باكورة كتبك. وداعًا أيها السيد الجنوبي الفلسطيني «بالعقيدة والموقف، وليس فقط في الجغرافيا»[18].

(18) بين المزدوجات نصوص للسيد هاني من مقالاته وكتبه.

وداعًا يا من بقيت مع الثورة وفيًا لها «حتى وإن كانت لديك ملاحظات عليها». كيف لا وقد نصّبت نفسك وكيلًا عن دلال في زواجها من عز الدين القسام على مهر قدره «النهر والبحر وحفنة من دم وسلة من عنب الخليل وكيس من برتقال يافا وحلم».

من كثرة ما التقينا، لا أذكر متى كان لقاؤنا الأول؛ لكنّي أذكر أنّ حبنا وعهدنا كانا دائمًا يتجددان مع كل لقاء. أذكرك بعمامتك السوداء وأنت تتنقل في أزقة الفاكهاني أو في قرى الجنوب حيثما توجد قاعدة للفدائيين. هل تذكر كيف كنّا معًا «في يوم شباطي مشمس من شتاء 1975»؟ يومها صلّينا خلف الإمام موسى الصدر في كفر شوبا المدمرة أمام أنقاض مسجدها، ووضعنا حجر الأساس لإعادة إعمارها «برفقة مجاهدي الكتيبة الطلابية». ويومها يا سيدي «حرد علينا بعض الأصدقاء في اليسار اللبناني ويسار (فتح) وأسمعونا تشكيكًا وترهيبًا».

منذ تلك اللحظة وربما قبلها لم نفترق. أذكر أول يوم بعد انتهاء الحرب الأهلية، تلك الحرب التي أدمت قلوبنا، ووحّدت جهدنا من أجل وقفها، والتوجه نحو الجنوب لقتال العدو الواحد الموحد لصفوفنا في مواجهته. ما كدنا نطأ بنت جبيل وعيناتا التي يحاصرها ويقصفها سعد حداد حتى كنت معنا، لتصحبنا في الليلة ذاتها إلى منزل العلامة عبد الحسين فضل الله، والد المرجع السيد محمد حسين فضل الله، تمامًا كما اصطحبتنا إلى منزل الشيخ الشهيد راغب حرب في جبشيت، لنقضي الليالي في منزله أو منزلك، نتحدّث في الهمّ الجنوبي - الفلسطيني الواحد، فعندك «يافا على الهدب ساهرة، وحيفا على الزند وشم، والقدس في آخر الليل.. في آخر الجرح فجر».

ذات يوم كنتُ أتابعك حين استضافتك جزيل خوري في برنامجها على إحدى الفضائيات. سألتك كثيرًا عن الجنوب وفلسطين ولبنان وإيران. فكانت إجاباتك كلّها باتجاه بوصلة لا تخطئ. كانت بوصلتك فلسطين. حاولت جزيل خوري إحراجك حين سألتك مع من كنت، في أيّ محور وأيّ اتجاه، على من كنت محسوبًا، أبو عمّار أم أبو جهاد. أعرف أنّك أحببت كليهما. ظننتُ لوهلة

أنّها قد أوقعت بك. فأجأتني إجابتك: «أنا كنتُ مع الكتيبة الطلابية». شعرتُ لحظتها أنّي معك في أحد بيوت الجنوب الذي أحبّنا وأحببناه.

أنت الولد العاملي الملتزم الأرض وبشتلة التبغ، تروي لنا حكاية الفلّاح الجنوبي معها، حكايتك أنت، وتربطها بتعاون أبناء المخيم الفلسطيني لتهريب بضع ورقات من التبغ، هربًا من أعين الشرطة وشركة «الريجي»، علّها تدرّ عليه بعض الدخل، بعيدًا عن الاحتكار المتوحش الذي ينهش أجساد أبناء الجنوب. كانت قضية أبناء الجنوب قضيتك، تجرّعت مرارتها كما يصفك صديقك السيد محمد حسن الأمين حين يصف تلك المرارة «العالقة على ثدي أمه التي وضعته في حقل التبغ بين شجيراته الصغيرة الخضراء التي تمتد ربيعًا صيفيًا على وهاد الأرض الطيبة وفوق تلالها». يا سيدي، طاردتك شتلة التبغ وورقاتها حتى آخر يوم، فأنهكت الرئة التي توقفت عن العمل، لكنّك لم تستسلم.

يا سيدي لا أبالغ إذا قلتُ إنّك آمنت بإسلام يتجاوز المذاهب، ويسمو فوق الطوائف، ويمتد ليعانق كل أبناء الوطن الواحدَ على اختلاف مللهم ونحلهم، فما زلتُ أتصفح كتبك فأجدك تقول لي في إهداء أحدها «أبا محمد، هذا مشروع آخر لمزيد من التفاهم معك من أجل حياة أجمل، وعقل أكثر»؛ هو العقل إذن والإمعان في التفكير، والأسئلة الحائرة التي كانت تراودك عن نفسها، فتستجيب لحوارها أحيانًا وتضطر إلى الصمت أحيانًا أخرى. ألم تقل في مقالة بعنوان إليكم وصيتي، «إنّ أحدًا من الروحانيين أو العلمانيين لم يقل لنا إنّ غياب العقل يسمّى دينًا. فلماذا يسمون غياب العقل أي غياب الدين دينًا؟». كنت تستغرب أن تُدعى قلة العقل المنتشرة بيننا هذه الأيام دينًا، وأنت الذي تعدّ الوحدة، وحدة الأوطان ووحدة المذاهب والهدف، وكلّ ما يوحّد مجتمعاتنا وأمتنا «هدفًا ومصيرًا، وقضية وإرادة، لا ماضيًا فحسب بل وحاضرًا ومستقبلًا أيضًا»، وتصرخ بأعلى صوتك «أعطني وطنًا.. أعطيك حبًا.. أعطني خبزًا.. أعطيك أمنًا» محذّرًا من أنّ الولد العاملي «لا يلعب، ووراء الحزن الداكن في عينيه مقادير من الغضب».

في إهداء آخر قلت لي: «هذه جنينتي، فيها ورد وفيها شوك، خذ الورد وعطره، ودع لي الشوك وجرحه الذي أراه ضروريًا لمناعة الروح والجسد،

وتوكيد جمال الورد ورائحته». لماذا غادرتنا إذن وما زال لدينا الكثير لننجزه معًا؟ هل أزعجناك إلى الحدّ الذي لم يقوَ فيه قلبك الكبير على أن يتحمّل مصائبنا ومصائرنا؟ أعرف أنّك ما عدت تحتمل أنّ الإسلام دين الوحدة والتوحيد قد أضحى مذاهب، والوطن استحال طوائف، والأمة تحكم بالفساد والاستبداد، وتُستباح من صهيونيي الخارج والداخل، والعقل تراجع أمام الدواعش المستحدثة في كل مجال وحيّز.

أم أنّك رحلت شوقًا إلى أحبتك، ووجدت صحبتهم خيرًا من صحبتنا؟ لعلك اشتقت إلى الشيخ راغب حرب وبلال فحص[19] وحسن بدر الدين[20] الذين يرقد جثمانك الآن بجوارهم في بلدتك الجنوبية جبشيت، في حين تحلّق روحك فوقنا.. سر يا سيد القلوب وشيخها فهناك من ينتظرك؛ أحباؤك أبو علي حلاوي[21]، حسان شرارة، عصمت مراد[22]، سمير الشيخ، جواد، نعيم، جورج، طوني، الحاج نقولا، سعد جرادات، دلال المغربي، علي أبو طوق، مروان، القسام، أبو جهاد ومحجوب. كلهم وآخرون يضيق المقام عن ذكرهم، في انتظارك. هم الآن قد رصُّوا الصفوف في كتيبة واحدة، وأقاموا الصلاة في انتظار حضورك الأبدي، حيث يستعدون للصلاة خلفك في صلاة واحدة موحدة قبلتها القدس، وبوصلتها فلسطين، وعمادها الوحدة والتوحيد، ودعاؤها لجميع المستضعفين في الأرض، كما كنت تدعو دائمًا.

---

(19) (شهيد)، من بلدة جبشيت استشهد في عملية استشهادية بتاريخ 16/ 6/ 1984.

(20) (شهيد)، مناضل لبناني، من كوادر منظمة العمل الشيوعي سابقًا قبل أن يلتحق بالكتيبة الطلابية. كان له دور سياسي مميز في منطقة النبطية، واستشهد بتاريخ 6/ 6/ 1982.

(21) عبد الأمير حلاوي (شهيد)، من كوادر حزب البعث في الجنوب اللبناني ومن أوائل المتصدين للاعتداءات الصهيونية على الجنوب، استشهد خلال تصدّيه لمجموعة صهيونية تسللت إلى بلدة كفر كلا في 27/ 11/ 1975.

(22) (شهيد)، تخرج في كلية طب جامعة تولوز- فرنسا، حيث أسس اتحاد الخلايا الماركسية وانتخب أمينًا عامًا لاتحاد الطلبة اللبنانيين والعرب في فرنسا. انضم إلى حركة فتح وكان من مؤسسي التيار، ثمّ أصبح أمينًا عامًا لحركة لبنان العربي. لاحقًا أسس مع الشيخ سعيد شعبان و(الشهيد) خليل عكاوي والشيخ كنعان ناجي حركة التوحيد الإسلامي (1982). اغتيل في طرابلس في عام 1984.



الفصل السادس

بين حربين

1978-1982

قوات الطوارئ الدولية

أُوقف إطلاق النار دون أن يتمكّن العدو الصهيوني من الوصول إلى نهر الليطاني واحتلال جيب صور ومخيماتها، وصدر قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم 425 القاضي بتأليف قوات طوارئ دولية تُشرف على الانسحاب الإسرائيلي من المناطق التي احتلها العدو. انسحب الجيش الإسرائيلي من أغلب المناطق في الجنوب، إلّا أنّه احتفظ بشريط حدودي وصل جناحي الشريط، وضمّ إليه بنت جبيل والطيبة والخيام.

قبل انسحاب القوات الإسرائيلية وعشية وصول قوات الطوارئ الدولية، تسللت مجموعات من كتائب الجرمق والقطاع الأوسط وأبو يوسف النجار، وأقامت مواقع لها داخل المنطقة التي يُفترض أن تكون تحت سيطرة قوات الأمم المتحدة. وفي صباح اليوم التالي، تجوّل بلال قائد القطاع الأوسط عبر الشارع الرئيس ونقاط تفتيش قوات اليونيفيل، معلنًا بذلك عن وجود قواتنا بأسلحتها داخل هذه المناطق، واستدعى ذلك ضرورة إيجاد مركز للارتباط بين قوات منظمة التحرير والقوات الدولية لترتيب حركة التنقل والتموين، وبذلك حافظنا على وجودنا في مناطق مختلفة من الجنوب، ومنعنا العدو وعملاءه من فرض نفوذهم عليه. وعُيّن ضابط ذكي وشجاع من جيش التحرير الفلسطيني هو الرائد محمد تمراز ليكون ضابطًا للارتباط مع قوات الأمم المتحدة، وأُرفد بعدد من كوادر الكتيبة والتنظيم الطلابي ممّن يتقنون الإنكليزية والفرنسية لمساعدته في هذه المهمة.

تمركزت سريّة من الكتيبة في هذه المنطقة بين دير قانون وديردغيا على محور العباسية – القنيطرة، وتموضعت باقي قوة الكتيبة على الخط الموازي لهذا المحور شمال الليطاني في منطقة الزرارية، واتّخذنا من منطقة القاسمية مقرًا لقيادة الكتيبة، في حين تموضعت قوة كتيبة الأوسط على محوري جويا وقانا، وتمركزت قوة كتيبة أبو يوسف النجار في القطاع الغربي.

فوجئنا في أحد الأيام بقيام عناصر من جبهة التحرير الفلسطينية التي يتزّعمها أبو العباس باعتقال عدد من الضباط والجنود من قوة اليونيفل، وتبيّن لنا أنّ هذا القرار اتخذته قيادة جبهة الرفض المشكّلة من فصائل فلسطينية عدة، بما فيها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وجبهة التحرير العربية القريبة من العراق. كان الهدف من ذلك هو تأليف مركز ارتباط خاص بجبهة الرفض مع قوات الأمم المتحدة في مقابل الإفراج عن المخطوفين. وقد أثار هذا الطلب خوف قادة «فتح» من أن يعدّ ذلك مساسًا بالتمثيل الفلسطيني، ولمّا لم تُفلح محاولات حلّ هذا الموضوع، أُنيطت هذه المهمة بالقوات الموجودة في الجنوب لحلّها. ذهبتُ أنا وبلال وعزمي الصغير، وقابلنا قادة جبهة الرفض الذين كانوا مزهوين بفعلتهم ورفضوا التجاوب معنا.

اتُخذ قرار بمهاجمة مواقع عدة لجبهة التحرير الفلسطينية في الجنوب في الوقت ذاته، تمّت العملية بنجاح تام، ومن دون إطلاق رصاصة واحدة، لكن في مخيم البص القريب من صور لم تُحسن المجموعات الحاضرة هنالك التعامل مع الموقف، وحدث تبادل عشوائي لإطلاق النار أثار موجة من الذعر في صفوف الناس. وعلى الرغم من كون هذه المنطقة خارج نطاق مسؤوليتنا، أرسلنا على الفور مجموعة بقيادة إنعام، تمكّنت من حسم الموضوع خلال دقائق عبر اقتحام سريع ومفاجئ للمقرّ، ومن دون أن تقع أي إصابات. بعد 24 ساعة، أُعيدت جبهة التحرير الفلسطينية إلى مواقعها، واتفق أنّ الارتباط الفلسطيني هو ارتباط لجميع الفصائل، وأُسدل الستار على هذا الموضوع المؤلم.

مجدل سلم

بعد فترة حاول العدو أن يوسّع نطاق تهديداته للقرى المحاذية للشريط الحدودي، فقام بتهديد قُرى مجدل سلم، وخربة سلم، وقبريخا، وأخذ يُرسل دورياته عبر وادي الحجير ليرهب المواطنين. قمنا بزيارة المنطقة، واجتمعنا إلى وجهائها، واتفقنا مع سيد البلدة السيد أحمد شوقي الأمين على أن نرسل فصيلًا مسلّحًا منّا يقيم سرًا في بيوت البلدة، ويتعاون مع شبابها بقيادة محمد عرندس في حراستها، وفي التصدي لأي محاولات معادية للاقتراب منها. بالفعل أرسلنا فصيلًا بقيادة رياض، كان يختفي نهارًا في أحد المنازل، وينشط ليلًا في نصب الكمائن والدوريات، وصولًا إلى نقاط عبور العدو في وادي الحجير، بمشاركة كثيفة من شباب البلدة. ويبدو أنّ العدو عرف بهذا النشاط الذي لاحظته قوات اليونيفل، فتوقف كليًا عن أي عمل عسكري تجاه هذه المنطقة.

سلاح إلى الأرض المحتلة

ثمّة جانب آخر لنشاط مركز الارتباط الفلسطيني والرائد محمد تمراز لم يُعرف تمامًا، وقد كان مجهولًا للكثيرين إلى أن أعلن العدو الصهيوني ذات يوم اعتقال أحد جنود قوات الطوارئ، بتهمة نقل أسلحة ومتفجرات من جنوب لبنان إلى الأرض المحتلة، وربّما ظنّ الجميع أنّ هذه محاولة لم يُكتب لها النجاح وأجهضها العدو في حينه. حتى أنا لم أعرف مدى حجم هذا الموضوع، إذ كنتُ قد قمتُ بتعريف أبو حسن قاسم وحمدي على الرائد تمراز، فعندما كانت الكتيبة متموضعة بالقرب من صور كنتُ أذهب معهما إلى مركز الارتباط، وتوقّفتُ عن ذلك عندما استلمنا واجبات في مناطق أخرى من الجنوب، بل إنّ العاملين مع حمدي وأبو حسن لم يعرفوا أي تفصيلات، فالقاعدة الذهبية التي كانت سائدة هي أنّ المعرفة على قدر الحاجة فحسب. لكن تشاء الأوضاع أن يجتمع في منزلي في عمّان عدد من رفاق ذلك الزمن الجميل، ومنهم أبو علاء منصور الذي كان كادرًا أساسيًا في لجنة الـ 77 مع حمدي وأبو حسن، ثمّ أصبح نائبًا لمروان البرغوثي في الضفة الغربية خلال

الانتفاضة الثانية. تشعّب الحديث وامتدّ الحوار إلى تلك الفترة، تحدّث منصور بحزن وأسى عن كيفية تمكّن العدو من إجهاض محاولة إدخال سلاح عن طريق قوات الطوارئ الدولية فقال: «إنّ السلاح قد استلمته إحدى الأخوات، وقامت بدورها بتسليمه إلى شخص كان يعمل مع الصهاينة، لاحقًا طلب منه ضابط المخابرات الصهيوني أن يضع هذا السلاح في عدة نقاط تعرف بالنقاط الميتة، ويذهب إلى بيروت ليقوم بتسليم هذه النقاط إلى الإخوة هناك، وبالطبع فإنّ العدو إمّا أنّه قد قام بتفخيخ هذه النقاط لكي تنفجر في وجه من يأتي لاستلامها، أو قام بمراقبتها ليتمكّن من اعتقال المجموعات التي ستكلف باستلام هذا السلاح. أحسّ هذا العميل بوخزة ضمير عند وصوله إلى بيروت، أو ربّما انهار عند قيام الإخوة هناك بالتدقيق معه في كل التفصيلات، واعترف بما حدث معه، صحيح أنّه بذلك قد جنبنا كارثة كبرى كانت قد تُسفر عن استشهاد بعض الإخوة واعتقال آخرين، إلّا أنّنا فقدنا السلاح، وخسرنا خطًا مهمًا لتزويد المقاتلين في الأرض المحتلة بما يحتاجونه من أسلحة وذخائر».

هنا تدخّل أحد الحضور قائلًا: «إنّ هذه كانت إحدى المحاولات فحسب، ذلك أنّه هو الشخص الذي كان مكلفًا بالقيام بتعريف الجنود من قوات الطوارئ على الأخت أو الأخ الذي سيستلم منه السلاح الموضوع في حقيبة، وربما كلّف غيره أيضًا بالمهمة ذاتها. قال إنّه كان قد تخرّج في الجامعة حديثًا، فقد كانت مهمته أن يذهب إلى صور ويشاهد الجندي الذي سينقل السلاح في مركز الارتباط من خلف حاجز زجاجي يسمح له برؤية الجندي من دون أن يراه الأخير، ومن ثمّ يذهب إلى بيروت أو دمشق أو عمّان، ليرى الأخت أو الأخ الذي سيستلم هذا السلاح بالطريقة ذاتها. وفي إحدى المرات جلس على المقعد ذاته في باص الجسر، بجوار الأخ الذي سيستلم السلاح، من دون أن يعرف هذا الأخ شيئًا، وأضاف أنّه قام بهذه المهمة عشر مرات على الأقل، نجح فيها جميعًا باستثناء مرة واحدة، كان يجلس فيها داخل مقهى في منطقة باب العامود بالقدس، ولمح الجندي، وكان الأخ الذي سيستلم السلاح جالسًا إلى طاولة قريبة، لكنّه أحسّ بحركة مريبة في المنطقة، فلم يقم بتعريفهما إلى بعضهما، وانسحب من المكان، وهكذا لم تتمّ العملية.

أنصتنا إلى روايته بذهول وتعجب، فأنا القريب من هذه الحكاية لا أعرف هذه التفصيلات، ولا أعرف أنّ هذا الأخ الذي حظي بمستقبل باهر في ما بعد كان له هذا الدور البارز، ومنصور عضو اللجنة واللصيق بأبو حسن وحمدي لا يعلم أيضًا. تساءلنا كم من هذه القصص حدثت ولم يُعرف عنها شيء وترحمنا على أبو حسن وحمدي ومحمد تمراز.

التدريب

تدفّق على الكتيبة أعداد كبيرة من المتطوعين الذين وصلوا خلال الحرب وبعدها، جزء منهم حضر لفترة وجيزة راوحت بين أسابيع وشهور عدة، فيما اختار آخرون البقاء والالتحاق نهائيًا بجسم الكتيبة، وبذلك تمكّنت الكتيبة من تعويض خسائرها البشرية الكبيرة التي لحقتها خلال الحرب. دُرب المتطوعون الجدد فورًا في معسكر أُقيم بالقرب من صيدا بقيادة عدنان أبو جابر، ولاحقًا أُقيم معسكر تدريبي بقيادة جهاد وحسام (فلاح الزعبي) لتخريج قادة مجموعات، وتطوير مستوى الأداء العسكري، والوعي السياسي. تميّز حسام في هذا المعسكر، وأظهر قدرات كبيرة في بناء الكادر. مثّل هذا المعسكر تجربة نموذجية كان لها أثر كبير لاحقًا في مستوى أداء الكتيبة. كذلك نشطنا في هذه المرحلة على مستوى إرسال عدد كبير من الإخوة في دورات عسكرية على فترات، فذهب حسام عمّار ومروان وخالد وأبو النور وأدهم إلى روسيا، وعلي ورياض وربحي إلى الصين، وحسام (فلاح) إلى فيتنام، وجهاد إلى كوريا، وأنا إلى مدرسة المشاة الباكستانية، واستقبلنا من كنّا قد أرسلناهم إلى الكلية العسكرية لحركة فتح. وانضمّ إلينا كوادر متميّزون مثل أبو الفتح الذي عُيّن ضابطًا للعمليات، وهاني كمال الآتي من كلية شرشال العسكرية في الجزائر، وأبو رحمة[1] الكادر الشجاع والمتميّز، وسيكون لهؤلاء جميعًا دور مهم في مسيرة الكتيبة لاحقًا. هكذا انتقلنا من

(1) محمد القاروط، كادرٌ متميّزٌ التحق بالكتيبة في عام 1978، وواكب عملها كله منذ ذلك التاريخ. بعد أوسلو تميّز بقدراته القيادية وعمل في وزارة الحكم المحلي، مقيم في أريحا.

مرحلة تعلّم الحرب بالحرب، واكتساب الخبرة القتالية عبر ممارسة القتال، إلى تأصيل هذه الخبرة ووضعها في قوالب نظرية ساعدتنا بلا شك في مواجهة التطورات اللاحقة، وفي تطوير قدراتنا على قيادة قطاعات وساحات لعمليات مختلفة. ولعلّ الفضل يعود هنا إلى أبو الوليد[2] وأبو جهاد اللذين كانا يصرّان على إلحاق كادر أو أكثر من الكتيبة في كل دورة عسكرية متاحة، وبذلك فلم يكد ينتهي عام 1979 حتى كان معظم الكادر في الكتيبة قد تمكّن من اجتياز دورات عسكرية مختلفة، وعاد لينقل خبرته إلى إخوانه عبر عمليات التدريب المستمرة في داخل الكتيبة ذاتها.

مجموعات أبو نضال

لم ألتقِ أبو نضال (صبري البنّا) سوى مرتين، **الأولى** كانت لقاءً عابرًا في عمّان حين كان عضوًا في لجنة إقليم الأردن في عام 1969، **والثانية** في بغداد في عام 1974 حين حملت له رسالة من صلاح خلف يطلب منه تزويدي بجواز سفر عراقي، كي أتمكّن من السفر إلى الجزائر لحضور مؤتمر الاتحاد العام لطلبة فلسطين. وكان لقاءً عاديًا لم يترك فيه أي انطباع خاص في ذاكرتي. حصلتُ على جواز السفر في يومين، وعدتُ أدراجي إلى بيروت.

على أنّ للعلاقة مع أبو نضال بُعدًا آخر، فقد كان أحد رموز اليسار الفتحاوي الذي بدأ بالتكتّل مُتأثرًا بالتيارات اليسارية، وصابًا نقده على ممارسات القادة، مُحمّلًا إياهم مسؤولية هزيمة أيلول، وخروج الثورة من الأردن. وعند بداية تبلور هذه التيارات في مجموعات مختلفة كُنّا وإياه في مجموعة واحدة ضمّت إضافة إليه منير شفيق وناجي علوش ومحمد داود عودة (أبو داود)، إلّا أنّنا في مجموعة بيروت كنّا حذرين تمامًا من العلاقة مع

(2) الشهيد سعد صايل، أعلى رتبة عسكرية انضمت إلى الثورة بعد حوادث أيلول/ سبتمبر 1970 في الأردن وتولى قيادة قوات اليرموك ومن ثمّ قيادة غرفة العمليات المركزية في الثورة الفلسطينية، أصبح عضوًا في اللجنة المركزية لحركة فتح بعد المؤتمر الرابع، يطلق علية اسم جنرال بيروت لدوره القيادي المميز خلال حصار بيروت، اغتيل في 27/ 9/ 1983 حين كان في جوله تفقدية لقوات الثورة الفلسطينية بين البقاع وبعلبك.

أبو نضال، وتمثّل ذلك برفضنا أي مساعدات حاول أن يقدّمها مرارًا. وسرعان ما تمايزت الخطوط بعد حرب تشرين واندلاع الحرب الأهلية في لبنان، إذ شكّل أبو نضال مجموعته بالاشتراك مع ناجي علوش، قبل أن ينفصلا ويشكّل ناجي الحركة الشعبية العربية. ومنذ ذلك اليوم، بدأ أبو نضال في مهاجمتنا باستمرار عبر مجلته التي أطلق عليها اسم **فلسطين الثورة** وأدبياته المختلفة، من دون أن نهتم بذلك على الإطلاق.

بعد حرب 1978، عُقد اجتماع في صيدا لقادة القوات بحضور أبو إياد وأبو الهول اللذين أفادا أنّ مجموعات تابعة لأبو نضال - أغلبيتها من الطلاب الذين يدرسون في الخارج - قد جاءت إلى لبنان بحجة الحرب، وأنّها تجمّعت وتمركزت في نقاط في الجنوب، وتولّى أبو إبراهيم وأبو داود وبعض المنظمات الفلسطينية تسليحهم، وأنّهم يخشون أن تكون هذه بداية لمجموعة من العمليات التي ينوي شنّها ضد مراكز وقادة في لبنان. أبدينا أنا ومروان وجهة نظر في الاجتماع مفادها أنّ أغلبية الموجودين في هذه النقاط هم من الطلاب الذين جاءوا إلى لبنان بدافع من حميتهم الوطنية، وللمشاركة في القتال ضد العدو، وأنّهم بالضرورة ليسوا متورطين في مخططات صبري البنّا، لذا يجب التعامل معهم على هذا الأساس. وافق الحضور على ذلك، واتفقنا على تجميع هؤلاء الشباب في أحد مواقعنا، كوننا الأقدر على التعامل مع مثل هذه الحالة. ليلًا، دوهِمت هذه النقاط بهدوء، ولم يحدث أي اشتباك بالنار. عند وصولهم إلى إحدى قواعدنا أعدنا إليهم سلاحهم، وتحاورنا معهم، وأعددنا لهم برنامجًا تدريبيًا كاملًا، وخيّرناهم لاحقًا بين البقاء أو العودة إلى مقاعد الدراسة، ولم يُحقق مع أي منهم باستثناء ثلاثة أشخاص أو أربعة استلمهم الأمن المركزي منذ البداية. وهكذا انتهت فتنة جديدة شعر فيها هؤلاء الإخوة أنّهم بين إخوتهم وفي مواقعهم.

لاحقًا التقى أبو علاء منصور أبو نضال في بغداد، وكتب عن هذا اللقاء في كتابه **على ضفاف النهر**[3] أنّ أبو نضال مدح خلاله حمدي وأبو حسن، لكنّه

(3) يُنظر: محمد محمود يوسف، **على ضفاف النهر** (عمّان: دار الشروق، 2014).

قال له أنّه سيقتل معين!! لم أعرف تفصيلات ذلك في حينه، وإن كنتُ أذكر أنّ الإخوة سبق أن حذروني من تهديدات مماثلة، لكنّ التهديد الأبرز الذي كنّا دائمًا نستعد له هو تهديد العدو الصهيوني.

الانتقال إلى الخط الساحلي

في بداية عام 1979، تقرّر تحويل كتيبة شهداء أيلول إلى كتيبة دبابات، بعد الحصول على عدد من الدبابات الروسية القديمة من طراز T34. استدعى ذلك نقل كتيبة شهداء أيلول إلى منطقة صيدا للتدريب على استخدام الدبابات، ومن ثمّ رابطت في تلال صيدا. أدّى ذلك إلى صدور قرار بنقلنا للتمركز على الشريط الساحلي، وأصبح قطاع مسؤوليتنا يمتد من منطقة أبو الأسود إلى منطقة الزهراني، وأُلحقت بنا سرية من جيش التحرير الفلسطيني رابطت في مصفاة الزهراني، في حين استلم القطاع الأوسط مواقعنا في منطقة قوات الطوارئ الدولية، وتولت كتيبة أبو يوسف النجار مسؤولية الخط الساحلي من مخيم الرشيدية وحتى أبو الأسود.

في تلك الفترة، نشطت محاولات العدو الصهيوني لعمل كمائن ليلية على امتداد الطريق الساحلية من صور حتى أطراف بيروت، ونجح في عدد من المرات في اصطياد سيارات كانت تسير على هذه الطريق، كما كان يقوم بغارات جوية متتالية على مواقع الفدائيين ومعسكراتهم.

نتيجة لذلك كان لا بد من العمل وفق رؤية وتكتيكات مختلفة، تستهدف إحباط ما يخطط له العدو. قُسّمت الكتيبة إلى وحدتين قتاليتين، مهمة الأولى نصب كمائن للعدو على طول الطريق الساحلية ضمن قطاع مسؤوليتنا، ومهمة الوحدة الثانية إسناد الوحدة الأولى من التلال المطلة على الطريق الساحلية بواسطة أسلحتها المتوسطة ومدفعيتها.

لجأنا في هذه المرحلة إلى إلغاء فكرة القواعد والمواقع الثابتة، واللجوء إلى فكرة المواقع المتحركة باستمرار. ساعدنا على ذلك أنّ أخواتنا الطالبات في الكويت أرسلن إلينا عددًا كافيًا من أكياس النوم، وُزّعت على جميع المقاتلين

الذين أصبح بإمكانهم افتراش الأرض في أي مكان يحلّون به، ثمّ يغادرونه في الليلة التالية ليتمركزوا في موقع آخر. واستمرت هذه الحال صيفًا وشتاءً أكثر من عام كامل، حتى انتقالنا إلى منطقة النبطية – الشقيف. بعد ذلك علمتُ أنّ هؤلاء الأخوات كن يتبرعن بالدم على فترات، للحصول على المكافأة المالية وشراء بعض الحاجيات مثل أكياس النوم والمناظير الليلية.

شعر العدو بأنّ ثمّة تغييرًا قد طرأ على المنطقة، فتوقفت كمائنه عن التسلل من بوارجه المنتشرة في عرض البحر إلى الطريق الساحلية، إلّا أنّه في أحد الأيام قام بمحاولة إنزال مبكرة اصطدمت فورًا بأحد كمائننا التي كانت في اللحظة ذاتها تتهيأ لأخذ موقعها على الشاطئ. تمّت السيطرة على الموقف بسرعة، وأُرغم العدو على الانسحاب إلى عرض البحر سريعًا، مخلّفًا وراءه أحد زوارقه المطاطية، وكمية كبيرة من الدماء والأمصال والعتاد. واستشهد سمير سالم ونظمي (محسن النجار)، توقفت كمائن العدو تمامًا في هذه المنطقة، ولم يعد يجرؤ على القيام بأي نشاط أرضي؛ إذ لجأ بعد ذلك إلى القيام بعمل ذي طابع استخباري. ففي إحدى الليالي، قرابة الفجر، فوجئنا بأصوات انفجارات تخرج من موقع يتبع للجبهة الشعبية القيادة العامة، يقع على شاطئ البحر تمامًا في منطقة الصرفند، هرعنا إلى المكان فورًا، وكنتُ أنا وأبو الفتح أول الواصلين، كان الموقع مدمرًا بعدة عبوات موقوتة انفجرت بعد انسحاب القوة الإسرائيلية، وكان هنالك عدد من الشهداء في الموقع داخل مهجع النوم. لم يحدث أي إطلاق للرصاص، أو تبادل لإطلاق النار في الموقع، ولم يكن هنالك أي آثار لحدوث اشتباك متبادل بين الطرفين. أيقنّا منذ اللحظة الأولى أنّها عملية استخبارية، وأنّ ثمّة اختراقًا في الموقع. لاحقًا، أثبت تحقيق للجبهة تورط أحد مسؤولي الموقع في التعامل مع العدو، وأنّه قام بوضع مادة منومة في طعام عناصر القاعدة ما سهّل مهمة القوات الإسرائيلية التي قامت بعملية أمنية وليس بإغارة عسكرية. تعلّمنا من هذا درسًا بليغًا هو أنّ العدو لا يهاجم موقعًا متيقظًا ومستعدًا للمواجهة، فمنذ عام 1976 يوم ذهبنا إلى الجنوب، وحتى اجتياح عام 1982، لم يتمكّن العدو من مفاجأتنا في أي موقع من مواقعنا، في حين كانت ضرباته تتوالى بالقرب منّا، وتنجح فقط عندما يكون ثمّة اختراق أمني، مثلما

حدث في منطقة الكفور بالقرب من النبطية لاحقًا، عندما هاجم موقعًا وُضع في هذا المكان في اليوم نفسه؛ ليكون نقطة انطلاق لدورية من 4 أشخاص ينتمون إلى جبهة التحرير العربية، كانت تعتزم القيام بعمل ما في الشريط الحدودي، لم يكن أحد يعلم عن هذا الموقع باستثناء من وضعهم فيه وتركهم، ومشغّله الإسرائيلي.

من ناحيتنا تحوّل هذا السلوك إلى ممارسة يومية دائمة ويقظة ثورية، ترافقنا أينما ذهبنا ما جنّبنا الكثير من الخسائر غير المبررة. حتى عندما أغار طيران العدو على مقر قيادة الكتيبة في منطقة العيتانية، وهو مقر إداري يستقبل المراجعين ولا يمكن تغييره في كل لحظة، فإنّ أحدًا منّا لم يُصب بأذى مع أنّنا كنّا موجودين في المنطقة ذاتها. لكنّني لا أذكر أنّ أحدًا منّا نام في هذا المقر ليلًا أو نهارًا، وإنّما كان يأخذ كيس النوم الخاص به، ويفترش الأرض تحت شجرة برتقال أو ليمون. يومها اقتصرت خسائرنا على مكتبة الكتيبة الموضوعة في شاحنة مرسيدس صغيرة لتطوف بها على القواعد المختلفة، فامتلأت الأرض بآلاف الأوراق التي تناثرت في المكان.

متطوعون من إيران واليمن وبنغلاديش

بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، تدفّق مئات المتطوعين الإيرانيين على قواعد الفدائيين، وتحديدًا في صفوف حركة فتح. في السابق كان من المعتاد لدينا أن نُدرّب ونستقبل المتطوعين من حركات التحرّر الوطني في العالم بأسره، نقوم بتدريبهم، ثمّ يقضون فترات للتعايش وخوض التجربة القتالية في القواعد، قبل أن يعودوا مرة أخرى إلى بلادهم. ومن بين هؤلاء كانت مجموعات صغيرة من أميركا اللاتينية، آسيا، أفريقيا، وأتراك وإيرانيون من منظمات ثورية مختلفة، يحملون أفكارًا متباينة من الإسلام الأصولي إلى الإسلام اليساري إلى الفكر الوطني أو القومي أو الماركسي، لكن يجمعهم جميعًا حب فلسطين، والرغبة في المشاركة في ثورتها، وفي التدريب، والاستفادة من الخبرات القتالية تمهيدًا للعودة إلى بلادهم، والمساهمة في

تحريرها، أو تغيير الأوضاع فيها. وأذكر أنّه في حرب 1978 كان معنا أحد الإيرانيين من منظمة مجاهدي خلق اليسارية، وقد قاتل بشجاعة كبيرة، إلّا أنّه أُسر في إحدى المعارك بالقرب من جويا، وكان الأسير الوحيد من طرفنا، أُفرج عنه بعد فترة، وتعرّض لتحقيق شارك فيه جهاز الاستخبارات الإيراني «السافاك» في عهد الشاه. وفي حادثة أخرى حضر معنا إيراني آخر من منظمة فدائيي خلق الأصولية الإيرانية، وفي أحد الأيام حزم حقيبته وأراد المغادرة احتجاجًا على قيام المقاتلين بأكل قنفذ بري خلال أحد التدريبات التي يُفترض فيها أن يتمّ التعايش مع الطبيعة، وعدّ هذا الأمر محرّمًا. حاولت أن أناقشه بأنّ القنفذ لا يأكل سوى النباتات، فأجابني بأنّ الفيل أيضًا لا يأكل سوى النباتات، فهل أكله حلال؟ بصراحة لم يخطر ببالي مثل هذا السؤال من قبل، وعلى الفور غيّرت مجرى هذا النقاش الفقهي حول الحلال والحرام، وحوّلته إلى أنّ هذا جزءًا من التدريب الذي يفترَض فيه تعرّض المقاتل لوضعية صعبة عليه فيها أن يجد ما يأكله، وعلى قاعدة أنّ الضرورات تبيح المحظورات. لم يُقنعه ذلك وغادرنا.

على أنّ الأمر هذه المرة كان مختلفًا، فالثورة الإسلامية في إيران قد انتصرت، ومئات المقاتلين يتدفقون على لبنان للمشاركة في الثورة الفلسطينية، وُزّع هؤلاء على الكتائب المختلفة، في كتيبتنا الجرمق اهتُمّ بهم وأُعيد تدريبهم ودمجهم في الحياة اليومية لقواعدنا. كان اليوم مليئًا عندنا، وغير مسموح بلحظات فراغ كبيرة، كما كان النظام صارمًا، فمنذ الصباح الباكر ثمّة رياضة وطابور صباحي يُختتم بنشيد «فدائي.. فدائي» الذي تعلّمه الإيرانيون، يعقبه نشيد تعلّمه مقاتلونا باللغة الفارسية يبدأ بكلمات «الله أكبر.. خميني رهبر»، أي قائد بحسب ما فهمت. بعد ذلك تبدأ واجبات الفصيل المتعددة من تدريب أو مهمات مختلفة. لم تكن توجد أي مشكلات في التعايش مع هؤلاء الإخوة، وترك وجودهم في قواعدنا أثرًا طيبًا في العلاقات مع أهل القرى المجاورة في الجنوب اللبناني، لكن في الوحدات الأخرى ظهرت مشكلات عديدة ناجمة عن اختلاف الثقافات والعادات، وعن الإهمال والفراغ، وعدم وجود مهمات يومية، وقلة اهتمام قادة هذه الوحدات بالضيوف الجدد، ما أدّى إلى انسحاب عدد كبير منهم وعودتهم إلى بلادهم. وسرعان ما نشبت الحرب

العراقية – الإيرانية، وعاد هؤلاء لتنتهي هذه الظاهرة نهائيًا، وتحول المتغيرات الكبرى التي شهدتها المنطقة بعدها من دون أن تستمر، أو تترك أثرًا لافتًا في مسيرة الثورة الفلسطينية أو في الوضع في الجنوب اللبناني في تلك المرحلة.

بعد ذلك بفترة وجيزة، تدفقت أعداد كبيرة من المتطوعين اليمنيين الذين التحقوا بصفوف «فتح»، وكانوا في أغلبهم قد تلقوا تدريبًا عسكريًا عاليًا في صفوف الجيش اليمني على مختلف صنوف الأسلحة، تميّز المتطوعون اليمنيون بالصلابة والروح القتالية العالية والجاهزية الدائمة للقيام بالمهمات الصعبة. اندمج هؤلاء الإخوة بسهولة في حياة الكتيبة ومهماتها اليومية، وتولى بعضهم لاحقًا مهمات قيادية فيها مثل (الشهيد) عبد الكريم الكحلاني (عبد القادر اليمني) الذي أصبح نائبًا لقائد قلعة الشقيف واستشهد فيها وكان سابقًا رقيبًا أول في الجيش اليمني، وحاز محبة إخوانه وثقتهم، وكذلك (الشهيد) أبو رعد اليمني الذي أصبح قائدًا لمجموعة رشاشات ثقيلة مضادة للطائرات من عيار 37 ملم، وهو الذي تولى تدريب إخوانه على هذا الرشاش الذي دخل في الخدمة خلال وجوده معنا، وكان يعمل في الجيش اليمني على الرشاش ذاته، وقد تمكّن أبو رعد ومجموعته من إسقاط مروحية إسرائيلية هوت محترقة مساء 6/ 6/ 1982 على أحد تلال النبطية، وهي تُقلّ عددًا من ضباط قيادة الأركان الصهيونية. كان اليمنيون مثالًا ساطعًا للمقاتل العربي الذي لو أتيح له الوصول إلى مناطق التماس مع العدو الصهيوني لحقق الكثير من الإنجازات، وقد شهدت قواعدنا تدفق العشرات من مختلف الأقطار العربية على امتداد مساحاتها، فهذا التونسي أو المصري أو الجزائري أو الموريتاني ومن كل الأقطار العربية بلا استثناء.

في الفترة ذاتها، امتلأت قواعد «فتح» بمتطوعين من بنغلاديش، لم تكن تجربة هؤلاء ناجحة على الإطلاق فثمّة حاجز اللغة أولًا، ويبدو أنّ جزءًا كبيرًا منهم قد جاء بحثًا عن عمل، أو هربًا من أزمة البطالة والفقر التي تجتاح بلاده. لذا كان متعذرًا إلى حدّ كبير دمجهم في المهمات ذات الطابع القتالي إلّا في ما ندر، واقتصر عملهم على المهمات ذات الطابع الإداري مثل العمل في

المستودعات. في الكتيبة أدركنا ذلك مبكرًا، ولم نتمكّن سوى من استيعاب عدد قليل جدًا منهم في المواقع القتالية ممّن خدموا سابقًا في صفوف الجيش البنغالي ضباطًا أو ضباط صف. خلال اجتياح 1982، تحوّل هؤلاء إلى عبء حقيقي على المقاتلين ووقع جزء كبير منهم في أسر القوات الصهيونية. لم تكن تجربة المقاتلين البنغال ناجحة على الإطلاق، ولعلها كانت إحدى المحاولات الفاشلة لملء الفراغات في الكتائب العسكرية التي بدأت بعد انتهاء الحرب الأهلية في لبنان تعاني نضوبًا في القدرات البشرية. والسبب أنّ جزءًا لا بأس به من المناضلين اللبنانيين قد عادوا إلى أعمالهم المعتادة قبل الحرب، وأصبحوا بمنزلة قوة احتياط تُستدعى عند الحاجة فحسب، وفي سورية كان مفروضًا على الشباب الفلسطيني من سن 18 التجنيد الإجباري في صفوف الجيش السوري ليُفرز في ما بعد إلى جيش التحرير الفلسطيني الخاضع للقيادة السورية، وعاد الطلاب الدارسون في المعاهد الأجنبية إلى مقاعد الدراسة في بلدانهم.

يسجّل لكتيبة الجرمق أن في الوقت الذي عانت فيه الوحدات الأخرى نقصًا بشريًا حادًّا، فإنّها حافظت على تدفق المتطوعين الجدد من البلدان العربية، ومن لبنان، ومن الأردن الذي أُسّست فيه مجموعات مهمتها تجنيد الشباب الراغب في الانضمام إلى المقاومة، وتأمين وصولهم إلى لبنان عبر التسلّل من خلال الحدود الأردنية – السورية برفقة مجموعات خاصة من خيرة الإخوة تولّت هذه المهمة المعقدة من تجنيد ونقل إلى أقرب نقطة للحدود، فعبور الحدود برفقة أدلاء متمرسين، والوصول إلى درعا فدمشق فبيروت، وأنّها لم تعتمد على الإدارة العسكرية في تزويدها بالمتطوعين الجدد؛ إذ نجحت في بناء شبكة كاملة تقوم بهذه المهمة.



الفصل السابع

الانتقال إلى النبطية - الشقيف

مرحلة جديدة بدأت في تاريخ الكتيبة ليلة 19 آب/ أغسطس 1980. في تلك الليلة، شنّ العدو الصهيوني هجومًا كبيرًا على مواقع كتيبة بيت المقدس في أرنون وقلعة الشقيف وكفر تبنيت وحرج علي الطاهر، ونفّذ هذا الهجوم لواء غولاني المعروف، وهو نخبة الوحدات الإسرائيلية. قرابة الثالثة ليلًا اتصل الحاج إسماعيل قائد قوات القسطل يطلب تحريك قوة من الكتيبة إلى منطقة النبطية، لتقديم الدعم والإسناد لكتيبة بيت المقدس.

على الفور تحركت سرية الشهيد سعد بقيادة جهاد ومعه هاني كمال وراسم. سارت السرية بحذر شديد، وعلى مسافات متباعدة وبلا أضواء، تحسبًا من وجود كمائن للعدو على الطريق، وتجنبًا لغارات طيرانه الحربي والمروحي الذي كان يحلّق في الأجواء. وصلت السرية إلى مداخل مدينة النبطية مع لحظات الفجر الأولى، وبدا واضحًا أنّ العدو قد بدأ بالانسحاب، ويقوم بتغطية انسحاب قواته من خلال إمطار النبطية بعشرات القذائف في الدقيقة الواحدة. أبقى جهاد قوته منتشرة خارج البلدة، وتحرّك هو إلى مقر قيادة كتيبة بيت المقدس، حيث التقى قائدها الرائد علاء الأفندي. كان الوضع ما زال غامضًا في المواقع، فقرّر الاثنان أن يتجها إلى المواقع الأمامية لمعرفة الوضع على حقيقته، ومن ثمّ توزيع قوة الجرمق في ضوء ذلك.

لم يتمكّن العدو من احتلال القلعة، وانكسر هجومه على أبوابها، لكنّ خسائر كتيبة بيت المقدس كانت كبيرة؛ إذ فقدت 29 شهيدًا في القلعة وأرنون وكفر تبنيت والحرج، كما تكبّد العدو خسائر كبيرة أيضًا. توجه راسم إلى القلعة، ونشر قوته حولها، تحسبًا من غارات جوية عليها، وطلب من مقاتلي بيت المقدس أن يحذوا حذوه، غير أنّهم لم يفعلوا، فأسفرت الغارة الإسرائيلية الأخيرة عن استشهاد اثنين من مقاتلي بيت المقدس، دُفن أحدهما تحت

صخور القلعة، وعلق الآخر بين هذه الصخور حتى استشهد. مؤخرًا، عند ترميم القلعة عُثر على رفات الشهداء تحت أنقاضها.

في الوقت الذي توجه فيه راسم إلى القلعة، ذهب أدهم الذي كان لا يزال يحتفظ بجبيرة على ساقه في إثر إصابته في معركة استرجاع قرية رب ثلاثين، برفقة أحد ضباط كتيبة بيت المقدس إلى حرج علي الطاهر الممتد من أعالي النبطية وصولًا إلى أطراف كفر تبنيت؛ إذ كان العدو الصهيوني قد قام بزراعة الطريق الترابية المؤدية إلى الحرج بعشرات الألغام المضادة للآليات. يروي أدهم أنّ العدو قد قام بزراعة هذه الألغام ليلًا على عجل إذ كان معظمها ظاهرًا فوق سطح الأرض، وأنّ عملية تفكيك العشرات منها قد تمّت بطريقة رتيبة بربط أُذن اللغم بحبل ومن ثمّ الاختباء خلف ساتر وسحب اللغم، خوفًا من أن يكون قد فُخخ بزرع قنبلة أو عبوة ناسفة أسفله، بحيث تنفجر عند محاولة إزالة اللغم الأصلي وهو ما يعرف باسم مصائد المغفلين. في اللغم الأخير كان الملل قد بدأ بالتسرب إليه من جراء هذه العملية الروتينية الطويلة، وأراد أن يُخرج اللغم من حفرته مباشرة معتقدًا أنّه يشابه باقي الألغام المزروعة، في اللحظة الأخيرة تراجع عن ذلك مستذكرًا أنّ الصبر صفة ملازمة لمن يريد التعامل مع الأشراك الخداعية. ربط اللغم بالحبل واختبأ خلف ساتر، دوى انفجار كبير، فقد كان اللغم الأخير هو اللغم المفخخ.

راسم

أصبح راسم قائدًا لفصيل القلعة التي تحوّلت إلى بيته. راسم الحائز على شهادة جامعية في الجغرافيا قرّر أن يدرس التاريخ، وكان يمضي الليل يدرس في ضوء شمعة في داخل مهجعه عندما يُتاح له بعض الوقت للراحة من عناء عمليات الحفر والتحصين الدائمة. يروي زياد من قرية الحلوسية الجنوبية، الذي جاء ليقضي بضعة أيام مع إخوانه في القلعة، «أنّ سيارة عسكرية نقلته مع سبعة أخوة، اثنان منهم لا يعرفهما. في الطريق مرّوا بحاجز لحركة أمل على مفرق كفر تبنيت، قالوا لهم: نحن من الجرمق، فردّ أفراد

الحاجز: الله وعلي معكم. بعد أن سارت السيارة بدأ أحد هؤلاء الإخوة بالتهكم على الإمام علي، فحزّ في نفسي كثيرًا خصوصًا أنّنا لم نتربَّ على ذلك، اتفقتُ مع أحد الإخوة أن نبلّغ راسم بما حدث معنا، ولم أتوقع أن تكون ردة فعل راسم بهذا الحجم، إذ جمع الفصيل وألقى علينا محاضرة استمرّت أكثر من ساعة عن الإمام علي وعن فضل أهل الجنوب علينا، ذُهلتُ من سعة معلوماته، فأنا الشيعي لا أعرف هذا الكم من المعلومات، وفي النهاية طُلب من هذا الأخ أن يعتذر، وعاقبه بالحرمان من المهمات النضالية كالحراسة والتحصين والحفر والدوريات، حتى طعامه كنّا نحن نأتي به إليه، وبعد ثلاثة أيام كرّر اعتذاره وندمه». لاحظ أسلوب العقوبة المُتّبع، فهو الحرمان من شرف المهمات القتالية، والمهمات الأخرى المتعلقة بها، فهذا شرف لا يستحقه إلّا المناضلون، وذلك عكس العقوبة المتبعة في معظم الجيوش، إذ تكون العقوبة بزيادة الواجبات على المعاقب. يقول المهندس عصام السعدي[1]: «إنّ مثل هذه العقوبة كانت متبعة في الكتيبة كلها، فقد شهد حرمان أحد الإخوة من مسيرة ليلية لخطأ ارتكبه، وعندما عادوا في الصباح كان هذا الأخ يبكي بحرقة».

النبطية

انتشرت قوة الجرمق في مواقع كتيبة بيت المقدس، وصدرت التعليمات إلى باقي الكتيبة بالتحرّك إلى النبطية. كان الوضع صعبًا للغاية، ففي الحدّ الأمامي للقوات لا توجد أي تحصينات يمكن أن يحتمي بها المقاتلون من قصف العدو اليومي والمتواصل، كنّا في العراء تمامًا، والقلعة قد دُمّرت بالكامل ولم يعد ممكنًا البقاء داخلها، لذا أصبح من الضروري إقامة مجموعة من المواقع حولها. وفي أرنون وكفر تبنيت، كان غاية ما هو متوافر لنا الإقامة في أنقاض بيوت مهدّمة، وفي الحرج شكّلت أشجاره غطاء لنا، ولكن من دون توافر موقع قتالي واحد، في كل المواقع لم نجد خندقًا محفورًا، أو دُشمة

(1) مهندس وشاعر، شغل منصب رئيس نادي المهندسين في الأردن.

تصلح لنأوي إليها، أو نضع فيها رشاشًا أو مدفعًا، كما أنّ تسليحنا لم يكن يتلاءم مع المهمات الجديدة الملقاة على عاتقنا.

أمّا داخل مدينة النبطية، فقد كان الوضع الأمني شبيهًا بما شهدناه في بنت جبيل لدى وصولنا إليها في عام 1976، سلطة الدولة غائبة، وثمّة انفلات أمني وحالة من الخوف تعمّ المواطنين، واللصوص وتجار المخدرات وجدوا في مثل هذه الأجواء مرتعًا ومأوى لهم، والفصائل الفلسطينية واللبنانية كلٌّ يعمل على هواه وعلى طريقته. كان لا بد من التحرّك بسرعة وعلى الصُعُد كلها في وقت واحد. وزّعنا المهمات في ما بيننا، وفُرض الأمن في المدينة، وطوردت العصابات التي كانت تعبث فيها، فأُشيعت أجواء من الأمن في أرجائها بمساعدة مهمة من وحدة الأمن المركزي الموجودة في النبطية بقيادة أبو نبيل وأبو أحمد، وأُعيد تأليف قيادة القوات المشتركة الفلسطينية اللبنانية، والتي ضمّت مختلف الفصائل، كما شكّلت لجنة أمنية مشتركة، ورُفد الحدّ الأمامي بمقاتلين من مختلف الفصائل اللبنانية والفلسطينية. وقد كان ثمّة جهد مميّز للرفيق فاروق المقدم من منظمة العمل الشيوعي في توحيد هذا الجهد الوطني، كما عُزّزت المدينة بعيادة لطب الأسنان، وأُقيم مستشفى ميداني، إضافة إلى مستوصف جمعية النجدة الشعبية القائم[2]، عبر استئجار مبنى لمستشفى قائم تولى إدارته الدكتور يانو الكندي الأصل، واليوناني الجنسية، والفلسطيني القلب، والذي رافقنا عبر مسيرتنا إلى طرابلس، ومع (الشهيد) علي أبو طوق في مخيم شاتيلا. وقدّم المستشفى خدماته كاملة بما فيها العمليات الجراحية للمواطنين في المنطقة، وجنبهم مشقة السفر إلى صيدا أو بيروت.

أمّا على المستوى السياسي فقد استمر جهدنا لإطفاء الحرائق، إلّا أنّنا لم نتمكن من منع نشوبها، وقد قام (الشهيد) حسن بدر الدين في النبطية بالدور ذاته الذي قام به (الشهيد) حسان شرارة في بنت جبيل، من ناحية الاتصال بالأهالي والفاعليات والقوى السياسية. كان بيت (الشهيد) حسن حضنًا دافئًا

(2) إحدى مؤسسات الحزب الشيوعي اللبناني.

لنا، ومعه نمت العلاقات، وتطوّرت مع الشيخ (الشهيد) راغب حرب، ومع مجموعة كبيرة ممّن أطلق عليهم في تلك الفترة «الحجاج»، وجلّهم كانوا من مؤسسي حزب الله في ما بعد. استشهد حسن بدر الدين على أبواب جبشيت في 6 حزيران/ يونيو 1982.

تحصين القلعة

في قطاع النبطية – الشقيف كان علي أبو طوق يعمل بلا كلل ولا ملل ولا توقف، إذ إنّه منذ اليوم الأول لتموضع الكتيبة فيها أدرك جسامة المهمة التي ألقيت على كاهله. فقيادة الحدّ الأمامي للقوات الفلسطينية اللبنانية المشتركة وتحصينه في قلعة الشقيف، وأرنون، وكفر تبنيت، وحرج النبي طاهر، لم تكن مهمة سهلة. كما أنّ توقيتها كان استثنائيًا، إذ تحركت الكتيبة نحو المنطقة فور تعرّضها لهجوم شرس نفّذه لواء غولاني الصهيوني معززًا بلواء من سلاح المظليين. وفي الصباح الباكر، وبينما كان أبطال كتيبة بيت المقدس يحتفلون بدحرهم هذا الهجوم على أبواب القلعة، أغارت عليها الطائرات الإسرائيلية، وكأنّها تريد الانتقام لخسائر العدو الفادحة، فأحالت الطبقة الوحيدة المتبقية منها، بعد المعارك الطاحنة التي شهدتها على مدى ثلاث سنوات، إلى ركام. ويومها احتضنت القلعة شهداءها، وأخذ علي وإخوانه على أنفسهم عهدًا ألّا يُجرح فدائي في الحدّ الأمامي جراء قصف العدو الذي أصبح يوميًا ومعتادًا، وأن يدفع العدو ثمنًا باهظًا لأي اعتداء يقوم به.

بدأت ورشة عمل لا تنتهي، أدرك علي من خلالها أنّه يحتاج إلى عمل خلية نحل كاملة، كان هو محورها الذي لا يهدأ، يرتب الجهد وينسقه، ليجعله يتكامل في نظام فريد؛ قوات القسطل، ووحدة الهندسة، والميليشيا، والتنظيم الطلابي، ومجموعات المتطوعين للحفر والتحصين، والمشغل المركزي، وطلاب الجامعات وطالباتها، وفصائل عسكرية تساهم بدورها في تعزيز الجهد القتالي، ومرافقو القائد العام يفرزون مجموعة منهم للمشاركة في هذا الجهد، وطالب يدرس التاريخ في الجامعة الأميركية يعثر في مكتبة الجامعة

على مخطوط قديم للقلعة يكون له فائدة كبرى في التعرّف عليها من تحت أنقاضها، وطلاب الهندسة وخريجوها يشكّلون فصيلًا دائمًا لمتابعة أعمال الحفر والتحصين، ويقضون عطلة نهاية الأسبوع في متابعتها والإسهام بها.

في البداية حُفرت حفرات عدة، دُفنت بها غرف حديدية جاهزة لتوفير المأوى لعشرات المقاتلين، في الوقت ذاته حُفرت عشرات الحفر الإضافية غير المستخدمة كي يكون صعبًا على طائرات الاستطلاع أن تميّز الحفر الحقيقية من المموهة. بعد ذلك أُنشئت مرابض للأسلحة، وأُخفيت في غرف من الإسمنت المسلح، ورُبطت بشبكة من الخنادق المتصلة التي تغطي الموقع بأسره، ومن ثمّ حُفر نفق أسفل القلعة. وفي الحد الخلفي حُفرت عشرات المرابض لفصيل الرشاشات على مختلف التلال، وعلى شكل مواقع تبادلية. لم تتوقف عملية التحصين لحظة واحدة، فقد كانت أشبه بكرة ثلج متدحرجة تنمو وتكبر في كل يوم، بل في كل ساعة.

تسأل عن علي في خلال ذلك فتجده قد ذهب ليقنع سائق جرافة من صيدا بضرورة العمل في مواجهة العدو نهارًا، أو على ساحل البحر مع طالبات الجامعة في تعبئة أكياس الرمل ونقلها إلى المواقع، أو في المشغل المركزي، يعاين الدشم الحديدية الجاهزة، ويُشرف على نقلها ووضعها في أماكنها، أو يقصّ قضبان سكة الحديد القديمة لاستخدامها في التحصين، أو يشرح لفصيل جديد أُلحق بنا واجبه القتالي، أو يتابع حفر نفق في القلعة أو خندق في كفر تبنيت، أو ينهي بناء دشمة رشاش في الحرج، أو يحضر اجتماعًا للفصائل لبحث مشاركتهم في تعزيز الجهد القتالي، أو يجتمع إلى اللجنة الشعبية في بيت المختار. هذا الجهد الكبير كله كان مركزه علي أبو طوق، ونتيجته التي تسجّل بكل فخر، أنّ خسائرنا في حرب الاستنزاف في عام 1981 كانت شهيدًا واحدًا، وفي القصف اليومي الذي شهدته المواقع خلال أكثر من سنتين كانت شهيدًا وجريحًا، أمّا في حرب عام 1982 وعلى الرغم من عنف القصف المدفعي والصاروخي والجوي وضراوته، والذي استمر أكثر من 48 ساعة متواصلة، فلم يستشهد مقاتل واحد في الحدّ الأمامي للقوات جراء هذا القصف، وكان

المقاتلون في مواقعهم وتحصيناتهم عندما بدأ الاشتباك مع قوات العدو وآلياته ومن مسافات قصيرة، وهو ما كان مفاجأة كبيرة للعدو دفع ثمنها غاليًا.

بقايا جدار

على بقايا جدار في قلعة الشقيف، وفي مجلة حائط المدافعين عنها، اختصر أحد المقاتلين تاريخ القلعة بالقول «بناها بوفور[3].. حرّرها صلاح الدين.. وغيّر معالمها علي أبو طوق». وقبل أن يتعجل أحدنا في تقويم مدى المبالغة في هذا القول، لنستمع معًا إلى ما ذكّرني به أحد رفاق علي ممّن أمضى فترة من الوقت في القلعة، إذ قال: «على بعد أمتار من القلعة باتجاه الشرق، يوجد مرتفع مهم أطلقنا عليه اسم المطار لوجود مهبط للطائرات المروحية عليه، وكان العدو من نقاط مراقبته يُشرف على هذا المطار، لذا فقد أصبح وجودنا فيه أو التحرّك باتجاهه محفوفًا بالمخاطر، ونظرًا إلى أهميته الدفاعية فقد تقرر أن نحفر فيه شبكة من الخنادق تنتهي بدشمتين للرشاشات، على أن نقوم بسقف أجزاء من هذه الخنادق بالإسمنت المسلح، وذلك لحماية المقاتلين من شظايا القذائف المنشارية[4].

أخذنا نحفر ليلًا لنتجنّب ما أمكن مراقبة العدو، وخلال الحفر عثرنا على رفات عشرات الشهداء من جنود صلاح الدين، ولا أنسى كيف جمعنا هذا الرفات وأعدنا دفنه، وكيف جلس علي معنا، ليشرح لنا أهمية وجودنا في هذا الموقع الذي استشهد أجدادنا من أجل الدفاع عنه، وانطلقوا منه إلى معركة حطين. لقد جعلنا علي نلمس أنّ التاريخ يتواصل ويستمر بصور مختلفة، وبأنّنا نكاد نكمل ما بدأه صلاح الدين. وكانت الليلة الحاسمة يوم أن تقرّر بناء سقف أجزاء من الخندق، إذ بعد أن أنجزنا خلطة الإسمنت بدأ العدو بقصفنا قصفًا شديدًا ومركزًا، فقفزنا إلى الخنادق وانتظرنا لبعض الوقت، تعاملت خلاله

(3) بنى القلعة الرومان ورممها الصليبيون، وبوفور كلمة مشتقة من اللغة الفرنسية بمعنى القلعة الجميلة وليست اسمًا لأي قائد فرنسي أو صليبي كما هو شائع.

(4) تنفجر القذائف المنشارية على ارتفاع محدد فوق الأرض وتتساقط شظاياها كالمطر.

مدفعيتنا مع مصادر نيران العدو. وكان واضحًا من طبيعة القصف أنّ العدو يريد أن يمنعنا من إكمال تحصيناتنا. وفجأة لمع في ذهن علي بارق خاطف، فأوقف رماية مدفعيتنا، وتحدّث مع (الشهيد) راسم ببضع كلمات، ثمّ قفزا سويًا إلى خارج الخندق، وما إن عادا إليه حتى دوى انفجار القذائف من جديد. وشرح لنا علي المطلوب عمله، ويقفز اثنان يحملان تنكة (دلو حديدي) ومجرفة إلى حيث خلطة الإسمنت، حيث تُعبأ التنكة بسرعة وتلقى على السطح، ثمّ يقفزان بسرعة إلى الخندق، في حين ينصت شخص ثالث لصوت إطلاق المدفعية المعادية، إذ إنّ بضع ثوانٍ تفصل صوت الإطلاق عن وصول القذائف وانفجارها، وخلال ذلك يقفزان إلى الخندق مجددًا، لتنطلق مجموعة أخرى فور انفجار القذائف.

أخذنا نعمل على هذه الحال وعلي معنا حتى أنجزنا العمل المطلوب كاملًا. ذهبنا بعد ذلك إلى النوم ونحن جميعًا في حالة تعب شديد، في حين ذهب علي إلى قيادة الكتيبة في النبطية لتصريف بعض الأعمال. وفي الخامسة صباحًا، استيقظنا على أصوات في الخارج، فقد كان علي هناك يعمل منذ بعض الوقت وعرفنا أنّه أدرك بعد ذهابه أنّ الموقع لم يُموّه في الليل، فبقيت بعض البراميل والأخشاب والمعدات، لذا عاد باكرًا لينهي ما بدأناه قبل أن يستيقظ طيران العدو، أو تصحو نقاط مراقبته، ورفض أن يوقظنا لعلمه بما أصابنا من تعب. ترى هل نستغرب بعد ذلك إذا أطلق مقاتل آخر على قلعة الشقيف اسم «قلعة أبو طوق»؟

سيارة متفجرة

في النبطية، ثمّة سوق أسبوعي يأتي إليه أهل القرى المجاورة لبيع منتوجاتهم وشراء حاجياتهم، وفي هذا اليوم تكتظ المدينة بالزائرين. في أحد الأيام وردتنا معلومات تفيد أنّ العدو الصهيوني وعُملاءه سيحاولون إدخال سيارة مليئة بالمتفجرات إلى النبطية، وأنّ ذلك سيتم في يوم السوق الأسبوعي، وسبق ذلك بأسابيع نجاحه في زرع سيارات انفجرت في بيروت، كما انفجرت إحداها أمام مقر قيادة قوات القسطل في صيدا. طلبنا من جيش لبنان العربي

الموجود في نقطة التفتيش على جسر القعقعية، التي تربط بين منطقة قوات الطوارئ الدولية ومنطقتنا، الانتباه والتدقيق في السيارات العابرة، كما وضعنا حاجزًا إضافيًا على الطريق بقيادة أبو أحمد أحد مسؤولي جهاز الأمن.

قرابة الظهر، وصلت سيارة بيك أب (شاحنة صغيرة) بالقرب من مقر إدارة الكتيبة، وتعطلت هنالك، نزل سائقها محاولًا إصلاحها، تقدّم منه أبو ياسين مسؤول النقليات في الكتيبة وفحص سيارته، وقرّر أنّه يلزمها قطعة ما، وطلب من سائقها أن يذهب لإحضارها كي يقوم بتركيبها له جريًا على ما تعلّمه من ضرورة احترام الجماهير وتقديم الخدمات إليها. طبعًا، لم يكن أحد يعرف باستثناء المسؤولين عن الأمن قصة السيارة. في صندوق السيارة كان يوجد برميلان للمازوت، وبضع أكياس من الطحين، ومن الواضح أنّ المتفجرات قد خُبئت عبر قعر مزدوج في البراميل وفي جوانب السيارة ذاتها.

في تلك اللحظات، كانت إدارة الكتيبة تعجّ بالزوار، إذ كان يزورنا وفد من تجمع اللجان والروابط الشعبية برئاسة معن بشور، وبشارة مرهج، ووفد من حركة مصر العروبة برئاسة محمد تيمور. وكان الانفجار كفيلًا بإيقاع عشرات الشهداء، في تلك اللحظات الحاسمة حضر أبو الفتح إلى المقر وشاهد السيارة وكان على علم بالمعلومة الأمنية المتعلقة بها. سأل عنها فأفاده ضابط الإدارة بأنّها لأحد المواطنين، وقد تعطّلت وذهب سائقها لإحضار قطعة غيار لها تمهيدًا لإصلاحها، وعلى الفور طلب أبو الفتح تحريك السيارة من مكانها، وإبعادها عن مقر الإدارة، وإحضار أحد المتخصصين لفحصها، بعد دقائق معدودة دوى انفجار كبير هزّ النبطية بأسرها، ولولا وصول أبو الفتح في اللحظة الملائمة لوقعت كارثة كبيرة.

التسليح والتجهيز

لم يكن تجهيز الكتيبة وتسليحها في بداية انتقالنا إلى منطقة النبطية متلائمًا مع طبيعة المهمات الجديدة. كان سلاحنا لا يتعدى نطاق الأسلحة الفردية، وبعض قواذف الـ B7 (آر بي جيه)، ومدفعًا أو مدفعين من عيار 75

ملم المضادة للدروع، ومثلها من الرشاشات المتوسطة من طراز دوشكا. أمّا نظام الاتصال فقد كان يعتمد على جهاز اتصال رئيس من طراز راكال للاتصال بقيادة القوات والعمليات المركزية، وأجهزة أخرى صغيرة تعمل على موجات الراديو، ويسهل التشويش عليها عند وقوع أول اشتباك مع العدو. وبالطبع فإنّ مثل هذا التسليح وتلك التجهيزات لا تكفي للقيام بواجباتنا الجديدة.

أدركنا منذ اللحظة الأولى أنّ ثمّة مهمة جديدة تنتظرنا، وهي إعادة تسليح الكتيبة وتجهيزها كي تتمكّن من تجهيز مواقعها على الحدّ الأمامي، ومن بناء قوة إسناد محلية في الوحدة الخلفية المكلّفة بإسناد الحدّ الأمامي ودعمه، والردّ على القصف المدفعي اليومي الذي نتعرّض له، والتصدي لغارات طيران العدو التي لم تتوقّف، وإدامة الاتصال مع المواقع كلّها وفي الأوضاع كلها عبر توفير أجهزة اتصال بديلة.

لم تكن هذه المهمة سهلة إذ إنّ الموارد محدودة، وما يُخصص من سلاح وعتاد وآليات عند قيادة القوات يُوزّع عادة على الكتائب المختلفة بالتساوي، وهو الأمر الذي لم يكن متوافقًا مع واقعنا الجديد. وبالنتيجة حصلنا على ما تمكنّا من الحصول عليه من قيادة قوات القسطل وبأقصى أفضلية يمكن منحها لنا، لكنّ هذا لم يكن كافيًا.

في تلك المرحلة كان لدى القيادة تركيز على إعادة تسليح جيش التحرير الفلسطيني الموالي لقيادة منظمة التحرير الذي كان يقوده العقيد فخري شقورة. لجأنا إليه، وكان معجبًا بتجربتنا، ومدركًا لحساسية المهمة التي كنّا نقوم بها، لذا فقد عدَّنا إحدى كتائب جيش التحرير، وعاملنا على مستوى التسليح والتجهيز مثلما يعاملها تمامًا. حصلنا من جيش التحرير على 4 سيارات مرسيدس من طراز يونيماك، ورشاشات 23 ملم ثنائي رُكّبت على هذه السيارات، كما حصلنا على رشاشات 37 ملم ثنائي حُمّلت أيضًا على آليات، وقام بتجهيزنا بشبكة اتصال على مستوى الفصيل من أجهزة الراكال البريطانية الصنع.

لجأنا أيضًا إلى القيادة مباشرة، وبالذات إلى أبو عمّار وأبو جهاد وأبو الوليد. في أحد الأيام، زار أبو عمّار القلعة وكانت الليلة الأخيرة من

رمضان، كانت وجوه المقاتلين يعلوها الغبار من عمليات الحفر والتحصين، وملابس بعضهم ممزقة. شكا إليه أحد المقاتلين الشجعان واسمه أبو فؤاد من وضع التسليح، وأشار إلى إحدى التحصينات التي أُنجز بناؤها، ولا يوجد بداخلها رشاش ثقيل، شارحًا له أهميته، ومقترحًا أن يوضع به رشاش من عيار 14.5 ثنائي، أجاب أبو عمّار بل رشاش 14.5 فردي، فوافق أبو فؤاد، لكنّه غمز من شعورهم ببعض التحيّز للملابس التي ترتديها بعض الوحدات في بيروت، وكانت ملابس عسكرية جزائرية من النوع الممتاز، لافتًا إلى ثيابهم الممزقة. حاول نائب قائد القوات المقدّم عبد العزيز أبو فضة أن يُسكت المقاتل، إلّا أنّني طلبتُ منه الاستمرار في الحديث، بدعوى أنّ أبو عمّار يُحب الاستماع إلى أبنائه.

بدّل أبو عمّار برنامجه لهذا المساء، فقد كان مقرّرًا أن يتناول طعام الإفطار في إحدى الوحدات، وتناول إفطارًا أُعد على عجل في القلعة مع المقاتلين. قبل منتصف الليل، وصلتنا شاحنة بها رشاش 14.5، وملابس عسكرية جزائرية تكفي للكتيبة كلها، مع تعليمات بأن تُوزّع قبل صباح العيد.

ما إن مضت بضعة شهور حتى جُهّزت مواقع الحدّ الأمامي بالأسلحة المطلوبة، كما كان لدينا صواريخ سام 7 مضادة للطيران تطلق من الكتف، وصواريخ موليتكا مضادة للدبابات وموجهة لاسلكيًا، وفصيل مدفعية مزوّد بمدفعين من عيار 85 ملم، ومدافع هاون عيار 120 ملم و82 ملم، وراجمة صواريخ غراد ذات ستة فوهات. وزُوّد عناصر فصيل المدفعية بحاسبات مبرمجة، تدرّب الفصيل عليها وعلى كيفية إدخال إحداثيات الموقع والهدف (خطوط الطول والعرض) لتقوم الحاسبة من نوع كاسيو بإعطائه باقي المعلومات اللازمة لتوجيه المدافع، وتمّ ذلك بجهد مميّز من الأخ أبو جعفر نائب مسؤول اللجنة العلمية، إضافة إلى فصيل للرشاشات الثقيلة من عيار 23 ملم و37 ملم، وفصيل مضاد للدبابات، وأُلحق بنا فصيلة دبابات T34 من كتيبة شهداء أيلول بقيادة ريمون في الوحدة الخلفية للدعم والإسناد.

بهذه التجهيزات، وأساسًا بإرادة المقاتلين ومعنوياتهم، تمكنّا من مواجهة القوات الصهيونية، وإيقاع خسائر كبيرة بها، ومن التحرك بسرعة ومرونة لمواجهة الفتن الداخلية.

حرب الاستنزاف 1981

نهارًا كانت سرية الإسناد تنتشر على التلال للتصدي للطيران المعادي، أمّا ليلًا فإنّها تندفع خلف الخط الأمامي لحماية المواقع الأمامية في القلعة وكفر تبنيت والحرج من أي محاولة إنزال للعدو خلفها. لم تشهد المنطقة أي محاولة للعدو للتقدّم باتجاهها، باستثناء محاولة واحدة حاول فيها التقدّم من سهل الجرمق[5] باتجاه حرج علي الطاهر، وتصدّت له الكمائن المتقدّمة بقيادة (الشهيد) أبو ضرغام فانسحب سريعًا. وفي طريق انسحابه زرع لغمًا ضمن قطاع جيش التحرير المرابط في سهل الجرمق، انفجر في صباح اليوم التالي في سيارة قائد السرية، وأدّى إلى استشهاده. تعلّمنا درسًا في الساحل، وطبّقناه في النبطية، العدو الصهيوني لا يهاجم موقعًا متيقظًا.

في 10 تموز/يوليو 1981، شهدت المنطقة ما عُرف بحرب الاستنزاف الفلسطينية - الإسرائيلية. تعرّضت مواقعنا لقصف مدفعي وغارات جوية مستمرة، كما تعرّضت مواقع أخرى في أنحاء مختلفة من لبنان من شماله إلى جنوبه مرورًا ببيروت لغارات جوية معادية. ردّت القوات المشتركة بقصف المستوطنات الصهيونية بالمدفعية والصواريخ، وبرزت في هذه الحرب قدرة المدفعية الفلسطينية بقيادة واصف عريقات، ووحدة الصواريخ بقيادة حسن الشبل[6]. وعلى الرغم من استمرار طيران العدو في التحليق ليل نهار، وغاراته

(5) سهل الجرمق يمتد من جسر الخردلي إلى مزرعة الجرمق، ويفصل بين هضبة النبطية ومنطقة العيشية.

(6) التحق بقوات العاصفة شبلًا، وتولى قيادة وحدة للصواريخ ملحقة بالقطاع الأوسط، وكان مركزها بالقرب من برج الشمالي، في اجتياح عام 1982 تمكن حسن من أسر مجموعة من الضباط والجنود الإسرائيليين بينهم قائد اللواء الإسرائيلي المدرع، وعاش مطاردًا لمدة ستة شهور في منطقة صور، واضطُر لاحقًا إلى التخلص من الأسرى الذين أصبحوا عبئًا على حركته.

المستمرة، فإنّه أخفق في تدمير مدفع واحد في تلك الحرب التي عُرفت باسم حرب المدفعية.

من جهتنا شاركنا بإمكاناتنا المحدودة ضمن فصيل المدفعية وراجمة الصواريخ التي كنّا نمتلكها في قصف بعض المستوطنات ومواقع العدو في الشريط الحدودي، إلّا أنّ الإنجاز الأبرز لنا كان في عدم وقوع أي إصابات في صفوفنا على الرغم من ضراوة القصف واستمراره باستثناء شهيد واحد هو (الشهيد) وليد الرمحي طالب الهندسة في جامعة حلب، ويعود ذلك إلى نجاح خطة التحصين، وتنفيذها بكفاءة، وهكذا منعت نقاط العرق المبذول ضحايا وخسائر، وهو ما تكرّر في عام 1982.

انتهت حرب الاستنزاف التي استمرت 14 يومًا في 24 تموز/يوليو 1981، بإبرام اتفاق وقف لإطلاق النار، توسط فيه الجنرال كالاهان قائد قوات الطوارئ الدولية والمبعوث الأميركي فيليب حبيب، واعتُرف بمنظمة التحرير طرفًا في النزاع أول مرة في تاريخ الصراع.

خلال حرب الاستنزاف، طلب السوريون وضع مجموعة استطلاع في القلعة مكوّنة من أربعة مقاتلين ومعهم جهاز اتصال مع قيادتهم لمراقبة التحركات الإسرائيلية. تعزّزت علاقتنا بضباط لواء الاستطلاع وأفراده، وكان يقوده ضابط برتبة لواء من أصول بدوية فلسطينية. ساعدنا هؤلاء في نقل السلاح عبر الحدود اللبنانية - السورية إلى قرب الحدود الأردنية - السورية، لنقوم لاحقًا بنقلها عبر هذه الحدود إلى الأغوار الأردنية، ومنها إلى الضفة الغربية عبر نهر الأردن.



الفصل الثامن

عبور النهر



لم يكن همّ الكتيبة منصبًا على تعزيز مواقعنا في الجنوب اللبناني والتصدي للاعتداءات الصهيونية عليه فحسب، بل لعلّ هاجسنا الأول والأساسي كان منصبًا أيضًا على كيفية التوجه نحو الأرض المحتلة. وكانت تعبئتنا الأساسية منذ أيام الحرب الأهلية الأولى تدور حول إعداد الكادر المتميّز لدخول الأرض المحتلة، وإقامة قواعد ارتكاز فيها تمتد وتتسع لتشمل مختلف أرجاء فلسطين.

في عام 1975، جرى تجهيز دورية من الإخوة أبو الراتب وعبد الرحيم وحسنين، إلّا أنّ استشهاد أبو الراتب وحسنين وجرح عبد الرحيم خلال الحرب الأهلية أجهض هذه المحاولة التي كان من المفترض أن يشارك فيها أيضًا سعيد و(الشهيد) حماد حيدر.

كان الأردن ساحة العبور الرئيسة لهذه الدوريات. ومن أجل هذا الهدف تسلل إلى الأردن عبر الحدود السورية، ومنذ عام 1972 وعلى فترات، الحاج حسن وحمدي وأبو حسن قاسم ومحمود العالول، في محاولة لإقامة قواعد ارتكاز سرية في الأردن تمهّد الطريق لعبور دوريات إلى عمق الأرض المحتلة للاستقرار فيها.

تخصّصت إحدى المجموعات بعبور الحدود الأردنية - السورية. وكان أبطال هذه المجموعة أبو سليم وأبو نصّار ومحارب وهارون، حتى يمكن القول إنّه منذ هذه الفترة المبكرة وحتى بداية الثمانينيات لم يكد يمرّ أسبوع واحد من دون أن تتحرك إحدى المجموعات عبر الحدود ذهابًا وإيابًا تحمل السلاح والذخيرة، وتنقل الأفراد الآتين من الأرض المحتلة لتلقي التدريب في لبنان، ومن ثمّ تعيدهم ثانية إلى الأردن من دون أن يظهر على

وثائق سفرهم أنّهم غادروه، أو تنقل المتطوعين الآتين للالتحاق بقواعدنا في الجنوب.

خلال هذه الأعوام، كان الالتحاق بالدوريات التي ستتوجّه إلى داخل الأرض المحتلة حلمًا ينتاب مجمل الكوادر الرئيسة، ومحورًا للتنافس بينها حول أحقية كل منهم في المشاركة فيها. غادر الكتيبة إلى الأردن وعلى فترات للمشاركة في هذا النشاط عدنان أبو جابر وعزيز ومروان زلوم وعلي أبو طوق وأبو العز وأحمد منتصر وفارس وأبو رحمة وعمّار وعمر أبو ربيعة... وآخرون، فمنهم من نجح في مهمته وعبر إلى داخل الأرض، ومنهم من اعتقلته السلطات الأردنية، وبعضهم الآخر تعثرت مهمته لعوامل خارجة عن إرادته وعاد مرة أخرى على أمل أن يعاود الكرة مرة أخرى عندما تتهيأ الأوضاع الملائمة.

استدعى هذا نمطًا تدريبيًا خاصًا في الكتيبة لإعداد هؤلاء الإخوة وتدريبهم على السباحة وعلى عبور النهر في أجواء باردة وعاصفة، ومحاولة حلّ بعض المشكلات التي تعترض ذلك مثل اجتياز خط الأثر، ومحاولة بناء نموذج شبيه بالإجراءات الإسرائيلية المتبعة بالقرب من نهر الأردن من أسلاك شائكة وطريق ترابية مغطاة بالرمال الناعمة التي تكشف أي محاولة للسير فوقها، أو استخدام الحبال والبكرات المتحركة لعبور النهر، وكان لهذا الجهد أولويته على ما عداه.

في إحدى المرات – وكان البرد قارسًا – شكا لي المدرب، وهو من أبطال لبنان في السباحة، من أنّ بعض الإخوة الذين يُعدّون لعبور النهر يشكون البرودة الشديدة لنهر الليطاني الذي تتكون مصادر مياهه من ذوبان الثلوج في جبل الشيخ، ويُفضّلون السباحة في البحر على برودته بدلًا من النهر الأشد برودة، وهذا يخالف خطة التدريب المقرّرة. لم يكن لدي سوى حلّ واحد وهو أن أشاركهم التدريب على عبور النهر، إذ إنّ من شأن هذا أن يدفعهم إلى المثابرة عليه. ألقيتُ نفسي في ماء النهر، كانت المياه شديدة البرودة، لم أعرف كيف وصلت إلى الضفة الأخرى، كان الحافز الذي يحركني هو الخروج من هذه المياه المتجمدة، أمّا رحلة العودة بعد التقاط الأنفاس فكانت الأكثر صعوبة من

رحلة الذهاب، إذ كنتُ أعرف تمامًا ما سأعانيه من برودة الماء خلالها. استمر ذلك أيامًا عدة حتى أنجزنا هذه المهمة.

الأردن

في الأردن، لم تكن الأمور بهذه السهولة، فثمّة مخاوف لدى النظام الأردني من عودة أي صورة من صور العمل الفدائي إلى الساحة الأردنية. كان توجهنا واضحًا وضوح الشمس، فهدفنا هو الأرض المحتلة فقط، وأي سلاح يُمرّر عبر الحدود أو مجموعة مقاتلة توجد في الأردن لفترات، فإنّ غايتها الوصول إلى داخل الأرض المحتلة، ولا يستهدف المسّ بالأمن في الأردن، أو توجيهه باتجاه أي حراك داخلي، أو التدخل في الصراع السياسي المستعر بين منظمة التحرير الفلسطينية والنظام الأردني.

لم يكن هذا العمل سهلًا، فهو عمل يجري في وضعية العمل السري المحاط بالمخاطر من أن يُكتشف ذات يوم أكان عن طريق المتابعة والاختراق، أو عن طريق المصادفة كما حدث أكثر من مرة عند إلقاء القبض على مجموعات كانت تحاول عبور الحدود، أو توقيف الشرطة التي كانت تتابع سرقة حدثت في الحي لأحد الأشخاص فيعثرون معه على بطاقة هوية للعاصفة وتصريح بالانتقال بين دمشق ودرعا، فيُحوّل من المخفر إلى دائرة المخابرات العامة، أو انفجار لغم على الحدود، ما يستدعي نقل الأخ المصاب إلى المستشفى ليُعتقل ومجموعته.

كان هذا العمل دقيقًا ومتكاملًا، فهناك من عليه أن ينقل المجموعات عبر الحدود الأردنية – السورية، وآخرون عليهم أن يكونوا بانتظارها لإيصالها إلى داخل إحدى المدن أو المخيمات. وبرز في هذا المجال أبو سليم وهارون وأبو نصار وجابر ومحارب وصالح الديك الذي فقد ساقه بانفجار لغم على الحدود، واعتقل بعدها فترة. كما كان هنالك آخرون يجب عليهم إيواء هذه المجموعات، وتخبئة أسلحتها، ونقلها إلى الأغوار أو توفير سواتر عملية لأفرادها الذين قد تطول فترة إقامتهم قبل أن تتهيأ الأمور لعبور نهر الأردن باتجاه الأرض المحتلة.

في مثل هذه الأوضاع كان الشهيد حمدي يتنقل في زي ملازم أول في الجيش الأردني، أمّا الحاج حسن وأبو حسن قاسم فقد كانا يرتديان الزي العربي في أغلب الأحيان. وفي الفترة الأولى، نجح الإخوة في إدخال كمية من الأسلحة إلى الضفة الفلسطينية. سُلّم بعض هذا السلاح إلى مؤذن مسجد في منطقة نابلس وكانت لدية تعليمات مشددة بأن يقوم بتخبئته في مكان آمن، ليقوم في ما بعد بتسليمه على فترات إلى مجموعات فدائية مختلفة. استلم الشيخ السلاح وخبأه كما هو متفق، لكنّه لم يستطع مقاومة إغراء الاشتباك مع العدو، فتناول بندقيتين وذهب مع صديق له لاعتراض دورية للجيش الإسرائيلي، استشهد الاثنان ومعهما دفن السلاح الذي لم نعرف أين خُبّئ.

في مرة ثانية لمح عمر أبو مجاهد وأبو علاء منصور باصًا عليه لوحات الضفة الغربية متوقفًا في أحد الأماكن في عمّان، وكان ينقل الحجاج أو المعتمرين من الضفة إلى عمّان، ويبقى في انتظارهم إلى حين عودتهم. بدا أنّ السائق ترك الباص وذهب مع المعتمرين، لمعت في ذهنهم فكرة سريعة، قاموا بفك أحد الكراسي في الباص وأخفوا في داخله عددًا من القنابل اليدوية، وأعادوا الكرسي إلى مكانه من دون أن ينتبه أحد، وأرسلوا معلومات حول الباص إلى إحدى الخلايا في الضفة الغربية.

تألفت الشبكة العاملة في الأردن من مناضلين أشداء صقلتهم التجارب وعركتهم السجون، كما انضم إليها عدد من الخريجين من أبناء التنظيم الطلابي من مناطق عدة، وينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة. من هؤلاء تألفت شبكة فاعلة وناشطة ومترامية الأطراف.

مزرعة على النهر

كان فؤاد السروجي في السنة الرابعة في كلية الزراعة في الجامعة الأميركية في بيروت عندما فُصل مع زملائه بعد الإضراب المعروف. وعندما لم تُفلح محاولته إكمال هذه السنة في جامعة بغداد نتيجة الضغوط التي حاول صبري البنا (أبو نضال) ممارستها عليه وعلى زملائه لحملهم على المشاركة في عملياته الخارجية، اقترح عليه أبو حسن قاسم أن يعود إلى عمّان للدراسة

في الجامعة الأردنية التي كانت قد أسست في حينه كلية للزراعة. ضحّى فؤاد بالسنوات الثلاث وابتدأ الدراسة في السنة الأولى، إذ ستكون مهمته الجديدة الاتصال بالطلاب الآتين من الأرض المحتلة، وتجنيدهم للعمل، وهي مهمة تستحق التضحية بسنوات دراسته في الجامعة الأميركية. وهناك تعرّف من ضمن العشرات من طلاب الأرض المحتلة – وهو المسيحي – على طالب العلوم الآتي من الخليل والمتعاطف مع حركة الإخوان المسلمين، الذي سيكون أحد أبطال عملية الدبويا بعد سنوات عدة تيسير أبو سنينة[1].

بعد تخرّجه في الجامعة كلّف فؤاد بمهمة أخرى وهي استئجار مزارع قريبة من نهر الأردن أو ضمانها لتكون قواعد انطلاق باتجاه الأرض المحتلة. وبالفعل قام باستئجار ثلاث مزارع في الكريمة ودير علا والكرامة، بهدف استطلاع الواجهة المقابلة، واختيار أنسب الأماكن لعبور الدوريات.

عندما نزل فؤاد لاستلام مزرعة الكريمة، وجد أنّ مزارعين من سكان المنطقة قد زرعوها. لقد قرّروا زراعتها بعد أن اكتشفوا أنّ صاحبها المقيم في عمّان لا يأتي إليها ولا يهتم بها. وبالطبع كادت أن تحدث مشاجرة بين الطرفين، فؤاد يريد الأرض لزراعتها بصفتها ساترًا لعمله المكلّف به، والمزارعون يريدون حصاد محصولهم الذي زرعوه عندما ينضج. اكتشف فؤاد أنّ هؤلاء إخوة ينتمون إلى عشيرة النماردة، وأنّهم كانوا محكومين بالسجن والإعدام لعلاقتهم بالمقاومة وأبو علي إياد خلال وجودهما في المنطقة. كما اكتشف أنّ لهم تجربة واسعة في عبور النهر، ومعرفة مسالكه، وعاداته، وتضاريس الأرض في ضفته الغربية، ومن يومها أصبح النماردة عشيرة فؤاد وعائلته في الأغوار، وساعده الأيمن في تنفيذ مهماته، وقطع معهم النهر في مهمات استطلاعية المرة الأولى في حياته.

عمل فؤاد مزارعًا نشيطًا يزرع ويجني المحصول، ويذهب لبيعه في السوق المركزي، ويقدّم خبرته بصفته مهندسًا للمزارعين الآخرين في المنطقة،

(1) أحد أبطال عملية الدبويا، حكم عليه بالسجن المؤبد في سجون العدو الصهيوني، وأُفرج عنه ضمن تبادل للأسرى، متقاعد ويقيم في الخليل.

وخلال ذلك كان ينقل السلاح إلى الأغوار، ويأخذ المقاتلين للإقامة في المزرعة على هيئة مزارعين أحيانًا، وصيادين أحيانًا أخرى، ويقوم بمهمات الاستطلاع اليومي، ويسجّل في كل يوم طريقة تحرك القوات الإسرائيلية على الضفة الغربية، وردات فعلها تجاه أي حادثة، كذلك أصبح على دراية واسعة بإجراءات الجيش الأردني على الحدود، وأصبح جاهزًا لاستقبال الدوريات وإدخالها إلى الأرض المحتلة.

عملية الدبويا

جهّز فؤاد سيارته البيك أب بمخابئ سرية، كما جهّز مخبأ آخر في مقطورة ملحقة بالجرار الزراعي يتسع لاثنين، على أمل أن نتمكّن ذات يوم من أسر جنديين إسرائيليين.

بعد انتهاء عمليات الاستطلاع المتواصلة يوميًا، أُرسل رسول إلى قرية مرج نعجة المقابلة تمامًا للمزرعة على الضفة الفلسطينية للنهر، ليُخبر أبو فيصل (عبد الفتاح خميّس) بموعد وصول الدورية المقرّر. وفي الوقت المحدّد نُقل عدنان أبو جابر وياسر زيادات (عزيز)[2] وأسلحتهما الفردية وأسلحة أخرى لتسليمها إلى المجموعات في الداخل، ووضع فوقها عشرات الصناديق الفارغة، وهو منظر مألوف في موسم البندورة في تلك الفترة. كان الهدف إقامة قاعدة ارتكاز في منطقة الخليل.

عبرت المجموعة النهر، ورافقها أبو سليم الذي كان يحمل معه فرشة إسفنج ليمسح آثارهم عن الطريق الترابية، وسار معهم حتى وصولهم إلى نقطة بالقرب من قرية مرج نعجة، ثمّ عاد أدراجه، هناك كان بانتظارهم سيارة بيك أب يعرفون مواصفاتها ورقمها، ركبوا فيها، وعلى الفور حضر أبو فيصل، ركب في السيارة، ومضى بها إلى كفر نعجة الفوقا؛ ليبعدهم عن الطوق الذي

(2) كادر من حركة فتح لجنة 77، عاش مطاردًا في الأرض المحتلة بعد أن دخلها عبر دورية قتالية. شارك في تنفيذ عملية الدبويا في الخليل، أُسر وحُكم عليه بالسجن المؤبد قبل أن يُفرج عنه في صفقة لتبادل الأسرى.

بدأ العدو في فرضه حول المنطقة بعد اكتشاف آثار أبو سليم، وهو في طريق العودة، الأمر الذي أفادهم، ذلك أنّ إجراءات العدو الأولية ورماياته انصبت كلها باتجاه النهر. تركوا سلاحهم عند أبو فيصل، وساروا مشيًا باتجاه محطة الرطروط للمحروقات، إذ يُفترض أن ينتظرهم أخ آخر (عمر الحروب)[3]. بعد وصولهم إلى الخليل – حيث كان تيسير أبو سنينة قد رتّب لهم أماكن للبقاء فيها – تولّى عمر الحروب إحضار أسلحتهم من عند أبو فيصل، وبعد فترة استُكملت المجموعة بانضمام محمد الشوبكي[4] إليها.

في تلك الفترة شهدت الخليل عربدة كبيرة للمستوطنين، واعتداءات يومية على الأهالي؛ لذا كُلّف تيسير باستطلاع هدف كبير للمستوطنين لضربه، فاختار منطقة الدبويا، وهي بناية احتلها المستوطنون في حارة جابر بالقرب من الحرم الإبراهيمي الشريف، إذ لاحظ تيسير أنّ مجموعات من شبيبة الجيش يقومون بمسيرة مسلحة مساء كل يوم جمعة من مستوطنة كريات أربع إلى بناية الدبويا، يرددون خلالها الأناشيد والأهازيج لمؤازرة المستوطنين هناك.

في مساء الجمعة 2 أيار/ مايو 1980، كان عدنان وعزيز وتيسير والشوبكي في انتظار الصهيونيين. انتشر الأربعة في المنطقة، وكان واجب الشوبكي أن يدع القافلة تمرّ ثمّ يغلق عليها طريق الانسحاب، وألّا يبدأ هو بإطلاق النار. مرّت القافلة ترافقها دوريتان من حرس الحدود، وحين أصبحت داخل الطوق تمامًا بدأ الإخوة بإلقاء قنابلهم اليدوية وفتح نيران رشاشاتهم. اعترف العدو بمقتل 6 على الفور، وإصابة 16 بجراح، وتمكّنت المجموعة من الانسحاب بسلام. أبعدت السلطات الصهيونية في إثر العملية كلًا من فهد القواسمي[5] رئيس بلدية

(3) حُكم عليه السجن المؤبد، وأُفرج عنه في عملية تبادل الأسرى. عُيّن مراقبًا للشركات بعد قيام السلطة الوطنية، وهو عضو في المجلس الثوري لحركة فتح، ورئيس محكمتها الحركية.

(4) من أبطال عملية الدبويا، سبق له أن قتل مستوطنًا واستولى على سلاحه. وعلى الرغم من إخضاعه لجهاز كشف الكذب، فإنّه تمكن من الإفلات من التحقيق. اعتقل ثانية بعد عملية الدبويا، وأُفرج عنه في تبادل للأسرى.

(5) (شهيد)، انتخب رئيسًا لبلدية الخليل في عام 1976. أصبح بعد إبعاده عضوًا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير. استشهد في عمّان في 29/ 12/ 1984.

الخليل، ومحمد ملحم[6] رئيس بلدية حلحول، والشيخ رجب التميمي القاضي الشرعي إلى جنوب لبنان. وتشاء الصدف أن يكون (الشهيد) مروان كيالي هو الذي استقبلهم على جسر القعقعية، ونقلهم من الجنوب إلى بيروت.

بقيت المجموعة في منطقة الخليل أكثر من عام، وعندما تقرّرت عودتها عادت بالطريقة نفسها من الخليل إلى التياسير إلى مرج نعجة. ودّعهم أبو فيصل بالقرب من النهر بعد أن تناولوا طعام العشاء عنده، وتركوا سلاحهم لدى إخوانهم، وساروا باتجاه نهر الأردن للانتقال إلى الضفة الشرقية. لكنّهم وبالقرب من النهر تشاء المقادير أن يقعوا في قبضة القوات الإسرائيلية وهم عُزّل من السلاح، بعد اكتشافها آثارهم على الطريق الترابية. حُكم على أعضاء المجموعة بالسجن المؤبد، وأُفرج عنهم في صفقة التبادل التي جرت في عام 1983 بعد أن أسر إخوانهم ثمانية جنود.

فيضان النهر

على الضفة الفلسطينية لنهر الأردن أقام العدو الصهيوني جدارًا من الأسلاك الشائكة، تعقبه طريق ترابية يبلغ عرضها 10 أمتار من الرمال الناعمة، تسير عليها مركبة عسكرية إسرائيلية كل فترة تجرّ خلفها كومة من الأسلاك التي ترسم على هذا الخط خطوطًا، ليسهل عليه معرفة إذا ما تمكّن أحد ما من اجتيازه. كما كان هنالك طريق أخرى بالقرب من النهر يستخدمها الجيش الصهيوني لاستكشاف أي حركة بالقرب منها، وكثيرًا ما تُلقى قنابل وسط الأعشاب التي تنمو بكثرة في ذلك المكان خشية اختباء أحد فيها. وتسير دورياته بمحاذاة الطريق الترابية بمعدل مرة واحدة كل 20 دقيقة على الأكثر.

كان الهدف كيف يُمكن اجتياز هذا الطريق الترابية من دون أن يكتشف العدو أنّ هنالك مجموعة قد مرت فوقها. جُرّبت وسائل وطرق عدة، منها

(6) أصبح عضوًا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، ومسؤولًا عن دائرة شؤون الوطن المحتل.

أن يرتدي المقاتلون أحذية مغطاة بكعب غزال بحيث يبدو أنّ حيوانات هي التي مرّت، أو أن يسيروا إلى الخلف بحيث يبدو الأثر وكأنّه لمجموعة عادت من الضفة الفلسطينية، أو أن يكون معها آخرون يقومون بمسح الأثر كما في القصة السابقة، أو أن تعبر مجموعتان، واحدة تزرع ألغامًا وتعود بحيث يبدو أنّ هذا هو هدف المهمة، في حين تستمر الأخرى بالتوغل باتجاه الأرض المحتلة. وكانت كثافة دوريات العدو، ودقة إجراءاته، وسرعة تحركه عند اكتشافه أدنى إشارة كثيرًا ما تحمل هذه الدوريات على العودة أو تدفعها لاشتباك مبكر معه، كما أنّها كانت تلفت أنظار الجيش الأردني إلى أنّ ثمّة تحرّكًا ما على الحدود فيبادر إلى إغلاق المنطقة ونصب الحواجز العسكرية فيها.

في أحد الأيام خطرت لنا فكرة جديدة، استخدام سلّم شركة الكهرباء الأردنية لاجتياز الجدار الشائك، وعبور الطريق الترابية التي كنّا نطلق عليها اسم خط الأثر. كان أبو حسن قاسم في عمّان في تلك الفترة، وسُرق أحد سلالم شركة الكهرباء، ونُقل إلى المزرعة. بدأ أبو حسن في الضغط لعبور دورية استطلاع تستطلع الجدار الشائك، وتُقرر أنسب مكان لوضع السلم، تمهيدًا لعبور إحدى الدوريات باتجاه الأرض المحتلة.

كان الجو ماطرًا بغزارة، واقترح النمرود على فؤاد تأجيل العبور هذه الليلة، خشية فيضان النهر، لكنّ فؤاد قال له إنّ المطلوب هو استطلاع نقطة ملائمة لوضع السلّم، ومن ثمّ العودة فورًا، وافق النمرود على مضض، وعبر النهر هو وأبو سليم وأبو خلدون (خالد الديك).

فجرًا عاد فؤاد إلى البيارة القريبة من النهر لإحضار المجموعة من نقطة مُتفق عليها، ليجد أنّ أشجار البيارة قد غرقت من المياه، وأنّ معالم النهر قد اختفت، وحلّت مكانه بحيرة كبرى أزالت المعالم والحدود بين ضفتيه. في تلك الليلة فتح للصهيونيون بوابات بحيرة طبريا التي ارتفع منسوبها، فتحوّل المزراب الصغير الذي يتحكمون به إلى بحيرة كبرى خلال دقائق، وجرت المياه بسرعة عالية، كان المنظر مخيفًا، ولم يُعثر على أحد من الشباب.

فجأة خرج النمرود من جحر صغير وعلامات التعب والإرهاق بادية عليه، قال إنّه خبّأ الشباب في مغارة، لكنّهم خافوا من أن يفتشها الصهيونيون فنزلوا إلى النهر واختبأوا في سبخة[7] لا يظهر منهم فوق سطح الأرض إلّا وجوههم. ذهب النمرود ليرتاح، وبقي فؤاد وشقيق النمرود يراقبان الوضع، وبقي الشباب في السبخة طوال النهار. قرابة الساعة الرابعة عصرًا وصلت مدرعة صهيونية قرب النهر، ونزل منها جنود، في حين لم تكف الطائرات المروحية عن التحليق في الأجواء. يبدو أنّهم قد أحسّوا بشيء ما، لكنّهم لم يتمكّنوا من تحديد ماهيته. في تلك اللحظة – ومن دون أن يرى الجنود – قرّر أبو سليم أن يقفز في الماء ويعبر النهر، جرفه التيار المتدفق، لكن من حسن حظه أنّ ثمّة صخرة في وسط الماء عليها نخلة، فتشبث بها. لاحظه الجنود، واتّخذوا مواقع قتالية، لكنّهم لم يكونوا متأكدين من هويته، وما إن كان فدائيًا أم مزارعًا أم سارقًا للأسماك، إذ كان بعض سكان المنطقة يعبرون النهر لسرقة الأسماك التي يربيها الصهيونيون على ضفته، كما أنّهم وفي ظلّ فيضان النهر باتوا عاجزين عن تحديد مكانه، وفي أي ضفة هو.

فجأة تحرّك أبو محمد النمرود وسط ذهول فؤاد، وزوجة النمرود، وعائلته التي حضرت إلى المكان لمتابعة ما يحدث. قاد الجرار الزراعي إلى حافة المياه العميقة، وألقى بحبل إلى أبي سليم، وسحبه خارج النهر. وضعه على التراكتور، واتّجه إلى القرية. كان أبو سليم في حالة إغماء تقريبًا، فذهب به إلى والدة النمرود المعروفة بأنّها طبيبة شعبية، فتعهدت برعايته. قال أبو سليم إنّ أبو خلدون ما زال في السبخة، ولا يريد أن يخرج لأنّه لا يجيد السباحة، وأنّه قد قرّر التوجه باتجاه الغرب.

عاد فؤاد ليلًا باتجاه النهر، ومعه أبو شنب الذي قطع النهر، وبدأ بالبحث عن أبو خلدون الليل كله بلا جدوى. في اليوم التالي بدأنا نستمع إلى نشرات الأخبار لعلنا نعرف شيئًا عن أبو خلدون.

(7) حفرة مليئة بالطحالب.

أبو خلدون

مع لحظات الظلام الأولى اجتاز أبو خلدون السياج، وسار باتجاه قرية طمون. كان يعرف أنّ هنالك امرأة ضمن خليته ولم يسبق له أن التقاها. دقّ عليها الباب ليلًا، استقبلت ابتسام وزوجها أبو خلدون بكل ترحاب. ومع ساعات الفجر الأولى طوّق الإسرائيليون القرية، وطلبوا من الرجال والنساء التجمّع في إحدى ساحاتها، وقاموا بتفتيش منازلها. ارتدى أبو خلدون ثوب امرأة، وخبأ رشاشه داخل الثوب، وعندما انتهى تفتيش البلدة، وفُكّ الطوق عنها توجه إلى قريته كفر نعمة.

لم تكن هذه هي التجربة الأولى لأبو خلدون مع النهر، فهو قد عاد إلى بلدته كفر نعمة متسللًا عبر النهر بعد حرب عام 1967، وفي فلسطين أسس مجموعة مسلحة كان من أبرز عملياتها تفجير قطار في منطقة بتير في عام 1975، وفي العام الذي تلاه اكتشف العدو المجموعة واعتقل اثنين من أفرادها هما المهندس صقر إلياس وأخيه محمد إلياس، حينها تمكّن أبو خلدون من الفرار مع رفيقه كمال ياسين إلى الأردن متسللًا عبر النهر حيث اعتُقلوا ولم يفرج عنهم إلّا في عام 1977.

بقي أبو خلدون مطاردًا في منطقته لمدة تزيد على 16 شهرًا. أطلق النار خلالها على أحد العملاء المعروفين، فشاع في المنطقة أنّ فيها عددًا من الفدائيين المسلحين، وخلق حالة ثورية فيها. وفي إحدى المرات أوقف حاجز صهيوني السيارة التي يستقلّها، وسأل عن هويات ركّابها. فتح أبو خلدون حقيبة يحملها متظاهرًا بأنّه سيُخرج هويته منها، لكنّه أخرج قنبلة يدوية، وهدّد بها الجندي على الحاجز، وتمكّن من الفرار عبر الأودية المحيطة. في رسالة من أبو خلدون لأبو حسن قاسم أعلمه أنّه قد جهّز حفر ومخابئ عدة لخطف جنود إسرائيليين، وطلب الإذن للبدء بذلك، لكنّ أبو حسن ردّ عليه طالبًا منه البقاء في حالة كمون إلى حين استكمال إدخال ثلاث دوريات إلى الأرض المحتلة للبدء بمرحلة جديدة من الكفاح المسلح فيها. لم يكن أبو حسن يريد لفت العدو إلى وجود مجموعات من المطاردين قبل أن يكمل استعداداته، لكنّ

القدر لم يمهل أبو خلدون الذي استشهد في 18 نيسان/ أبريل 1981 باشتباك مع القوات الصهيونية في أحراج أبو ليمون قرب قرية بلعين بحسب ما أعلنه العدو. وإن كان هذا الإعلان يلفّه الكثير من الغموض، فإنّه أسدل الستار على تجربة نضالية متميّزة، لعلها كانت الحالة الأولى لظاهرة الذئاب المنفردة.

ليلة العرس

أبو حديد، وأحمد منتصر[8] وفارس وأبو سليم وأبو نصّار وجلال وأبو العز، كانوا هم أفراد دورية أُخرى تعبر النهر ستنطلق من مزرعة فؤاد القريبة من قرية كريمة. ثلاثة من أفرادها سيتوغلون في داخل الضفة الفلسطينية ليقيموا قاعدة ارتكاز في منطقة نابلس، في حين يقوم الثلاثة الآخرون بإيهام العدو أنّ كل من عبر الحدود كانوا ثلاثة، وعادوا بعد أن قاموا بزراعة ألغام في المنطقة.

حملوا معهم السلم المسروق، وضعوه على السياج، لكنّ السلّم لم يتحمّل الثقل فانكسر، وأصبحت الآثار واضحة على خط الأثر، وفورًا أخذ قائد الدورية قرارًا حكيمًا بالعودة بناءً على التعليمات المسبقة، وما إن وصلوا إلى النهر حتى جاءت مدرعة صهيونية وبدأت بإطلاق النار بصورة عشوائية. عبروا النهر والرصاص يتطاير بينهم ويضرب في الماء، وفورًا التقطهم فؤاد والنماردة. خبأ النمرود السلاح في المخبأ السري في الجرار، في الوقت الذي نقل فيه فؤاد الشباب في البيك أب، وفي الطريق مرّوا على منزل أم محمد في «كريمة»، واستعاروا منها طبلة ودربكة، وتوجهوا إلى عمّان، بدا منظرهم وهم يغنّون ويطبلون وكأنّهم ذاهبون إلى عرس، مروا على حاجز الجيش الأردني ودعوا الجنود لحضور العرس. ما إن عبروا الحاجز حتى اشتعلت المنطقة بقذائف الإنارة، وعجّت السماء بالطائرات المروحية. وصل الشباب إلى عمّان بسلام، لكن كان على فؤاد أن يعود في اليوم التالي ليُحضر الجرار والسلاح، ويخرجه خارج الطوق الذي فرضه الجيش الأردني على المنطقة وقام بتفتيشها كلها لمدة ثلاثة أيام.

---

(8) (شهيد)، سعود صبيح، استشهد بالقرب من صور في عام 1993.

في اليوم ذاته كان عرس فؤاد. وصل إلى عمّان الساعة الثالثة عصرًا، كان لديه ساعة واحدة ليصلح هندامه، ويتوجه إلى الكنيسة لإتمام مراسم العرس.

بعد ثلاثة أيام تلقّى فؤاد والنماردة دعوة للعشاء من شخص من آل العسولي من قرية كفرنجة، هذه القرية التي لم يغادرها أهلها خلال القصف المدفعي العنيف في الأعوام 1968، 1969 و1970، وإنّما لجأوا إلى المغارات الموجودة في القرية، فأقامت كل عائلة في مغارة وفّرت لهم حماية طبيعية من القصف الصهيوني. خاف فؤاد أن يكون قد شاهد ما حدث، فمزرعته مجاورة لنا، وتوجس أن يخبر السلطات، لكنّه قال لهم: «أنا شفت كل شي، والله يبارك فيكم ويقويكم، واعتبروا سركم في بير، لكن انتو انسيتوا مشطين ذخيرة في المكان، رح أرجعلكم واحد واستأذن منكم آخد التاني لأنّي بحاجة له».

غادر أبو حسن وأبو العز الأردن تسللًا باتجاه سورية. على الحدود سمع غناءً صادرًا عن كمين للجيش الأردني على بعد أمتار، تراجعا بسرعة فوقع أبو حسن في حفرة وكُسرت ساقه، حمله أبو العز حتى وصلا إلى الحدود السورية.

ألقت السلطات الأردنية القبض على فؤاد والنماردة مصادفة، بعد أن أمسكت شرطة كانت تراقب حيًا وقعت به سرقة بشخصين اشتبهت بهما وقادتهما إلى المخفر، ولدى تفتيشهما عُثر بحوزتهما على تصريح من «فتح» يتيح لهما الاقتراب من الحدود السورية - الأردنية التي كانا لتوهما عائدين منها، أحدهما كان يستعد للعبور في دورية، وسبق له أن ذهب إلى المزرعة، فاعترف بمكانها بعدما تعرّض لضرب شديد.

بقي فؤاد ومجموعته في السجن بضعة شهور، إذ لم يكن الفدائيون المعتقلون وهم في طريقهم إلى الأرض المحتلة يُحالون إلى محاكم أو تصدر بحقهم أحكام قضائية؛ لما لهذه المسألة من صدى إعلامي، فقط كانوا يوقفون إلى أن يُفرج عنهم نتيجة عقد مؤتمر للقمة، أو زيارة وفد من منظمة التحرير إلى الأردن، أو نظرًا إلى قيام العدو الصهيوني باجتياح لبنان.

في هذا الاعتقال انتهت قصة هذه المجموعة، وأصبح محظورًا على فؤاد

الاقتراب من منطقة الأغوار، لكن قطعًا بدأت قصة مجموعة أخرى تعمل لعبور النهر من مكان آخر عبر مجراه الطويل.

التياسير

بعد فترة تدريب إضافية في الكتيبة عاد أبو العز (نسيم عودة) إلى الأردن مرة ثانية، ورافقه خبير الحدود أبو نعيم (هارون)، ومروان زلوم (أبو فتحي). كان عمّار (عاطف بدوان) في انتظارهم في عمّان، ومعه رفيقهم الثالث الذي سيرافقهم في الدورية الأخ جمال ضراغمة[9]، وقد حضر خصيصًا من طوباس في الضفة الغربية ليرافق الدورية ويكون دليلها.

انتقل جمال وأبو العز إلى بلدة «الكريمة» في الأغوار، وسكنا فيها مدة شهر كامل، حيث عملا بمهنة قصارة الجدران نهارًا ستارًا لوجودهما في المنطقة، في حين كانا يقضيان الليل بالقرب من نهر الأردن لمراقبة تحركات العدو الصهيوني ليلًا. بعد شهر أنهيا مهمتهما وباتت ترتيبات الدورية جاهزة، اتُفق على أن يرافق الدورية مجموعة أخرى بقيادة أحد رفاق الحاج حسن في كتيبة الجليل عمر أبو ربيعة ومعه أسامة؛ ليقوما بزراعة ألغام كانوا قد حصلوا عليها من حقل ألغام على الحدود الأردنية - السورية خلال عودتهم إلى الأردن، بغية إيهام العدو أنّ هدف المجموعة التي اجتازت النهر هو زرع الألغام والعودة ثانية إلى الضفة الشرقية، وتتمكّن بذلك الدورية الرئيسة من إنجاز مهمتها المتمثلة بإقامة قاعدة ارتكاز جديدة في الضفة الغربية.

اجتازت الدوريتان النهر بسلام في شباط/ فبراير 1982، وقامت مجموعة عمر بزرع الألغام والانسحاب إلى الضفة الشرقية، فيما اجتاز أبو العز ورفاقه السياج وتوغلوا باتجاه الضفة الغربية. جمال كان يعرف المنطقة تمامًا، فقادهم عبر مجرى مائي ينبع من عين البيضا ليصبّ في نهر الأردن، لإخفاء أي أثر لهم يمكن تتبعه، حتى وصلوا إلى مغارة يعرفها وتقع بالقرب من معسكر لجيش

(9) أصبح عضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح في المؤتمر السادس.

الاحتلال، فأمضوا يومهم فيها وهم يشعرون بحركة الجيش في المنطقة وأحيانًا فوق مغارتهم تمامًا.

ليلًا غادرت المجموعة المغارة واستأنفت سيرها حتى وصلت إلى حرج يقع بين قرية التياسير وبلدة طوباس. كان العدو في ريبة من أمره بعد أن اكتشف الألغام المزروعة، وقدّر أنّ ثمّة احتمالًا لوجود مجموعة أخرى فقام بتوسيع نطاق البحث والتفتيش. وصلت وحدات من جيش العدو إلى الحرج وقامت بتمشيطه، لكنّها لم تعثر على أفراد المجموعة المختبئين فيه، بدأ الجيش بالانسحاب من الحرج، وكان يبدو على أفراده التعب والإرهاق. لاحظ أبو فتحي ذلك ويبدو أنه قدّر في تلك اللحظة أنّها فرصة ذهبية لاصطياد العدو وإيقاع خسائر كبيرة في صفوفه بدلًا من التمركز في قاعدة ارتكاز - بحسب التعليمات - والاختباء فيها لفترة طويلة إلى أن تحين الفرصة لضرب العدو في مقتل. من مسافة تقل عن خمسة أمتار صاح أبو فتحي «الله أكبر»، وأطلق رصاصه على الجنود المذعورين. تبعه على الفور جمال وأبو العز. دام الاشتباك أكثر من 20 دقيقة، وعزّز العدو قواته بقوات محمولة جوًا وبمروحيات قتالية. جُرح جمال في ساقه، وأبو فتحي في رأسه، ونفدت ذخيرة أبو العز. تعرّضت المجموعة لتعذيب شديد، وسُلخت جلدة رأس أبو العز، وكُسرت جمجمته، ممّا استدعى تدخّل الصليب الأحمر. حُكم على المجموعة بالسجن المؤبد، وفي المحكمة قالت المحامية الإسرائيلية إنّ العدو قد تكبد أكثر من خمسين إصابة.

بعد ثلاثة أعوام، في عام 1985، أُفرج عنهم في عملية لتبادل الأسرى. عاد أبو فتحي إلى الخليل، وشكّل كتائب شهداء الأقصى، واستشهد على ثراها. شارك أبو العز أكثر من مرة في نشاط عسكري قبل أن يركّز اهتمامه في العناية بالأسرى المحررين والجرحى، أمّا جمال فقد عاد إلى الضفة الغربية، وأصبح كادرًا تنظيميًا، وانتُخب عضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح.

الدكتور مصطفى شمران من جنوب لبنان إلى طهران

أطلق الإمام موسى الصدر نداءه لتأسيس حركة المحرومين في أرضهم التي يجب أن تلتقي مع حركة المحرومين من أرضهم، في ذكرى استشهاد

الأخ مجاهد الضامن مع مجموعة من حركة أمل. كان مجاهد أحد كوادر السرية الطلابية، وأُفرز لتدريب الطلائع الأولى من مقاتلي حركة أمل، واستشهد مع مجموعة منهم خلال التدريب. أعلن الإمام موسى الصدر تأسيس أفواج المقاومة اللبنانية (أمل)[10]، وأوكل للدكتور مصطفى شمران الإيراني المتخصص بالفيزياء النووية، والذي كان قد تلقى تدريباته العسكرية في مصر خلال الحقبة الناصرية، مهمة الإشراف عليها.

شكّلت حركة أمل والإمام موسى الصدر تحديًا كبيرًا للجميع، فهو قد أيقظ المارد الشيعي في بلد مقسّم طائفيًا، وانحاز إلى فقرائهم في مواجهة الإقطاع السياسي، وتهميش الدولة لهم، ورفض الانجرار إلى الحرب الأهلية، ووقف بقوة ضد استمرارها، وضد دعوات تقسيم لبنان. على أنّ سعي الإمام موسى الصدر لتنظيم الشيعة، ومن ثمّ اختفاء الإمام الصدر في أثناء زيارته إلى ليبيا بصحبة الشيخ محمد يعقوب والصحافي عباس بدر الدين، واندلاع الحرب العراقية - الإيرانية لاحقًا، خلق أرضية واسعة للصراع مع عدد من الفصائل الفلسطينية والأحزاب اللبنانية. لقد كانت قاعدة حركة أمل تنمو في مناطق تُعدّ معقلًا لهذه القوى، إضافة إلى انعكاس الوضع الإقليمي على الوضع الداخلي اللبناني. وقد أدّى هذا الوضع إلى وجود توتر عالٍ بين القوى اللبنانية المتشابكة على الأرض، وهو ما لبث أن انعكس على علاقة حركة أمل بالثورة الفلسطينية التي لم تكن بعض قواها مدركًا تمامًا مدى عمق انتشار حركة أمل في وسط الجمهور الجنوبي، وما زالت متأثرة بالشعارات العامة حول العلاقة بين المقاومة والحركة الوطنية. تجاهلت تلك القوى وجوب اتساع مظلة الحركة الوطنية لتشمل جميع القوى المؤيدة للمقاومة، انطلاقًا من مقولة مَن مع فلسطين، وليس فلسطين مع مَن، وأنّنا يجب أن نكون عامل وحدة بين جميع الفرقاء من دون أن ننحاز، أو نسمح لأحد أن يجرّنا إلى دوامة الصراع الداخلي.

في ظلّ هذه الأجواء، تعرّفنا إلى الدكتور مصطفى شمران في مقرّه في

(10) 6 حزيران/ يونيو 1975.

المدرسة العاملية المهنية قرب صور. كانت سمعتنا قد سبقتنا، ومواقفنا في الحرب الأهلية معروفة، وقبلها ذهبنا مع الإمام موسى الصدر والجبهة الوطنية الطلابية إلى كفر شوبا التي دمّرها العدو الصهيوني بهدف إعادة إعمارها.

تحاورنا كثيرًا، وشكا لنا من المضايقات التي يتعرّض لها شباب أمل على يد بعض القوى الفلسطينية واللبنانية، وكان له موقف متحفظ من بعض المسؤولين في «فتح» الذين يميلون إلى أحزاب اليسار اللبناني. أقنعناه يومها بأنّ الحلّ الوحيد لجميع هذه الإشكالات هو وجود أمل في المواقع الأمامية في مواجهة العدو الصهيوني وعملائه، وأنّه بذلك، وعدا قيامه بواجبة الشرعي والوطني، فإنّ هذا سينزع الذرائع كلها، وسيساهم في تقوية صفوف «أمل» ذاتها، فالمواجهة مع العدو تُقوّي ولا تُضعف.

اقتنع مصطفى شمران، أو ربما كان ينتظر أن تفتح له إحدى كتائب «فتح» الفرصة لذلك، وحضرت مجموعات من حركة أمل معنا على تلال بنت جبيل، وذهب مصطفى شمران مع أول مجموعة، ومكث معها عدة أيام. وفي حرب 1978، تصدّت مجموعات من «أمل» كُنّا قد دربناها للاجتياح الصهيوني في بلدة بيت ليف وفي أماكن أخرى من الجنوب.

مع انتصار الثورة الإسلامية في إيران ودّعنا الدكتور مصطفى شمران. لم يكن متفائلًا كثيرًا بالوضع في لبنان، وقال لنا بأنّ قدرتنا على التغيير ستكون محدودة. سافر مصطفى شمران على أول طائرة لبنانية هبطت في مطار طهران، وقد استقبله لاحقًا الإمام الخميني، وعيّنه وزيرًا للدفاع في حكومة مهدي بازركان[11].

بعد عودة ياسر عرفات من طهران تقرّر تأليف وفد رفيع المستوى لزيارة طهران برئاسة خليل الوزير، وعضوية هاني الحسن وأبو الوليد وصخر وغازي الحسيني[12]، ولمعرفة أبو جهاد بعلاقتي مع الدكتور مصطفى شمران أصرّ على اصطحابي ضمن الوفد.

(11) أول رئيس وزراء لإيران.

(12) ابن الشهيد عبد القادر الحسيني، وعضو المجلس الثوري لحركة فتح، وأحد قادة القطاع الغربي.

استُقبلنا بحفاوة كبيرة، وزُرنا مقر السفارة الفلسطينية التي كانت مقرًا سابقًا للسفارة الإسرائيلية. في سرداب السفارة كان يوجد غرف محصنة، وغرف أخرى للرماية بالذخيرة الحية، وعلى سطحها توجد سلالم متحركة لوصلها بالبنايات المحيطة بها إذا دعت الحاجة.

استقبلنا الإمام الخميني في قُم، وكذلك آية الله المنتظري الذي بكى وتحدّث معنا بالعربية، وقال إنّه يشمّ فينا رائحة الرسول، وآية الله بهشتي، والإمام خامنئي الذي كان وقتها مندوبًا للإمام الخميني في مجلس الدفاع. لكنّ سروري كان عظيمًا عند مشاهدة الإخوة الذين سبق أن كانوا في قواعدنا في الجنوب، وقد أصبحوا قادة كبارًا في الحرس الثوري الذي كان في طور التشكّل. كما ترك أثرًا بالغًا في نفسي قيامنا بزيارة منزل آية الله طالقاني الذي كان يوصف بأنّه آية الله الأحمر، في إشارة من منافسيه إلى ما يعتقدون أنّها ميول يسارية في أفكاره، كان في استقبالنا أصهاره وبناته، وجلسنا جميعًا على الأرض، وأرجلنا تحت طاولة مغطاة بقماش من الجوانب وفي داخلها مدفأة؛ لتمنح الدفء لأجسادنا من برد طهران القارس، ولنشرب الشاي الساخن على الطريقة الإيرانية وفيها يختلط الشاي غير المُحلّى بقطع السكر في فمنا.

لم ألتقِ مصطفى شمران الذي كان يُعالج توترًا في المنطقة الكردية. وبعد عودتي تلقيتُ منه رسالة اعتذار بأنّه لم يعلم أنّي كنتُ ضمن الوفد إلّا بعد عودته إلى طهران، ودعاني إلى زيارته مرة أخرى، وللأسف لم أتمكّن من تلبية الدعوة. قُتل الدكتور مصطفى شمران في منتصف عام 1981 خلال الحرب العراقية - الإيرانية، إلّا أنّ توقعاته في ما يتعلّق بالجنوب قد تحققت.

عند بدء الاجتياح الإسرائيلي في حزيران/ يونيو 1982، كانت قوة الفصيل المضاد للدبابات الموجود بالقرب من جسر القعقعية والمكلّفة بعرقلة تقدّم الجيش الإسرائيلي على هذا المحور، قد سُحبت وأُرسلت إلى بلدة أنصار، للفصل بين مجموعات من حركة أمل ومجموعات من الحزب الشيوعي،

بعد اشتباكات عنيفة بالرشاشات ومدافع الهاون استمرت عدة أيام. لم تُفلح المساعي والاجتماعات المتكرّرة في وقفها، ما اضطُرنا إلى اتخاذ قرار بالتدخّل لوقف هذا النزاع بالقوة بعد أن تعهد قادة الطرفين بوقفها، ولكن بلا جدوى. فتحرّكت سريّة الشهيد أبو خالد كاملة معزّزة بقوات أخرى من فصائل فلسطينية ولبنانية، وبالقرب من بلدة حاروف تعرّضت القوة لإطلاق نار من مجهولين أدّى إلى استشهاد ضابط سيارة إسعاف تابعة للخدمات الطبية العسكرية، وتمّ التصدي لهم بالنيران فورًا، ما أدّى إلى فرارهم. توقف إطلاق النار في بلدة أنصار، لكنّ الأهالي رفضوا أن تغادر قوتنا البلدة بعد استتباب الأمن فيها، ما اضطرنا إلى إبقاء الفصيل فيها، وإبعاده عن واجبه القتالي ضدّ العدو الصهيوني.

قبلها وخلال عام كامل كنّا نهرع كل فترة لفصل اشتباكات متشابهة في قرى جنوبية عدة، واضطر (الشهيد) مروان كيالي إلى ترك المؤتمر الرابع لحركة فتح المعقود بالقرب من العاصمة السورية، ويعود مع زملاء له إلى الجنوب لوضع حدّ للاشتباكات التي اندلعت في منطقة المروانية - زفتا، بعد أن كانت قوة من الكتيبة بقيادة أبو الفتح قد اندفعت إلى المنطقة، وفرضت وقف الهجوم الذي شنّته فصائل من الحركة الوطنية بدعم من أحد ضباط «فتح» استغل فترة عقد المؤتمر وغياب معظم القادة فيه. بعد ذلك أصبح جهدًا أساسيًا لضباط ووحدات من الكتيبة التدخل يوميًا لإطلاق سيارة تابعة لأحد الفصائل دخلت قرية تسيطر عليها حركة أمل، أو إطلاق محتجزين من هذا الطرف أو ذاك، حتى بات يمكنني القول بأنّ أغلبية الطرق الفرعية الداخلية في الجنوب اللبناني أصبحت شبه محظورة على سيارات المقاومة باستثناء سيارات الكتيبة. وفي إحدى المرات امتدت الاشتباكات إلى الطريق المؤدية إلى قلعة الشقيف، إذ نصب أفراد محسوبون على حركة أمل كمينًا لسيارة تابعة لحزب العمل الثوري بالقرب من كفر تبنيت، ما نجم عنه استشهاد رفيقين. يومها قامت حركة أمل بتسليم القتلة للقضاء الثوري بعد وقوفنا بحزم أمام نقل هذه الصراعات إلى خط الجبهة الأمامي.

كان ثمّة صراع داخلي محتدم في الجنوب بين هذه الفصائل الوطنية،

إذ كانت قوى تحلّ مكان أخرى في مناطق نفوذها التقليدية. وكان الوضع الإقليمي والتجاذبات داخل الفصائل الفلسطينية واللبنانية من التعقيد بحيث يمنع قادة الثورة من اتخاذ موقف حاسم. في البداية كان الاتجاه العام غير قادر على رؤية هذه المتغيرات على الأرض الجنوبية، وكان ثمّة قناعة بأنّ على الفصائل الفلسطينية أن تنحاز إلى جانب بعض الفصائل اللبنانية ضد حركة أمل، وعندما أُدرك لاحقًا ما تمثّله هذه الصراعات من خطر على قاعدة الارتكاز في الجنوب، كان الوقت قد فات، وأصبح ثمّة مسافة بين الوجود الفلسطيني[13] والجمهور الجنوبي، وكانت البيئة العامة في الجنوب قد بدأت بالتغيّر. هكذا كان وضع الجنوب عشيّة الاجتياح الإسرائيلي في حزيران/ يونيو 1982.

وهو وضع حاول العدو الصهيوني الاستفادة منه، بعد احتلال الجنوب اللبناني عام 1982، عبر تشجيع شخصيات شيعيّة للعمل على إقامة منطقة نفوذ شيعية في الجنوب في محاولة منه لاستبدال الشريط الحدودي الذي يتزعمه الرائد سعد حداد بمنطقة أكثر اتساعًا وضمن جمهور أوسع عبر تغذية الحسّ الطائفي، إلّا أنّ موقف الشيخ محمد مهدي شمس الدين نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى كان حاسمًا. وقد عبّر عن هذا الموقف الشيخ (الشهيد) راغب حرب عندما رفض مصافحة ضابط صهيوني مدّ يده إليه قائلًا: «الموقف سلاح والمصافحة اعتراف». كذلك كان موقف المفتي الجعفري الشيخ عبد الأمير قبلان وحركة أمل التي بادرت إلى فصل بعض المحسوبين عليها ممّن تورطوا في بعض هذه المحاولات.

في ظلّ هذا الموقف الشعبي، انطلقت المقاومة الوطنية ضد الاحتلال، وصعد نجم المقاومة الإسلامية والوطنية في الجنوب، ليصبح الجنوب اللبناني مقبرة للغزاة، وبدلًا من أن ينجح العدو الصهيوني في تحريض أهل الجنوب ضد المقاومة الفلسطينية، تحوّل الجنوب كله ضد الاحتلال الصهيوني الذي اضطر إلى الانسحاب والتسليم بانهيار الشريط الحدودي الذي أقامه أمام عينيه

(13) شكلت الكتيبة استثناءً فعليًا في العلاقة مع الجماهير في الجنوب بما فيها فصائل الحركة الوطنية وحركة أمل.

من دون أن يتمكّن من فعل أي شيء لإنقاذ عملائه والمتعاونين معه، والذين حظي بعضهم لاحقًا بعفو المقاومة، في ما اضطُر البعض الآخر إلى مغادرة الجنوب اللبناني مع جيش الاحتلال، فعاش في فلسطين المحتلة مذمومًا مدحورًا.

ورود الحب

اعتدنا صباح كل عيد أن نبدأ يومنا بزيارة مقبرة الشهداء، ومن ثمّ نزور «أم أحمد»، والدة الشهداء أحمد وجمال في البسطة[14]. وهناك بين قبور الشهداء وفي ظلال أرواحهم كان لقائي الأول بيسار التي كانت تدرس في كلية بيروت الجامعية، وكنّا في ما بعد وكلما سألنا أحد كيف التقيتما، نجيب: «من بين قبور الشهداء تزهر ورود الحب».

يسار من قرية لفتا القريبة من القدس، وهي من عائلة فلسطينية مناضلة معروفة بانتمائها اليساري، نشأت وترعرعت في الكويت. جدّها هو يحيى حمودة أول رئيس للمجلس الوطني الفلسطيني، وثاني رئيس للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وأحد قادة الجبهة الوطنية في الأردن في الخمسينيات، وكان أبو عمّار يتجنب دائمًا مناداتها بيسار ويخاطبها بـ«يُسر» لسبب لا نعلمه، وعندما يصححه أحدهم يقول: «الله انتا حتقوللي! يُسر أحسن».

أبلغت يسار أهلها رغبتي في التقدّم إلى خطبتها، ومهّد لذلك أصدقاء لنا مثل شفيق الغبرا وعماد شناعة اللذين كانا على علاقة طيبة بذويها. كانت لديّ عقبتان بسيطتان نسبيًا في موافقة ذويها على ارتباطي بها؛ الأولى كوني في «فتح» التي تتفاوت نظرة اليسار إليها، والثانية كوني مقاتلًا ضمن قوات العاصفة وما يعنيه ذلك من قلق دائم على مستقبل ابنتهم ومصيرها. وبعد أخذ ورد وتجميع للمعلومات، جاء ردّ ابن بلدتهم أبو فراس «مصطفى عيسى» مسؤول لجنة القدس بالقطاع الغربي إيجابيًا، فاستُشير في ذلك صديق العائلة السيد

(14) أحد أحياء بيروت الغربية.

عبد المحسن القطان (أبو هاني)[15] والذي استفسر من أبو إياد فبارك الخطوة وشجّع عليها، فعُقد قراننا في الكويت في عام 1980 واتفقنا أن يكون الزواج بعد عام.

عدنا إلى بيروت وكان أبو فراس في استقبالنا على مدخل الطائرة، حيث كان لحركة فتح ترتيبات خاصة في المطار، وأولم لنا في منزله بحضور عدد من الأصدقاء. على أنّ هذا الاستقبال الحافل كانت له نتائج أخرى، إذ إنّ يسار وفي إحدى العطلات الجامعية، عزمت على السفر إلى الكويت، وقمتُ باصطحابها إلى المطار، وتوجهتُ إلى قاعدتي في الجنوب، وفي الطريق إلى النبطية تلقيتُ برقية من العمليات المركزية تطلب عودتي إلى بيروت فورًا، فعدتُ لأكتشف أنّ مسؤول الارتباط في المطار قد تعرّف إلى يسار، إذ صادف أن كان في استقبالنا حين العودة، ولمّا لم يشاهدني معها، كما لم يطلب منه أحد أن يسهّل خروجها[16]، فقد اعتقد أنّها تسافر دون علم منّي، أو أنّها غاضبة (حردانة)، فقام باستخدام نفوذه وعرقل سفرها وتفضّل مشكورًا بإعادتها بسيارته إلى بيروت، واستقبلني مزهوًا بفعلته لأنّه أنقذ زواجنا، مبررًا بأنّ هذا يحدث عادة مع المتزوجين الجدد.

عدنا إلى بيروت بعد زواجنا في الكويت في 3 أيلول/ سبتمبر 1981، كان عرسًا أحيته فرقة شعبية فلسطينية. لم نغادر مكاننا نحن العروسان، واكتفينا بمراقبة الحضور يرقص ويدبك، كنّا كجلمود صخر لم يُفلح إلحاح المدعوين في زحزحته، وأظنّ أنّنا كنّا نمزج الخاص بالعام بأكثر ممّا يحتمل، ونقيم وزنًا زائدًا لمعايير الجدية والالتزام، إذ قد لا يليق بمناضل أن يراقص عروسه على أنغام موسيقى هادئة! كما كنّا أول من غادر الحفل بعد العشاء مباشرة وسط حضور جميع المدعوين ودهشتهم وتصفيقهم.

(15) من مؤسسي منظمة التحرير الفلسطينية، والرئيس الفخري لمؤسسة التعاون، ومن كبار رجال الأعمال في الكويت.

(16) كان تسهيل الخروج إجراءً متبعًا عند سفر المسؤولين أو الكوادر وعائلاتهم، ويعود ذلك إلى أنّه غالبًا ما تكون الأوراق الثبوتية غير مكتملة أو غير حقيقية فيتولى ضباط الارتباط حل ذلك.

تحمّل أخي المقيم في الكويت وأصدقاء كثر يعملون هناك - وكانوا دائمًا جنودًا مجهولين في الكتيبة - نفقات العرس كافة، إضافة إلى «النقوط»[17] الذي جُمع بحسب العادات في وليمة الغداء التي أقامها والد يسار «أبو مازن».

كان منزلنا في بيروت في الدور السادس من بنايةٍ في الفاكهاني ملاصقة لثكنة الـ 17[18]، وكان قد تداول عليه عدد من الإخوة آخرهم الأخ شفيق (جهاد) الذي كان قد غادرنا لدراسة الفقه الإسلامي والتعمّق فيه، ثمّ عدل عن ذلك وتوجه لإكمال دراسته العليا في الولايات المتحدة. كانت مساحة المنزل لا تزيد على خمسين مترًا مربعًا، وتولّى الأخ أبو حديد مسؤولية دمج الشرفة في غرفة الضيوف، لجعلها تتسع لطاولة طعام صغيرة، في حين أشرف محمود القرى[19] على النّجار، وجاءتنا الثلاجة والتلفزيون من أبو الوليد (سعد صايل)، وأبو جهاد (خليل الوزير). وتولّى رفيق عمري علي أبو طوق شراء ما نقص من تبرعات رفاق السلاح في الكتيبة كما هي العادة مع الجميع. أمّا أم أحمد، أم الشهداء فقد أهدتنا غرفة النوم. ولعلّ أصدق قول في وصف المنزل كان أبياتًا من الزجل لشقيق أم أحمد ما زلتُ أحفظ منها:

بالفاكهاني لقينا بيت

قده قد خوابي الزيت[20]

بيقعد معين بالقرنة

بيدقوا ركابه بالحيط

(17) النقوط عادة اجتماعية منتشرة يقوم بها الأهل والأصدقاء بمنح العرسان مبالغ نقدية تهنئةً بالزواج.

(18) نقطة تجمع عسكري لقوات الـ 17 المكلفة بحماية القائد العام.

(19) مسؤول إداري في الكتيبة وابن أم أحمد وشقيق الشهيدين أحمد وجمال، توفي في بيروت.

(20) أوانٍ يحفظ بها الزيت مثل الجرار.

منزل بلا جدران

كان الحاج خالد مسمار[21] يقطن البناية ذاتها التي أسكنها أنا وزوجتي، ويبدو أنّه أخبر الإخوة في ثكنة الـ 17 بأنّ ثمّة ضيفًا جديدًا. قُرع جرس بيتنا وإذ بالباب إخوة من الثكنة يُبدون استعدادهم لتزويد بيتنا بالكهرباء التي غالبًا ما تنقطع، فطلبت منهم يسار تزويد المبنى بأسره، وقالت لي تخيّل أنّ بيتنا مضاء وجارنا اللبناني يمكث في العتمة، فاعتذر الإخوة لأنّ طاقة المولد لا تكفي، وبقينا في العتمة إلى أن استُبدل المولد بآخر أكبر حجمًا.

لم يدُم شهر العسل سوى بضعة أيام، عدتُ بعدها إلى النبطية، وكنتُ كلما سنحت الفرصة أقضي إجازة قصيرة في بيروت لا تتعدى 48 ساعة، وكانت يسار دائمة الحضور إلى النبطية خلال عطلتها الأسبوعية من مركز الأبحاث الفلسطيني الذي كانت تعمل فيه، وغالبًا ما كنّا ننزل بضيافة (الشهيد) حسن بدر الدين وعائلته، ولكن لم تكن هذه الزيارات مريحة دائمًا، إذ إنّ النبطية كانت عُرضة للقصف المستمر، وكم من مرة تركتُها وحيدة ومضيتُ مهرولًا إلى غرفة العمليات، أو اضطررتُ إلى إعادتها إلى بيروت نتيجة ارتفاع حدة المواجهات.

لم تكن بيروت أكثر أمنًا، فقد شهدت موجة من السيارات الملغومة التي كانت تنفجر بين المدنيين، وقد حذّرتُ يسار بأن تحاول دائمًا السير خلف السواتر التي كانت مقامة أمام المحلات لحمايتها من القصف العشوائي أو التفجيرات، وهكذا كان، إذ كانت تسير أمام محلات صامد[22] في الطريق الجديدة مقابل مركز التخطيط الفلسطيني حين انفجرت سيارة أمام المركز. يومها استشهد وجرح العشرات وكان من بين الذين أصيبوا بجراح طفيفة الدكتور محجوب عمر، أمّا أبو فادي (منير شفيق) فقد نجا بأعجوبة ذلك أنّ موعد تفجير السيارة كان يفترض وجوده مع أغلبية موظفي المركز في أماكن عملهم، ولكن

---

(21) (لواء) أحد مسؤولي الإذاعة والإعلام وعضو في المجلس الاستشاري.

(22) مؤسسة اقتصادية كانت تهتم بالتراث الشعبي.

عندما كان يهمّ بمغادرة منزله، وإذ بعادل عبد المهدي (أبو أمل)[23] يحضر لتناول الإفطار والحديث في بعض الشجون، وعندما انفجرت السيارة كان أبو فادي في بداية الشارع من جهة كورنيش المزرعة. يبدو أنّ السباق المستمر بين الموت والحياة وما يفصل بينهما لا يعدو كونه لحظات تمر كلمحِ البصر.

تلقيتُ برقية عاجلة بالحضور الفوري إلى بيروت، فقد كانت يسار من بين الجرحى، إذ أصيبت بجروح في الساق والرأس، وقد أنقذها ساتر صامد من موت محقق. وجدت يسار نفسها على الأرض بين أشلاء آدمية وجثث، ولم تجرؤ على النهوض إلى أن ركلها أحدهم بقدمه محاولًا أن يقلبها إلى جهة أخرى معتقدًا أنّها ميتة، إذ صاحت من الألم، فصاح: «عايشة عايشة». وساعدوها على النهوض ومشت مذهولة إلى بيت (الشهيد) أبو جهاد القريب من المكان.

نُقلت يسار بعد ذلك إلى المستشفى حيث أسعفها الصديق الدكتور غسان خوري، وبذل الدكتور كرم كرم[24] أخصائي الأمراض النسائية والتوليد جهدًا كبيرًا للإبقاء على الحمل والمحافظة على الجنين البالغ من العمر ثلاثة شهور.

على الرغم من صعوبة تلك الأيام، فإنّها من أكثر الأيام جمالًا ودفئًا وحبًا، فقد كانت مشاعرنا وأمانينا تسير بخطى حثيثة نحو هدف كبيرٍ وسامٍ، وكان الحب والثورة توأمين لا ينفصلان.

كانت الأجواء لا تزال هادئة في بداية حزيران/ يونيو 1982، وإن كان الحديث عن احتمالات الاجتياح الصهيوني البري يتكرّر، بل إنّ أبو عمّار تحدّث في أكثر من مناسبة عن خطة الأكورديون التي تفترض هجومًا مزدوجًا من الصهيونيين من

---

(23) الدكتور عادل عبد المهدي، من قادة الحزب الشيوعي العراقي- القيادة المركزية – انضم إلى المقاومة الفلسطينية في بيروت، وكان من مؤسسي التيار، وبعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران أصبح ذا نزعة فكرية إسلامية، انتخب نائبًا لرئيس الجمهورية العراقية بعد إطاحة صدام، ووزيرًا للمالية والنفط.

(24) من بلدة الخيام الجنوبية وقد أصبح لاحقًا وزيرًا للصحة.

منزل بلا جدران

كان الحاج خالد مسمار[21] يقطن البناية ذاتها التي أسكنها أنا وزوجتي، ويبدو أنّه أخبر الإخوة في ثكنة الـ 17 بأنّ ثمّة ضيفًا جديدًا. قُرع جرس بيتنا وإذ بالباب إخوة من الثكنة يُبدون استعدادهم لتزويد بيتنا بالكهرباء التي غالبًا ما تنقطع، فطلبت منهم يسار تزويد المبنى بأسره، وقالت لي تخيّل أنّ بيتنا مضاء وجارنا اللبناني يمكث في العتمة، فاعتذر الإخوة لأنّ طاقة المولد لا تكفي، وبقينا في العتمة إلى أن استُبدل المولد بآخر أكبر حجمًا.

لم يدُم شهر العسل سوى بضعة أيام، عدتُ بعدها إلى النبطية، وكنتُ كلما سنحت الفرصة أقضي إجازة قصيرة في بيروت لا تتعدى 48 ساعة، وكانت يسار دائمة الحضور إلى النبطية خلال عطلتها الأسبوعية من مركز الأبحاث الفلسطيني الذي كانت تعمل فيه، وغالبًا ما كنّا ننزل بضيافة (الشهيد) حسن بدر الدين وعائلته، ولكن لم تكن هذه الزيارات مريحة دائمًا، إذ إنّ النبطية كانت عُرضة للقصف المستمر، وكم من مرة تركتُها وحيدة ومضيتُ مهرولًا إلى غرفة العمليات، أو اضطررتُ إلى إعادتها إلى بيروت نتيجة ارتفاع حدة المواجهات.

لم تكن بيروت أكثر أمنًا، فقد شهدت موجة من السيارات الملغومة التي كانت تنفجر بين المدنيين، وقد حذّرتُ يسار بأن تحاول دائمًا السير خلف السواتر التي كانت مقامة أمام المحلات لحمايتها من القصف العشوائي أو التفجيرات، وهكذا كان، إذ كانت تسير أمام محلات صامد[22] في الطريق الجديدة مقابل مركز التخطيط الفلسطيني حين انفجرت سيارة أمام المركز. يومها استشهد وجرح العشرات وكان من بين الذين أصيبوا بجراح طفيفة الدكتور محجوب عمر، أمّا أبو فادي (منير شفيق) فقد نجا بأعجوبة ذلك أنّ موعد تفجير السيارة كان يفترض وجوده مع أغلبية موظفي المركز في أماكن عملهم، ولكن

(21) (لواء) أحد مسؤولي الإذاعة والإعلام وعضو في المجلس الاستشاري.
(22) مؤسسة اقتصادية كانت تهتم بالتراث الشعبي.

عندما كان يهمّ بمغادرة منزله، وإذ بعادل عبد المهدي (أبو أمل)[23] يحضر لتناول الإفطار والحديث في بعض الشجون، وعندما انفجرت السيارة كان أبو فادي في بداية الشارع من جهة كورنيش المزرعة. يبدو أنّ السباق المستمر بين الموت والحياة وما يفصل بينهما لا يعدو كونه لحظات تمر كلمحِ البصر.

تلقيتُ برقية عاجلة بالحضور الفوري إلى بيروت، فقد كانت يسار من بين الجرحى، إذ أصيبت بجروح في الساق والرأس، وقد أنقذها ساتر صامد من موت محقق. وجدت يسار نفسها على الأرض بين أشلاء آدمية وجثث، ولم تجرؤ على النهوض إلى أن ركلها أحدهم بقدمه محاولًا أن يقلبها إلى جهة أخرى معتقدًا أنّها ميتة، إذ صاحت من الألم، فصاح: «عايشة عايشة». وساعدوها على النهوض ومشت مذهولة إلى بيت (الشهيد) أبو جهاد القريب من المكان.

نُقلت يسار بعد ذلك إلى المستشفى حيث أسعفها الصديق الدكتور غسان خوري، وبذل الدكتور كرم كرم[24] أخصائي الأمراض النسائية والتوليد جهدًا كبيرًا للإبقاء على الحمل والمحافظة على الجنين البالغ من العمر ثلاثة شهور.

على الرغم من صعوبة تلك الأيام، فإنّها من أكثر الأيام جمالًا ودفئًا وحبًا، فقد كانت مشاعرنا وأمانينا تسير بخطى حثيثة نحو هدف كبيرٍ وسامٍ، وكان الحب والثورة توأمين لا ينفصلان.

كانت الأجواء لا تزال هادئة في بداية حزيران/ يونيو 1982، وإن كان الحديث عن احتمالات الاجتياح الصهيوني البري يتكرّر، بل إنّ أبو عمّار تحدّث في أكثر من مناسبة عن خطة الأكورديون التي تفترض هجومًا مزدوجًا من الصهيونيين من

(23) الدكتور عادل عبد المهدي، من قادة الحزب الشيوعي العراقي- القيادة المركزية - انضم إلى المقاومة الفلسطينية في بيروت، وكان من مؤسسي التيار، وبعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران أصبح ذا نزعة فكرية إسلامية، انتخب نائبًا لرئيس الجمهورية العراقية بعد إطاحة صدام، ووزيرًا للمالية والنفط.
(24) من بلدة الخيام الجنوبية وقد أصبح لاحقًا وزيرًا للصحة.

الجنوب، والقوات اللبنانية من المناطق الشرقية، بحيث يطبقان مثل الأكورديون على القوات الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية.

في بداية حزيران/ يونيو، كان موعد ولادة طفلنا المفترضة، فحضرت والدة يسار السيدة أم مازن من الكويت، وتوجّهت أنا إلى بيروت، وصباح الرابع من حزيران/ يونيو جاء يسار المخاض، فتوجهنا إلى مستشفى الجامعة الأميركية، وما إن وصلناه حتى بدأ القصف على بيروت والجنوب. وفي ظلّ التوتر وأصوات القصف والمضادات الأرضية توقف الطلق والمخاض، ولم تشاهد ابنتنا الأولى «فدى» النور إلّا بعد ساعات المساء. الغارات الأولى كانت على الفاكهاني وثكنة الـ 17 التي تربض بجوارنا، وطار معها نصف بيتنا، فقد تهاوت غرفة السفرة وأجزاء من غرفة النوم والجلوس، وأصبح منزلنا بلا جدران.



الفصل التاسع

الاجتياح 1982

توجهتُ إلى الجنوب للالتحاق بالكتيبة في محور النبطية - الشقيف، وكنتُ قبل ذلك قد التقيتُ الإخوة في الجبل، وطلبتُ منهم استطلاع طرق بديلة من الطريق الساحلية التي كانت تقديراتنا تشير إلى إمكان قيام العدو بقطعها في أي وقت. كانت الروح المعنوية في أوجها، إذ تمكّن رفاقي في الكتيبة فجر ذلك اليوم من إسقاط طائرة «سكاي هوك»[1] خلال محاولتها الإغارة على قلعة الشقيف، وهبط الطيار بالمظلة. كانت عيون أبو فراس سدر من فصيل الرشاشات تراقب المظلة وتتبعها، وما إن حطت على الأرض حتى كان أبو فراس يربض فوقه، نزع مسدسه ورتبته العسكرية وسلّمه إلى علي أبو طوق وسط ذهول العدو، فقبل أن يعلن العدو سقوط الطائرة، كان الطيار أهارون أبخعازي يظهر في مؤتمر صحافي في بيروت. لم يُضيّع علي الوقت، فهو يدرك إمكانات العدو، على الفور أُخضع الطيار لفحص طبي أولي في مقر الخدمات الطبية العسكرية في النبطية، وهناك اضطر علي إلى صفع أحد الممرضين الذي حاول التهجم على الطيار، وفي أقل من ساعة ونصف الساعة سُلّم الطيار إلى قيادة الأمن العسكري في بيروت، وبدأنا نتذكّر إخواننا الأسرى من الكتيبة مثل عدنان وتيسير وعزيز وأبو فتحي وأبو العز والحروب والشوبكي[2]، ومئات الأسرى من «فتح» والفصائل مستبشرين بأنّ موعد تحريرهم قد اقترب.

عند ظُهر السادس من حزيران/ يونيو، بدأت التقارير ترِد عن بدء الاجتياح البري. أصدرتُ تعليماتي للفصيل المضاد للدروع في أنصار، والمتمركز هناك

(1) طائرة قاذفة مقاتلة أميركية الصنع.
(2) أبطال عملية الدبويا، ومروان زلوم وأبو العز أبطال معركة التياسير.

للفصل بين حركة أمل وفصائل من الحركة اللبنانية الوطنية، بالتحرّك باتجاه جسر القعقعية، وحاولتُ الوصول إلى القلعة برفقة حسام عمّار رفيقي في المهمات الصعبة، بصعوبة وصلنا إلى أطراف بلدة كفر تبنيت باتجاه أرنون، وسط سيل من قذائف المدفعية التي أصابت شظاياها سيارتنا. ترجّلنا من السيارة، ووقفنا نراقب الحمم التي تنهال على قلعة الشقيف وأرنون والطرق المؤدية إليهما. كانت القلعة كتلة مشتعلة من اللهب.

عدنا أدراجنا إلى النبطية، وقرّرتُ إرسال الأخوات العاملات في اللاسلكي والإدارة إلى صيدا على الرغم من معارضتهن الشديدة، ونقل غرفة العمليات إلى الموقع البديل، وقد كانت التعليمات تقضي بمنع حركة الآليات إلى الموقع الجديد حتى لا يُكتشف بواسطة طائرات الاستطلاع MK التي يُطلِق عليها المقاتلون لقب أم كامل، والمزودة بكاميرات مراقبة تبث مباشرة إلى غرف العمليات الأرضية. وصلنا إلى المقر سيرًا على الأقدام، وكان عمّال اللاسلكي منهمكين بتركيب هوائيات أجهزته وتمويهها. تسلّق عبد القادر – العائد حينها من بيروت – شجرة سنديان ليخبئ فيها هوائي جهاز اللاسلكي. كان عبد القادر مع عز الدين قد نُسّبا للالتحاق بالكلية العسكرية الألمانية، وقد أُقيم للدورة التي سيلتحقان بها معسكر تحضيري في بيروت لإعدادهما وتعليمهما اللغة الألمانية بإشراف الرائد سميح نصر[3]. عند بدء المعركة صدرت تعليمات إلى سميح بالانتقال إلى الجبل، وطلب عز الدين وعبد القادر السماح لهما بالعودة إلى الكتيبة، رفض سميح بداية ثمّ استجاب أمام إصرارهما الذي بلغ حدّ التلويح بالاستغناء عن الكلية العسكرية، وكُنتُ سابقًا قد بذلتُ جهدًا في إقناعهما بهذه الدورة التي ستمتد ثلاثة أعوام، فقد كانت رغبتهما في البقاء إلى جانب إخوانهما المقاتلين أقوى. عاد الشابان بواسطة دراجة نارية يمتلكها عز الدين الذي التحق بفصيل الرشاشات 37 ملم[4] وتمكّن مساءً من إسقاط طائرة مروحية تحمل عددًا من ضباط هيئة

(3) لواء متقاعد، وضابط متميز في مجال التدريب.

(4) رشاشات مضادة للطائرات عيار 37 ملم محمولة على شاحنات مرسيدس.

الأركان قُتلوا جميعًا وتفحمت جثثهم، في حين أُلحق عبد القادر بغرفة العمليات.

في هذه اللحظة وصل مسؤول أحد الفصائل بسيارته العسكرية وتركها أمام المقر بدعوى حاجته إلى بطارية لجهاز اللاسلكي، وليُريني منشورًا كانت الطائرات الصهيونية بدأت بإلقائه على المنطقة ضمن حربها النفسية، فبدأتُ بالصراخ عليه، لكنّ الصواريخ كانت أسرع من الكلمات، انهالت علينا الصواريخ كالمطر. جُرح هذا الرفيق بجرح طفيف في إليته، أمّا عبد القادر الذي لم يكن قد مضى على وصوله ساعة، فقد سقط من أعلى السنديانة شهيدًا، وأُصيب أديب بجراح في كعب قدمه السليمة بعد أن بترت شظية طرفه الصناعي.

أديب الشاب البقاعي فقد ساقه من الفخذ في تلة مسعود في بنت جبيل 1977، وبعد أن أنهى علاجه رفض أن يُلحق بأحد المكاتب، وأصرّ على العودة إلى الكتيبة، إذ كانت الكتيبة بيته ورفاق السلاح أهله، وقد تلقى دورة لاسلكي وأصبح صوته مميزًا في سماء الجنوب. غادر أديب مستشفى الهلال في صيدا قبل دخول العدو إليها، وتوجّه على عكازتين بساق مبتورة وأخرى مصابة وبندقية على الكتف إلى مخيم عين الحلوة بالقرب من صيدا، وهناك أمضى أسابيع يتنقل من مبنى مهدّم إلى آخر، ومن حارة إلى أخرى إلى أن تمكّن من الوصول إلى البقاع.

أُصبتُ أنا بجراح بالغة في الساق، وأصابت شظية أخرى الطحال، وما عاد يربط ساقي سوى قطعة من الجلد وبقايا من اللحم، لكنّي لم أشعر بأي ألم على الإطلاق، وقد كنتُ أُردد في داخلي سورة العصر وأحسّها بلسمًا لجراحي. يبدو أنّ الدماغ عندما ينشغل بأمور أهم يتوقّف عن إصدار أوامر إلى مراكز الألم أو الإحساس به. فقد كان عقلي يتابع فصيل خالد الأسمر[5]

(5) (عميد) ضابط متميز من الكوادر الأولى في الكتيبة، وهو مقيم في رام الله.

الذي توجّه من أنصار[6] إلى القعقعية لكنّه اشتبك مع الآليات الصهيونية على مداخل جبشيت، ومع قوة الرشاشات التي بدأت حينها اشتباكها مع الآليات المتقدّمة من سهل زوطر باتجاه أرنون وقلعة شقيف، ومع ملاحظات راسم في القلعة عن محاور التقدّم، ومع قصف هاونات أبو علي وصواريخ عبد اللطيف، ومدافع أحمد منتصر، ودبابات ريمون، ومع جواد الذي بدأ يزرع الطرق المؤدية إلى النبطية بالألغام، ومع إشارة سريعة وردت وأنا مُلقى على الأرض عن دورية استطلاع محمولة معادية تسللت إلى أحد مداخل النبطية من اتجاه حاروف وولّت هاربة بعد التصدّي لها. كان عقلي مشغولًا بأشياء أكبر من الألم، فقد كانت خارطة المعركة تتشكّل فيه، ويملأ أرجاءه أصوات الإخوة علي أبو طوق، وأبو الفتح، وثائر، وخديجة، وأبو الخل، وراسم، وأبو حديد، وعشرات غيرهم تتردّد أصواتهم على الأجهزة لترسم صور المواجهة والبطولة.

جاء الدكتور يانو الطبيب اليوناني الكندي الفلسطيني الذي رافقنا في النبطية وطرابلس وبقي مع (الشهيد) علي أبو طوق في مخيم شاتيلا. ما إن رآني يانو حتى صاح بلهجته اليونانية: «الأخ معين تصاوبتِ» بتأنيث المذكر. كان أحد الإخوة المرافقين يبكي بصمت، فخفتُ أن يفلت زمام الأمور، لا أذكر أنّي ضربتُ أحدًا في حياتي، ولكنّي طلبتُ من هذا الأخ أن يقترب، وصفعته طالبًا منه أن يتماسك، فأفاق من الصدمة. ثمّ توجهتُ إلى الدكتور يانو الذي كان يشدّ شعره مذهولًا، وقلت: «إصابتي بسيطة شوف أديب»، كان أديب راقدًا بجواري بصمت، وعلى الفور انتبه يانو لأديب، وضمّد جرحه بسرعة، وقال إنّ إصابته طفيفة لكنّ الشظية قصّت الطرف الصناعي. ثمّ عاد وقد استجمع قواه والتفت إليّ، وكسر بقايا الباب الذي حوّلته الشظايا إلى حطام، وصنع جبيرة لفّ بها الساق. في أثناء ذلك حضر علي أبو طوق من جولة باتجاه الحرج، وأبو الفتح الذي كان قد تفقّد قوة الرشاشات، وأعاد

(6) بلدة لبنانية أقيم فيها لاحقًا معسكر أنصار، وكان فصيلنا حاضرًا فيها للفصل بين حركة أمل والحزب الشيوعي في إثر اشتباكات بينهما في البلدة.

تموضعها لإسناد قلعة الشقيف. في هذه الأثناء كان فصيل الدبابات[7] المُلحق بنا من كتيبة شهداء أيلول قد أخذ موقعه على التلال الجرداء المجاورة للحرج، بقيادة ريمون، وبدأ التعامل مع الآليات المعادية المتقدّمة باتجاه أرنون. تحدثتُ إلى علي، وكان قلقًا عليّ لكنّه الشجاع الرابط الجأش، ورفيقه أبو الفتح عن الترتيبات الواجب اتخاذها، وودعتهما وأنا على النقالة قائلًا: «ديروا بالكم، خوضوا معركة مُشرّفة، أنا كلها أسبوع أو أسبوعين بركب طرف صناعي وبرجعلكم».

معركة قلعة الشقيف 1982... روايتان

تختلف الروايتان الفلسطينية والإسرائيلية بشأن معركة قلعة الشقيف التي جرت في الأيام الأولى للاجتياح الإسرائيلي للبنان في حزيران/ يونيو 1982، وتتداخل المعطيات السياسية مع المشاعر الوجدانية مع النقص الكبير في المعلومات إزاء ما جرى في تلك المعركة.

فالرواية الإسرائيلية عن معركة قلعة الشقيف لا تزال تلد في كل يوم تساؤلات جديدة، وتكشف عن حقائق أُخفيت عمدًا. تسربت خلال الأعوام التي تلت المعركة تحليلات وبحوث ومقالات صحافية عدة عنها، كان أبرزها ما أورده زئيف تشيف وإيهود إيعاري في كتابهما عن **الحرب المضللة**، إلاّ أنّ الاعتراف الإسرائيلي الأبرز جاء متأخرًا 31 عامًا، حين بثّت القناة العاشرة في التلفزيون الإسرائيلي في عام 2013 فيلمًا عن معركة الشقيف، أطلقت عليه اسم الجرح الأخضر «المفتوح»، واستغرق عرضه أكثر من ساعة، واستعان بصور أرشيفية أُخذت خلال الاجتياح الإسرائيلي للجنوب اللبناني، والأهم في الفيلم كان المقابلات التي أُجريت مع الجنود والضباط الذين شاركوا في المعركة أو ساهموا في اتخاذ القرار بشأنها، مع وصف كيفية سير المعركة، وتضمن الفيلم أيضًا لقاءات مع عائلات القتلى من الجنود الإسرائيليين.

(7) دبابات T 34 قديمة الصنع مزودة بمدافع من عيار 85 ملم.

من أبرز الذين أدلوا بشهاداتهم في الفيلم رئيس هيئة الأركان السابق في الجيش الإسرائيلي غابي أشكنازي، وكان عند وقوع معركة الشقيف قائدًا لقوات غولاني التي كُلّفت باحتلال القلعة، والجنرال أفيغدور كهلاني قائد الفرقة التي توجهت لمنطقة النبطية – الشقيف، وموشيه كابلينسكي قائد كتيبة المظليين التابعة لرئاسة الأركان.

أمّا الرواية الفلسطينية، فتنظر إلى معركة قلعة الشقيف على أنّها أسطورة بطولة ألهمت شعراء في نظم القصائد والأهازيج فيها، والرواة والكتاب لرواية حكايات أبطالها الذين باتوا رمزًا للفداء والتضحية والقتال حتى الاستشهاد.

لكنّ الرواية الفلسطينية ظلّت تفتقر إلى شهادات حيّة من داخل المواقع التي استشهد معظم من قاتل فيها، ولم تُوثّق شهادة الباقين الذين نجوا – على قلّتهم – إلّا بعد فترة طويلة، بعد أن تشكّل الوعي الفلسطيني لهذه الرواية بناءً على المصادر العبرية وما كُتب عنها في المجلات العسكرية الدولية، وقد صنفها بعضهم ضمن أهم أربع عمليات للقوات الخاصة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.

في أي حال، لم تكن هذه المرة الأولى التي يهاجم فيها الإسرائيليون قلعة الشقيف، فقد حاولوا ذلك مرات عدة في الماضي، ففي حرب آذار/مارس 1978 دفعت القوات الإسرائيلية بسرية استطلاع ميكانيكية، إلّا أنّها تحطّمت عند جسر الخردلي على قدمي القلعة. وفي عام 1980 حدثت محاولتان متباعدتان للتقدّم باتجاه القلعة، **الأولى** بحجم كتيبة، و**الثانية** بحجم لواء من قوات غولاني الخاصة، وقد تمكّن جنود العدو في المرة الثانية من الوصول إلى مسافة عشرات الأمتار من القلعة، إلّا أنّ النيران القوية التي واجههم بها المدافعون عن القلعة من أبطال كتيبة بيت المقدس أجبرتهم على التراجع حاملين معهم قائد لوائهم القتيل، تاركين المجال لطائراتهم لتقوم بقصف شديد ومركّز عليها، ويومها تحرّكت كتيبة الجرمق لتحلّ مكان كتيبة بيت المقدس في هذا الواجب. وفي عام 1981 تكرّرت محاولة فاشلة للتقدّم باتجاه جسر الخردلي، دمّر فيها للعدو أربع آليات، أغلب الظنّ أنّها كانت بمنزلة استطلاع

بالنيران؛ وخلال تلك الفترة (1980–1982) أصبح القصف المدفعي المعادي شيئًا روتينيًا في حياة المدافعين عن القلعة، كما قامت طائرات العدو بأكثر من خمسين طلعة جوية عليها.

حصن استراتيجي

تنحدر قلعة الشقيف انحدارًا حادًا باتجاه مجرى نهر الليطاني، كما تنحدر انحدارًا بسيطًا باتجاه هضبة النبطية التي تبعد عنها ستة كيلومترات. ويستطيع المراقب في القلعة أن يرى بوضوح هضبة الجولان السورية المحتلة، وسهل الخيام، وأجزاء من الشريط الحدودي اللبناني، والأراضي الفلسطينية المحتلة في الجليل، ذلك أنّ نقطة الحدود الفلسطينية – اللبنانية «المطلة» تبعد عنها نحو سبعة كيلومترات، وهي مسافة تجعل المراقب يرى بوضوح كلي حركة الآليات والأفراد من المطلة باتجاه الشريط الحدودي، ومن الجليل باتجاه هضبة الجولان وجبل الشيخ.

إنّ هذه السمة الجغرافية لموقع القلعة منحتها أهمية كبيرة بصفتها نقطة مراقبة أمامية للقوات الفلسطينية – اللبنانية المشتركة، وإلى جانبهم تموضعت بين فترة وأخرى مجموعة استطلاع صغيرة من وحدة الاستطلاع في الجيش العربي السوري، إلى جانب ذلك تضاعفت أهمية القلعة نتيجة عاملين إضافيين:

الأول: أن على الرغم من نجاح العدو في هدم القلعة وجعلها أطلالًا وجدرانًا قائمة فوق تلة جرداء، فإنّ إخفاق محاولات إنزاله المتكرّرة وتركيز قصفه الجوي والمدفعي فيها جعلها رمزًا للصمود والقتال، وأضحت قلعة الشقيف خبرًا يوميًا دائمًا في الصحف ونشرات الأخبار، وكلمة تتردد دائمًا على لسان العدو كمصدر إزعاج لقواته، وعلى لسان القوات المشتركة كرمز مرادف للتصدي والصمود.

الثاني: انعكاس الأهمية التاريخية للقلعة على مشاعرنا وواقعنا المعاصر في آن واحد، فقد شيّد القلعة الرومان، وأعاد بناءها الصليبيون، وسموها قلعة بوفور، أي القلعة الجميلة، ثمّ حرّرها صلاح الدين الأيوبي، وقام بتوسيعها

وحفر عشرات الخنادق حولها لتتمكّن من الصمود في وجه حصار الصليبيين، ومنها انطلق صلاح الدين إلى معركة حطين التاريخية.

الرواية الإسرائيلية

عدد القوات

وفق الرواية الإسرائيلية التي بثّتها القناة العاشرة، فقد شارك في الهجوم المباشر على القلعة قوة تُقدّر بـ 1200 جندي تقريبًا، مكوّنة من قوات من لواء غولاني، ووحدات من الهندسة والدروع، وكتيبة المظليين، في حين قدّر رئيس الاستخبارات العسكرية «الإسرائيلية» في مؤتمر صحافي أنّ عدد الفدائيين في هضبة النبطية يُقدّر بـ 500 فدائي، أمّا قوات الثورة الفلسطينية المرابطة في الشقيف فقد قدّرتها استخبارات العدو في حينه بسرية واحدة تقريبًا، وكما يقول المقدم دوف قائد الموجة الثالثة من الهجوم: «اعتقدتُ في البداية أنّ هنالك ما لا يقلّ عن مئة فلسطيني داخل الحصن أو هكذا قيل لي، لكنّ ذلك كان خاطئًا»، ويتابع المقدم دوف «كان عددهم 33 فلسطينيًا، وأيًا كانت حقيقة الأرقام، فإنّ هذه المقارنة من الناحية العسكرية غير كاملة أو دقيقة، إذ إنّها مقارنة حول الحجم العددي للقوات المتحاربة، ولا تشمل ما يسمى الوسائط المستخدمة في القتال وقوة النار، إذ حينها يصبح من المتعذّر تمامًا مقارنة البندقية أو الرشاش بالدبابة والطائرة».

القتال في الشقيف

جرى القتال على ثلاث مراحل متتالية، الموجة الأولى للهجوم شنّتها وحدة الاستطلاع في كتيبة المظليين التي تعرّضت لنيران كثيفة قبل وصولها إلى القلعة، ما أدّى إلى إصابة قائدها موشيه كابلينسكي بجراح خطرة، وتكبيد الكتيبة خسائر كبيرة، تسبّبت بوقف الهجوم في انتظار الدفع بقوات من لواء غولاني إلى أرض المعركة. هذا الحظ العاثر لم يُصب وحدة الاستطلاع فحسب، إذ إنّ قائد القوات العاملة في المنطقة، وفي لحظة معينة تلقّى نبأً جاء فيه أنّ قائد

الكتيبة شرقي النبطية أُصيب أيضًا بجراح خطرة، وأنّ جندي اللاسلكي المرافق له قد قُتل، وقبل ذلك بدقائق أعلن قائد الكتيبة ذاتها أنّ اثنين من قادة سراياه قد أُصيبا بجراح، وبينما كان يفكّر فيمن يعيّنه بدلًا من قائد الكتيبة تلقّى نبأً جاء فيه أنّ قائد وحدة الاستطلاع كابلينسكي قد أُصيب بعيار ناري في صدره وتولى القيادة بدلًا منه موطي غولدمان، وفق ما أورده زئيف تشيف[8].

إثر ذلك تحرّكت قوة غولاني بقيادة غابي أشكنازي إلى المنطقة، وانقسمت قسمين، **الأول** التفّ حول القلعة لتطهير المواقع القريبة منها في أرنون وكفر تبنيت. واشتبكت مع مواقع للقوات المشتركة، ووقع جزء منها في حقل للألغام؛ أمّا القسم **الثاني** فقد اندفع صعودًا عبر طريق أرنون إلى القلعة، لتُواجَه القوة الإسرائيلية بمقاومة عنيفة وقصف مُنسّق، ما أدّى إلى تدمير عدد من العربات بينها عربة قائد الهجوم الجديد الرائد جوني هارنيك ومقتل سائقه وأحد مساعديه. أمر هارنيك جنوده الترجّل وترك العربات المدرعة والتوجّه سيرًا على الأقدام باتجاه القلعة، لكن ما إن تقدّموا قليلًا حتى فُتحت عليهم - وفق تعبير المُعلّق في فيلم القناة العاشرة وأحد الجنود - أبواب جهنم، فقُتل هارنيك وعدد كبير من جنوده.

يقول الجندي الطبيب المرافق للقوة المهاجمة بصوت غاضب: «لم يبقَ أحد، فالعربة الأولى التي أُصيبت هي عربة القائد هارنيك، وقد قُتل اثنان من الضباط كانا معه في الحال، وقد لاحظتُ أنّ الفلسطينيين يتصيدون دباباتنا ومدرعاتنا بانتظام، لقد كان منظر الدماء رهيبًا، لن أنسى منظر الدماء، ومنظر الضباط والجنود الذين سقطوا حول القلعة، لم يكن باستطاعتنا إخلاء ساحة العمليات من القتلى والجرحى؛ بسبب كثافة النيران الفلسطينية، لقد تركونا نقترب منهم كي يصطادونا الواحد بعد الآخر». ويصف موطي قائد وحدة الاستطلاع المقاتل الفلسطيني الذي قتل الرائد هارنيك قائد الهجوم الثاني فيقول: «كان شجاعًا. استمر بالقتال، وأطلق علينا النار أكثر من مرة، وألقى

---

(8) زئيف شيف وإيهود يعاري، **الحرب المضللة**، ترجمة غازي السعدي (عمّان: دار الجليل، 1985)، ص 196-203.

علينا القنابل اليدوية، وقد أطلقنا عليه النار من جميع الاتجاهات، وعندما دخلنا إلى الخندق وجدناه يتشعب إلى ممرين، وفي كل مرة كنّا نُلقي عليه القنابل اليدوية، كان المقاتل الفلسطيني ينتقل من ممر إلى آخر».

تولّى المقدّم دوف قيادة الموجة الثالثة من الهجوم بعد الفشل الذريع للهجوم الثاني. يقول المقدّم دوف: «وصلتُ مع قواتي حوالى الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين مساءً إلى بعد عشرات الأمتار عن القلعة من دون أن نواجه أي مقاومة تُذكر، وعلى بعد 200 متر من القلعة انتشرت القوات على مجموعتين كبيرتين، الأولى تُهاجم من جهة الجنوب، والثانية تستمر في التقدّم من جهة الشمال، وقُمنا بقصف القلعة قبل مهاجمتها بقذائف الدبابات الثقيلة، وفي الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين بدأت محاولة اقتحام القلعة، ولكنّ المقاتلين هناك قد أعدّوا لنا استقبالًا رهيبًا، فما كدنا نصل إلى بعد 40 مترًا من القلعة حتى فتح الجحيم أبوابه ليبتلعنا. القتال كان من خندق لخندق، وفي داخل الخندق الواحد، ووصل في آخر مراحله حدّ استخدام السلاح الأبيض وحتى التشابك بالأيدي».

يصف موطي القتال بقوله: «المعركة لم تكن متكافئة، إلّا أنّ أحدًا لم يحاول الاستسلام، لقد قاتلنا لنأخذ منهم العلم». سرية الهندسة بقيادة تسفيكا كانت مهمتها احتلال الموقع الجنوبي، أمّا هو فقد اندفع مع مجموعة مكوّنة من 21 جنديًا باتجاه الموقع الشمالي، بعد أن قطع مسافة 150 مترًا على الطريق المتعرجة الصاعدة باتجاه القلعة، كان جميع ما يشاهده وميض إطلاق النار الصادر عن ثلاثة أو أربعة مواقع. نظر خلفه ليرى جنوده، ذُهل إذ لم يبقَ من مجموعته سوى عشرة جنود. تلقّى أمرًا بالاستمرار في الهجوم مع وعد بإرسال تعزيزات سريعة وراءه، تردد بالهجوم إذ إنّ رشاشًا ثقيلًا كان يطلق النار من أحد المواقع المقابلة، وتمكّن من قتل اثنين آخرين هما يوسي ويارون، وإصابة أربعة آخرين بجراح. لم يصل إلى القناة الرئيسة سوى موطي واثنان من جنوده هما أفيكام ورازي وتبعهما عامي. أُطلقت صلية طويلة، جرح أفيكام ورازي، وحاول جر رازي إلى الخلف، لكنّه سمع صوت قنبلة يدوية تتدحرج، قُتل رازي».

يُسهب الجنود الإسرائيليون في الحديث عن 12 ساعة أخرى بعد الخمسين الأولى، قاتل فيها فدائيان حتى استشهادهما صبيحة يوم الاثنين 7 حزيران/ يونيو 1982، بعد أن قتلا سبعة جنود، وأصابا 17 جنديًا بجروح.

اندفع باقي قوة غولاني باتجاه قريتي أرنون وكفر تبنيت، وعنها يتحدّث الدكتور بناحيا وايسمان - وهو طبيب الكتيبة من لواء غولاني - فيقول: «كانت مهمتنا احتلال هدفين محصنين شمال قلعة الشقيف، وخرجنا إلى الهدف مع القوة المكلّفة باحتلال القلعة، وفي ساعات ما بعد الظهر وصلنا إلى سفح القلعة، وعندها بدأت النيران تنهال علينا. انقسمت قواتنا إلى قسمين، اتّجه كل منهما إلى هدف. وصلتُ مع قوتي إلى الهدف المحصن الأول، وقام قائد الكتيبة بتنظيم قواته، لكنّه قبل أن يبدأ بأول تماس مع الهدف بدأ الفلسطينيون بإطلاق النار علينا مستخدمين المدفعية من منطقة كفر تبنيت القريبة. تمركزنا في مكان قريب من الهدف، وبعد بدء الهجوم بوقت قصير بدأتُ أستقبل الجرحى الذين كان بينهم قائد الكتيبة نفسه، وحدث في إحدى اللحظات أنّي استقبلتُ 12 جريحًا دفعة واحدة، ما بعث فينا جميعًا الشعور بالخوف. واستمر نقل الجرحى، ثمّ وصل القتيل الأول، وعندها وبطريقة ما اكتشف الفدائيون نقطة تجمعنا وبدأوا يقصفونها، وكان الشيء الوحيد الذي استطعنا القيام به هو تنظيم ناقلات جنود لنقل الجرحى، وانسحبنا إلى الخلف مسافة كيلومتر، وعندها بدأنا نستقبل الجرحى بأعداد هائلة، ثمّ تلقيتُ خبرًا مفاده أنّ عددًا من زملائنا دخلوا حقل ألغام لم يكن معروفًا، وقد سقط الجميع بعد تعرضهم لإصابات مختلفة، فتركتُ نقطة التجمع ودخلتُ فورًا حقل الألغام، واتضح أنّ هنالك عددًا من الجرحى، وعددًا آخر لم يُصب لأنّهم لم يتحرّكوا من أماكنهم، وبدأتُ بإجراء الإسعافات الأولية للجرحى، وقرّرتُ نقلهم بمساعدة الجنود الذين لم يصابوا، وبعد أن قطعنا أمتارًا عدة فجّر أحدنا لغمًا، وطرنا جميعًا في الهواء، ودبّت الفوضى بيننا، وأُصيب عدد آخر بجراح، فأعطيتهم أمرًا بعدم التحرك، وسادنا جميعًا الوجوم والخوف، وذهب بعض الجنود إلى القول بأنّنا لن نخرج من هنا، وبالفعل فقد شعرتُ أنا أيضًا بأنّني إذا تحركتُ فإمّا أن تُقطع ساقي أو أموت، وقد بقينا هنالك في حالة شلل تام ليلة كاملة». ولم تستطع هذه القوات

الخروج من حقل الألغام إلّا بعد قضاء الليل كله حتى حضور نائب قائد الكتيبة وإحضار معدات خاصة لنقلهم في عملية استغرقت أكثر من ثلاث ساعات.

محور جسر الخردلي

شنّت القوات الإسرائيلية التي تقدّمت عبر محور القليعة – مرجعيون – جسر الخردلي هجومًا ثانويًا بهدف صرف الأنظار عن الهجوم الرئيس الذي شنّ عبر مناطق القوات الدولية باتجاه جسر القعقعية، إلّا أنّها لم تكن أفضل حظًا من باقي القوات، فقد تكبّدت خسائر جسيمة، وواجهت مقاومة ضارية.

يقول النقيب إيل ليفي: «وصلنا إلى محور القليعة النبطية، حيث كانت كمائن المقاتلين الفلسطينيين بانتظارنا، فقد انطلقت قذيفة ساغر[9] وأصابت ناقلة جند مدرعة إصابة مباشرة، وتلا هذا الانفجار إطلاق نار كثيف من الفلسطينيين على قواتي، وعلى الفور شعرتُ أنّني في مأزق خطِر لا أستطيع الخروج منه بسهولة، وأدركتُ عندها فقط بأنّ ما يدور هو حرب حقيقية، وأنّنا نواجه قوة فلسطينية منظمة ومدربة جيدًا وليس كما قيل لنا، لقد انزلقنا إلى مصيدة أمضينا ساعات طويلة للخروج منها بعد أن تكبدنا خسائر كبيرة».

لم تتوقّف خسائر القوات «الإسرائيلية» في هذا المحور عند سيطرتها عليه، إذ إنّ حقول الألغام والتجهيزات الهندسية المُعدّة مسبقًا استمرت في قتالها. وعن ذلك يقول خبير المتفجرات تسفي كريغ: «صباح اليوم الثاني للحرب تلقينا بواسطة جهاز الإرسال معلومات مفادها أنّ عددًا من المدرعات قد دخلت حقول الألغام عند جسر الخردلي، وأنّ العديد من أفراد طواقم هذه المدرعات قد قُتل أو جُرح، وطُلب منّي الإسراع إلى المكان، والعمل على تخليص هذه القوة من حقل الألغام. حين وصلنا إليه تبيّن لنا أنّ رجال المنظمات لا يقومون بزرع الألغام كما ينبغي وبالطريقة المعروفة، فألغامهم زُرعت بطريقة غير منظمة. قمنا بتفجير سلسلة ألغام، وتقدّمنا نحو القتلى

(9) قذيفة موجهة ضد الدروع.

والجرحى لنقلهم، وقد كانت مهمتنا غاية في الصعوبة والخطورة، إذ لم يكن بوسعي اكتشاف هذه الألغام إلّا بواسطة السكين الخاصة التي نستخدمها في الكشف عن الألغام، في هذه الأثناء قمتُ بتفجير سلسلة أخرى من الألغام، لكن كان هنالك لغم آخر ناقص ينبغي العثور عليه، قمنا بتمشيط المنطقة بحذر شديد، شكوكي كانت في محلّها، فلقد اكتشفتُ لغمًا كان مزروعًا خارج سلسلتي الألغام. جلستُ بحذر وبدأتُ بتفكيكه، لكن فجأة شعرتُ بالظلام في عيني. لقد انفجر كل شيء في وجهي. لقد نجوت من خمس حروب وها أنا الآن أواجه موتي نتيجة انفجار لغم أحمق». وفي كل حال فقد حالف الحظ هذا الخبير إذ إنّ صمام اللغم هو الذي انفجر فقط، وكما يقول يحدث هذا مرة في كل مليون محاولة، وهكذا خرج من هذه الحرب بفقدان عين فقط.

تحدّثت الرواية الإسرائيلية عن وجود 27 مقاتلًا كانوا في القلعة استشهدوا جميعًا، وتصفهم بالمقاتلين البارعين الذين لم يُبدِ أحد منهم رغبة في الاستسلام، وكانت المعركة بالنسبة إليهم مسألة كرامة، في حين يُسهب الجنرال أشكنازي في الحديث عن الكيفية التي حاربوا بها طوال الليل: «وقضينا ساعات طويلة ونحن لا نعرف من أين يطلقون النيران، كانت النار تأتي من كل مكان». أمّا الملازم أول عميرام ستيف من وحدة لاهف في قوات غولاني الخاصة فيقول: «كان القتال الذي دار حول الشقيف قتالًا مجنونًا متوحشًا لم أشهد له مثيلًا في حياتي، ولم يخطر ببالي أنّ الفلسطينيين لديهم كل هذه الشجاعة الفائقة وكل هذه الكفاءة، في الحقيقة إنّني لم أكن أتوقّع أن أظلّ في قيد الحياة، لقد كنتُ أسبح في دمائي، وكانت آخر كلمات قلتها وأنا ملقى فوق المنطقة المحيطة بالقلعة هي: يا للعنة لقد مت».

ظهر يوم الاثنين في 7 حزيران/ يونيو 1982، هبطت في القلعة طائرة مروحية تُقلّ رئيس الأركان رفائيل إيتان، وتبعه وزير الدفاع أريئيل شارون ومعه جيش من المصورين، صُدم رئيس الأركان ووزير الحرب بما حدث، لم يكونوا على علم بالقتلى الإسرائيليين الذين سقطوا في المعركة، وسارع شارون إلى الإعلان أنّ المعركة لم تُسفر عن وقوع إصابات في الجانب

الإسرائيلي، فردّ عليه ضابط برتبة ملازم ثانٍ: «ماذا جرى لكم؟ هنا حيث تقف قتل ستة من رفاقي» فوجئ شارون، وقبل أن يستوعب تفصيلات المعركة وصل مناحيم بيغن رئيس الوزراء، كما يوضح الفيلم الوثائقي الإسرائيلي الذي يشير إلى أنّ بيغن أيضًا لم يكن يعرف حقيقة ما يجري، وأنّه خاطب شارون قائلًا: «إنّ هواء التلال منعش [...] هل كانت هنا معركة؟»، فردّ شارون وهو بحالة صدمة: «جنودنا أعمارهم صغيرة [...] لقد حاربوا هنا»، وأخفى عنه عدد القتلى.

سأل بيغن أحد الجنود أمام عدسات التلفزيون: «هل كان لديهم بنادق؟»، فأجاب الجندي: «الكثير من البنادق». ثمّ سأله: «هل استسلم أحد؟»، فرد الجندي بغضب وهو يكاد يبكي: «لم يستسلم أحد منهم» وكرّرها «لم يستسلم أحد». نظر بيغن إلى الأرض فوجد الرصاص يغطيها، ثمّ نظر إلى شارون. وعلى حدّ قول المعلّق الإسرائيلي فإنّ بيغن فهم ما يجري.

قال له شارون: «لماذا جئت إلى هنا؟ القتال ما زال قريبًا». غادر بيغن وعلى وجهه علامات الخيبة، ولم يعد منذ ذلك الوقت إلى لبنان أكان خلال الحرب أو بعدها، واكتفى بتلقي التقارير من بعيد.

يقول أحد الجنود إنّه بعد مغادرة بيغن وشارون بدقائق أطلق أحد الفدائيين الجرحى من بين الأنقاض بضع رصاصات قبل أن يلفظ أنفاسه، ويُعقّب قائلًا: «تخيّلوا لو حدث ذلك قبل دقائق».

إنّ زيارة بيغن وشارون إلى القلعة قد تجيب عن سؤال طرحه معلّق الفيلم: «ما هي جدوى احتلال القلعة؟ ومن الذي أصدر أمرًا بذلك؟»، تساؤل يعجز كبار قادة الجيش في المقابلة عن الإجابة عنه، ويُحيلون الأمر على أوامر عليا صدرت في اللحظات الأخيرة بتغيير الخطة الأصلية التي كانت تقضي بتجاوز القلعة، في حين يذكر زئيف تشيف أنّ أمرًا صدر بإلغاء الهجوم من قائد الجبهة الشمالية الجنرال أمير دروري، ولكن لسبب ما لم يصل الأمر إلى الوحدات الميدانية، وأنّ تحقيقًا فُتح في ذلك بعد الحرب ولم يُسفر عن أي نتائج.

في الفيلم يتبادل ضباط الأركان والقادة الميدانيون الاتهامات، ويصف قائد الفرقة الجنرال أفيغدور كهلاني ضباط الأركان بأنّهم «أولئك الذين يجلسون في الغرف المكيّفة تحت النيونات المضاءة ولا يعرفون ما يكابده القادة الميدانيون».

من أصدر الأمر؟ سؤال يبقى بلا إجابة ضمن إجماع على أنّ احتلال القلعة كان سيغدو ضروريًا لو كان هدف العملية احتلال هضبة النبطية لإبعاد النيران الفلسطينية، وفي حال كان محور الهجوم الرئيس عبر جسر الخردلي، أمّا الأصول العسكرية فتحتم تجاوز هذا الهدف ما دامت الخطة تقضي بالوصول إلى صيدا وإلى بيروت، إذ إنّ القلعة ستتحوّل إلى جيب صغير وغير مهم خلف القوات الإسرائيلية المتقدمة. وبالفعل قبل احتلال القلعة كانت القوات الإسرائيلية قد أحكمت حصار صيدا وقطعت طريق صيدا - بيروت، والدليل على عدم وجود أهمية عسكرية لاحتلال قلعة الشقيف، كما يضيف معلّق الفيلم أنّه جرى تسليمها بعد احتلالها بقليل لقوات الشريط الحدودي، ذلك أنّ استيلاء الجيش الإسرائيلي على قلعة الشقيف لا يعطيه تلك المميزات التي كان يتمتع بها المقاتل الفلسطيني، فالقلعة تفقد قيمتها الاستراتيجية بصفتها موقعًا للمراقبة باتجاه الغرب والشمال، إذ تقف جبال الريحان أمامها سدًا منيعًا، كذلك انحدار هضبة النبطية باتجاه الساحل، وبذلك لا تتعدى قيمتها العسكرية في هذا الاتجاه قيمة أي موقع مجاور، ولهذا سرعان ما تخلّى الإسرائيليون عن الموقع وقاموا بتسليمه إلى قوات الرائد سعد حداد.

إنّ الإجابة الشافية عن هذا السؤال قد تكمن في أنّ المستويات العليا في الجيش والحكومة كانت تبحث عن نصر معنوي وانتصار سهل في بداية المعركة بغض النظر عن الضرورات العملياتية. ولعلّ هذا يُفسّر أيضًا التعتيم التام عن الخسائر الإسرائيلية، وفي هذا السياق يؤكّد الجنرال إيهود مزراحي الذي كان قائدًا للقوات الإسرائيلية في محور الشقيف - النبطية «إنّ هذا الحصن لا يساوي تلك التضحيات والضحايا الذين سقطوا، وكنتُ سأفضّل بقاء الحصن بأيدي محتلة على أن أدفع ثمنًا كبيرًا من أرواح جنودي وضباطي لاستعادته واحتلاله. قد يكون جميلًا أن يقول الناس بأنّ الإسرائيليين احتلوا

قلعة الشقيف التاريخية ورفعوا فوقها علمًا إسرائيليًا، لكنّهم لا يعرفون شيئًا عن الدماء الإسرائيلية التي سالت من أجل هذه القلعة اللعينة».

لا تذكر الرواية الإسرائيلية بوضوح مقدار الخسائر، تذكر أنّ كابلينسكي أُصيب بجروح، وكذلك قائد كتيبة آخر، واثنان من قادة سراياه، وأنّ هارنيك قُتل، وتشير إلى أسماء عدد من القتلى مثل إكيفا ويارون ويوسي ورازي وغودمان وأكيشافيز، وتُجري مقابلات مع عائلاتهم، فيما يُشار إلى خسائر في هذا الموقع أو تلك الموجة من الهجوم، لكن من دون إجمال مقدار الخسائر، وحتى البيان العسكري الرسمي الذي أشار في حينه إلى احتلال القلعة لم يُشر إلى أي خسائر تُذكر.

كذلك تجاهلت الرواية العبرية إسقاط طائرة «سكاي هوك» وأسر طيارها أهارون أبخعازي على بعد مئات الأمتار من القلعة، وإسقاط مروحية تحمل عددًا من ضباط الأركان تفحّمت جثثهم مع حطام الطائرة التي سقطت أسفل نادي الشقيف بالقرب من النبطية، على الرغم من إشارة زئيف تشيف إلى أنّ قائد الجبهة الشمالية أمر بعدم تحليق أي طائرة مروحية في تلك المنطقة بعد إسقاط تلك الطائرة إلّا بأمر شخصي منه، أو القتلى والجرحى الذين سقطوا في الاشتباكات على محاور الخردلي وكفر تبنيت وجبشيت وحاروف وزوطر، المؤدية إلى القلعة، وقد عمدت المصادر الفلسطينية إلى تجميع بعض الخسائر الإسرائيلية وتوثيقها من خلال بيانات النعي في الصحف العبرية.

الرواية الفلسطينية[10]

بقيت الرواية الفلسطينية في حدود سرد لمآثر الفدائيين وبطولاتهم والتغني بها، أسماء الشهداء بل عددهم وأوطانهم وجنسياتهم وفصائلهم التي لم تُحصر حتى الآن، لكن ثمّة عناصر كثيرة لرواية فلسطينية متكاملة.

بدأت معركة الشقيف بقصف تمهيدي إسرائيلي جوي ومدفعي

(10) جُمعت الرواية الفلسطينية من شهادات المقاتلين في القطاع وشهادة الكاتب.

وصاروخي متواصل منذ عصر الرابع من حزيران/ يونيو 1982، واستخدمت في القصف القنابل العنقودية التي فرشت أرض القلعة كأنّها بساط ممتد، إلى درجة أنّ المقاتلين لم يتمكّنوا من الذهاب إلى مستودع التموين بعدما غطّت القنابل تلك الممرات المؤدية إليه، والقنابل العنقودية تصبح كالألغام وتنفجر بمجرد ملامستها أو التعثر بها، وقد تسببت بإصابة مقاتلين بجروح طفيفة خلال محاولتهما تفجير بعضها.

منذ تلك الساعة لم يتوقف القصف الجوي والمدفعي والصاروخي عن القلعة والمناطق المحيطة بها لحظة واحدة طوال 48 ساعة. ولعلّ أعنف قصف شهدته القلعة خلال تلك الفترة هو القصف الذي ابتدأ في الساعة السادسة والثلث من صباح يوم 6 حزيران/ يونيو 1982، والذي بلغ بحسب تقرير مراقبي الأمم المتحدة 110 غارات جوية، تمكّن خلالها الأبطال من إسقاط طائرة «سكاي هوك»، وأسر طيارها، وإيصاله إلى مقر القيادة العامة في بيروت.

على الرغم من كثافة هذا القصف المجنون، فإنّه لم يُصب أي من المقاتلين. ويعود الفضل في ذلك إلى خطة التحصين المستمر التي شارك فيها المئات من أبناء المخيمات وطلاب الجامعات في لبنان، وأشرف عليها طلاب الهندسة على مدى شهور سبقت الاجتياح، وبقيادة وتوجيه من الفدائي (الشهيد) علي أبو طوق.

لقد حُفرت، بموجب خطة التحصين، سلسلة من الخنادق والأنفاق المتصلة، وبُنيت دشم وتحصينات ومتاريس، كلها وفّرت للمقاتلين حماية معقولة من القصف، وأتاحت لهم أوضاعًا أفضل عند الاشتباك المباشر مع العدو.

وضعنا احتمالين لتقدّم العدو، **أولهما** في حالة كان هدفه احتلال هضبة النبطية وقلعة الشقيف، لإبعاد النيران الفلسطينية، إذ سيندفع في هذه الحالة عبر جسر الخردلي باتجاه كفر تبنيت، ثمّ يتقدّم باتجاه أرنون والقلعة من جهة والنبطية من جهة أخرى، وهو ما أكّده زئيف تشيف من أنّ الخطة الأصلية كانت بهذا الاتجاه.

الثاني أنّ يتقدّم العدو عبر المنطقة التي تسيطر عليها قوات الطوارئ الدولية، وأن تعبر قواته جسر القعقعية متجاوزة الحدّ الأمامي وخط التماس عند جسر الخردلي الذي سيصبح محورًا لهجوم ثانوي في حال كانت خطته قائمة على اجتياح الجنوب اللبناني بأسره وربما أبعد من ذلك. وعلى هذا الأساس وضعنا خطتنا قبل الاجتياح بشهور، لكنّ القوات المشتركة اضطُرت إلى سحب القوة المرابطة عند جسر القعقعية إلى منطقة أنصار للفصل بين مقاتلي حركة أمل والحزب الشيوعي إثر الاشتباكات التي وقعت بينهما. وعند بدء الاجتياح تحركت هذه القوة نحو مواقعها الأصلية لتلتحم مع القوات المعادية على مداخل بلدة جبشيت – حاروف، حيث سقط منها شهيدان وخمسة عشر جريحًا، إلّا أنّها كانت قد فقدت ميزة الاشتباك مع العدو عند محاولته عبور الجسر الذي كانت ترابط عليه مفرزة لجيش لبنان العربي.

تحركت قوات العدو الرئيسة المتجهة إلى منطقة النبطية – الشقيف عبر بلدة الطيبة التي تسيطر عليها قوات سعد حداد، ومنها عبرت المناطق التي تسيطر عليها قوات الأمم المتحدة باتجاه جسر القعقعية وذلك للالتفاف على القوات المشتركة في منطقة النبطية – الشقيف، في حين كانت قوات أخرى ثانوية تتقدّم من محور القليعة – مرجعيون باتجاه جسر الخردلي أسفل القلعة. ويصف تقرير الأمين العام للأمم المتحدة القوة المتقدّمة التي لم تلاقِ أي مقاومة أو إعاقة من قوات الأمم المتحدة فيقول: «إنّ القوة والوزن الكبيرين للقوات الإسرائيلية، والتي تُقدّر بفرقتين ميكانيكيتين مع مساندة بحرية وجوية كاملة، حالت دون إمكان وقفها، وقد اجتيحت مراكز القوات الدولية الموجودة على خط الهجوم، أو أنّه قد التُفّ حولها».

بذلك تمكّنت القوات الإسرائيلية من الوصول إلى مشارف القلعة بسرعة نسبية، وهذا عائد إلى تقدمها عبر مواقع قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة، وقدرتها على الحركة وقوتها النارية الضخمة وتبنيها لنظريات الالتفاف والحروب السريعة الخاطفة من جهة، ومن جهة أخرى إلى ضآلة عدد القوات المشتركة المرابطة بين جسر القعقعية والنبطية والشقيف.

بدايةً، تقدّمت كتيبة المظليين التابعة لهيئة الأركان الإسرائيلية عبر سهل زوطر باتجاه مشارف أرنون، وهناك اشتبكت معها سرية الرشاشات الثقيلة التي نجحت في تشتيت القوة الإسرائيلية المتقدّمة، وجرح قائدها، ووقف الموجة الأولى من الهجوم. كما اشتبكت مجموعات أخرى من القوات المشتركة مع القوات الإسرائيلية المندفعة في محور هجوم ثانوي عبر جسر الخردلي، وقد شاركت القلعة في التصدي لهذا الهجوم ووقف التقدّم من خلال هذا المحور بعد تفجير كاسحة ألغام مدرعة وتدمير دبابتين، ووقوع القوة المهاجمة في حقل للألغام. في حين وقعت سرية أخرى في حقل ألغام آخر بين أرنون وكفر تبنيت حين حاولت الالتفاف حول أرنون، كما اشتبكت مع مواقع القوات المشتركة على تخوم كفر تبنيت. أشارت الرواية العبرية باقتضاب إلى هذه الاشتباكات التي دارت حول القلعة وفي الطريق إليها على الرغم من أهميتها.

في الوقت الذي تسهب فيه الرواية الفلسطينية في الحديث عن محاور القتال المختلفة حول القلعة التي استمرت حتى الساعة العاشرة من ليل 6 حزيران/ يونيو، فإنّها تعتمد كليًا على المصادر الإسرائيلية عند حديثها عن الاشتباكات داخل المواقع في القلعة بعد هذا التوقيت، ويعود ذلك إلى انقطاع الاتصالات مع القلعة، واستشهاد معظم من كان فيها.

تقول بعض الروايات الفلسطينية إنّ القلعة سقطت بعد استخدام العدو الغازات السامة. وحتى تتضح الصورة فإنّ قوة حركة فتح الموجودة داخل القلعة كانت تضم ثلاث مجموعات، كل واحدة منها مؤلفة من سبعة أشخاص، وتتمركز في يمين القلعة ويسارها ووسطها. في ظُهر السادس من حزيران/ يونيو، بدأت الطائرات المعادية بإسقاط مظلات فوق القلعة، ظنّ المقاتلون أنّها إنزال مظلي، فوجهوا نيرانهم إليها، وبعد دقائق تبيّن أنّها قنابل تنفجر عند ملامستها الأرض، وتخرج منها غازات خضراء اللون. يقول سعد قائد المجموعة الوسطى، التي سقطت معظم تلك القنابل في محيطها، أنّ شعورًا غريبًا غالبه بعد سقوطها وما عاد يدرك تمامًا ما يحدث، وانصرف جلّ تفكيره على جمع هذه المظلات

لعمل «ناموسيات»[11]، من دون أن يثير تساقط القنابل العنقودية على الموقع أي أفكار أخرى لديه. جلس مع مجموعته في داخل أحد المخابئ، فيما استمر هذا الشعور حتى المساء. لم ينتشر تأثير الغازات في مواقع تتموضع فيها المجموعات الأخرى، ما يشير إلى احتمال أن تكون الغازات استخدمت بصفة محدودة، وربما خشي العدو أن تغيّر الرياح اتجاهها فتؤثر في جنوده. وفي أي حال، فإنّ الأمر المؤكد أنّ العدو استخدم نوعًا من غازات الأعصاب، لكن بتأثير محدود.

يروي أهالي قرية يحمر القريبة من القلعة أنّهم دفنوا 30 شهيدًا، بعدما جمعت القوات الإسرائيلية جثامينهم، وبعد أعوام عدة عُثر على جثمان الشهيد يعقوب سمور (راسم) قائد القلعة في مكان قريب منها، وشُيّع في مخيم عين الحلوة. كما أنّه خلال عمليات الترميم التي تمّت أخيرًا للقلعة، عُثر على عظام شهيدين بين الأنقاض. وكانت مجلة تابعة لحزب كردي أعلنت عن استشهاد أكثر من عشرة مقاتلين لها في القلعة. ويمكن تأكيد استشهاد اثنين من الأتراك كانا مع «فتح»، أمّا باقي الشهداء الأكراد فربما هم من مقاتلي الجبهة الديمقراطية الذين كانوا في موقع بين القلعة وأرنون، وقد تعرّف أهل يحمر إلى جثمان قائد فصيلها خالد الأسمر.

كان معظم الشهداء الذين سقطوا من حركة فتح، وقد كانوا في القلعة ذاتها وفي أرنون وكفر تبنيت، ومن الجبهة الديمقراطية التي كان موقعها بالقرب من القلعة. أمّا باقي الفصائل، ونظرًا إلى القصف المتواصل، فكان مقاتلوها ينسحبون نهارًا إلى مدينة النبطية، ويعودون إلى الانتشار حول الموقع في كمائن ونقاط حراسة ليلًا. ولهذا كانت مواقع تلك الفصائل خالية عند بدء المعركة. ومن بين الشهداء فلسطينيون، لبنانيون، يمنيون، أتراك وضابط سوري من قوة استطلاع الجيش السوري، تموضعت مجموعته في القلعة لتكون نقطة مراقبة أمامية للجيش العربي السوري، وعند بدء القتال انسحبت مجموعته، لكنّه أصرّ على البقاء، وأصبح ضابط ملاحظة للمدفعية الفلسطينية كان لتوجيهاته أثر كبير في إلحاق الخسائر بالقوات المعادية.

(11) غطاء واقٍ ضد البعوض.

تقول الرواية الفلسطينية المتعارف عليها إنّ جميع المقاتلين استشهدوا. لكنّ هذا غير دقيق، والصحيح أنّ معظم المقاتلين استشهد، بمن فيهم قائد الموقع الشهيد راسم، ونائبه المقاتل اليمني عبد الكريم الكحلاني. أمّا الناجون، وأغلبهم من المجموعة الوسطى التي تعرّضت لغازات الأعصاب، فقد تمكّنوا من الانسحاب بعد الساعة العاشرة ليلًا، ويعود ذلك إلى قيام راجمة صواريخ تابعة لـ «الكتيبة الطلابية» بقصف المدرعات الإسرائيلية المنتشرة على مداخل القلعة وتحقيق إصابات مباشرة فيها، ما اضطُر العدو إلى إخلاء القلعة والانسحاب باتجاه أرنون خوفًا من تكرار القصف.

انسحبت المجموعة الناجية باتجاه النهر عبر درب وعر، استغرق قطع مئات الأمتار منها عشر ساعات. وبعد الانسحاب بثلاثة أيام استشهد من أفراد المجموعة أحمد نصر في اشتباك قرب دير الزهراني، واستشهد فادي سمّور بعد عام لدى مطاردة فلول الجيش الإسرائيلي عند انسحابه من الجبل، وبقي منها شعبان المصري، ووليد اللبناني من قرية الحلوسية الجنوبية، وسعد المقيم في عمّان، ومجاهد الذي أصبح أستاذًا جامعيًا في علم الاجتماع.

هؤلاء هم من بقوا من الأبطال الذين كانوا في قلعة الشقيف الباقية أبدًا في وجدان شعبنا وتاريخه وتراثه، هذا التراث من المقاومة الذي لم ينقطع عن هذه المنطقة من بلادنا. وحسبي هنا أن أذكر أنّه في أثناء حفر الخنادق في محيط القلعة عُثر على رفات العشرات من شهداء الحروب الصليبية، وقد جُمعت الرفات بعناية شديدة، وأعيد دفنها بمراسم عسكرية في المكان ذاته وسط مهابة وخشوع ورهبة وإيمان عميق بأنّ هذه البلاد أمانة يورثها جيل إلى جيل.

الطريق إلى بيروت

على الرغم من قصف مقر العمليات، فإنّ سالم مأمور اللاسلكي في الكتيبة واصل الاتصال مع المواقع. لم يعرف أحد أنّي أُصبت، وعندما اضطُر سالم إلى إخلاء موقعه، تولّت المهمة خديجة مروة، وهي من قرية الزرارية

التي يمرّ نهر الليطاني عند قدميها، وزوجها علي مروة (أبو خالد)[12] مسؤول شعبة «فتح» في تلك المنطقة، وعشرات من أبناء القرية كانوا أعضاء في «فتح»، ودائمي التردد على مواقع الكتيبة والقتال معها. ونظرًا إلى طبيعة موقع القرية من حيث ارتفاعها وتوسطها مناطق الجنوب، فقد أقمنا فيها محطة اتصال، كان مقرها في منزل علي وخديجة. استمرت «خوخ» (الاسم الكوْدي) بالاتصال وتوجيه الوحدات والمقاتلين إلى ما بعد احتلال العدو للجنوب كله، وحتى ما بعد احتلاله الزرارية نفسها، وبقي صوت «خوخ» رفيقًا للمقاتلين في مواقعهم الأمامية، إذ حافظت على الاتصال براسم في القلعة، وأبو الخل في كفر تبنيت، وأبو حديد في الحرج، ونسّقت ضربات المدفعية والصواريخ على قوات العدو المتقدّمة باتجاه القلعة، وفي مرحلة لاحقة رافقت المقاتلين في رحلتهم الطويلة إلى مواقعهم الجديدة في الجبل والبقاع، والتي كانت رحلة صعبة نظرًا إلى حركة العدو السريعة، إلّا أنّ «خوخ» كانت خير مرشد وخير دليل.

أخذني الدكتور يانو مع أديب بسيارة إسعاف إلى صيدا، وكانت السيارة تسابق الزمن والقصف المنهمر على الطريق، وعلى مثلث الزهراني كان القصف شديدًا على سرية لجيش التحرير مرابطة هناك، والحرائق مشتعلة، والعدو يمهّد لمحاولة إنزال. وصلنا إلى مستشفى الهلال الأحمر الفلسطيني، وحضر بعض الإخوة للاطمئنان علي، ولعلّي أذكر منهم الأخ كمال الشيخ[13]، والأخ داود أبو الحكم[14]، عند هذه النقطة فقدتُ الوعي ولم أستيقظ إلّا فجرًا على وجه عمّار (عاطف بدوان)، ودبوس (نبيل)، وفي مستشفى آخر هو مستشفى غسان حمود.

عند بدء الاجتياح توجه عمّار من بيروت إلى الجنوب، وفي صيدا أبلغوه أنّ الطريق إلى النبطية مقطوعة، وعلم بإصابتي فهرع هو والإخوة الذين معه إلى المستشفى، حيث خضعتُ هناك خلال الليل لعملية جراحية

(12) توفي في عام 2016.

(13) قائد كتيبة شهداء أيلول.

(14) ضابط عمليات قوات القسطل.

أجراها لي طبيب عراقي متطوع، رُكّب فيها جهاز دعم خارجي للساق مثبت بعدة براغي.

غفوتُ وصحوتُ مرة أخرى على ضجيج وجلبة في الغرفة، وكان (الشهيد) حمدي سلطان أمامي، ومعه شريف مرافق أبو جهاد، ومن دون استئذان من أحد وضعوني على نقالة، وأخذوني إلى سيارة إسعاف يقودها ضابط إسعاف شجاع يدعى النسر، جاءوا بها من بيروت عبر الطريق التي استطلعها الإخوة في الجبل. غادرنا صيدا ومعنا عمّار عبر تلة شرحبيل، إذ كان العدو قد احتل التلة بعد أن تقدّم من نقطة الإنزال عند جسر الأولي باتجاه تلال صيدا، إلّا أنّ هجومًا معاكسًا شنّته مجموعات من سرية الدفاع في قوات القسطل وكتيبة شهداء أيلول والميليشيا، ومعهم رشاشان 23 ملم من كتيبة الجرمق كانا قد انسحبا من النبطية، في محاوله لإنقاذ بعض المعدات التي ما عادت تتلاءم وطبيعة المعركة، قد استعادت التلة لفترة محدودة.

في هذا الوقت دخلتْ سيارةَ الإسعاف، وعند عودتنا كان العدو يشنّ هجومه المعاكس على التلة، والحرائق والقذائف والدخان تغمر المنطقة، وكان النسر يقود بأقصى سرعة، والسيارة تعلو وتهبط، وأنا معها أكاد أقفز من فوق النقالة، وأشعر بألم كبير، فأطلب من السائق أن يخفف السرعة قليلًا، ليرتفع صوت حمدي طالبًا منه زيادتها. كنّا في سباق حقيقي مع الموت المنهمر من كل اتجاه.

كانت القيادة قد طلبت من قيادة القوات نقلي إلى بيروت، إلّا أنّها اعتذرت نتيجة الإنزال الصهيوني على جسر الأولي وأماكن أخرى. وفي هذه اللحظة عاد شباب الجبل، وأرشدوهم إلى طرق بديلة يمكن استخدامها، فأبلغ حمدي أبو جهاد الذي وفّر لهم فورًا سيارة إسعاف وأرسل مرافقه شريف مع حمدي ليعرف الطريق لعلّه يستخدمها.

اعتقل الصهيونيون الدكتور يانو وأطباء المستشفى، وحققوا معهم وعنفوهم لدى السؤال عنّي، ولم يعرفوا كيف غادرت صيدا، معتقدين أنّي

ما زلت مختبئًا فيها، ولم يعرفوا أنّ القدر يتدخل في لحظات، ليرسم لنا فيها مصائرنا، فيرسل لنا من جنوده من هو مثل حمدي في شجاعته وإقدامه.

أمضت يسار ليلة صعبة، فقد أحسّت في داخلها أنّ ثمّة ما يجري ولا تعرف به، وكان الإخوة قد توافقوا على عدم إعلامها بشيء، وعلى الرغم من أنّ تدفق الإخوة والأخوات على المستشفى لم ينقطع، فإنّ إجاباتهم عن أسئلتها كانت نمطية ومتشابهة، ما زاد من ريبتها.

في تلك الأثناء جاء أبو عمّار لزيارة يسار، وطلب الصغيرة، ليؤذن في أذنها بحسب التقاليد الشائعة، وسأل إن كنّا قد قرّرنا اسم الصغيرة، فأجابت بالنفي، إذ لم يتسنَ لنا ذلك نظرًا إلى عودتي السريعة إلى الجنوب، فاقترح تسميتها «سماء» أو «انتصار» ملمّحًا إلى إسقاط الطائرة وأسر الطيار في الشقيف. وبعد قليل حضر أبو جهاد ومازح يسار بأنّ «انتصار» واحدة تكفي، في إشارة إلى زوجته أم جهاد «انتصار الوزير». وما إن غادر حتى جاء أبو الوليد، وقد كان الجميع يمضون وقتًا أكثر من المعتاد في الأوضاع العادية، فكيف في ظلّ القصف والحرب، كما كان الجميع يحرص على طلب الصغيرة التي أبقتها يسار في الغرفة تجنبًا لإزعاج طاقم التمريض، ولعلّها ظنّت أنّهم ينظرون إليها نظرة إشفاق، ما زاد من شكوكها، وبقيت متيقظة تنتظر خبرًا ما.

أُودعتُ في الطبقة العاشرة من مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، وذهب حمدي ومصباح الذي كان ينتظر في قسم الطوارئ إلى يسار في غرفتها في الطبقة الرابعة، وكان حمدي متعبًا من أثر الرحلة الشاقة، ومصباح تعلو ملامح وجهه جدية زائدة، فأيقنت يسار أنّ الخبر الذي تنتظره منذ الأمس قد جاء أوانه، فقالت: «استشهد معين؟»، فأسرع حمدي بالإجابة: «لا لا، إنّه مصاب وهو هنا في الطبقة العاشرة».

جاء الدكتور كرم كرم مسرعًا، فقال ليسار: «عندما جاءتكم بنت، زعلت، كنتُ أريد أن يكون باكورة أبنائكم صبي، لكن الحمد لله ما إجى صبي؛ الصبي بيقفي بيّه، سموها فدى لأنّها فدت بيّها».

بعد أربعة أيام ارتفعت حرارتي، وأصبح الألم لا يُطاق، وكدتُ أختنق بدموعي التي تأبى مغادرة حجراتها، فقلتُ للدكتور يوسف حنون: «أريد أن أصرخ، أن أبكي، ولا أستطيع»، فقال لي: «إبكِ». كانت كلمته بلسمًا، فسالت من عيوني دموعٌ صامتة، وأحسستُ براحة كبيرة.

جاء الدكتور نصولي الابن، أختصاصي العظام المتميّز، ووجد أنّ الالتهاب قد وصل إلى البراغي التي تثبت الجهاز الخارجي، فأنزلني فورًا إلى غرفة العمليات، ونزع الجهاز، ونظّف الجرح، ووضع براغي جديدة ثبتها بالجبس، وقد تكرّرت هذه الحالة مرات عدة، إذ أذكر أنّي دخلتُ غرف العمليات أربع مرات على الأقل، فقد كان الالتهاب يُنهي أي محاولة لتثبيت العظام، فتتفتّت حول براغي التثبيت، وتصبح عديمة الفائدة، وفي العملية الأخيرة رُفع الجبس إلى أعلى الفخذ مع إبقاء فتحة حول الجرح لتنظيفه، وكانت كف الطبيب تدخل من جهة وتخرج من الجهة الأخرى.

بعد أكثر من أربعين يومًا، سألت يسار الدكتور نصولي عن الوضع بسبب كثرة العمليات، فأجابها: «كل يوم خلال الفترة الماضية كنتُ أقرّر بتر الساق، ثمّ أعطي نفسي مهلة لليوم الثاني، وهكذا حتى الأمس فقط، حيث قررتُ أنّ هنالك فرصة لإنقاذها، لكنّ كل شيء يتوقف على مقاومة الجسم، وهذه تحتاج إلى الإرادة وإلى تغذية غير التي يوفرها المستشفى في هذه الظروف».

لا أعلم كيف كان يأتيني الطعام في ظلّ الحصار والقصف، كنتُ أصحو فأجد طبق «كبدة نيّة» على الطريقة اللبنانية، يحضره شباب من حي رمل الظريف، وظهرًا يصل حساء أم أحمد الذي كان وفيرًا بحيث يستفيد منه بعض المرضى وطاقم التمريض، وفي طليعتهم جاري في الغرفة المجاورة الرائد عوني سمارة[15]، وما زلتُ أعجب كيف كانوا يعثرون على الدجاج واللحوم والفواكه على الرغم من الحصار الذي طاول كل شيء.

(15) قائد الوحدة الخاصة في قوات أجنادين.

في أحد الأيام، تعرضت بيروت لقصف شديد، كان يومًا مشهودًا، قرّر فيه المستشفى إخلاء الطبقات العليا، فقد تعطّل كل شيء في المستشفى، وأصبحت أسّرة المرضى في طبقات الأشعة والاستقبال والمختبرات. رفضتُ النزول من غرفتي في الطبقة العاشرة، وبقيت معي يسار وسمير الذي رافقني طوال الوقت، وغادر الجميع بمن فيهم طاقم التمريض، ولم تكن هذه شجاعة زائدة أو مغامرة غير محسوبة، لكنّي استبعدتُ أن يقصف الطيران المستشفى، وقدّرت أنّه قد يتعرّض لبعض قذائف المدفعية أو الصواريخ، وفي هذه الحالة فإنّ احتمالات الطبقات كلها ما عدا القبو الذي لن يتسع للجميع متساوية، وهكذا كان، إذ أُصيب المستشفى بقذيفتين أصابتا الطبقتين الرابعة والسادسة على ما أذكر.

عند الغداء لم يتمكّن المستشفى من تقديم وجبته المعتادة، فاقتصرت الوجبة على ملعقتي أرز وملعقة لبن، لكن فجأة حضر محمود القرى حاملًا أطباق السمك والبطاطا المقلية، حتى أنّه لم ينسَ الخبز المقلي وصلصة الطحينية. كان بيت محمود في عين المريسة، على الكورنيش، بالقرب من ميناء الصيادين، لمح فجرًا مجموعة منهم، فاشترى السمك كله، أخذه إلى منزله، جهزه وجاء به إلى المستشفى، فانقلبت معنويات الجميع، إذ لم يبقَ جريحٌ أو طبيب في الطبقة إلّا وتناول السمك، كما توافد آخرون من طبقات أخرى، فتبددت مشاعر القلق والتوتر ليحلّ محلها الفرح. كان يومًا عصيبًا هزمته إرادة الحياة.

بنادق في المستشفى

عادت حرارتي إلى الارتفاع كثيرًا، كانت ترتفع إلى ما فوق الأربعين عند ساعات المساء، وكانت نوبات الحمى هذه تصيبني بالهلوسة، فأتلفظ بكلمات غير مفهومة، وأقرض ما يشبه الشعر، وأشعر أنّي أحلّق في عالم بعيد.

اختلف الأطباء في سبب الحمّى، وقد أصرّ الدكتور نصولي على أنّ التهاب العظم لن يرفع الحرارة إلى هذه الدرجة، فأحضروا طبيبًا مختصًا بالجراثيم والالتهابات، إلّا أنّ الحلّ الشافي جاء على يد الدكتور يوسف حنون، فقد أجرى فحص سريري، ثمّ طلب أن يرى ملابسي التي كنتُ أرتديها وقت

الإصابة، فاكتشف بقعة دم في القميص، وكان قد لاحظ بالفحص السريري تضخمًا في الطحال، وجهاز التصوير المقطعي في المستشفى كان معطلًا بسبب عدم توافر الطاقة اللازمة لتشغيله، إلّا أنّ الأطباء في لندن توصلوا بعد عامين عبر التصوير المقطعي إلى النتيجة عينها التي توصل إليها الدكتور يوسف بلمسات أصابعه.

أحاطني الدكتور يوسف والدكتور شرحبيل وتلامذة كلية الطب الذين كان جلّهم من دائمي التردد على مواقعنا لضمان استمرارية المستوصفات التي كنّا نقيمها في أماكن وجودنا برعايتهم، حتى استحقوا بجدارة لقب سَريّة الأطباء، أحاطني هؤلاء جميعًا برعاية استثنائية.

رافقني الأخ سمير طوال هذه الفترة، وهو من أبناء مدرسة سوق الغرب لأبناء الشهداء، التحق بنا وهو شبل مع اثنين من زملائه، فتحي و(الشهيد) خليل[16]، وقد كان الثلاثة رائعين ومميّزين في كل شيء.

تحمّل سمير معي الكثير، فقد كانت يسار تنام على المقعد، أمّا سمير فيصرّ على أن ينام ومعه بندقيته بين سريري والباب، ومعه وضعتُ خطتنا لمواجهة الصهيونيين إذا تمكّنوا من اجتياح بيروت، إذ عليه أن يضعني على كرسي متحرك، ويدفعني إلى خارج المستشفى حتى لا نُلحق أي أذى بالمرضى. وكي نشتبك مع القوات المعادية، أحضرنا إلى الغرفة بندقيتين كلاشنكوف وقاذف آر بي جي، وازدادت قناعتنا بخطتنا بعد أن زارني أحد المسؤولين، وعرض علي تزويدي بأقراص سيانيد، قال إنّه جهزهما لنفسه في حال اجتاح العدو بيروت، فقلت له: «ولِمَ تنتحر؟ اشتبك معهم، اقتل ما تستطيع، ثمّ مُت شهيدًا».

بعد أيام من وصولي ومع اقتراب العدو من أبواب بيروت، قرّر أبو جهاد أن يتوجه بعض الإخوة ومنهم محمود العالول وحمدي وعمّار والحاج عبد المعطي وغيرهم إلى منطقة الجبل التي سبقهم إليها سميح نصر لتنظيم مواجهة العدو هناك. وبقي من مجموعتنا (الشهيد) أبو حسن قاسم في بيروت،

(16) (شهيد)، خليل حمادة، استشهد في جنوب لبنان في عملية الزرارية في عام 1984.

ومعه حسان وعدنان ومصباح ومازن وراجح وعشرات الإخوة من التنظيم الطلابي والقطاع الغربي. تولت هذه المجموعات الدفاع عن منطقة الجامعة العربية ودفعت بمجموعات للقتال في منطقة حي السلم قرب المطار.

في أحد الأيام، طلب أبو حسن من يسار أن ترافقه إلى منزلنا في الفاكهاني لإحضار خرائط وأسلحة كانت فيه، فذهبا ليلًا، وكان الظلام دامسًا، وفي أثناء سيرها داست قدم يسار على شيء طريّ، فصرخت، وقال لها أبو حسن لا تنظري واستمري في المسير، فصعدا الطبقات الستة، حيث تآكلت أطراف الدرج، واضطرا في بعض الطبقات إلى الصعود على أربع، ويسار لم يمضِ على ولادتها سوى أيام.

في المنزل المتهاوي نصفه، عثرا على الخرائط والسلاح، ولم تعثر يسار على أي من مقتنياتها الشخصية التي بعثرها القصف.

عند العودة اشتكى أبو حسن من طلبات بعض الأخوات، فقد كان هو ملاذ الجميع، وبعد أن أفاض في الحديث انتبه إلى أنّه يتحدّث بحضور إحداهنّ، فاستدرك قائلًا: «ما تآخذيني أنا مش حاسبك ست، حاسبك زلمة!»، صمتت يسار في حينه، لكنّها عاتبته مرارًا في ما بعد في مواجهة ابتسامته العريضة.

أبو حسن قاسم المعروف بصلابته الشديدة، طلب ذات يوم من أيام الحصار خلال وقف لإطلاق النار من أبو حسين (حسن صالح) أن يرافقه من الطريق الجديدة في بيروت الغربية إلى منزله في برج البراجنة في الضاحية الجنوبية لبيروت. وفي الطريق توقف لتعبئة عبوة ماء، وهناك صعدا ستة أدوار مشيًا على الأقدام، وفوجئ أبو حسين بأنّ أبو حسن قد قطع تلك المسافة كلها من أجل ريّ بضع نباتات وأزهار في منزله.

مع ازدياد احتمالات اجتياح بيروت واستقرار وضعي الصحي، كان من رأي الإخوة أن أغادر المستشفى إلى منزل آمن اختير بالقرب من فندق الكومودور الذي كان يعج بالصحافيين الأجانب. تدربت يسار على كيفية تبديل ضمادات الجرح، وكان يطمئن علينا دائمًا مجموعة من الإخوة الأطباء، منذ

الليلة الأولى، ومع هدوء الليل وتعالي أصوات الجيران، تمكّنتُ أن أميّز بعض الأصوات، فعرفتُ على الأقل صخر أبو نزار من صوته الجهوري، وكذلك أبو علاء قريع[17]. بعد أيام قصف مبنى قريب بقنبلة فراغية، أيقنتُ أنّه لا يوجد في بيروت مكان آمن، سوى المكان الذي تعانق فيه بندقيتك.

لغز الموت

عصر أحد الأيام دخلت غرفتي في المستشفى سيدة وقورة عرفتها يسار، أمّا أنا فظننتها من معارفها، وأنّها جاءت لزيارة جريح، حتى بدأت تروي قصتها، فهي من عمّان وقد عبرت الحصار والحواجز والحدود، ووصلت إلى بيروت تحت القصف والنيران بحثًا عن ابنها الوحيد الذي يدرس في الجامعة الأميركية، عرفتُ ابنها، كان كريم من أفضل الإخوة وأكثرهم تهذيبًا وخُلقًا وشجاعة. لم أكن أعرف أنّه وحيد أهله، فأرسلتُ أسأل عنه، وقالوا لي أنّه ذهب منذ الليلة الماضية إلى حي السُلّم مع مجموعات أخرى من إخوتنا في بيروت لتعزيز الحي الملاصق لمطار بيروت، حيث كانت معارك عنيفة وقاسية دائرة، يا الله ماذا يحدث؟ وضعتُ يدي على قلبي، تذكّرتُ الابن الأصغر لأم أحمد، جمال، والذي كان ثاني شهيد في العائلة بعد أخيه الأكبر أحمد، وكان شقيقهم الثالث جريحًا. تذكّرتُ (الشهيد) المهندس طوني النمس الذي كان قد تخرّج في كلية الهندسة في الجامعة الأميركية، وفي يوم تخرجه عرف أنّ ثمّة تبديلًا للمجموعات الموجودة في مرتفعات صنين، فألقى بثوب التخرج ولم يحضر الحفل، وامتشق بندقيته، ومضى إلى صنين، وفي اليوم الثاني استشهد. لم يكن طوني وحيد أهله فحسب، بل كان أيضًا الذكر الأخير في سلالة آل النمس، وحين ذهبتُ مع سامي عبود وسعد جرادات، وأبو حسين (حسن صالح) وفتحي البس، وأخوة آخرين لإبلاغ أهله، أدركنا من نظرات والده ووالدته مقدار الفاجعة.

أرسلتُ في طلب كريم، وقلتُ لهم لا تخبروه بشيء، قولوا فقط

(17) مسؤول مؤسسة صامد ومن مهندسي اتفاق أوسلو، أصبح لاحقًا رئيسًا للوزراء في السلطة الفلسطينية، وعضوًا في اللجنة المركزية لحركة فتح واللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير.

معين يريدك، فقد خشيتُ أن يرفض الحضور إذا عرف أنّ والدته هنا. مضت ساعات ثقيلة علينا جميعًا، وقطعًا لم أخبر والدته بمكانه، لكنّي كنتُ أتحسب من اضطراري إبلاغها نبأً ثقيلًا على النفس، فقد كان لدي شعور بأنّ الله يبتلينا ويختبرنا بهذه الأمور، فأمضيتُ الساعات أدعو الله أن يعيده إلينا سالمًا.

أخيرًا حضر كريم، وفوجئ بوالدته تنتظره في غرفتي، فأنّبتُه بلطف لعدم إخبارنا بأنّه وحيد أهله، فنحن ومنذ استشهاد طوني وجمال أصبح لنا موقف متشدّد من هذا الأمر. وعلى الفور طلبتُ منه المغادرة معها، بالطبع تجادلنا قليلًا، لكنّا اتفقنا أنّ آفاق الثورة والنضال أوسع وأرحب من فوهات البنادق فحسب، وأنّ بإمكانه ممارسة فعله الثوري حيث يكون، وهكذا كان.

الموت لغز كبير لم يتمكن أحد من حلّه أو الاقتراب منه، فلا أحد يعرف أين وكيف ومتى سيموت، فكم من رجال شهدوا أعتى المعارك ثمّ ماتوا في فراشهم، ولنا في خالد بن الوليد عبرة، إذ لم يبقَ في جسده مكان إلّا وفيه ضربة من سيف أو طعنة من رمح ثمّ مات على فراشه كما يموت البعير حسبما قال هو في لحظاته الأخيرة. وكم منهم فرّ من الموت فوجده أمامه يتربص به، ويأتيه من حيث لا يحتسب، حتى في تعاطينا مع نتائجه نختلف كثيرًا، فالبعض يموت وتموت ذكراه معه، وآخر يبقى خالدًا في قلوبنا وعقولنا، وتُسطّر له صفحات مضيئة في التاريخ تتناقلها الأجيال، والبعض نودّعه بالبكاء والنحيب، وآخرين بالزغاريد والأهازيج والرصاص.

هو لغز كبير لم نسلم من تجاربه، ولم نفلح في حلّ أحجياته. وحسبي هنا أن أذكر قصتين من عشرات مررنا بها، فلكل شهيد حكاية تستحق أن تُروى، بل ولكل مناضل حي قصة تستحق أن تُحكى.

خالد مناضل من الأرض المحتلة 1948، كان يدرس في الخارج حين قرّر الالتحاق بالثورة، ولمعرفته اللغة العبرية عمل في قسم المعلومات مع (الشهيد) أبو حسن قاسم، وسامي وعبد الفتاح الجيوسي.

في بداية الحرب الأهلية، انخرطنا في القتال في حي البرجاوي، وهو

زقاق صغير ملاصق تمامًا لحي الأشرفية، وكان الدفاع عن هذا الحي صعبًا من الناحية العسكرية، ومع ذلك أصرّ علي وسعد ومعتصم أنّ واجبنا يحتّم علينا الدفاع عن أهله. شكّلنا مجموعات تتناوب الدفاع عن الحي، وكان خالد معنا، وكان آخرون يناوبون في المكاتب لاستمرار العمل المطلوب منهم. بعد فترة صارح خالد أبو حسن قاسم بحقيقة وضعه، وقال له أنّه يمضي الوقت في البرجاوي وهو متوتر وخائف، وأنّه لا يعتقد أنّه ملائم لهذه المهمات، وعرض عليه أن يكفيه مؤونة المناوبة في المكتب، حيث ينام هناك، ويقوم بعمله وعمل إخوانه الذين يمكن تفريغهم لمهمات قتالية. وافق أبو حسن قاسم الذي يعرف جيدًا صدق خالد والتزامه عمله، كما يعرف أنّ للبشر قدرات متفاوتة، وأنّ كلّا يُبدع في مجال، وقد يُخفق في آخر. واستمر الحال على هذا المنوال، إذ تفانى خالد في عمله ساعات النهار والليل، وفي أحد الأيام خرج لشراء طعام، وإذ بقذيفة عشوائية تسقط أمام المكتب. استُشهد خالد. أمّا أبو الراتب (إسماعيل خضر) فقصة أخرى، فهو مناضل قدير وصلب. ولتمتعه بجميع الصفات القيادية اختاره أبو حسن وحمدي لقيادة دورية باتجاه الأرض المحتلة، لتكون بمنزلة قاعدة ارتكاز هناك، واختير أعضاء الدورية من سعيد (أبو منير)، وعبد الرحيم، و(الشهيد) حماد حيدر. عند تأليف السرية الطلابية، عُيّن أبو الراتب نائبًا (للشهيد) سعد جردات، وبحكم موقعه هذا فقد تعرّض لمخاطر عدة كُتبت له فيها السلامة. على أنّ أبرز تلك المعارك التي شارك فيها كانت معركة الدامور.

بعد هذه المعركة، قرّرنا أنّ على الحرب الأهلية ألّا تلهينا عن واجبنا الأساسي تجاه الأرض المحتلة، فتوجه أبو الراتب مع مجموعته إلى معسكر بيصور في الجبل، للبقاء بعيدًا عن المواجهات اليومية، وأخذ قسط من الراحة، والاستعداد لمهمتهم الرئيسة. وفي أحد الأيام، قاد أبو الراتب سيارة «روفر» مكشوفة، من المعسكر إلى بيصور لإحضار بعض الحاجيات وبجواره رفيق دربه عبد الرحيم، فانقلبت السيارة على أبواب المعسكر، وأُصيب عبد الرحيم بشلل نصفي واستشهد أبو الراتب.

أذكر عشرات الإخوة ممّن كانوا مشروعات شهادة، ممن اقتربَت منهم ولامستهم، ثمّ حملت معها أحبتهم وابتعدت. هو الموت إذًا، تهرب منه فيلاقيك، وتقترب منه فلا يأتي.

المخابرات

بعد أقل من شهر على ولادة فدى، بدا واضحًا أنّ المعركة ستطول، وقد كانت يسار تتنقل طوال اليوم ما بين المستشفى حيث تلازمني، وبيت قريب أقامت فيه أم مازن (والدة يسار) ومعها صغيرتنا.

عندما يشتد القصف كانت أم مازن تضع فدى في حوض الاستحمام، لحمايتها من الشظايا والقذائف، فأصبح حوض الاستحمام مهد الرضيعة. وحين نجحنا في إقناع أم مازن أن تغادر بيروت، أصرّت أن تصطحب معها فدى، فوافقنا على الرغم من صعوبة مفارقة رضيعة لأُم لم يُتح لها فرصة إرضاعها حنانها في أيامها الأولى.

سافرت أم مازن مع الأخت خولة، في سيارة مستأجرة عبر شمال لبنان إلى دمشق، وأمضتا ليلة في منزل السائق على الطريق. وكانت الوثيقة الوحيدة التي حملتها فدى هي شهادة ميلاد صادرة عن المستشفى، إلّا أنّها وبسبب أوضاع الحرب وازدحام الناس وانخفاض الرقابة على الحدود، نجحت في عبور الحدود السورية – اللبنانية.

في دمشق، كان على أم مازن أن تواصل مسيرها إلى عمّان، لكن كيف وقد انتبهت أنّ صغيرتها لا تحمل أي أوراق ثبوتية تمكّنها من اجتياز الحدود إلى الأردن. اتصلت من بهو الفندق تطلب مشورة الأهل في عمّان، وكان يقف بجوارها شاب أسمر مصغيًا إلى حديثها، ففهم قصتها وعرف من تكون الرضيعة من دون أن يسأل. عرّفها بنفسه، قائلًا: «سعد المجالي»[18]، وهو من عشيرة المجالي المعروفة، وضابط في «فتح»، وأخبرها أن لا ضرورة لحضور

(18) أصبح وكيلًا لوزارة الداخلية في السلطة الوطنية الفلسطينية.

أحد من الأهل، وأنّه سيقوم بجميع ما يلزم من ترتيبات. وفي اليوم الثاني، وصلت فدى إلى عمّان برفقة سعد، إذ كان أحد أقرباء سعد المجالي مسؤولًا عن نقطة الحدود.

مضت الأيام والأسابيع، وفدى في عمّان ونحن في بيروت تحت الحصار، وانتهت الإجازة الصيفية، إذ على أبو مازن العودة إلى مركز عمله في الكويت حيث يعمل معلمًا في إحدى مدارسها. فطلبوا من السفير الكويتي تأشيرة دخول لفدى، فوافق لكنّه طلب أي وثيقة سفر لها، إلّا أنّ أيًا من محاولات استخراج جواز سفر أردني لها لم تنجح، ولم تساعدهم حتى العلاقات و«الواسطة» المتفشية في مجتمعنا. وأقصى ما نجحوا فيه كان استخراج شهادة ميلاد أردنية، فسافر أبو مازن إلى عمله، ورفضت أم مازن تسليم فدى لأي من الأقارب، تراها أمانة لن تسلّمها إلّا لوالديها، إذا كتب الله لهم الخروج من بيروت.

استمرت أم مازن في محاولاتها لاستخراج جواز سفر. وفي إحدى المرات، جاء الرد: «على فدى أن تراجع دائرة المخابرات العامة، في عمّان»، فأخذت أم مازن فدى، ووضعتها في سريرها المتنقل (كوت)، ووضعت معها علبة الحليب والحفاضات وبعض قطع الملابس، وسلّمتها على نافذة المراجعين في مقر الدائرة القديم في منطقة العبدلي، واسترسلت في شرح مواعيد الرضاعة والغيار، ليردّ موظف الاستقبال: «وحدي الله يا أختي، اتقي الله يا حجة، خدي البنت وروحي، اللي أعطاكِ الورقة واحد مش صاحي على حاله، أبصر وين كانوا عقلاته، لا حول ولا قوة إلّا بالله، لا حول ولا قوة إلّا بالله». واستمر موظف الاستقبال بالتمتمة، فيما عادت أم مازن وفدى إلى البيت، لكن دون جواز سفر.

ذكّرتني هذه القصة بأخرى حدثت معنا بعد أن استقر بنا المقام في عمّان؛ إذ اتصل الإخوة من لبنان يُعلمونني باختفاء أبو الفتح، وكان من مسؤولي الساحة اللبنانية. لقد توالت الاتصالات طوال النهار وحتى ساعة متأخرة من الليل ما بين عمّان وبيروت وصيدا بوساطة نقطة الاتصال العسكرية في قبرص. وأخيرًا تأكدنا من اعتقال مخابرات الجيش السوري له، وفي صباح

اليوم التالي إذ بالهاتف يرنّ في بيتنا، فأجابت يسار، ليأتيها صوت من الجهة الأخرى مستفسرًا عن مصير أبو الفتح، قائلًا: «لقيتوه يا أختي؟»، فسألته يسار: «من تكون؟ من أنت؟»، فأجاب: «أنا كنتُ معكم على الخط امبارح (الموظف المكلّف بمراقبة الخط) بس انتهت مناوبتي قبل ما تعرفوا شي عنه، والله يا أختي ما عرفت أنام وحابب أطمن». فأخبرته يسار بأنّه معتقل في سورية، فتمتم: «لا حول ولا قوة إلّا بالله، الله يعين أهله ويصبرهم».

من لبنان إلى اليونان

خلال حصار بيروت، حاول العميد أبو الوليد أن يقنعني بالخروج مع قافلة جرحى للجيش العربي السوري، بإشراف الصليب الأحمر، خصوصًا بعدما لمس تردي وضعي الصحي، ورفضتُ ذلك بإصرار فاستجاب، ولكن أخيرًا أزفت ساعة الخروج من بيروت، وأُعلمتُ بأنّي سأغادر على متن باخرة خُصصت للجرحى، متجهة إلى اليونان صباح اليوم التالي، تذكّرنا أنّي لا أملك جواز سفر، فقد تناثرت جميع أوراقي الثبوتية مع حطام منزلنا. أُحضر مصوّر إلى المنزل، وأخذ الإخوة الصورة إلى منزل سفير اليمن الجنوبي، وفي ساعة متأخرة من الليل أمسيتُ مواطنًا يمنيًا.

أصرّت يسار على مرافقتي، فرفض أبو عمّار، ولعلّه كان محقًا في ذلك، خشية أن يفتح هذا عليه الباب من زوجات جرحى آخرين، ولا أعلم كيف أقنعه أبو جهاد وأبو الوليد، فكان المخرج أن تسافر يسار بصفة ممرضة في الهلال الأحمر. لم تكن الباخرة مهيأة لهذا العدد من الجرحى، فهي مجهزة كمستشفى يستوعب خمسة وعشرين جريحًا فقط، مع غرفة عمليات يُشرف عليها طاقم طبي ألماني، إذ وُضعت الحالات الحرجة في المستشفى الشبيه بوحدة العناية المركزة، أمّا باقي الجرحى فقد وُضعوا في أسرّة متعددة الطبقات في عنبر لنقل البضائع في قاع السفينة، فاكتظ العنبر بالجرحى، وكانت فوق سريري ثلاثة أسرّة، في أحدها جريح مصاب بالمثانة، ما جعل البول ينزّ علينا من كيس التجميع الخارجي.

كانت حالة العنبر سيئة للغاية، فقد كان حارًا نهارًا، وباردًا ليلًا، ولا توجد منافذ للتهوية، ففضّل أغلب الجرحى افتراش ظهر السفينة الذي اكتظ بهم، وقد ساعدهم على ذلك اعتدال الطقس. ظهر السفينة قطعًا كان ألطف وأرحم من قاعها.

ساهمت يسار في الترجمة بين الجرحى والطاقم الألماني الذي اعتقد أنّها ممرضة متمرسة بإصابات الحروب، فأصرّوا أن ترافقهم إلى غرفة العمليات. وفي إحدى المرات، استشارها الطبيب بشأن المدى الذي يضع فيه الجبس، فاختارت الأحوط وهو المدى الأبعد، فأثنى عليها الطبيب وخاطب طاقمه بأنّ خبرة التمريض في الحروب تعادل خبرة أكبر الاستشاريين. ساعد يسار إتقانها اللغة الإنكليزية، وخبرات محدودة من المستوصفات التي كنّا نقيمها في أحياء بيروت، وأماكن وجودنا، وبعض دورات الإسعاف الأولي. في أحد الأيام، اشتكى إليّ ممرض من الهلال كان مرافقًا لنا في الباخرة من تحرش أحد الإخوة الجرحى بالطاقم الطبي خلال جلوسه على سطح السفينة. وكان هذا المقاتل معروفًا في بيروت بتجاوزاته الدائمة، فطلبتُ منهم مساعدتي في الصعود إلى السطح، وأخذتُ عصاه التي كان يلوح بها في وجه الطاقم الطبي ورميتها في البحر، وقلتُ له نحن ما زلنا في حالة حرب، وإذا وصلتني أي شكوى سأُلقي بك أنت في البحر، ولم تشهد الرحلة أي شكوى جديدة.

علم رئيس الطاقم أنّ زوج زميلته «الممرضة» موجود على متن السفينة، فأصّر على منحي أحد السريرين الفارغين في المستشفى، مبررًا ذلك بحاجته إلى يسار كي تبقى أغلب الوقت في المستشفى، وسارت الرحلة بهدوء حتى وصلنا إلى أثينا، حيث كان الدكتور يانو الخارج حديثًا من الأسر في استقبالنا على رصيف الميناء. وفي اليوم الثاني من وصولنا، وصل الأخ ياسر عرفات إلى الميناء نفسه، فقد غادر بيروت بعدنا بيوم واحد، مفضلًا أثينا على أي عاصمة عربية.

أكثم القسوس

في أثينا، نُقلنا إلى مستشفى للراهبات، أمّا يسار فقد نزلت مع بعثة الهلال الأحمر في فندق قريب، وفي صباح اليوم التالي ضلّت الطريق وهي قادمة،

فالتقت مجموعة من الشباب والصبايا اليونانيين الذين كانوا يتلحفون الكوفية الفلسطينية، فاقتربت منهم، وسألتهم عن اتجاه المستشفى. وعلى الرغم من صعوبة اللغة، فإنّهم عرفوا أنّ لها صلة ما بالجرحى، فطلبوا منها التوقف قليلًا، وعقدوا اجتماعًا بينهم، ثمّ عادوا وبسطوا كوفية على الأرض، وفتحوا صناديق لجمع التبرعات كانوا يحملونها، وامتلأت الكوفية بمئات القطع المعدنية، ثمّ عقدوها وسلموها إلى يسار، قائلين أنّهم يجمعون التبرعات لفلسطين، ولا يعرفون لمن يسلمونها. ذرفت يسار دموعًا، وشكرتهم، وأعادت إليهم نقودهم، مرشدة إياهم إلى الجهات التي يمكن أن يسلموها تبرعاتهم، فأرسلوا معها وفدًا منهم لمرافقتها إلى المستشفى.

في عصر أحد الأيام، زار المستشفى وفد من نساء السلك الدبلوماسي العربي، رافقتهن يسار في جولة حول غرف الجرحى. وسألتها إحداهن عن سبب وجودها معنا، فروت لها قصتنا، وكانت زوجة القنصل الأردني في أثينا السيد أكثم القسوس. شرحت لها يسار معاناتنا في محاولة إخراج فدى من عمّان، وكيف أنّها لم تشاهد طفلتها منذ أربعة أشهر، فوعدتها بأن تخبر زوجها بالقصة لكنّها لا تعرف إن كان بإمكانه أن يساعدنا أم لا.

ليلًا حضر السيد أكثم القسوس وزوجته إلى الفندق، فسردت له يسار ما جرى، وسألها عمّا نملك من أوراق، إذ لم يكن لدينا سوى جواز سفر يسار الأردني، وهي ما زالت بموجبه عزباء، وشهادة ميلاد لفدى، صادرة عن مستشفى الجامعة الأميركية، مذكور فيها أنّ الأب والأم أردنيان، فابتسم السيد أكثم وقال لها غدًا صباحًا ستأتي زوجتي لاصطحابك إلى السفارة، وهناك سنرى ماذا بإمكاننا أن نفعل.

في السفارة، طلب أكثم من أحد الموظفين العاملين في السلك القنصلي تغيير صفة يسار من آنسة إلى سيدة، وإضافة أنّها زوجة معين، وإضافة فدى في خانة الأبناء. فمضى الموظف وعاد ومعه اثنان من زملائه، قائلًا: «سيدي لا توجد أي مستندات تتيح لنا إجراء هذه التعديلات»، فطلب منهم الأختام، وكتب التعديلات المطلوبة جميعها بخط يده. وهكذا أصبحت فدى كائنًا

معترفًا به، وبدا أنّ ساعة اللقاء بها قد اقتربت. قطع أكثم لحظات ذهول يسار ممّا جرى أمامها، قائلًا: «لا تذهبي أنت إلى عمّان لإحضارها، قد يمنعوكما من المغادرة، وإنّما ستسافر زوجتي الليلة إلى عمّان وتعود غدًا مع ابنتك»، ثمّ أخرج ورقة «شيك» ليعرض على يسار أن تدوّن المبلغ الذي يكفي لتغطية نفقاتنا، وكانت الدموع المنهمرة هي التعبير الوحيد المتاح عن الشكر والفرح والامتنان، فقد شكرته وأبلغته أنّ نفقاتنا مؤمنة، وأنّ أخي الأكبر سيغادر الليلة إلى عمّان وستعود فدى مع بنات خالتها.

خلال يومين، كانت فدى في أحضان أمها التي تبللت ثيابها من دموع الفرح التي لم تنقطع من عيون والدتها، وكان أكثم القسوس وزوجته أول الزوّار، ومعهما عربة أطفال وحقيبة مليئة بتجهيزات وملابس للأطفال. تذكّرت يسار ما كانت قد جهزته لطفلتها، وفقدته في قصف منزلنا، وأحسّت أنّها تلد طفلتها اليوم من جديد. قال لها أكثم مازحًا: «كنتُ في نيويورك، ونُقلتُ إلى اليونان لمساعدتي بعض الأشخاص، وهذه المرة قد أُنقل بسببكم إلى أفريقيا». بعد فترة أصبح أكثم القسوس مديرًا للتشريفات في الديوان الملكي. ما زال فعله ذلك دينًا في أعناقنا، فبضع كلمات كتبها غيّرت مجرى حياتنا.

تكرّر مثل هذا الأمر معنا مرات عدة، في بلدان عدة، في سورية والأردن ولبنان والكويت. جعلني هذا أؤمن أكثر كم أنّ الفعل الإنساني واحد، ومشاعر البشر ومواقفهم متشابهة، وتأثير فلسطين وتجذّرها في قلب الوجدان العربي لا ينقطع.

لندن

سافرنا خلال أيام إلى الكويت، وأقمنا في الضيافة الكريمة لآل حمودة، أهل زوجتي يسار، فقد كان بيت أبو مازن مثالًا للبيت العربي الفلسطيني، فهو محجّ لأقربائه وأصدقائه، وهو لا يخلو ساعة من ضيف أو زائر. التهبت ساقي مجددًا ونصح الأطباء بضرورة السفر للعلاج في الخارج. تصادف حضور أبو جهاد إلى الكويت، الذي أجرى جميع الترتيبات والاتصالات اللازمة

لسفري إلى لندن، حيث خضعتُ لرعاية مميزة من رفيق الحسيني زميلنا في بيروت وأحد مؤسسي جمعية العون الطبي «ماب»، ومن عدنان أبو الهيجا رئيس اتحاد طلبة فلسطين في لبنان، والذي كان يتلقى العلاج بعد إصابته الثانية خلال حصار بيروت. تولى المكتب الصحي القطري متابعة علاجي بإشراف نخبة من الأطباء، وبمتابعة حثيثة من عدد من الأطباء العرب. أُزيل الجبس والتأم الجرح، وبدأتُ أسير على عكازتين قصيرتين تستندان إلى الذراع، وبمساعدة جهاز شبيه بذلك الذي يستخدمه مرضى شلل الأطفال.

وبما أنّني على مدى الأعوام السابقة كنتُ أشعر بآلام وحرقة دائمة في المعدة، حُوّلتُ إلى أحد أشهر الأطباء وهو من أصول أسكتلندية وصديق للفلسطينيين. فذهبتُ أنا وعدنان وكل منّا يسير على عكاز، وبحكم مهنته أمطرني الطبيب بسيل من الأسئلة، فلم يُعجب ذلك عدنان، وعندما سأل الطبيب عن سبب استخدامي لعكاز، تدخل عدنان فورًا وقال حادث سير، وبالفحص السريري قال الطبيب أنّه ليس قلقًا على المعدة لكنّه قلق على الكبد والطحال الذي يعتقد أنّه متضخم، فطلب صورة مقطعية.

في الصورة المقطعية تبيّن دقة تشخيص الدكتور يوسف حنون في بيروت للطحال. لقد تبيّن أنّ ثمّة شظية مستقرة في الطحال، أمّا أنا فلم أعد مهتمًا بخصوص الشظية قدر اهتمامي بالكيفية التي سنفسر بها ذلك للطبيب. وفي الزيارة الثانية رفض عدنان الذهاب معي فهو قد اخترع كذبة حادث السير، فرافقني مشكورًا الدكتور الخريشا من المكتب الطبي القطري، وعند مغادرتنا للعيادة ابتسم الطبيب الاسكتلندي وهو يودعنا، وشدّ على يدي، وقال لي مداعبًا بأنّ عليّ الانتباه لحوادث السير في لندن.

قبل سفري بأسبوع أحسّ عدنان بحركة مريبة في الشقة المجاورة التي سُكنت حديثًا، فتحفزت لديه جميع الظنون والوساوس الأمنية، وقرّر أن ننتقل فورًا إلى الإقامة لدى صديق لبناني وعائلته، وفي اليوم التالي كنتُ على متن الطائرة المتجهة إلى دمشق، لقد كان عدنان ملاكي الحارس.





الفصل العاشر

1983-1982

العمليات خلف الخطوط

ما إن وصل الجسم الرئيس لكتيبة الجرمق إلى منطقة البقاع (بعض المجموعات وصلت إلى بيروت) حتى كانت المهمات على تعدّدها واضحةً: إعادة التنظيم والتدريب، واستيعاب المتطوعين الذين تدفقوا على لبنان، وإدامة الاشتباك مع العدو والقتال خلف خطوطه.

وإذ جرت العادة في صفوف القوات العسكرية أن تُسحب القوات التي يراد إعادة تنظيمها وتدريبها إلى الخطوط الخلفية، وكذلك إنجاز تدريب المتطوعين وتأهيلهم قبل إلحاقهم بجسم القوات، فإنّ ذلك كان متعذّرًا في ظلّ أوضاع الحرب، وكانت طبيعة الموقف تقتضي أن تتمّ هذه المهمات في الوقت نفسه. فالحرب ما زالت مستمرةً، والعدو الصهيوني يحاصر بيروت المدينة الصامدة.

لذا، كانت هنالك أهمية كبرى، على الصعيد العسكري والمعنوي، لأن تبدأ العمليات خلف خطوط العدو فورًا، في الوقت ذاته الذي تتم فيه المهمات الأخرى، ومن دون أيّ انتظار أو تأخير. وهكذا سرعان ما تموضعت قواعد ارتكاز في منطقتي الجبل والبقاع، لتصبح على تماس مباشر مع العدو. كما أخذت عجلة إعادة التنظيم والتدريب تدور في مواقع خلفية نسبيًا، وفُتح معسكر للتدريب الخاص، ومركز لتدريب المتطوعين وتأهيلهم، وزاد التركيز في رفع الكفاءة القتالية للمقاتلين وتأهيلهم وتعريفهم بالتكتيكات والأساليب التي تلائم طبيعة العمل خلف الخطوط، وإدامة الاتصال بالإخوة المقيمين في المناطق اللبنانية المحتلة، أكان ذلك في الجنوب أم الشوف أم الجبل، وتأسيس شبكات للمعلومات، إضافةً إلى التواصل مع بيروت المحاصرة.

عجلة كبيرة بدأت بالدوران، وكان (للشهيد) حمدي ورفيقه محمود العالول دور محوري وقيادي فيها، منذ أن طلب منهم (الشهيد) أبو جهاد مغادرة بيروت والتوجه إلى الجبل، ومعهم (الشهيد) عمّار والحاج عبد المعطي وعشرات من الإخوة الآخرين؛ لقيادة التصدي للقوات المعادية المتقدمة على ذلك المحور.

شكّل هؤلاء مع (الشهيد) علي أبو طوق، أبو الفتح، أبو رحمة، أبو حديد، خليل، ثائر، إنعام، حسام وعشرات من الكوادر، نواةً لهذا التحرك الكبير الذي حظي بمشاركة ودعم من مئات الإخوة في التيار من الجبل والشوف والبقاع والهرمل، وهم الذين وفّروا للمتطوعين سُبل الإقامة والمعلومات والاتصال والمشاركة الفعلية في العمليات العسكرية، بقيادة الإخوة ربيع الجبل، محمد ملاعب، رضوان الشحيمي، المختار، طراد حمادة، أبو داود و(الشهيد) الدكتور عصمت وإخوانهم.

في ذلك الوقت، كان (الشهيد) مروان في دورة عسكرية في روسيا، وما لبث أن عاد عبر سورية بعد حرب 1982 بفترة وجيزة إلى سهل البقاع. وحينئذٍ كنتُ جريحًا في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت المحاصرة، ومنها غادرتُ مع إخواني الجرحى إلى اليونان للعلاج، ولم أتمكّن من العودة إلى لبنان إلّا في منتصف عام 1983، بعد رحلة علاج طويلة. وخلال هذه الفترة، تسلّم قيادة الكتيبة كل من أبو الفتح، و(الشهيد) علي أبو طوق اللذان شكّلا ثنائيًا مميزًا يعمل بانسجام تامّ، وتكامل لا مثيل له، إذ كانَا محورًا لكل حركة، ولكل جهد، ولكل فعل ثوري تقوم به وحدتهما، بل إنّ تأثيرهما، في أغلب الأحيان، كان يمتد إلى الوحدات المجاورة. لقد أدركَا جسامة المهمة التي وقعت على عاتقيهما، فرفعَا شعار الوحدة من أجل قتال العدو الصهيوني، والإمساك بزمام المبادرة من جديد بشن غارات على العدو والعمل خلف خطوطه.

عاش أبو الفتح في الجنوب اللبناني طوال حياته، وهو من أصول بدوية من عرب الحمدون، في الشمال الفلسطيني. انضم إلى حركة فتح في مطلع عام 1965، وعمل في وحدات عسكرية مختلفة قبل أن يعيّن قائدًا للميليشيا

في القطاع الأوسط في الجنوب اللبناني. وبصفته تلك، استقبل الكتيبة في بنت جبيل عند وصولها إليها فور انتهاء الحرب الأهلية وبدْء تكوين الشريط الحدودي العميل. ومن يومها لم يفارق الكتيبة إلى أن عُيّن رسميًا ضابطًا لعملياتها.

يعرف أبو الفتح قرى الجنوب وأهله قريةً قريةً، وكان إخوانه في الكتيبة يمازحونه من خلال القول إنّه يحتاج إلى يومين إضافيين، فضلًا عن إجازته، للضيافة في القرى التي يمرّ بها من موقع عمله في الكتيبة إلى منزله في مخيم القاسمية. وإلى جانب ذلك، فهو يمتلك معرفةً عميقةً بالأرض وفراسةً وجرأةً وشجاعةً وذكاءً فطريًا كبيرًا. وعلى الرغم من أنه لم يتلقَّ تعليمًا في حياته بسبب ظروف النكبة الصعبة، فإنّه مع مرور الأيام كان قادرًا على القراءة والكتابة، ومهتمًا بتثقيف نفسه ثقافةً ثوريةً، فكان متابعًا لكل التطورات السياسية.

أمّا علي، فقد أضاف إلى ذلك تفانيًا عجيبًا في العمل، وحركةً لا تنتهي ولا تكلّ، وحزمًا وتدقيقًا في أدقّ التفصيلات، ووضوحًا في الرؤيا، وتصميمًا على الفعل، وقدرةً عجيبةً على تعلّم كل جديد، وتقييم التجارب والاستفادة منها.

أدرك علي أنّنا إزاء مرحلة جديدة تحتاج إلى خبرات خاصة. وبسرعة البرق، أتقن فنّ تزوير الوثائق الشخصية، وأقام ورشة حدادة وميكانيك لعمل مخابئ لتهريب السلاح خلف الخطوط، وأدار شبكةً كبيرةً للمعلومات والاستطلاع تمتد من أقصى الجنوب حتى البقاع، مرورًا بالجبل والشوف.

سرعان ما انضم إلى هذا الجهد (الشهيد) مروان كيالي، ليكون قائدًا للكتيبة بعد إنهائه دورة قادة كتائب في روسيا، مضيفًا إلى هذه التجربة بعدًا جديدًا وآفاقًا أكبر. عمل أفراد هذا الفريق معًا في ظلّ ظروف صعبة وحرجة، وقد وضعوا نصب أعينهم هدفًا كبيرًا، إذ إنّهم لم يقنعوا بتنفيذ بضعة عمليات هنا أو هناك، بل صاغوا استراتيجيا لبدء مقاومة شاملة ضد العدو الصهيوني المحتل للبنان. ومن المؤلم والمؤسف أنّ هذه المرحلة من المقاومة لم تحظ بأيّ تغطية أو دراسة أو اهتمام، على الرغم من تأسيسها للمقاومة الوطنية والإسلامية، وإجبارها العدو على الانسحاب من الجبل، ومساهمتها في

إسقاط «اتفاق أيار» مع العدو[1]. وعلى الرغم من اعتراف العدو بضراوتها، وبخسائره الكبيرة في الأرواح والمعدات، بل في سقوط أكبر عدد من الأسرى له خلال تاريخ المقاومة كلها، فإنّ الملاحِظ يصاب بالذهول وهو يرى أنّ هنالك قفزةً كبيرةً عن هذه الفترة، وكأنّ بعضهم يُصاب بالحرج عند الحديث عن مقاومة ضارية ضد العدو في الفترة بين عامي 1982 و1983.

لقد كان بعضهم يصف تلك المرحلة بأنّها مرحلة نهاية المقاومة، ويتحدّث عن تقسيمها وتشتيتها وهزيمتها بعد خروجها من بيروت؛ لذلك فمن الممنوع الحديث عن انطلاق مقاومة تُثخن في العدو وتؤلمه وتُحبط جميع أهدافه التي اعتقد أنّه قد حققها. وإذا كانت هذه هي حال القوى المعادية، فإنّنا لا نملك تفسيرًا للصمت الذي امتد أيضًا إلى القوى الوطنية والإسلامية تجاه هذه الظاهرة وتجاهَلها، إلّا أنّه صمت فرضته أوضاع وضغوط إقليمية، وقد آن الأوان لإعادة الاعتبار لتلك المرحلة والكشف عن إنجازاتها، وعدّها استمرارًا لمقاومة سابقة، وتمهيدًا لاستمرار المقاومة في لبنان، بعمقٍ أكبر وتجربةٍ أغنى أدّيَا إلى انسحاب الجيش الصهيوني وتفكيك الشريط الحدودي، بل إلى تأثيرها اللاحق في الانتفاضة الفلسطينية واستمرار الفعل الفلسطيني، بما فيه من نشوء الحركات الجهادية وانضمامها إليه.

كان هنالك إصرار على نوعية خاصة من العمليات، وعلى تعدّد وسائلها، واتساع رقعتها الجغرافية، لتمتد من صور إلى النبطية والطريق الساحلية والجبل والشوف وأطراف بيروت والبقاع الغربي، ليساهم فيها مقاتلون من الكتيبة والإخوة في مختلف المناطق اللبنانية، في تناغم فريد أعطى هذه العمليات بُعدًا خاصًا، وسهّل عمليات الاستطلاع وتهريب السلاح وإيواء المقاتلين والانسحاب الآمن.

كانت تُدرس كل عملية وتأثيرها السياسي والمعنوي على حدة. لهذا، كُثّفت العمليات عند اشتعال معارك ما عُرف بـ «الانشقاق»؛ لتوجيه رسالة

(1) اتفاق سلام أجرته الحكومة اللبنانية في عهد الرئيس أمين الجميل مع العدو الصهيوني.

واضحة مفادها أنّ عدوّنا الرئيس هو العدو الصهيوني، كما كان السعي لأنْ تنضم إلى هذا الجهد وحدات العاصفة الأخرى، عبر تأليف مجموعات مشتركة، وكذلك إشراك القوى الوطنية اللبنانية فيها، إذ إنّ فهم الإخوة لدورهم في «فتح» يتلخص في أنّ مهمتهم تكمن في تعميق مشاركة جميع القوى في النضال ضد العدو الصهيوني. لذا، تحوّل مقر قيادة الكتيبة إلى غرفة عمليات مصغرة تُنسّق فيها أعمال كثير من القوى الوطنية والإسلامية على اختلاف مشاربها، وتتشكّل فيها بواكير المجموعات المجاهدة.

كان التخطيط لعملٍ ما يبدأ في اللحظة التي تتوافر فيها معلومات أولية عن الهدف. أمّا الخطوة الأولى، فهي استكمال هذه المعلومات، أكان ذلك عن طريق الأهالي أو بإرسال دورية استطلاع بصحبة أحد الإخوة إلى منطقة الهدف المطلوب ضربة. وعندما تكتمل المعلومات، تبدأ خلية نحل كاملة بالعمل، ويشمل ذلك اختيار أفراد الدورية من ضمن أفراد الكتيبة، واستدعاء بعض الإخوة من المناطق اللبنانية المحتلة للانضمام إلى الدورية، أو لتكليفهم بمهمات تتعلّق بإيصال الدورية أو إيوائها أو سحبها، كما يتضمن ذلك إعادة تدريب المجموعة المختارة في ظلّ أوضاع مشابهة للهدف، واختيار الأسلحة والذخائر الملائمة وكذلك الملابس والهويات الشخصية، والتموين، والأغطية، وأيّ معدات أخرى ضرورية، إضافةً إلى تحديد وسيلة الوصول إلى الهدف؛ سيرًا على الأقدام، أو بوسائط نقل تُستعمل لنقل الأفراد والأسلحة، وترتيب استقبال المجموعة وإدامتها في العمق عند إخواننا المقيمين هناك، وتأمين وسائل الاتصال الملائمة، وتفصيلات أخرى.

بعد تنفيذ المهمة، تبدأ مرحلة جديدة مهمّة وضرورية هي مرحلة تقييم التجربة واستخلاص الدروس والعبر منها، إذ أصبح ذلك تقليدًا يُمارس في كل مرة. فبعد عودة الدورية واستراحتها قليلًا سرعان ما تُعقد جلسة حوار طويلة، ويبدأ الشهيد علي أبو طوق بتسجيل كل شيء من لحظة الإعداد والانطلاق حتى العودة إلى القاعدة.

عند مغادرتنا البقاع، سلّم علي أرشيفه الصغير ليسار، ومن ضمنه دفتر صغير مكتوب بخط يده[2]، يحتوي تقويمًا لخمسين دوريةً خلف الخطوط، تمت ما بين 23 حزيران/يونيو 1982؛ أي «خلال الأيام الأولى لحصار بيروت» و28 تشرين الثاني/نوفمبر1983؛ «خلال حصار طرابلس». ولعلّ في هذا وحده تأكيدًا لأول درس تعلمناه عبر مسيرتنا النضالية (أولوية الصراع مع العدو الصهيوني). فعلى الرغم من معارك طرابلس الضارية والمشتعلة، ظلّ التفكير والإعداد باتجاه العدو. ومن هذا الدفتر الصغير، ومن روايات وشهادات أخرى أيضًا، سنحاول القيام بإطلالة على ذلك الفصل المجيد من جهد رجال الدوريات المقاتلة التي أرّقت العدو، وألحقت به خسائر فادحةً، وأسست مرحلةً جديدةً من المقاومة والصمود.

في دفتر علي نجد سردًا للعمليات، ودروسًا مستفادًا منها، وخلاصات مهمّة، إيجابيةً كانت أو سلبيةً، منها أهمية تقدير الموقف على نحو صحيح، وأخذ القرارات، من دون تردد، وضرورة الاهتمام بالروح المعنوية ورفع معنويات الإخوة المتردّدين؛ بالنظر إلى ما يشكّله ذلك من عامل مهمّ في أثناء التنفيذ، إضافةً إلى الاختيار الجيد لمكان الكمين حيث يُحقّق رمايةً مؤثرةً في العدو، فالبدء بالرماية قبل دخول الدورية المعادية بكاملها في نطاق نيران الكمين يمنح العدو فرصةً للدفاع عن النفس، وقائد المجموعة هو آخر من ينسحب، بعد تأكده من أنّ الجميع قد تسلّم أمر الانسحاب من أرض المعركة، فضلًا عن عدم ترك أيّ أثرٍ في مكان الكمين أو في الطريق، والاهتمام بتنظيف الأسلحة، والتأكد من صلاحيتها قبل الانطلاق، واستخدام التمويه بحسب طبيعة الأرض، وهو أمرٌ يعطي الدورية فرصةً كي تحافظ على أمنها، علاوةً على عدم إضاعة الفرصة المتاحة لإبادة العدو، والمسير بحسب أضعف أخٍ للمحافظة على تماسك المجموعة.

كما يُنتبه في هذه الخلاصات إلى قضايا أخرى تتجاوز الإعداد والتدريب والتكتيكات المتبعة. فقدرة الأخ عادل مثلًا على الاختفاء في منطقة عين زحلتا لمدة ستة أيام، تعني إمكان العمل نهارًا، وعدم وصول تعزيزات للعدو بالسرعة

(2) في نهاية الكتاب بعض النماذج بخط علي أبو طوق.

الكافية، على الرغم من وجود قوات كبيرة له في المنطقة، تدل على انهيار معنويات العدوّ. والقيام بتنفيذ عملية نهارًا في وسط مدينة عاليه[3] خلق جوًا وأرضيةً في منطقة الجبل لضرب العدو، حيث حدثت عدة عمليات في المنطقة بعد عملية الباص، فضلًا عن رفع معنويات الجماهير إثر عملية على طريق برج رحال - دير قانون في الجنوب في وضح النهار[4].

تميّزت عمليات الكتيبة باتساع رقعتها الجغرافية، وساعدها على ذلك بقاء عدد كبير من الإخوة اللبنانيين المنتمين إلى الكتيبة والتيار في أماكن انتشارها السابقة في الجنوب، أو إخوتنا في اللجان الوطنية في البقاع والجبل والشوف، ويتضح ذلك من خلال الجدول التالي:

الجدول (10-1)

توزيع العمليات العسكرية بحسب المناطق[5]

(1982-1983)

المنطقة	البقاع	الجبل والشوف	الدامور	الجنوب	بيروت	الجليل الأعلى
عدد العمليات	5	16	5	20	2	1

أمّا من حيث النوعية، فكانت العمليات كما يلي:

الجدول (10-2)

توزيع العمليات العسكرية بحسب النوعية

العملية	كمين	صاروخ م.ط	قصف صاروخي	زرع ألغام وعبوات مسيطر عليها	باصات إيجد	تصفية عملاء
العدد	24	1	9	9	5	2

(3) في 4 تشرين الأول/أكتوبر 1982.

(4) في 10 حزيران/يونيو 1983.

(5) قارن بـ: محمد حمزة، **حرب الاستنزاف: دراسة في التحليل السياسي... والتوثيق العسكري للحرب الفلسطينية - اللبنانية ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي** (عمّان: دار الجليل، 1985).

اعترف العدو في تقاريره الأولى عن هذه العمليات بوقوع 189 إصابةً من بينها 46 قتيلًا، وأسر ثمانية جنود، في حين أنّ خسائرنا لم تتعدّ أربعة شهداء من الكتيبة هم الشهداء: كمال النعلاوي ومحمود ضاهر وعبد الله إسماعيل، وغزال، وثلاثة شهداء من اللجان الوطنية في الجبل كان لهم دور مميّز في تحديد تحركات العدو والمشاركة الميدانية في العمليات ضده، وتقديم الدعم اللوجستي للمقاتلين المشاركين في العمليات. وشهداء اللجان هم نبيل مكارم وأسعد فياض ونضال الحسنية.

العملية الأولى خلف الخطوط

جرت العملية الأولى في 23 حزيران/ يونيو 1982، وبيروت في أوائل أيامها تحت الحصار، ووضع القوات المنسحبة من الجنوب والجبل باتجاه البقاع ما زال غير منظّم. كان ثمّة ارتباك كبير في الصفوف، ونقص كبير من الأسلحة والذخائر، وخوف من أن يتقدّم العدو لإغلاق طريق الشام، بل إنّ بعض الوحدات كانت قد بدأت بالانسحاب باتجاه بعلبك، ولم تكن العلاقة بالقوات السورية في المنطقة مريحةً، إذ كان أيّ عمل عسكري باتجاه العدو يُعدّ بمنزلة محاولة لتوريط القوات السورية.

في ظلّ هذه الأجواء، اتُفق مع الحزب السوري القومي على القيام بعملية مشتركة. أُطلق على الدورية اسم «الشهيد عوض حداد» الذي استشهد في النبطية في بداية الاجتياح. وشارك في العملية كل من ثائر قائدًا للدورية، والشيخ أسامة وعدنان من الكتيبة، واثنان من الحزب السوري القومي؛ أحدهما من سكان المنطقة وكان دليلًا للدورية، والثاني يُسمّى «دوشكا». أمّا هدف الدورية، فكان نصب كمين لدورية للعدو تُقدّر بثلاث آليات على الطريق المؤدية من منطقة عميق باتجاه المنصورية في البقاع الغربي.

كانت حواجز الجيش السوري تمنع الحركة بالقرب من خطوط التماس، وتمنع وصول أيّ فدائي إليها، ما سبّب صعوبةً في الاستطلاع المسبق الذي اعتمد على معلومات الدليل الرفيق من الحزب السوري القومي. وفي الطريق، وعند أذان

المغرب، أفطر من كان صائمًا، واستأنفت الدورية المسير متجنبةً حواجز الجيش السوري.

وصلت الدورية إلى مكان الهدف، وهو موقع للعدو يضم بضعة خيام منصوبة، تسلّل إليها ثائر ومعه الرفيقان من الحزب السوري القومي، في حين بقي الشيخ أسامة وعدنان لتغطية رفاقهما، وكانت الخيام فارغةً. في اللحظة نفسها، سُمع هدير آليات تتقدّم باتجاه الموقع، تموضعت المجموعتان ضمن مسافة عشرين مترًا، وعندما دخلت الآليات منطقة الكمين أطلق الشيخ أسامة قذيفة آر بي جي مضادة للدروع على الآلية الأولى وأصابها معتمدًا على حدسه وسماعه لصوتها يقترب، واشتعلت فيها النار، في حين أطلق أحد الرفاق قذيفة «أنيرجا»[6] على الآلية الثالثة، وفُتحت نيران الرشاشات من المجموعتين على الآلية الوسطى. وقبل أن تنسحب المجموعتان إلى الخلف عبر قنوات مائية في المنطقة، تمكّن ثائر والمجموعة المرافقة له من الوصول بسلام في الليلة ذاتها، في حين اصطدم الشيخ أسامة وعدنان بحواجز الجيش السوري. أمّا الحاجز الأول القريب من مكان العملية، وكان قد شاهدها وشاهد انفجار الآليات، فقد حيّاهما وقال لهما: «ستواجهان حاجزًا آخر بعد قليل، لا تقولَا شيئًا عن العملية أو مشاركتكما فيها. قولَا 'رفيق' فقط وتابِعَا المسير». وفعلًا، قالَا في الحاجز الثاني جوابًا عن سؤال من كان هناك، «رفيق»، واستمرّا بالسير. إلّا أنّ الجندي لحق بهما لأنّ الضابط يريدهما. وأمام الضابط ادّعيا أنّهما رفاق من الحزب السوري القومي، انسحبا من الجبل، وأنّهما في طريقهما إلى مقر الحزب في شتورا، ونفيَا أيّ صلة لهما بالعملية، واحتُجزا في مهجع الجنود بعد أن قام الضابط بتسليمهما ثيابًا عسكرية سورية بدلًا من ثيابهما المبتلة من أقنية المياه. وفي اليوم التالي نُقلا إلى مقر قيادة القوات السورية في مجدل عنجر، حيث التقاهما العماد قائد القوات السورية. وأنكرا مجددًا أيّ صلة بالعملية، وأصرّا على الاتصال بقيادة الحزب السوري القومي في شتورا، بل إنّهما تناولا الشاي مع قائد القوات مُنهيين صيامهما لذلك اليوم، وقد تجنّب عدنان مناداة أسامة بالشيخ.

(6) قنبلة مضادة للدروع تُطلق من بندقية.

أبدى قائد القوات عدم اقتناعه بروايتهما، مصرًا على أنّهما من «فتح»، وأنّهما من قامًا بتنفيذ العملية، لكنّه اتصل، بعد تحقيق استمر حتى العصر، بمسؤول الحزب السوري القومي في المنطقة الذي ما لبث أن حضر وعانق الشيخ أسامة وعدنان وهنأهما بالسلامة، كان قائد القوات يريد مخرجًا، ووجد في تسليمهما إلى الحزب السوري القومي ذلك المخرج، ودّعهما وقال: «لو لم تكونَا من الحزب السوري القومي لأرسلتكما إلى السجن العسكري، لكن احنا والرفاق الحال واحد». وفي شتورا وسعدنايل، استقبلهما مئات الأشخاص بالورد والأرز.

كان عبور الحواجز السورية، أكان باتجاه خطوط التماس، أو نحو قواعد الارتكاز التي أقمناها في الجبل في دير الحرف ورويسة البلوط وصوفر، يمثّل مشكلةً دائمةً. فبعد عملية أسر الجنود الثمانية – وهي أكبر عملية أسر لجنود صهيونيين في تاريخ الثورة الفلسطينية – اضطررنا إلى تسليم اثنين منهم إلى الجبهة الشعبية (القيادة العامة) كي نتمكّن من عبور الحواجز السورية من الجبل باتجاه البقاع، وتعرّضت مواقعنا في الجبل مرات عدة لحصار ومحاولات إخلائها تحت ذرائع مختلفة. وفي أحد الأيام، استدعى العميد قائد اللواء السوري أبو رحمة وطلب منه إخلاء القاعدة فورًا. رفض أبو رحمة وقال: «بإمكانكم اقتلاعنا بالقوة لكنّنا لن نغادر موقعنا». قال له قائد اللواء: «اسمع، لقد كنتُ أنسّق في الجولان مع نعيم والحاج حسن، لذلك تأخر 'ترفيعي'، لا تُخلي القاعدة لكن غيّر موقعها قليلًا، اذهب بين تلك الأشجار القريبة».

كان ثمّة شعور وطني كبير بين أفراد الجيش السوري وضباطه. لذا، فإنّ بعض التشدّد الذي كنّا نلمسه أحيانًا لم يكن يستمر سوى بضعة أيام، ثمّ يخفّ بالتدريج ليعود مرةً أخرى من جديد، كما كان سائق سيارة التموين مفوضًا بتقديم أيّ خدمات ممكنة لضباط الحواجز وهو في رحلته اليومية بين البقاع والجبل، محمّلًا بما سبق أن أوصوه به في اليوم السابق. أمّا الأحزاب والمنظمات الأخرى، فكان لديها تصاريح بالمرور. أمّا تصاريحنا نحن، فكانت الطرق الالتفافية، والكلمة الحلوة، والموقف الوطني، وقليل من القطران.

أبو علي الشبل

تردّد حمودة الشبل (أبو علي)[7] – كما كنّا نسمّيه – على فصيل الرشاشات القريب من منزله في النبطية، وأصرّ على الالتحاق به. قال له خالد وعلي إنّ شرط الالتحاق بالفصيل هو المواظبة على الدراسة في المدرسة والنجاح فيها. كان حمودة معروفًا لدى كل عناصر الكتيبة بشجاعته وبابتسامته الجميلة التي لا تفارق محيّاه.

خلال حصار بيروت، وفي الأيام الأولى، أرسله أبو حسن قاسم إلى النبطية من جديد. ولصغر سنّه، لم يلفت نظر الحواجز الإسرائيلية على الطريق، وقد كلّفه أبو حسن بإحراق مكاتب الكتيبة والأوراق الموجودة فيها، وكذلك بتفجير مستودعات الذخيرة، قام أبو علي بهذه المهمات على أكمل وجه، كما قام بإلقاء قنابل يدوية على دوريات للعدو في قلب مدينة النبطية، وعندما كُشف أمره نام بين أغصان الشجر. وكانت عملياته التي قام بها من أولى عمليات المقاومة في لبنان.

باصات إيجد[8]

انتشر العدو على مساحة واسعة في لبنان تمتد ما بين الحدود الفلسطينية – اللبنانية حتى أطراف بيروت، وصولًا إلى سهل البقاع والجبل والشوف، ما يعني امتداد خطوط مواصلاته على مسافة كبيرة. في المرحلة الأولى لجأ العدو إلى استخدام باصات «إيجد» لنقل أعداد المجازين من مواقعهم في لبنان باتجاه الداخل الفلسطيني، حيث ينقل كل باص عددًا لا يقلّ عن خمسين جنديًا إسرائيليًا، وكان يرافق كل باص آلية مدرعة وسيارة عسكرية.

انتبه الإخوة إلى هذا الصيد الثمين، وبدأ الإعداد لمثل هذا النمط من العمليات. اختيرت مدينة عاليه في الجبل لتكون موقع الهجوم الأول، بعد

(7) يُعرف الآن بـ«أبو علي الشبل» وهو من قادة فتح في مخيم الرشيدية.

(8) شركة الباصات العاملة على الخطوط الداخلية في الكيان الصهيوني.

أن لاحظ إخوتنا في اللجان الوطنية هذه الظاهرة. وعلى الفور بدأت العجلة بالدوران، واختيرت المجموعة التي شُكّلت من يوسف قائدًا لها، بمشاركة سعيد وخليل وبلال ووجدي ووليد. تجمّعت المجموعة فترةً زمنيةً كافيةً في أحد المواقع الخلفية، وتعوّد أفرادها الحديث باللهجة الجبلية. أُمّن منزل ملائم في عاليه لإيواء المجموعة، ونُقلت أسلحة المجموعة إليه. وفي ما بعد، جُهزت بطاقات هوية لبنانية للفلسطينيين من أفراد المجموعة، ونُقلوا إلى عاليه في سيارة مدنية. استقرت المجموعة في المدينة، وبدأت تبحث عن صيدها الثمين، وفي صباح كل يوم يجول أفرادها في شوارع البلدة لمراقبة حركة الباصات. أُتيح للمجموعة أكثر من فرصة، لكنّ التعليمات واضحة، يجب أن يكون الباص ممتلئًا بالجنود. واتفق أن كان وقوفهم مع جنود صهيونيين في محالّ لبيع الشاورما أو الحلويات، ففكّروا في تعديل هدف العملية واختطاف جنود وأسرهم. أرسلوا رسولًا للبقاع وجاء الردّ في اليوم نفسه، لا تعديل بشأن الخطة الأصلية، الهدف ضرب باص «إيجد» محمّل بالضباط والجنود لإرباك خطط العدو في نقل أفراده.

أخيرًا، وبعد عشرة أيام كاملة، وفي الرابع من تشرين الأول/ أكتوبر 1982، وصل الهدف المنشود، باص ممتلئ عن آخره، وخلفه عربة مدرعة لحراسته. قفز الإخوة في السيارة، وقاد وجدي ابن الجبل السيارة عبر طريق التفافية ليواجه الباص، وفي الطريق لبس الإخوة جعبهم[9]، وجهزوا أسلحتهم المخبأة تحت المقاعد. وصلت السيارة إلى أعلى الجبل، كان الباص لا يزال يصعد طريق عاليه – بحمدون والعربة المدرعة خلفه. قفز الإخوة من السيارة وأطلقوا الرصاص وقذائف الـ «أنيرجا» على الباص. قُتل السائق من الطلقات الأولى، فتراجع الباص إلى الخلف واصطدم بالعربة المدرعة، ما أدّى إلى انقلابها. أفرغ الإخوة ذخيرتهم على الباص، ولم يواجهوا أيّ مقاومة تُذكر، وانسحبوا من المكان بسيارتهم. أنزلهم وجدي من السيارة ليتابعوا مشيًا على الأقدام حتى وصلوا إلى قاعدة الارتكاز القريبة. خبأ وجدي السيارة، وفي اليوم الثاني حضر

(9) الحقائب التي تحمل مخازن الذخيرة والقنابل.

مصباح ونقلها إلى بيروت. اعترف العدو على الفور بالعملية، وادّعى أنّه خسر ثمانية قتلى، وأنّ عدد الجرحى واحد وثلاثون جريحًا منهم ضابط برتبة مقدم، وآخر برتبة نقيب، وثلاثة ضباط صف. وقد أُطلق على هذه العملية اسم «شهداء قلعة الشقيف».

تكرّر هذا العمل في الجنوب اللبناني، إذ قامت وحدة الشهيد غسان التكروري[10] المؤلفة من أبو الفدا قائدًا ومحمود[11] وطارق وطعان[12] باستهداف باص بالقرب من جسر القاسمية على نهر الليطاني وقتلت بعض من فيه وجرحت بعضهم الآخر[13]. وبالقرب من بيروت على الطريق بين عرمون وخلدة، قريبًا من بلدة كفر سيل، نُفّذت عملية شهداء «صبرا وشاتيلا»[14]. قاد مجموعة الشهيد سعد صايل (الشهيد) كمال النعلاوي (أبو علي)[15]، وضمّت المجموعة كلًا من عصام[16] وعبد الله إسماعيل[17] وفادي سمّور[18] وحسن. واستهدفت قافلةً أخرى لقوات العدو تتكون من باص لنقل الجنود وسيارتين مسلحتين لحراسته. استغرق الإعداد لهذه العملية 15 يومًا، إذ قام حسن أولًا باستطلاع للمنطقة، ثمّ توجّه إليها مع (الشهيد) أبو علي لتحديد مكان الكمين وطرق الانسحاب. نُقلت الأسلحة إلى منطقة قريبة من بيصور قبل العملية بيوم، في حين تحرّك أفراد الدورية من دير الحرف باتجاه العبادية فَبيصور، ومن هناك إلى مكان الكمين بعد استلامهم سلاحهم، وشارك في نقل الدورية سالم ووجدي.

(10) من الخليل، استشهد في كفر تبنيت في 6 حزيران/ يونيو 1983.

(11) (شهيد)، محمود ضاهر، من قرية الزرارية، واستشهد في عملية عسكرية في منطقة أبو الأسود، في 21 آب/ أغسطس 1983، بعد أن تولى قيادة مجموعات مقاومة في المنطقة وتنفيذ عشرات العمليات.

(12) أصبح رئيسًا لبلدية إحدى القرى في جنوب لبنان.

(13) في 28 تشرين الأول/ أكتوبر 1982.

(14) في 7 كانون الثاني/ يناير 1983.

(15) كان قائدًا لفصيل مدفعية هاون في اجتياح 1982، وقد تمكّن فصيله من تحقيق رماية أكثر من 400 قذيفة من دون أن يُكتشف.

(16) استشهد لاحقًا في مخيم شاتيلا خلال حصاره.

(17) استشهد في العملية.

(18) استشهد في معركة تحرير الجبل في قبرشمون في عام 1983.

اتفق، أيضًا، أن كان هذا هو اليوم الذي يُحتفل به كيوم للشهيد. نصبت المجموعة الكمين وسمحت بمرور عدة سيارات وآليات للعدو في انتظار مرور باص على الطريق. كانت عملية عاليه السابقة بمنزلة حافز للمجموعات لتنفيذ شيء يشبهها أو يفوقها.

في الساعة الحادية عشرة والربع ظهرًا، مرّت قافلة للعدو مكونة من باص كبير وسيارة عسكرية في الأمام وسيارتين عسكريتين في الخلف، وعند دخول القافلة في منطقة نيران الكمين تولّى فادي تدمير السيارة الأولى بقذيفة أنيرجا، في حين أطلق أبو علي وعبد الله قذائف B7 وأنيرجا على الباص، وتولّى عصام وباقي المجموعة فتح نيران أسلحتهم على القافلة، كان هناك إصرار من أبو علي على أن يُحضر بندقية من أحد قتلى العدو. لذا، تقدّم من خلف الساتر باتجاه الباص ورماه بقذيفة أنيرجا أخرى وطلقات من رشاشه طالبًا من عصام أن يقوم بحمايته، لكنّ جنديًّا صهيونيًّا جريحًا تمكّن من إصابة أبو علي قبل أن يتدخل حسن ويقتله.

في الوقت ذاته، صادف مرور دورية عسكرية أخرى في المكان، واشتبكت مع الإخوة، ما أدى إلى استشهاد عبد الله. انسحبت المجموعة باتجاه «عبيه»، في حين انسحب أبو علي وهو جريح بمساعدة عصام، لكنه بعد خمسمئة متر، تقريبًا، سقط على الأرض فاقدًا وعيه والدماء تغطي وجهه ورقبته، فقد كانت إصابته في منطقة الرقبة، واعتقد عصام أنّ أبو علي قد استشهد. عاد باقي أفراد المجموعة إلى قواعدهم بعد أن كبّدوا العدو الصهيوني أكثر من ثمانين إصابةً ما بين قتيل وجريح، فضلًا عن تدمير باص وأربع سيارات عسكرية.

عدّت الأوساط الصهيونية هذه العملية بمنزلة نقلة عسكرية نوعية في مسار المقاومة، واكتسبت العملية أهميةً كبرى لوقوعها على بعد كيلومترين ونصف الكيلومتر من مقر المفاوضات التي كانت تجري مع ممثلي الحكومة اللبنانية، ورفعت الروح المعنوية للمواطنين في المنطقة وفي لبنان عمومًا. ومن الجدير بالذكر أنّ أحد المواطنين تولّى رعاية عصام وتزويده بالطعام والشراب وإخفاءه عن أعين القوات الإسرائيلية، ونقله في ما بعد إلى منطقة دير الحرف.

اعتقد الإخوة أنّ أبو علي قد استشهد فنعوه، وأصدروا له ملصقًا، وقاموا بتنفيذ عملية لاحقة باسمه. لكنّ أبو علي كان جريحًا وأُسر، وبعد التحقيق معه نُقل إلى معسكر أنصار[19]. وفي المعسكر، التقى أبو علي بوجدي الذي كان قد سبق أن شارك في عملية عاليه، وشارك في نقل دورية أبو علي لاحقًا. وكان وجدي معتقلًا على خلفية الاشتباه في نشاطه في مقاومة العدو، من دون أن يتمكّن العدو من إدانته بشيء محدّد.

شارك وجدي وأبو علي مع رفاق لهم في المعسكر في حفر نفق بلغ عمقه مترين ونصف المتر، وبلغ طوله سبعةً وثلاثين مترًا، تناوب عليه خمسة عشر فدائيًا، حفروه بأظافرهم، وبإرادتهم وصمودهم. وعندما حانت اللحظة الملائمة، تمكّن 76 شخصًا من الهروب منه. توزّع الهاربون على عدة مجموعات لتشتيت قدرة العدو على مطاردتهم. تشكّلت المجموعة التي ضمت أبو علي ووجدي من سبعة أشخاص، وما لبث أن غادرها اثنان من أبناء مخيم عين الحلوة، كما غادرها وجدي عند وصول المجموعة إلى بلدة شحيم حيث يعرف المنطقة، وبإمكانه الوصول منفردًا بسرعة لإبلاغ قيادة الكتيبة بشأن باقي المجموعة، وترتيب انتقالهم إلى المواقع الخلفية. في حين انتقل باقي الإخوة إلى المختارة حيث قصر وليد جنبلاط في عهدة الحزب التقدمي الاشتراكي، وقد اقترح عليهم الحزب البقاء معهم، لكنّهم أصرّوا على الالتحاق بإخوانهم.

بعد أيام من مكوثهم بالقصر، حضر أحد الأشخاص وأطلق على نفسه اسم نصري مدعيًا أنّه من المتن، ومن طرف وليد جنبلاط. ووعدهم بأنّه سيؤمّن لهم طريق الخروج. في الوقت ذاته، كان علي قد أرسل سيارةً لتأمين نقل هؤلاء الإخوة إلى الخطوط الخلفية. وفي اليوم السادس من وصولهم إلى المختارة،

(19) معسكر أقامه العدو الصهيوني بالقرب من بلدة أنصار في الجنوب لاحتجاز الأسرى اللبنانيين والفلسطينيين فيه، وقد أقفل المعسكر وأفرج عن 4500 أسير كانوا به في عملية تبادل الأسرى التي جرت في نهاية عام 1983.

ركب الإخوة سيارة إسعاف يقودها أحد أفراد الحزب التقدمي الاشتراكي. وفي الطريق، لحقت بهم سيارة بها سائق وشخص آخر، طلبت منهم التوقف. تعرّف إليهم أبو علي وقال إنّهم من الكتيبة، لكنّ سائق الإسعاف لم يتوقف. فكان هناك كمين إسرائيلي بانتظارهم شارك فيه أكثر من مئة جندي وطائرة مروحية وآليات عسكرية. واستمر إطلاق النار أكثر من نصف ساعة، وأسفر ذلك عن استشهاد الأخوين اللذين كانا في السيارة، كما استشهد أبو علي، ومحمود سعد، وجُرح كل من محمود حميدي وعادل سليمان وأحمد أبو سمرة[20]. وكان قائد الكمين الصهيوني هو نصري الذي تبيّن أنّه ضابط استخبارات في الجيش الإسرائيلي.

هكذا استشهد أبو علي مرتين، وما زال جثمانه محفوظًا في مقبرة الأرقام في الأرض المحتلة، على الرغم من مطالبة ذويه في طولكرم به.

استمرار العمليات

تتالت العمليات وتنوعت أساليبها ووسائلها، وهذه نماذج لبعض هذه العمليات التي حدثت في الفترة الأولى وبيروت لا تزال محاصرةً.

قاد فارس دوريةً شاركه فيها أبو القاسم، ومحمد علي، وغسان، أبو ثائر، والأسمر، وكان هدفها نصب كمين لآليات العدو على الطريق المؤدية من نبع الصفا إلى المريجات في منطقة الشوف[21].

تولّى أبو الفدا قيادة مجموعة مكوّنة من أبو الفوارس وفتحي للقيام بقصف موقع للعدو في سهل عميق بواسطة صواريخ من عيار 107 ملم و3.5 بوصة. ضُبط توقيت إطلاقها بعد ساعة من انسحاب المجموعة، ما أدى إلى قتل وجرح سبعة أفراد[22].

(20) العقيد أحمد أبو سمرة مقيم في غزة، ويعمل في الجمعية العلمية وقد تفضل مشكورًا بأن أرسل إليّ تفصيلات قصة الهروب، في حين روى الأخ وجدي الجزء الثاني منها.

(21) في 20 تموز/ يونيو 1982.

(22) في 9 آب/ أغسطس 1982.

تحرّكت مجموعة بقيادة أبو رحمة إلى وادي الجماجم، حيث نصبت اثني عشر صاروخًا في شكل ثلاث مجموعات، باتجاه ثلاثة مواقع لمدفعية العدو كانت تقصف بيروت المحاصرة، وقد اعترف العدو بقتل أربعة من جنوده. وغنيّ عن القول ماذا يعني «نقل اثنا عشر صاروخًا»؟ إضافةً إلى عدد أفراد المجموعة التي قامت بنقل هذه الصواريخ وحملها على امتداد الطريق[23].

توالت عمليات القصف، إذ قُصف مطار الدامور أكثر من مرة[24]، ومطار عميق[25]، ومستوطنة روش هانيكرا في الجليل الأعلى[26]، وقُصف تجمّع للعدو في منطقة قبرشمون[27] وعاليه[28].

قامت مجموعة أخرى بقيادة الشهيد هاني كمال، وهي تضم أبو نصّار، زياد، أبو فخري وأبو حميد، بزرع ألغام على الطريق المؤدية من المريجات باتجاه وادي شارون، ونصب كمين لإحدى دوريات العدو على طريق المريجات – عين زحلتا في الشوف. لم تمرّ الدورية المعادية في هذا اليوم، لكنّ الألغام انفجرت في العاشرة من صباح اليوم التالي، فأسفرت، باعتراف العدو، عن مقتل ستة من جنوده، بينهم ضابط برتبة مقدّم[29]. وفي كمين آخر في هذه المنطقة بعد نحو تسعة شهور، وعلى طريق عين زحلتا – الباروك، قامت دورية بقيادة عادل، وضمّت بلال مهنا، سعيد، أبو نضال ووليد، بنصب كمين لدورية راجلة للعدو نهارًا، ودار اشتباك قريب من مسافة صفر، استُخدمت فيه المسدسات والرشاشات، وأجمع أهل المنطقة على مقتل ثمانية من جنود العدو. وقد ساعد رفاق من الحزب التقدمي الاشتراكي هذه المجموعة على الانسحاب والوصول إلى صوفر[30].

(23) في 4 آب/ أغسطس 1982.

(24) في 8 حزيران/ يونيو 1983، و8 آب/ أغسطس 1983.

(25) في 16 آب/ أغسطس 1983.

(26) في 20 تموز/ يونيو 1983.

(27) في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر 1982.

(28) في 1 كانون الأول/ ديسمبر 1982.

(29) في 10 آب/ أغسطس 1982.

(30) في 9 أيار/ مايو 1983.

في الفترة اللاحقة، انتقل زخم العمليات إلى الجنوب، حيث شهدت مناطق العيتانية[31] والقاسمية والزرارية[32] وأبو الأسود[33] وأنصار والدوير[34] ودير قانون والعباسية[35] وديردغيا[36]، كمائن ودوريات عدة، لعلّ أبرزها ذلك الكمين على مفترق بلدة العباسية وبرج رحال، في الساعة السادسة صباحًا، وقد نصبه أبو فؤاد وخالد ومصطفى وفؤاد. وحينئذ، دام الاشتباك خمس عشرة دقيقة، وأسفر عن تدمير ثلاث آليات، واعترف العدو بثلاثة قتلى، وسبعة جرحى، وبين القتلى ملازم يُسمّى نفتالي ووليس. وأدى الكمين إلى رفع الروح المعنوية للجماهير في منطقة صور[37]. ومن أبرز العمليات أيضًا عملية أبو الأسود[38] التي شارك فيها حسان وحمود ومحمود وكريم، التي أسفرت عن تدمير ثلاث آليات للعدو، واستشهاد محمود ضاهر.

كما نُفذت عمليات لتصفية عملاء، كان أبرزها عملية اقتحام منزل المسمّى «أبو فراس» في صيدا، المحروس بعشرة عناصر، وتصفيته بعشرين طلقة نارية، وقد كان ضابطًا في قيادة قوات القسطل برتبة ملازم أول[39]. ونُفذت أيضًا عملية إلقاء قنبلة يدوية على سيارة العميل أبو عامر بين صور والرشيدية، ما أدى إلى إصابته بجراح.

سعت الكتيبة إلى إشراك وحدات أخرى معها في مقاومتها للعدو الصهيوني. فمن مشاركة أعضاء في اللجان الإسلامية في محاولة قصف كتيبة للعدو متمركزة في منطقة الزهراني بصواريخ 107 ملم[40]، إلى مشاركة مقاتلين

(31) في 6 و13 شباط/ فبراير 1983.
(32) في 28 آذار/ مارس 1983.
(33) في 17 و28 آذار/ مارس 1983.
(34) في 25 أيار/ مايو 1983.
(35) في 8 آب/ أغسطس 1983.
(36) في 25 آب/ أغسطس 1983.
(37) في 10 حزيران/ يونيو 1983.
(38) في 21 آب/ أغسطس 1983.
(39) في 25 كانون الثاني/ يناير 1983.
(40) في 1 كانون الثاني/ يناير 1983.

من كتيبة الجليل (خالد، نضال، مطيع ومحمود حماد) مع إخوانهم في الجرمق ((الشهيد) أبو حمدي[41]، جراد وغسان) بقيادة أبو نضال، في نصب كمين ليلي لدوريات العدو على طريق عين زحلتا - بريج، حيث دُمرت ملالتان[42] وأُصيبة عشرة من جنود العدو[43].

أمّا في مجال العبوات الناسفة والمسيطر عليها والألغام، فقد نُفّذت إحداها في منطقة قبرشمون - عيتات في الجبل، حيث دُمرت آليتان، واعترف العدو بمقتل ضابط صف وجرح أربعة[44]. وزُرعت عبوة أخرى بين كفر نبرخ ومعاصر بيت الدين، اعترف بها العدو وبوقوع عدد من الإصابات بين صفوفه[45]، وأخرى بين الناعمة وخلدة أدّت إلى تدمير شاحنتين وسيارة «لاند روفر»، واعترف العدو بمقتل جندي، وجرح سبعة من جنوده[46]، وبتفجير دبابة بسبب عبوة زُرعت على جسر القاضي[47]، في حين قام حسين وعقل وحسن بإلقاء قنابل يدوية على دورية للاستخبارات الإسرائيلية في وسط مدينة النبطية مكوّنة من سيارة مدنية وأخرى عسكرية[48]. وزُرعت ألغام بين بلدة غزة والمنصورية، ما أدّى إلى تدمير جرّافة وقتل سائقها[49]، ومرةً أخرى، وفي المنطقة نفسها، أدّى انفجار لغم إلى تدمير دبابة وقتل طاقمها، إلّا أنّ أبرز عملية، في مجال زرع العبوات الناسفة المسيطر عليها تمّت في مدينة عاليه[50]، في الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين ظهرًا على الطريق العامّ نحو

(41) استشهد في اشتباك كبير مع العدو الصهيوني بالقرب من بلدة الزرارية في الجنوب اللبناني مع (الشهيد) خليل حمادة، في 23 نيسان/ أبريل 1985، وشُيّع جثمانيهما في بيروت في تظاهرة حاشدة.
(42) الملالة هي عربة مصفحة.
(43) في 15 نيسان/ أبريل 1983.
(44) في 10 نيسان/ أبريل 1983.
(45) في 7 أيار/ مايو 1983.
(46) في 9 أيار/ مايو 1983.
(47) في 3 حزيران/ يونيو 1983.
(48) في 29 أيار/ مايو 1983.
(49) في 26 تموز/ يوليو 1983.
(50) في 12 حزيران/ يونيو 1983.

دوار عاليه. كانت العبوة كبيرة، زُرعت في جدار استنادي، وتكوّنت من ثماني قذائف هاون 82 ملم، وخمسة كيلوغرامات من المتفجرات البلاستيكية، ومن كيلوغرامين من الـ «تي إن تي» (TNT)، وتميّزت العملية بالصبر والنَفَس الطويل. فقد استمرت المجموعة تنتظر هدفًا دسمًا لمدة أسبوع كامل، حتى مرّت شاحنة محمّلة بالجنود ترافقها سيارة عسكرية، وأدّى الانفجار إلى تدميرها تمامًا وقتل من كان فيها، وما زال أهالي عاليه يتحدّثون عن هذه العملية حتى اليوم. وثمّة عملية أخرى لافتة، تمكّنت فيها مجموعة من التسلّل إلى تجمّع إداري للعدو في منطقة الشوف (السمقانية)، ومن زرع عبوة زنتها خمسة كيلوغرامات تحت شاحنة محمّلة بالذخائر، ما أدّى إلى انفجار هائل دمّر الموقع بالكامل، وقَتل 75 جنديًا، ودمّر 18 آليةً. وقال الأهالي إنّ قطع اللحم قد تناثرت إلى مسافة بعيدة. والطريف أنّ العدو الذي اعترف بوقوع الحادثة، ادّعى أنّ أحد أفراده كان يعبث بقنبلة يدوية انفجرت، فأدّى ذلك إلى تفجير الشاحنة[51].

ثمّة فترة ثانية للعمليات لا يتضمنها دفتر الشهيد علي أبو طوق، وأظنّها ضاعت مع باقي أوراقه خلال حصار مخيم شاتيلا، وهي تلك الفترة الممتدة بين عامي 1985 و1987. وعلى الرغم ممّا شهدته هذه الفترة من حصارٍ للمخيمات، وانكفاء لوضع المقاومة الفلسطينية، في ظلّ الصراع السوري - الفلسطيني، فإنّ فيها عشرات العمليات في الجنوب اللبناني قد نُفّذت، روى لي بعضها رفاق علي. وشهدت بيروت في نيسان/أبريل 1985 تشييعًا لشهيدين سقطا في إحدى هذه العمليات. كما أنّ الراية قد انتقلت خلال هذه الفترة وما بعدها إلى المقاومة الإسلامية التي انضمّ إليها وعمل في صفوفها عشرات المناضلين الذين كانوا سابقًا في صفوف الكتيبة والتيار.

(51) في 15 كانون الأول/ ديسمبر 1982.



الفصل الحادي عشر

الانشقاق وطرابلس

كانت أثينا هي المرفأ الذي اختاره ياسر عرفات بعد مغادرته بيروت، وقد استقبلت أثينا أبو عمّار كما استقبلت قبله بيوم جرحى الحرب؛ لأنّ الجرح الفلسطيني لم يجد له بلسمًا شافيًا في أيّ عاصمة من عواصم العرب.

لم تنتهِ القصة هنا، كما أنّها لم تبدأ من هنا. فالخلاف السوري - الفلسطيني بدا واضحًا للعيان منذ ما بعد حرب تشرين الأول/أكتوبر 1973، وسعي العرب للّحاق بقطار التسوية المرتقبة، ومحاولة ياسر عرفات الحصول على مقعد للفلسطينيين فيها.

كثيرًا ما كانت العلاقة الفلسطينية - السورية بين مدٍّ وجزرٍ. فقد وجدت الثورة الفلسطينية في البدايات احتضانًا لها من سورية. وفي بداية الحرب الأهلية اللبنانية (حرب عامي 1975 و1976)، تحالفت المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية مع سورية، لكنّ هذا التحالف تحوّل في مرحلة متقدّمة من تلك الحرب الأهلية إلى خصومة واقتتال عبر مواجهات ضارية في المتن، وبحمدون وشرق صيدا. وسادت العلاقة أجواء من التوتر والحذر وعدم الثقة، وقد تعزّزت هذه الأجواء خلال حرب 1982 وحصار بيروت. والمفارقة هنا أنّ أبطال الانشقاق في «فتح» كانوا من دعاة التصدّي للقوات السورية في لبنان في مرحلة سابقة.

تمهيد للانشقاق

كان نظام الرئيس حافظ الأسد يسعى جاهدًا للإمساك بأوراق اللعبة السياسية في المنطقة، وفي مقدّمتها الورقة الفلسطينية. وكان أبو عمّار يسعى

جاهدًا للإفلات من القبضة السورية والمحافظة على استقلال القرار الفلسطيني، وكان لبنان الساحة المتنازع عليها.

وتجلّى الخلاف واضحًا بين الفريقين في قمة فاس (في السادس من أيلول/ سبتمبر 1982)، إذ تخلّف الرئيس الأسد عن الاستقبال الجماعي الذي نظّمه الملوك والرؤساء العرب للزعيم الفلسطيني في المطار، وكان الأسد الزعيم الوحيد الذي لم يلتقِ بعرفات خلال عقد القمة العربية.

احتجّ نمر صالح (أبو صالح) عضو اللجنة المركزية لحركة فتح على قرارات القمة، وأصدر مع أبو ماهر اليماني (الجبهة الشعبية)، وطلال ناجي (القيادة العامة)، تصريحًا صحافيًا ضدها، وغادروا فاس في طائرة الرئيس السوري المتجهة إلى دمشق، وكان أبو صالح قد اجتمع إلى الرئيس السوري سبع ساعات في دمشق قبل القمة.

في السابع والعشرين من الشهر نفسه اغتيل (الشهيد) سعد صايل (أبو الوليد)، مدير العمليات المركزية وبطل معركة بيروت، بإطلاق النار على موكبه في سهل البقاع، وكان اغتيال أبو الوليد – وهو الذي كان يحظى باحترام ومحبة وثقة من جهة الكادر العسكري والسياسي – المقدّمة الضرورية للعبث في جسم قوات العاصفة[1].

من المقدّمات التي أشارت أيضًا إلى استهداف النظام السوري لأبو عمّار، ما حدث خلال الاحتفالات في ذكرى انطلاقة الثورة التي عُقدت في سياقها دورةٌ للمجلس الثوري لحركة فتح في عدن. فقد نُظمت للمناسبة احتفالات فنية، إضافةً إلى عرض لوحدات عسكرية فلسطينية استدعيت من السودان وتونس واليمن والعراق. لكنّ المعارضة الفلسطينية ووسائل الإعلام

(1) لم تتضح ملابسات الاغتيال تمامًا. وما هو معروف أنه حدث في منطقة تسيطر عليها القوات السورية، وأنّ الكمين كان يضم عناصر من حركة أمل تتبع المسؤول العسكري فيها أبو يحيى، وقد تنصلت حركة أمل من الكمين. وتفيد الرواية الشائعة أنّ هذا الكمين كان مُعدًا لأحد قادة فتح في المنطقة لم يكن على وفاق مع أبو يحيى. لكن تبقى حقيقتان؛ الأولى أنّه لا توجد معلومات مؤكدة حول ذلك، والثانية أنّ غيابه قد خلق فراغًا كبيرًا سهّل عملية الانشقاق.

السورية تناولت هذه الاحتفالات بانتقادات شديدة، غير أنّ الحدث الأبرز كان في تقديم العقيد أبو موسى مذكرة للمجلس الثوري، تضمّنت اتهامات قاسية للقيادة، مطالبًا إياها بعقد مؤتمر للحركة في مدة لا تتعدّى أسبوعين، ووزّعت المذكّرة بكثافة في وسائل الإعلام، وفي صفوف القوات في سورية ولبنان خلال عقد المجلس، وشكّلت هذه المذكرة بداية إعلان واضح لما عُرف لاحقًا باسم «التيار الوطني الديمقراطي في فتح»، وقد واصل لقاءاته بهذه الصفة مع فصائل المعارضة الفلسطينية، واجتمع إلى العقيد القذافي الذي وعَد بتمويل حركة الانشقاق بمبلغ ستة ملايين دولار شهريًا بترتيب من أحمد جبريل، وأنشئ إثر ذلك غرفة عمليات مشتركة مع «الصاعقة»[2]، و«القيادة العامة»[3]، و«جبهة النضال الشعبي»[4].

في ما بعد، تفاخر أبو صالح الذي عَدّ نفسه الحليف الرئيس لسورية أنّه أمضى ثماني عشرة ساعة من المحادثات مع الرئيس السوري في الأسابيع التي سبقت إعلان الانشقاق، تُوجّت بلقاء تحدّثت عنه وسائل الإعلام بإسهاب في بداية أيار/ مايو 1983. وردّت اللجنة المركزية بتجميد عضوية كل من أبو صالح وقدري فيها، وأصدر أبو عمّار مجموعةً من القرارات العسكرية تضمّنت نقل العقيد أبو موسى وأبو خالد العملة إلى مقر القيادة المستحدث في تونس، وتعيين بعض الضباط الذين أثير جدل واسع حول أدائهم خلال حرب 1982، في مواقع قيادة القوات، كما طُعّمت هذه القرارات بترفيع بعض الكوادر العسكرية من أبناء العاصفة، وتعيينهم نوابًا لقادة القوات الثلاث التي أُعيد تأليفها في لبنان، إلّا أنّ المؤسف أنّ عددًا من هؤلاء ما لبثوا أن غادروا مواقعهم، وانضمّوا إلى الانشقاق بعد بضعة أيام، أو أسابيع، لكنهم غادروه بعد ذلك.

(2) طلائع حرب التحرير الشعبية – قوات الصاعقة هو تنظيم فلسطيني تابع لحزب البعث العربي الاشتراكي – الجناح السوري.

(3) الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة تنظيم فلسطيني يتزعمه أحمد جبريل.

(4) تنظيم فلسطيني أسسه سمير غوشة وتعرض لاحقًا لانشقاقات عدة.

كان من الواضح أنّ عبئًا ثقيلًا قد أُلقي على عاتق أبو عمّار وأبو جهاد بعد اغتيال أبو الوليد الذي كان يقوم بإعادة تنظيم القوات الفلسطينية في لبنان. وأدّى هذا الفراغ إلى إرباكٍ في وضع قوات «فتح» وإثارة الكثير من الأسئلة المشروعة حول مستقبل النضال الفلسطيني بعد الخروج من بيروت. لكنّ المبادرات التي قامت بها بعض الوحدات؛ مثل مجموعات القطاع الغربي وكتيبة الجرمق التي أعادت بسرعة تنظيم صفوفها والتوجه إلى القتال خلف خطوط العدو الصهيوني، ونجحت في أسر ثمانية من جنود العدو، واستهدفت على نحو كثيف حركة باصات الجنود الصهاينة المجازين في عاليه وعرمون وأبو الأسود، عوّضت هذا الجانب تعويضًا جزئيًا.

كان أبو عمّار متأكدًا من ترتيبات الانشقاق حين اتخذ قراراته التي عُدّت دافعًا للإعلان عن حركة الانشقاق، إلّا أنّ قرارات عرفات لم تكن كافيةً لمواجهة الانشقاق، فهي قد اعتمدت بالدرجة الأولى على معايير الولاء والطاعة التي لم تكن - على أهميتها - لتنجح في مواجهة حالة انشقاق جديّة مدعومة من دولتين عربيتين (سورية وليبيا)، وتُغلّف نفسها بشعارات الإصلاح الداخلي، ومُحاربة الفساد، ومُناهضة التسويات المطروحة، والدعوة إلى عودة القوات التي خرجت من بيروت إلى الساحة اللبنانية مجددًا. لذا، سرعان ما اضطر أبو عمّار، أمام تطوّر الحوادث، إلى إلغاء معظمها، كما اضطر بالتدريج إلى الاعتراف بوجود الانشقاق، ومواجهته بقوة وصلابة، بعد أن كان يتحدّث عن تمرّد لبضعة عناصر يمكن احتواؤه.

على الصعيد الميداني، سيطر العقيد أبو موسى في التاسع من أيار/مايو 1983 على كتيبتين من قوات اليرموك من أصل ثلاث كتائب، بعد أن سلّمته الاستخبارات السورية ستين طنًا من الأسلحة المصادرة من مستودعات «فتح»، كما انضمّت إلى حركة التمرد وحدات من جيش التحرير في منطقة الروضة في البقاع. وترافق ذلك مع إصدار بيان يتهم قيادة «فتح» بتسهيل التسوية الأميركية، وتمزيق وحدة حركة فتح، ودعوة إلى التحالف مع سورية، وإلغاء قرارات النقل والتعيينات التي شملت «المنحرفين والمهزومين»، مع المطالبة

بتسريحهم وتحويلهم إلى المحاكمة، فضلًا عن المطالبة بعقد مؤتمر للحركة من حقّ المنشقين تعيين نصف أعضائه، والمطالبة بتعيين قيادة موقتة، إلى حين عقد المؤتمر، يكون فيها العقيد أبو موسى نائبًا للقائد العامّ.

إفشال مساعي الاحتواء

وصلتُ إلى دمشق من رحلة العلاج في لندن قبل حدوث الانشقاق بيومين فقط. لذا، سرعان ما غادرتُ العاصمة السورية متجهًا إلى البقاع للالتحاق بالكتيبة والتشاور مع إخوتي في ما ينبغي عمله إزاء هذه المستجدات. وكانت قد تداعت كوادر كثيرة من «فتح»، في محاولة لتطويق الموقف والحؤول دون الاقتتال الداخلي، ومن أبرزهم عباس زكي[5] وأبو العبد العكلوك[6] وجميل شحادة[7] ومروان كيالي وأبو إبراهيم عبود[8]. وأُجريت سلسلة حوارات، لكن دون جدوى، إذ استمرّ التمرّد يتوسّع على الأرض ويكتسب مواقع جديدةً، على الرغم من الموافقة على عقد المؤتمر العامّ وإلغاء القرارات الأخيرة.

في الوقت ذاته، أعلن القذافي دعمه التمرّد، في حين صرّح عبد الحليم خدام، وزير الخارجية السوري في حينه، والمسؤول عن الملفّين الفلسطيني واللبناني، في لقاء مباشر مع خليل الوزير، قائلًا «إذا كنتم ترغبون في حلّ مشكلاتكم، فيجب أن تتقيّدوا بسياساتنا. تصادقون أصدقاءنا وتعادون أعداءنا». وفي ظلّ هذه الأوضاع قام أبو عمّار بزيارة إلى سهل البقاع التقى فيها القوات الموجودة، وهي الزيارة الأولى له منذ الخروج من بيروت. ولعلّ في هذا إشارةً كافيةً لبعض ما كانت تعانيه هذه القوات من فراغ هائل على مستوى القيادة العليا.

---

(5) سفير فلسطين في اليمن الديمقراطي وعضو اللجنة المركزية لاحقًا.
(6) من مؤسسي حركة فتح ونائب مفوض التعبئة والتنظيم.
(7) أمين عام اتحاد المعلمين الفلسطينيين وعضو في المجلس الثوري.
(8) من المناضلين القدماء وقائد قوات الكرامة وعضو في المجلس الثوري.

عاد ياسر عرفات إلى دمشق لحضور اجتماع طارئ للمجلس الثوري فيها، ومنها توجه إلى طرابلس من طريق حمص. وفي الطريق، غيّر المسار وسلك مع قسم من الموكب طريق الهرمل، في حين واصل الجزء الآخر السير على الطريق الأصلية، حيث تعرّض لإطلاق نار من كمين أدّى إلى مقتل أحد العناصر وإصابة تسعة بجروح، واتهمت وسائل الإعلام الفلسطينية النظام السوري بالوقوف وراء هذه الحادثة. وعند وصوله طرابلس، تلقّى ياسر عرفات اتصالًا من رفعت الأسد شقيق الرئيس السوري، دعاه فيه إلى العودة إلى دمشق حيث سيُرتّب لقاءً له مع الرئيس الأسد. فعاد إلى دمشق، ولكن بُعيد اجتماعه إلى رفعت الأسد، صدر قرار بطرده من سورية، وعُدّ خليل الوزير (أبو جهاد) شخصًا غير مرغوب فيه. فغادر أبو عمّار سورية على متن رحلة عادية للطيران التونسي كأيّ راكب عادي مع ما يحمله ذلك من مخاطر. وكان في وداعه في المطار أغلب القادة الفلسطينيين في العاصمة السورية. ومع طرده من دمشق في الرابع والعشرين من أيار/مايو 1983، كُرّست حالة الانشقاق التي عُرفت باسم «فتح الانتفاضة»، ودخل الوضع الفلسطيني في مرحلة من الاقتتال الداخلي.

وصل أبو جهاد إلى البقاع، ووصلتنا معلومات عن قرار سوري باعتقاله. نام ليلته عندنا في سعدنايل في منزل أحد إخوتنا، واتفقنا على أن ينتقل في اليوم التالي إلى طرابلس قبل أن يستفيق النظام السوري. غادرنا في ثلاث سيارات مدنية أو أربع، سالكين طريق زحلة للابتعاد عن مواقع الانشقاق. ذهبتُ معه وركبتُ في السيارة الأولى التي كان يقودها سعيد[9]، وسائر السيارات خلفنا بمسافة معقولة. وكنّا كلما وصلنا إلى حاجز للجيش السوري، قلنا لهم القائد خلفنا، ونسير دون أن نعطي فرصةً لجنود الحاجز لمعرفة هُوية ذلك القائد، وقد كانت مثل تلك المواكب لقادة الأحزاب وبعض الشخصيات، وحتى لقادة سوريين معتادةً في ذلك الوقت.

نجحت تلك الخطة دون أن تكتشف الحواجز السورية هويتنا، إلّا أنّ

(9) مسؤول مرافقي أبو جهاد.

أبو جهاد عند وصولنا إلى بعلبك أصرّ على أن يزور قيادة قوات الكرامة المتموضعة هناك. كان ثمّة حاجز سوري قريب. مررنا به من دون أن نلفت نظره إلى شيء، لكن خلال دقائق بدأ هذا الحاجز يتخذ إجراءات قتالية، وعُزّز بقوات أخرى. فأدركنا أنّه كُشف أمرنا، وأنّ أحدهم سُرّب خبر وصولنا إلى القوات السورية، اتصلنا فورًا بالجبهة الشعبية أو الديمقراطية، لا أذكر على وجه التحديد، وحضر مسؤولهم في المنطقة، ورتّب فورًا الأوراق اللازمة للحركة. غادرنا (أنا وأبو جهاد) في سيارة عسكرية عائدة لهم، بعد أن أبقينا سياراتنا أمام مقر قيادة قوات الكرامة في إشارة إلى أنّنا ما زلنا هناك. وصلنا إلى طرابلس بسلام، ولحق بنا الآخرون. بقيتُ في طرابلس أيامًا عدة قبل أن أعود ثانية إلى البقاع.

اشتعلت جبهة البقاع، وسيطرت «فتح الانتفاضة» على مقر قيادة قوات اليرموك في مجدل عنجر، وحوصرت تلك القوات في منطقة رياق، وسط لواء من المدرعات السورية، في حين تمكّنت قوات فتح في منطقة شتورا - تعلبايا من وقف أيّ تمدّد للمنشقين، وأعيد تنظيم قوات «فتح» في تلك المنطقة تحسبًا لأيّ اختراقات، ووُزّعت تلك القوات على المحاور المتعدّدة ضمن تشكيلات جديدة أدّت فيها كتيبة الجرمق دور النواة الصلبة للقوات، كما اتحدت مجموعة من الكوادر القيادية العسكرية المتميّزة من مختلف الوحدات بقيادة زياد الأطرش[10]. وحافظت هذه القوات على مواقعها المتقدّمة في الجبل وزادت من وتيرة عملياتها ضدّ العدو الصهيوني خلف الخطوط، على الرغم من حالة الانشقاق التي كانت سائدةً. وكانت المحاولة الأخيرة لتمدّد قوات الانشقاق من خلال تسلّل مجموعات منها عبر الخطوط السورية إلى بلدة جديتا لحصار قوات «فتح»، وإغلاق طريق البقاع - الجبل. لكنّ قوات «فتح» تمكّنت من صدّ الهجوم وأسر 56 عنصرًا من القوات المهاجمة، بينهم قائدهم الضابط أبو الحكم، وقد عوملوا كرفاق سلاح، وأُعيدوا إلى مواقعهم بأسلحتهم عن طريق

(10) ضمّت هذه المجموعة كلًّا من الإخوة إسماعيل عنبة، لؤي، موسى العراقي، جمعة، سميح نصر، ماجد الصغير، صالح مصلح، حسين الهيبي، مروان كيالي، علي أبو طوق، أبو رحمة، أبو حسين الغربي، ضرغام، أبو إبراهيم عبود، أبو الفتح وكوادر أخرى.

الجبهة الديمقراطية، ولم يعد هناك أيّ إمكان للتّقدم باتجاه قوات «فتح» في هذا المحور، وانتهت القدرة العسكرية للانشقاق.

هدأ القتال نسبيًا، وتدخل عدد من الوسطاء لتطويقه ومنْع تجدّده. وكان من أبرز الذين توسطوا ممدوح نوفل وأبو أحمد فؤاد القائدان العسكريان للجبهتين الديمقراطية والشعبية، وعُقدت عدة لقاءات حضرها عن المنشقين أبو موسى وأبو خالد العملة وأبو أكرم[11]، وعن حركة فتح أبو إبراهيم عبود وأنا ومروان كيالي. وفي لقاء مع أبو أكرم، قال لنا مازحًا إنّنا العقبة الأخيرة في وجه الانشقاق، وإنّ رفاقه في «فتح الانتفاضة» يفرضون قيودًا شديدةً على مسلكه، وهو يرجونا أن نتفاهم معهم حتى يتمكّن من العودة مرةً أخرى إلى حياته الصاخبة التي نعرفها. في اللقاء الأخير، اقترحنا على أبو خالد وأبو موسى إصدار بيان يعلن انتهاء الاقتتال الفلسطيني، ويؤكد تفرّغ قوات العاصفة لقتال العدو الصهيوني، مع تأليف كتيبة مشتركة من الطرفين تكون هذه هي مهمتها الأساسية، ويكون مروان كيالي قائدًا لها.

صادف أنْ كان لنا دورية مستعدة للتحرّك في الليلة ذاتها باتجاه هدف صهيوني. فاقترحنا عليهم إضافة بعض العناصر، ولو على نحو رمزي من طرفهم للمشاركة في هذا الواجب، وأن يكون هذا هو المعيار لأيّ تحركات مقبلة، مع التمسك المشترك بالإصلاح وعقد المؤتمر الحركي. فوعدونا بدراسة ذلك، لكنّ اللقاءات توقفت، كما توقف القتال لعدم قدرة المنشقين على إقناع مقاتليهم بمهاجمة قوات «فتح» التي لم تقُم بأيّ مبادرة هجومية، وإنمّا اكتفت بالدفاع عن النفس، ومواصلة العمليات ضدّ الجيش الإسرائيلي، الأمر الذي أوقع المنشقين في حرج شديد.

حرب الجبل

جاء التطوّر الأبرز في إعلان الجيش الإسرائيلي نيّته الانسحاب من الجبل والشوف، فشكّلت «فتح الانتفاضة» قوّةً مشتركةً مع حلفائها، وكتبت على مركباتها

(11) معتمد إقليم لبنان، وعضو مجلس ثوري في حركة فتح.

«قوات العودة إلى بيروت»، في حين شكّلت «فتح» مع الجبهة الشعبية، والجبهة الديمقراطية، وجبهة التحرير الفلسطينية، قوّة موحدةً اندفعت من مواقعنا في المتن وصوفر إلى عاليه وبيصور وقبرشمون، حيث صدّت بالتعاون مع قوات الحزب التقدمي الاشتراكي الهجوم المعاكس الذي شنّه اللواء الرابع في الجيش اللبناني، وكانت طلائع هذه المجموعات قد وصلت إلى حيّ السلم وأطراف برج البراجنة بقيادة مهاجر، وبدأت المدمرة «نيوجيرسي» بقصف مواقع القوات المشتركة، وقد كنتُ في الجبل مع أبو رحمة وحسام ومروان كيالي الذي أصيب بجراح طفيفة استدعت نقله إلى البقاع، إلى جانب عدد كبير من كوادر «فتح»، إضافةً إلى كوادر قيادية من المنظمات الأخرى أبرزهم ممدوح نوفل.

بعد أيام انسحبت الجبهة الشعبية من هذه القيادة الموحدة نتيجة الضغوط السورية، وإن كانت تابعت التنسيق والعمل المشترك معنا على أرض الميدان. ومع كل يوم يمرّ، كنّا نُحضر أعدادًا إضافيةً من المقاتلين من البقاع إلى الجبل، وعمدنا إلى إخراج قوات اليرموك[12] المحاصرة إلى منطقة رياق التي تسيطر عليها قواتنا، عبر جسر أقامه علي أبو طوق من أنابيب الصرف الصحي. وكانت خطتنا هي مغادرة البقاع ومناطق انتشار الجيش السوري كليًا، والانتشار في الجبل ومخيمات بيروت، والانطلاق نحو الجنوب للبقاء على تماسّ مع العدو الصهيوني، وملاحقته في مواقعه الجديدة. ووجدنا بذلك فرصةً ثمينةً جدًا للخروج من مستنقع الاقتتال الفلسطيني، ومن دائرة النفوذ السوري، والتوجه إلى قتال العدو، لكنّنا لم نُقدّر أنّ ردّ النظام السوري على ذلك سيكون سريعًا.

علم أبو عمّار أنّ قواتنا أصبحت على مشارف بيروت، وأدرك وجود مُتغيرات كبيرة تحدث في الساحة اللبنانية، وفوجئنا به يصل إلى طرابلس، ومن يعرف أبو عمّار يدرك أنّه لا يمكن إلّا أن يكون هناك، ولعلّ هذا أيضًا من أسباب قرار النظام السوري التدّخل العسكري المباشر.

(12) أحد تشكيلات فتح العسكرية على الساحة اللبنانية، وقد أُلفت في عقب حوادث أيلول / سبتمبر 1970 من الضباط والجنود الذين كانوا في الجيش الأردني والتحقوا بالثورة.

التدخل السوري المباشر

إنّ عجز قوات الانشقاق عن التقدّم باتجاه مواقع «فتح»، ووصول أبو عمّار إلى طرابلس، وتقدّم مجموعات «فتح» إلى أطراف بيروت ومشاركتها الفاعلة في معارك الجبل، وإخراج قوات اليرموك من دائرة الحصار، ومحاولة تسلّل معظم القوات باتجاه الجبل وبيروت والجنوب، والتدخّل الأميركي في المعركة، جميعها عوامل دفعت الرئيس الأسد إلى إصدار تعليماته الحازمة بالتدخل السوري المباشر، إذ كان لا بد من إنهاء ما كان يطلق عليه النظام السوري اسم «زمرة عرفات»، قبل أن تتمكّن من إحداث تغييرات غير مرغوب فيها، تمسّ بالسياسة السورية في لبنان، وقبل أن نتمكّن من مغادرة مناطق انتشار قواته، على أنّ هذا لا يمكن تحقيقه من دون التدخّل المباشر للمدرعات السورية. وهكذا، حاصرت الدبابات السورية مواقعنا في البقاع، وقطعت جميع الطرق المؤدية إلى الجبل. وللأسف، صار الآر بي جي الفلسطيني في مواجهة الدبابة السورية.

كان غازي كنعان[13]، مدير جهاز الاستخبارات السوري في لبنان وحاكمه الفعلي، قد احتجز الإخوة زياد الأطرش ومروان كيالي وإسماعيل عنبة وآخرين ممّن ذهبوا للقائه، فرفضت قيادة قوات «فتح» في البقاع القيام بأيّ خطوة قبل إطلاقهم، وامتلأت الشوارع بالمتاريس وأكوام الرمل، إلى أن أُفرج عنهم. غادرتُ موقعي في الجبل عبر طريق طويلة لتجنب حواجز الجيش السوري، واجتمعتُ إلى القيادة الميدانية، وقرّرنا بالإجماع الانسحاب من البقاع والتوجه إلى طرابلس، اجتنابًا لاشتباك غير مرغوب فيه مع الجيش السوري، واجتنابًا لمذبحة كبرى في منطقة لا تتجاوز مساحتها تسعة كيلومترات بين تعلبايا وسعدنايل. لم يكن أبو عمّار سعيدًا بهذا القرار الذي تفهمه أبو جهاد ووافق عليه بعد اتصالنا بمحمود العالول عبر اللاسلكي. بعد ذلك، وعند حصارنا في منطقة الهرمل، حمّلني أبو عمّار شخصيًا مسؤولية هذا القرار أمام زوجتي التي تمكنت من الوصول إلى طرابلس بعد رحلة شاقة مليئة بالمخاطر. كان أبو عمار يريد معركةً مبكرةً مع السوريين. فمن شأن هذا الاشتباك أن يعرّي الانشقاق

(13) أصبح لاحقًا وزيرًا للداخلية، وقيل إنّه انتحر في مكتبه في عام 2005.

تمامًا، ردّت يسار بأنّها واثقة تمامًا من قدرتنا على الوصول إلى طرابلس وعلى محافظتنا على أرواح مقاتلينا، ملمّحةً إلى عجز بعض الجنرالات الذين يحيطون بالرئيس، وغادرت الغرفة باكيةً، إلّا أنّ أبو عمّار وأبو جهاد لحقا بها وطيّبا خاطرها.

صباح اليوم التالي، حضر غازي كنعان برفقة إسماعيل عنبة إلى مقر قيادة الكتيبة في سعدنايل للتأكد من استعدادنا للرحيل، ففوجئ بعدد النسوة المتجمهرات حول الموقع، واشتبك معهنّ في ملاسنة كلامية نابية، بعد أن سمع تضرعهن إلى الله والدعاء على الرئيس الأسد. أنقذه إسماعيل عنبة من مشاجرة مع النساء، وأدخله إلى داخل المقر. بعد دقائق، حضر نصر يوسف وعرّف غازي كنعان بشخصيته، فقام باحتضانه ودعوته إلى تناول طعام الإفطار في مقرّه. ذهب نصر، على الرغم من تلميحات إسماعيل له بعدم الذهاب وحديثه بصوت عالٍ بأنّنا قد أفطرنا حينها، في حين امتنع باقي الإخوة عن الذهاب. كان لدى القيادة السورية ظنون تتعلّق بكيفية إفلات نصر يوسف وقوات اليرموك من الحصار، وكانوا يعتقدون أنّ ضباطًا سوريين متورّطون في ذلك. واعتقل نصر يوسف واقتيد إلى السجن في دمشق حيث حوكم أمام محكمة عسكرية سورية، بتهمة عرقلة حركة القوات السورية في لبنان، وسُجن في سجن المزة، ولم يُفرج عنه إلّا بعد وساطة سعودية، ولقاء أبو السعيد (خالد الحسن)[14] مع الرئيس السوري.

كان إسماعيل عنبة مكلفًا بمهمات ضابط ارتباط بين «فتح» والأجهزة السورية، وساهم في مراحل مختلفة في تنسيق العلاقات السورية – الفلسطينية وحلّ الكثير من الإشكالات الميدانية التي تطرأ. وعلى الرغم من المستوى المتقدّم للعلاقات التي أقامها مع أقطاب الأجهزة الأمنية السورية، خصوصًا حكمت الشهابي[15] ورفعت الأسد، فإنّ موضوع الانشقاق كان بالنسبة إلى النظام السوري أهمّ كثيرًا من المحافظة على كادر متقدّم أدّى دورًا متميّزًا

(14) من مؤسسي حركة فتح وعضو لجنتها المركزية.
(15) رئيس أركان الجيش السوري.

على مستوى علاقة الثورة الفلسطينية والنظام السوري في المراحل السابقة. لم يعجب الاستخبارات السورية تمسك إسماعيل عنبة بالشرعية الفلسطينية، وعلى الرغم من أنّ مقر قيادته يبعد عن خطوط التماس، فقد قاموا بمساعدة المنشقين على التسلّل إلى قرية جديتا للقيام بهجومهم الفاشل على مقر الوحدة التي يقودها إسماعيل عنبة، بعد إخفاق جهده في حمله على الانضمام إلى المنشقين.

عند الخروج من البقاع، احتُجز إسماعيل عنبة في مقر غازي كنعان الذي أراد أن يُخضعه أولًا للتحقيق، حول علاقته بالقائد الذي سبق غازي كنعان في قيادة جهاز الأمن والاستطلاع السوري في لبنان العقيد محمد غانم، ومعرفة مدى علاقاته بحركة فتح أو تواطئه معها. وبعد ذلك، جرت محاولات لحمله على عقد مؤتمر صحافي مشترك مع العقيد أبو موسى يعلن فيه انضمامه إلى الانشقاق، على الرغم من أنّ دعاية المنشقين كانت تصوّر إسماعيل عنبة كأحد رموز الفساد في حركة فتح. ويبدو أنّ الهدف من ذلك تصوير ما تمّ في البقاع على أنّه انضمام قوات «فتح» بقيادة إسماعيل عنبة إلى الانشقاق.

حضر العقيد أبو موسى إلى مقر قيادة القوات السورية في عنجر، لكنّ كل المحاولات لإقناع إسماعيل بالمشاركة في المؤتمر الصحافي باءت بالفشل. غادر أبو موسى ليعود في اليوم التالي إلى استلام إسماعيل عنبة، بعد أن تخلّى عنه النظام السوري. وسُجن إسماعيل، وتعرّض لتحقيق قاس، وصنوف مختلفة من التعذيب، وبقيَ في سجن الصويري أكثر من ستة شهورٍ إلى أن قام الطيران الصهيوني بقصف السجن وتدميره تمامًا. وجد إسماعيل نفسه تحت الأنقاض مُصابًا بحروق في وجهه وشظايا في أنحاء مختلفة من جسده. عثر على كوة صغيرة خرج منها، وغادر المكان حافيًا. لم يعرف المنشقون والنظام السوري أنّه قد هرب إلّا بعد رفع الأنقاض وعدم العثور على جثمانه، ما مكّنه من فرصة للفرار. وتمكّن إسماعيل من اللجوء إلى منازل أصدقائه في البقاع، ومن ثمّ من الوصول إلى طرابلس وقبرص التي غادرها سريعًا إلى تونس.

غادرنا البقاع، في اليوم التالي، وسط احتفال كبير من أهالي المنطقة الذين

نثروا الورود والأرز على جانبَي الطريق. وحاولت القوات السورية مرتين وقف تلك القوات وتجريدها من أسلحتها، لكنّ ذلك لم ينجح بسبب إرادة المقاتلين وتصميمهم على الحفاظ على أسلحتهم ومواصلة طريقهم. وكنّا خلال المسير في غاية الحذر. وتوزّع الكادر في أنحاء مختلفة من الرتل الذي اتخذ وضع التشكيل القتالي، وحافظت آلياته على مسافات معينة بينها. وما إن يتوقف الرتل لأيّ سبب أو على أيّ حاجز، حتى تنتشر المركبات فورًا في تشكيل دائري مستعدةً للقتال والاشتباك، وقد طلب منّي إخواني ألّا أكون في سيارتي المعروفة، وأذعنت لرغبتهم، وجعلوني في سيارة عسكرية وسط مجموعة من المقاتلين الأشداء.

على أبواب الهرمل، وجدت قوات «فتح» المنسحبة باتجاه الشمال بعض الإخوة في انتظارها، يتقدّمهم طراد حمادة، وقالوا إنّ السوريين يخطّطون لاحتجاز القوات المنسحبة في منطقة تُسمّى جباب الحمر، فتوقفنا. كان عدد تلك القوات نحو ألف ومئتي مقاتل، انتشروا على التلال. وبعد ذلك، قام شباب الهرمل باكتشاف إحدى الطرق وتمهيدها لاستيعاب آليات قواتنا والسماح لها بإكمال طريقها إلى طرابلس. وفي موازاة ذلك، توجهت العشائر إلى الرئيس الأسد لتدارك أيّ تداعيات.

في اليوم الثاني من وجودنا في الهرمل، دعتنا العشائر إلى غداء على نهر العاصي بحضور غازي كنعان الذي كان سؤاله الرئيس لنا بعد أن رأى وداع الجماهير في البقاع، واستقبال أهل الهرمل لنا: «لماذا يحبكم الناس؟». في هذا الغداء كان هنالك تكاذب متبادل بيننا وبين غازي كنعان الذي أظهر الودّ الكاذب تجاهنا، وحرص أن يؤدي دور المضيف، وأن يضع الطعام في أطباقنا، وأن يُطعمنا بيده. وبدورنا، تظاهرنا نحن أيضًا بأنّ خدعته قد انطلت علينا، وبدأنا نحدّثه عن برامج التدريب التي نعتزم القيام بها، ونستفسر منه عن كيفية حركة سياراتنا، والإجازات إلى دمشق، وتصاريح خاصة لكبار الضباط، وترتيب الشؤون الإدارية، وكأنّنا لا نعرف شيئًا عن المصيدة التي كان يعتزم إيقاعنا فيها.

غادرنا الهرمل مساءً باتجاه منطقة جباب الحمر. اعتقد غازي كنعان أنّه

أوقعنا في المصيدة ووضعنا تحت ضغط الحصار، إلّا أنّنا كنّا قد استفدنا من الوقت الذي أمضيناه في الهرمل في استطلاع الطريق التي اكتشفها إخوتنا، وتمكنّا من الاتصال بسميح نصر وقوته الصغيرة التي اقتادها السوريون قبلنا هناك.

نهارًا، ذهب الأخ أبو رحمة مع بعض الإخوة للاستطلاع الميداني، وقبل التحرك كانت خطتنا جاهزةً، حيث توجد طريق وعرة وضيقة تصل بين صحن الوادي وقمة الجرد لا يمكن أن تعبرها العربات كلّها. أحطنا خطتنا بأعلى درجات السرية، وتقدّم أبو رحمة وإخوانه الرتل المتحرك، وقاموا بإرشاده إلى هذه الطريق مع استبعاد أيّ آلية ربما لا تستطيع الصعود، وقد نُظّمت الحركة بسلاسة على طول الطريق. وعندما وصلنا إلى القمة مع ساعات الفجر الأولى، كانت طريقنا إلى طرابلس قد أصبحت مفتوحةً، وأفقنا على صوت الرعاة في الجرد وهم يذبحون لنا الأغنام.

في اليوم التالي، كان بيننا وبين القوات السورية سباق، بعد أن اكتُشفت خطتنا بالسيطرة على جسر في الطريق لا بد من أن نمرّ عبره. وتمكنّا من الوصول إلى مخيم البداوي بنجاح، بعد أن فوجئت الحواجز السورية على الطريق بهذا الرتل. وفي الجانب الآخر، أحيل عدد من كبار ضباط الجيش السوري إلى محكمة عسكرية لإخفاقهم في حصارنا. وفي طرابلس بدأت مرحلة جديدة.

حركة التوحيد الإسلامي

نقلت إذاعة **مونتي كارلو** عن مسؤول سوري أنّ أبو عمّار شوهد في جزيرة قبرص، وأنّه ربما يكون في طريقه الآن إلى طرابلس. وقد أثار هذا الخبر رعب الإخوة في طرابلس. فهو ليس أقلّ من دعوة للبحرية الإسرائيلية لاعتراض زورقه. واتصل أحمد عبد الرحمن مسؤول الإعلام بنبيل درويش مذيع الأخبار في **مونتي كارلو**، ورجاه عدم تكرار الخبر في النشرات اللاحقة، في حين حرّك أبو جهاد عشرات الزوارق على خط طرابلس قبرص، في محاولة لتضليل البحرية الإسرائيلية أو عرقلتها. وفجأةً، ظهر أبو عمّار في مخيم البداوي، متنكرًا

بزيّ عالم دين جزائري، إذ اعتاد الجزائريون طلب العلم من المعاهد الدينية في المدينة التي أصبحت تحت سيطرة حركة التوحيد الإسلامي بزعامة الشيخ سعيد شعبان[16].

تألفت حركة التوحيد من ائتلاف ثلاث قوى رئيسة يتزعمها خليل عكاوي[17] (أبو عربي)، وكنعان ناجي[18]، والدكتور عصمت مراد الماركسي اللبناني الذي قاتل مع «فتح»، وأسس حركة لبنان العربي، وكان من مؤسسي التيار الفلسطيني - اللبناني - العربي الذي كانت السرية الطلابية قد انبثقت منه قبل أن تتحوّل إلى كتيبة الجرمق، وذلك قبل أن يعتنق التوجّه الإسلامي ويساهم في تأسيس حركة التوحيد. ويُلاحظ أنّ أغلبية مجموعات «التوحيد» كانت تربطها علاقات سابقة بالمقاومة، وأنها قاتلت معها في معظم معاركها. لكن فضلًا عن هذه المجموعات، كانت هناك العشرات من المجموعات الصغيرة ذات التوجّه السلفي أو الصوفي المرتبطة بمشايخ أو زعامات في الأحياء، ولم تكن الحركة قد انصهرت بعدُ في بوتقة واحدة بقدر ما كان يجمعها مبايعة الشيخ سعيد شعبان أميرًا لها، وتأييد شعبي كبير مصاحب للمدّ الإسلامي الذي ساد في تلك الحقبة.

كان الإسلاميون يمثّلون حليفًا جديدًا لياسر عرفات بمواصفات مختلفة عن تلك التي تعوّد عليها في مقر قيادته في بيروت مع فصائل الحركة الوطنية اللبنانية. فالمفاهيم والمصطلحات والأفكار والآراء كانت مختلفةً تمامًا عمّا كان متداولًا في صفوف منظمة التحرير وفصائلها، لكنّها ربما كانت تذكّر ياسر عرفات بأيام صباه يوم كان نصيرًا لحركة الإخوان المسلمين ومقرّبًا منها.

في سياق هذا التحالف الجديد برز التحدي الأول في الثاني عشر من تشرين الأول/ أكتوبر حين اشتبكت مجموعات متعددة من التوحيد مع الحزب

---

(16) يُنظر: أحمد عبد الرحمن، **عشت في زمن عرفات** (رام الله: دار الحرية للثقافة الوطنية، 2013).

(17) (شهيد)، (1955–1986) أطلق حركة المقاومة الشعبية في طرابلس في عام 1975، ثم ساهم في تأسيس حركة التوحيد الإسلامي. اغتيل في عام 1986.

(18) مؤسس حركة «جند الله» في طرابلس.

الشيوعي اللبناني، وحاصرت مكاتبه في طرابلس، فبقي أبو عمّار ساعات طويلةً مع الشيخ سعيد شعبان يحاول وقف القتال، وإخراج المحاصرين سالمين من مكاتبهم، لكن دون جدوى، وفي النهاية ذهبت مع الشيخ سعيد شعبان وأبو الهول والدكتور عصمت، وآخرين إلى الأزقة المحيطة بمواقع الاشتباك لمحاولة وقفه.

حاول الشيخ سعيد وأبو الهول أن يشرحا لقادة المجموعات أهمية وقف إطلاق النار والسماح للمحاصرين بالمغادرة، لكنّ صوت التطرف كان أعلى، ونبرات التكفير مرتفعة، كان لديّ بعض الخبرة بمفاهيم الحركات الإسلامية وأفكارها، وكنتُ مهتمًا بدراستها ومتابعتها. لذا، حين علا صوت أحد الحاضرين على الشيخ سعيد وقام بمقاطعته ومعارضته، تدخّلتُ على الفور ونهرته، مذكّرًا بأنّهم قد بايعوا الشيخ على الطاعة في المنشط والمكره، ولا يجوز لهم شرعًا رفض أوامره إلّا إذا تخلّوا عن البيعة، مطالبًا إياهم بالطاعة والاستغفار. فتراجع قادة المجموعات فورًا، وتوقّف إطلاق النار، وأُنقذ المحاصرون، إلّا أنّ حملةً إعلاميةً ضخمةً اتهمت أبو عمّار بالتواطؤ في قتل الشيوعيين في طرابلس.

أرّق هذا الأمر ياسر عرفات، وبدا قلقًا من سيطرته على المدينة. لذا، عقد اجتماعًا في هذا الشأن في مقرّه بمنطقة الزاهرية في طرابلس. كان يدرك أنّ حليفه الأساسي في معركته الوشيكة هي حركة التوحيد، لكنّه لم يكن مطمئنًا من قدرته على السيطرة عليها أو توجيهها. اقترح بعض الحاضرين من ذوي الخلفيات الأمنية أن تكون العلاقة بأمراء الأحياء وشيوخ المجموعات مباشرةً، وأن يكون تسليحهم وتمويلهم مباشرةً أيضًا، من دون الرجوع إلى قيادة التوحيد، معتقدين أنّهم بذلك يستطيعون السيطرة على مفاصلها. اعترضتُ وبعض الإخوة على هذا الرأي الذي مال إليه أبو عمّار، كان مبرر اعتراضنا أنّ حركة التوحيد هي الحليف الوحيد لنا في طرابلس، وأنّ أيّ عبث تجاهها سوف يضعفها ويضعفنا، وأنّ علينا أن نسعى مع قادتها لزيادة أوجه التعاون والتنسيق معها، بدلًا من محاولات اختراق الحركة على هذه الصورة، وغادرتُ الاجتماع محتجًا لاعتقادي أنّ هذه السياسة ستضعف فرصتنا في الدفاع عن

أنفسنا في طرابلس، وقرّرتُ الاعتكاف في البيت، خصوصًا بعد أن تردد كلام في الاجتماع عن القدرة على شراء ذمة أيّ شخص مهما كان وترويضه بالمال والسلاح، وهو ما يتنافى مع ما نعتقد من مبادئ وقيم. لحق بي عدد من الإخوة ممّن كان لهم الرأي ذاته. بعد قليل، فوجئتُ بأبو عمّار وأبو جهاد في منزلي القريب من مقر أبو عمّار، إذ يبدو أنّه قد أدرك أنّ المصلحة العامة تقتضي تعزيز العلاقة بقيادة حركة التوحيد والمحافظة على وحدتها؛ وهكذا أوكلت إلينا مهمة الانتشار جنبًا إلى جنب مع حركة التوحيد في أحياء طرابلس.

ذات مساء، ومع تراكم الغيوم التي تُنبئ باقتراب موعد المعركة، فوجئتُ باستدعائي من أبو عمّار، وما إن وصلتُ حتى انطلقنا في سيارته ومعنا صخر أبو نزار الذي كان أمين سرّ المجلس الثوري للحركة. وفي الطريق، تحدّث أبو عمّار وقال إنّنا متجهون إلى منزل الشيخ هاشم منقارة أحد قادة حركة التوحيد في منطقة الميناء لعقد لقاء مشترك بين قيادتَي «فتح» و«التوحيد» من أجل البحث في تعزيز التعاون والوحدة. وفوجئتُ بأبو عمّار يقول إنّه سيُعلن عن التوجه الإسلامي لحركة فتح حتى يُطمئن حركة التوحيد إلى أنّ معركتنا واحدة وكذلك هدفنا. من الواضح أنّ ثمّة همسًا في أُذن أبو عمّار من بعض مستشاريه مفاده أنّ «التوحيد» لن تقاتل معنا، ما لم نعلن عن هُوية إسلامية للثورة الفلسطينية، وقد كنتُ أعلم بالنظر إلى احتكاكي اليومي بمجمل قادتهم أنّ هذا غير صحيح. فقد كانت المخاطر المتربصة بهم تماثل تلك المخاطر التي تحيط بنا.

وصلنا إلى المنزل حيث كان بانتظارنا أبو جهاد وأبو الهول والطيب عبد الرحيم من «فتح»، والشيخ سعيد والدكتور عصمت والشيخ هاشم منقارة وكنعان ناجي وخليل عكاوي من حركة التوحيد. في أثناء اللقاء المعقود، بعد فترة من التفكير، قرّرتُ قطع النقاش الدائر بعد أن استأذنتُ من أبو عمّار، وقلت: «إنّ الإسلام يحضّ على نُصرة المظلوم، وإنّنا نواجه خطرًا مشتركًا يستهدف «فتح» كما يستهدف «التوحيد»»، واستحضرتُ مشاهد من التاريخ الإسلامي ومن السُنة النبوية؛ ومنها أنّ الرسول، عندما قرّر إلغاء صلح الحديبية وتوجّه نحو مكة، فإنّما فعل ذلك نصرةً لقبيلة لم تكن قد دخلت في الإسلام بعدُ، لكنّها كانت في تحالف معه.

فكيف يكون الأمر والحال أنّنا قوم مسلمون مجاهدون؟». ودعوتُ لتتحاور بصدق وشفافية كي نتمكّن من الصمود والانتصار في المعركة المقبلة، محذرًا من أنّ أيّ إعلان عن توجه إسلامي من جهة أبو عمّار قد يضعف جبهتنا المشتركة، وسيفاجئ إخوانه في الخارج، وقد يدفع بعضهم إلى مواقف سلبية، كما أنّ ذلك ستكون له آثار وخيمة على مستوى العلاقات العربية الدولية، وسيمنح النظام السوري مبررًا كافيًا لمعركته التي يعتزم أن يشنّها ضدّنا، إضافةً إلى أنّ هذا الإجراء (إعلان هُوية إسلامية للثورة) يستلزم دعوة لعقد المجلس الوطني الفلسطيني. وكان هدفي هو تثبيت الشراكة الميدانية القائمة، ولكن من دون بيع أيّ أوهام للطرف الآخر، مؤمنًا بأنّ التحالفات إذا أريد لها أن تصمد، لا تُبنى إلّا على معايير من الصدق والصراحة.

لاحظ أبو عمّار أنّ المزاج العامّ للمجتمعين على غير ما نُقل إليه، فتسلّم دفة الحديث مؤكدًا أنّه لم يخرج من بيته إلا مُجاهدًا، مثنيًا على أغلب ما قلت، ومؤجلًا الحديث عن هُوية الثورة إلى ما بعد المعركة المقبلة وسط موافقة من الحضور على ما قاله.

معركة طرابلس

تحوّلت طرابلس إلى ورشة عمل لا تهدأ، فقد وصل إليها عبر البحر مئات المقاتلين الذين تمكّنت الزوارق الإسرائيلية من اعتراض بعضهم، ومصادرة بعض الأسلحة والذخائر. وفي المقابل، أخذت سورية على عاتقها قيادة المعركة، فلم تتركها لحلفائها، إذ حُشد لواءان سوريان من القوات الخاصة، وأربعة آلاف مقاتل من جيش التحرير، وخمسمئة مقاتل من «فتح الانتفاضة»، وما يوازيهم من «الصاعقة» والقيادة العامة، ووضع الجميع بإمرة غرفة عمليات مشتركة رئسها قائد القوات السورية في شمال لبنان، سليمان العيسى، وضمّت غازي كنعان وطارق الخضرا قائد جيش التحرير الفلسطيني في سورية، وأحمد جبريل وأبو موسى وصلاح المعاني من الصاعقة.

في السابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر، أعلن طارق الخضرا، على

شاشة التلفزيون السوري، ما يشبه البيان رقم واحد ضد ياسر عرفات، وطالب بعزله ومحاكمته. وفي الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر، بدأ الهجوم المنسّق الكبير على طول خطّ الجبهة من نهر البارد حتى البداوي وطرابلس، بقصف مدفعي وصاروخي عنيف، وذكّرني القصف الشديد الذي تعرّضت له طرابلس والمخيمات بالقصف الذي تعرّضت له بيروت خلال حصار عام 1982. ومنذ اللحظات الأولى، فرّ عشرات المقاتلين من جيش التحرير والتحقوا بقوات عرفات، وكان بعضهم قد سرّب خطة الهجوم كاملةً قبل ذلك بساعات، ومنهم قائد إحدى الكتائب الذي سبق أن تولّى قيادة محور المتحف في بيروت، وصدّ الهجوم الصهيوني المعادي. لقد دفع هذا الضابط الشجاع حياته في السجون السورية ثمنًا لذلك. وبعد أسبوع من القتال، تراجع الموالون لعرفات إلى مخيم البداوي ومدينة طرابلس. وفي الخامس عشر من تشرين الثاني/نوفمبر، بدأ هجوم جديد شاركت فيه القوات الخاصة السورية، تركّز في مخيم البداوي وحي القبة في طرابلس، واستمر ثلاثة أيام تراجعت بعده قوات عرفات إلى طرابلس التي قُطعت عنها المياه والكهرباء، ودُمّرت ثلاث سفن في مينائها جرّاء القصف السوري.

دفع أبو عمار بقواته كلّها إلى المعركة وأشرف عليها إشرافًا مباشرًا، وكان دائم الحضور على الخطوط الأمامية، حتى أنّه أرسل مرافقيه الشخصيين إلى القتال في أصعب النقاط، ووضع قيادات الصف الأول في المواقع الأمامية. وبوساطة عربية، تمّ التوصل إلى وقف لإطلاق النار، لكنّ سورية كانت مصممةً هذه المرة على عدم السماح لعرفات بالإفلات، فنُقلت كتيبتين من قوات القادسية في العشرين من تشرين الثاني/نوفمبر من جبهة الجولان إلى طرابلس استعدادًا للهجوم النهائي عليها، وعلى الرغم من احتدام حدة المعارك والقصف المتواصل على المدينة، فإنّ ياسر عرفات تمكّن في الرابع والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر من إنجاز صفقة تبادل عن طريق الصليب الأحمر، أُفرج فيها عن خمسة آلاف وتسعمئة أسير لبناني وفلسطيني من معسكر أنصار، وعدد من الأسرى داخل السجون الإسرائيلية، مقابل ستة جنود صهيونيين أُسروا في منطقة دير الحرف في الجبل اللبناني، ضمن العمليات التي شُنّت خلف

خطوط العدو. يومها، اضطُررنا إلى تسليم جنديين آخرين إلى الجبهة الشعبية (القيادة العامة) لتسهيل مرورنا مع الأسرى عبر الحواجز السورية من الجبل إلى البقاع. أمّا أصعب مهمة، فكانت متمثّلة بالاحتفاظ بالأسرى في البقاع ضمن مربع صغير وضيق، في ظلّ أوضاع الاقتتال الداخلي، ووسط بحث أجهزة الاستخبارات المختلفة عنهم. بإيجاز، وزعناهم على بيوت الأهالي في منطقة سعدنايل وتعلبايا، دون أيّ مظاهر توحي بوجود أحد منهم في أيّ بيت، بل إنّ أحدهم وُضع وكان جريحًا في غرفة أحد الممرضين في مستشفى لمدة شهر كامل ليتلقى العلاج اللازم من دون أن يعرف هُويته أحد. ولاحقًا، تمكنّا من نقلهم فرادى إلى طرابلس.

أربكت هذه الصفقة الموقف السوري، فتوقّف الهجوم النهائي على المدينة، الذي كان مقرّرًا في الخامس والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر. فبعد الصمود في طرابلس والتدخلات العربية والدولية وإنجاز صفقة التبادل، ما عادت الأوضاع السياسية ملائمةً لذلك.

في السادس من كانون الأول/ ديسمبر نُفّذت عملية جريئة استهدفت حافلة إسرائيلية في القدس المحتلة على الخط رقم 18، وأسفرت عن مقتل أربعة صهيونيين وإصابة ستة وأربعين آخرين بجروح. ولم تُكشف عن هوية المنفذين إلّا بعد أعوام، وكانوا من «فتح» من لجنة 77 التي يقودها أبو حسن قاسم وحمدي سلطان. وقد تلقّت هذه المجموعة تدريبها في الكتيبة الطلابية، ولا يزال سمير أبو نعمة أسيرًا حتى اليوم في المعتقلات الصهيونية بعد أن رفض العدو الإفراج عن الدفعة الأخيرة من أسرى ما قبل أوسلو. لكنّ العدو أدرك أنّ هذه العملية لا تخرج عن نطاق «فتح»، فقام بقصف جوي وبحري على بعض المواقع في طرابلس.

الخروج من طرابلس

أخيرًا، وافق أبو عمّار على الجلاء من طرابلس بعد الحصول على تطمينات عربية وضمانات أميركية قُدّمت إلى السعودية، بمواكبة بحرية فرنسية. وفي السابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر، غادر أربعمئة وسبعون جريحًا

على متن باخرة مستشفى، رافقهم الجراح اليوناني الفلسطيني الدكتور يانو الذي ما لبث أن عاد إلى مخيم شاتيلا. في العشرين من الشهر نفسه، أبحر أربعة آلاف وسبعمئة مقاتل في بواخر متجهة إلى اليمن والسودان والجزائر. وقبل مغادرة طرابلس، كانت هناك ورشة عمل كبرى تتمثّل بنقل ما يمكن من السلاح والذخيرة إلى بيروت والجبل والجنوب، عبر عشرات القنوات ووسائل التهريب المتعددة، بجهد أساسي من علي أبو طوق ومساعدة بعض الفصائل الفلسطينية واللبنانية؛ استعدادًا للعودة مرةً أخرى عبر نافذة جديدة.

اللافت للنظر في موضوع الخروج أنّ أبو عمّار اختار أن يذهب في الباخرة المسافرة إلى اليمن. وبعد الاجتماع الذي قُرّر فيه توزيع المقاتلين على البواخر، همستُ في أُذن الأخ أبو جهاد قائلًا: صاحبك سيلتقي الرئيس مبارك. اعتقد أبو جهاد أنّ لديّ معلومات عن ذلك، لكنّني أوضحت له أنّه لا يُعقل أن يكون اختيار أبو عمّار المرور في قناة السويس في طريقه إلى اليمن دون أن يكون هناك ترتيب ما للقاء الرئيس المصري حسني مبارك، وأنّه إذا لم يكن يريد ذلك، فعليه أن يصعد على الباخرة الذاهبة إلى تونس. فوعد أبو جهاد أن يستفسر عن ذلك، وعاد ليخبرني بأنّ هواجسي لا محلّ لها من الصحة. ولم أقتنع، بطبيعة الحال، ولا أعرف إن كان الأخ أبو جهاد قد تحفّظ عن البوح بما قد يُعدّ سرًا من الأسرار. لكنّ أبو عمّار كان يدرك أنّ عليه؛ بعد طرابلس وربما قبلها، أن يعيد ترتيب علاقاته العربية، خصوصًا أنّه يقول عن نفسه دائمًا إنّه مصري الهوى، وهو يؤمن بأنّ عودة مصر إلى الصف العربي قوّة كبيرة تُضاف إلى رصيده.

بعد طردنا من البقاع بيومين، طلبت القوات السورية من جميع الفصائل الفلسطينية الموجودة في الجبل والمتن الانسحاب والإبقاء على قوّة رمزية لا تتجاوز مئتي مقاتل للفصائل كلها، في حين توجهت «قوات العودة إلى بيروت» إلى طرابلس لاستكمال مهماتها في قتالنا هناك. وبعد الخروج من طرابلس أُوقف أبو صالح في المصنع على الحدود اللبنانية - السورية في إثر عودته من لبنان، وإدلائه بتصريح يعلن فيه عودة المقاومة الفلسطينية إلى بيروت. وطُلب

منه التزام بيته في دمشق، وفُرضت عليه الإقامة الجبرية حتى وفاته، وعادت أغلبية الكوادر التي شاركت في الانشقاق إلى صفوف حركة فتح، أو التزمت منازلها؛ وبذلك أُجهضت حركة إصلاح حقيقية كان ينبغي أن تحدث في صفوف «فتح»، ولم يُسمح لأيّ فصيل من الفصائل الفلسطينية بأيّ وجود ذي مغزى في لبنان، بل إنّه لم يُسمح له حتى بالمشاركة في المقاومة ضدّ الاحتلال الصهيوني للجنوب اللبناني، وحُوربت القوات التي عادت إلى لبنان بعد معركة طرابلس بضراوة شديدة، ضمن ما عُرف بـ«حرب المخيمات»، ونجح النظام السوري في رسم الوضع اللبناني والوجود الفلسطيني فيه وفق سياساته. وهكذا، أنهت حرب طرابلس الجمل الثورية الكبيرة التي تستّر وراءها دعاة الانشقاق والاقتتال؛ وبذلك شكّل انسحاب ياسر عرفات من طرابلس هزيمةً كبرى لمنافسيه.

طرابلس 1983

عند انسحابنا من البقاع اتفقتُ مع يسار على أن تأخذ ابنتنا فدى وتذهب بها إلى الأردن عبر سورية لتقيما عند الأهل في عمّان، إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا. اتصلتُ بأحد أصدقائنا من تنظيم الصاعقة الموالي لسورية ليتولّى نقلهما عبر دمشق، لكنّ أحد ضباط الاستخبارات، في المنطقة الحدودية، عرف يسار، فأصرّ على عودتها إلى البقاع مهددًا باعتقالها إن لم يُعدها فورًا. في اليوم التالي، حضر إلى سعدنايل أحد إخوتنا من بيروت وقام بنقل يسار وفدى إلى طرابلس في سيارته. وعلى الطريق، أوقفهما حاجز سوري وطلب من محمد بكداش أن ينقل معه ثلاثة جنود. حاول محمد الاعتذار لضيق المكان ووجود امرأة وطفلة معه في سيارته الصغيرة، إلّا أنّهم انهالوا عليه بالضرب وسط صرخات يسار وبكاء فدى. أنقذ الوضع مرور سيارة تحمل شعار حلويات البابا، ترجّل سائقها منقذًا محمد بكداش من قبضات الجنود وأعقاب بنادقهم، معربًا عن استعداده لوضع سيارته تحت تصرف الحاجز وجنوده، فأكمل محمد بكداش الطريق والدماء تنزف من رأسه.

كانت الحياة في طرابلس 1983 قاسيةً، إضافةً إلى القصف المدفعي والصاروخي الذي ذكّرنا بكثافة القصف في بيروت 1982، فقد كنّا نشكو نقصًا

من الأدوية وحليب الأطفال ومستلزماتهم. ومرّ وقت لم يحضر فيه أحد من الإخوة من بيروت، ولم يعد لدينا حليب أطفال لطفلتي فدى التي لم تتوقف عن البكاء. فبحثت يسار عن بديل لتجد أنّ لدينا «شوربة عدس»، خففتها بالماء، ووضعتها في قنينة الرضاعة، وأرضعتها لفدى. فنامت فدى بعد وجبة العدس اثنتي عشرة ساعةً متواصلةً، كانت انتصار الوزير (أم جهاد) تتفقدها خلالها كل فترة، مُوجهةً كلمات ونظرات العتاب واللوم إلى يسار. وفي اليوم التالي، وصل أبو وسام وأم وسام ومعهما حليب فدى وطبق «كرشات» لا يُقاوم، إذ كانت أم وسام معروفة في إعدادها.

لم يكن منزلنا في حيّ الزهراء يبعد سوى أمتار عن مكتب أبو عمّار، وهو في الأساس منزل الأخ محمود العالول الذي تنازل لنا عنه عند حضور يسار إلى طرابلس من البقاع، والذي أصبح ملجأً ومأوًى لكثير من مناضلي الكتيبة وعائلاتهم، وقد تكرّر أكثر من مرة أنّ ثلاثين بيضة لم تكن تكفي وجبة إفطار للنائمين في المنزل.

فدى كانت لعبة الشباب، ولم يكن عمرها يتجاوز العام ونصف العام حين لقّنها الإخوة عدة كلمات ترددها عبر أجهزة الاتصال مثل «النصر لنا»، إضافةً إلى بعض الشتائم الخفيفة ضد الخصوم، وكانت تبدو سعيدة وهي تسمع المحطات الأخرى ترحب بها: «هلا فدى ...»، بل إنّها كانت تستطيع تمييز بعض الأصوات فيها مثل صوتي وصوت علي، أو صوت عمر وسمير اللذين كانا يرافقانني كظلي.

كان أبو عمّار يطلب فدى، بين الفينة والأخرى، حتى غدت وجهًا إعلاميًا يظهر معه في أغلب الأوقات. وليلة مغادرتنا طرابلس أرسل في طلبها، وكانت يسار حينئذٍ بجانبي في المستشفى إثر إصابتي في ليلتنا الأخيرة في المدينة. فجاءت سيارة الإسعاف لتنقلني إلى الباخرة، وفدى ما زالت تجلس على سجادة الصلاة بقرب أبو عمّار، وهو يتلو آيات من القرآن، فأحضرها الشباب إلينا في الباخرة وهي على وشك الإبحار. أمّا صديقها الصدوق، فكان بلا منازع أبو طوق الذي كانت تناديه «أبو طقة»، والذي كان على الرغم من مشاغله

التي لا تنتهي يصحبها معه في البقاع كما في طرابلس، حاملًا معه علبة حليب وملابس لها وكيس حفاضات. فقد كان ولع علي وحبه للأطفال كبيرًا، وكانت فدى معه كالحمل الوديع.

لا تزال يسار حتى اليوم تتهمني بتهمة وتعاتبني عليها، وكأنّها حدثت بالأمس القريب، غير مقتنعة ببراءتي منها «براءة الذئب من دم يوسف»؛ وهي أنّني كنتُ أراها في شوارع طرابلس، وهي تنوء بحمل أكياس المشتريات لإطعام الأفواه الجائعة في منزلنا فأتجاهلها وأواصل في طريقي، وبعدما أبلغ وجهتي يعود إليها عمر وسمير إن لم تكن قد وصلت إلى البيت، مُعلّلةً ذلك بعدم رغبتي في أن يرى أحد امرأة سافرةً في سيارتي في أجواء طرابلس الإسلامية، وعندما أكرّر إنكاري لذلك، تستدل على صحة قولها، بأنّنا جميعًا نفكّر على هذا المنوال، مستشهدةً بأنّها طلبت ذات يوم، ونحن في عمّان، من (الشهيد) حمدي أن يوصلها في طريقه فرفض، متعللًا بأنّه يخشى أن يقوم العدو الصهيوني بتفجير سيارته في أيّ لحظة، وهو جادّ في ذلك، فبادرته بالقول بأنّها حتمًا ليست أغلى منه، فأجابها مازحًا ومتهربًا منها بلكنته الخليلية، ليست هنا المشكلة، استشهادها معه سيجعل بعض وسائل الإعلام تتساءل عن هُوية المرأة التي استشهدت معه: «مين هاي؟».

ثمّة قصة ذات دلالة تعلّمتُ منها درسًا لا أنساه عن الإسلام وسعته ورحابته. فذات يوم طُرق باب منزلنا، ففتحت يسار، وكانت ترتدي لباسها الدائم في أيام الحرب والحصار المكون من قميص فضفاض وبنطلون جينز، وكان الطارق الشيخ سعيد شعبان أمير حركة التوحيد الإسلامي وحليفنا في طرابلس، يرافقه الدكتور عصمت مراد الذي بادر بتعريف الشيخ إلى يسار، فشعرتُ أنا بارتباك وخجل؛ لأنّها ليست محجبةً، والشيخ أمير التوحيد في منزلنا. استجمعتُ شجاعتي وبادرته بالقول: زوجتي مجاهدة وصابرة وقد تحمّلت معي الكثير، لكنّ الله لم يكتب لها بعد الهداية في ارتداء الحجاب. فسألني الشيخ: «هل اشترطت عليها الحجاب عند عقد القِران؟»، أجبت: «لا»، فقال لي: «ليس من حقّك أن تُلزمها بلبس الحجاب، ولا أن تضغط

عليها من أجل ذلك، وحسبك وقوفها معك في السراء والضراء»، وأثنى عليها وعلى صبرها وتحملها. ويبدو أنّ طرابلس التي تعصف بها اليوم رياح الفتنة والانقسام، كانت دائمًا مثالًا للتسامح والانفتاح على الآخرين. فقد روى لي الشهيد الدكتور عصمت - وأكّد هذه الرواية في ما بعد السيد هاني فحص (رحمه الله) - أنّ مفتي طرابلس الأسبق كانت له زوجة مسيحية، وعندما توفيت وقف المفتي بباب الكنيسة ينتظر انتهاء القُداس والصلاة عليها وفق الطقوس المسيحية، ثمّ رافقها حيث واراها الثرى.

حاجز البربارة

عند سقوط مخيم البداوي، أمضى الأخ أبو جهاد والأخت أم جهاد بضعة أيام في بيتنا، وقد تعوّد الجميع النومَ العميق، على الرغم من أصوات القذائف والانفجارات التي لا تنقطع ليلًا أو نهارًا. وفي إحدى الليالي، لم يخامر النوم جفنَ أبو جهاد قط، فتبيّن أنّ وراء ذلك حنفية تنزّ قطرات من الماء بطريقة رتيبة منعت عن عينيه النوم، وهو الذي كان يغفو على وقع انفجار الصواريخ.

في أيامنا الأخيرة في طرابلس، مرضت فدى وارتفعت حرارتها على نحو غير مسبوق، ونصحنا الدكتور عصمت مراد والدكتور يانو بنقلها إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، فجهّز علي أبو طوق الأوراق الثبوتية اللازمة للتنقل عبر المنطقة الساحلية التي تسيطر عليها القوات اللبنانية، وأعدّ سيارةً يقودها أحد إخوتنا من بيروت. وتروي يسار قصتها فتقول: «بعد أن تجاوزنا حاجز البربارة الكتائبي المعروف بعدة أمتار - وهو حاجز قُتل عليه عشرات الأشخاص خلال الحرب، لا لسبب إلّا لاختلافهم في الهُوية أو الدين - بدأت السيارات العابرة تنبهنا إلى وجود أشياء تتساقط من سيارتنا، فاعتقدتُ أنّ ثمّة خللًا فنيًا في السيارة، ارتبك السائق، وبدأ يتمتم 'الله يسامحك يا أخ علي قلتلك خلينا نخفف شوي'، تساءلت: 'نخفف شو؟' أجاب: 'قذائف الآر بي جي'. فأيقنتُ أنّ قوات الكتائب ستلحق بنا فورًا، وأنّنا الآن في عداد القتلى. قلتُ للسائق أسرع لعلّنا نتمكّن من الهرب، وضممت فدى إليّ في محاولة لتخبئتها أو وداعها، لا

أدري..! تمالك السائق نفسه، وأوقف السيارة، ونزل وركض في الشارع يجمع القذائف المتساقطة، ثمّ انبطح أسفل السيارة، وأعاد تثبيت المرابط، وانطلقنا باتجاه بيروت، قال لي: 'لو لم أفعل ذلك لاكتشفوا ما الذي يسقط منّا'، لقد كان السائق حكيمًا وأنقذنا من موت محتوم».

لم تصدّق يسار حتى اليوم أنّني لم أكن أعلم أنّ السيارة التي نقلتها كانت تحمل قنابل وقذائف. وفي هذا الوقت، كنّا على وشك مغادرة طرابلس، وأُسدل الستار على مرحلة من الاقتتال الداخلي، وبدأنا نُعدّ العدة لمواجهة العدو الصهيوني في الجنوب، تلك المواجهة التي لم تتوقف يومًا؛ بل إنّ إخوتنا، خلال حصار طرابلس، نفّذوا في الجبل والجنوب والأرض المحتلة أكثر من عملية ضدّ العدو، وكان علينا أن ننقل كميات كبيرةً من الأسلحة والذخائر إلى بيروت والجنوب.

فتح لنا جمعة غالي «أبو ذكي»، مسؤول التسليح، مستودعاته، وقدّم لنا ممدوح نوفل مساعدةً قيّمةً وسخّر سيارات الجبهة الديمقراطية وكوادرها لذلك. أمّا علي، وقد كنّا اتفقنا على أن يبقى في لبنان ويتوجه إلى الجنوب، قبل أن تغيّر إصابتي في الليلة الأخيرة ذلك، فقد أقام ورشة عمل كبيرة، واستدعى عشرات الإخوة من المناطق اللبنانية المختلفة، وجهّز سيارات عدة، كان من بينها السيارة التي أقلّت يسار، ولم يكن يريد أن يُضيع وقتًا، وأراد استغلال كل لحظة وكل إمكان؛ فقد كان يُعدّ العدة لعودة الكتيبة إلى الجنوب.

عندما عادت يسار، أبلغتنا بما حدث، وقد ظلّت تعتقد أنّني كنتُ أعلم بهذه التفصيلات، وعاتبتني أنا والشهيد مروان كيالي بشدة «كيف تضحي بنا بهذا الشكل؟»، حمدتُ الله عزّ وجلّ على سلامتهم، وابتسمتُ في داخلي وأنا أتساءل كيف لم أدقّق مع علي؟ هل من المعقول أن يضيّع علي فُرصة سيارة متجهة إلى بيروت وهي فارغة؟ كيف لم أفكّر في ذلك؟!

غاب علي عن البيت ثلاثة أيام، وكانت الحوادث في طرابلس تتسارع. وفي اليوم الثالث حضر مع (الشهيد) مروان، فوقفَا بجوار الباب، وتساءل مروان ضاحكًا إن كان مسموحًا لعلي أن يدخل، فسمعت فدى صوت علي، وصاحت:

«أبو طقة، أبو طقة جاي تاخدني»، وهرعت إليه وعانقته، منهية الجدل وحاسمة الموقف، فابتسم علي ابتسامته المعهودة، حملها واصطحبها معه وذهب.

المستشفى العسكري الفرنسي

الكهرباء مقطوعة عن طرابلس، ونحن نقضي ليلتنا الأخيرة فيها. كُلّفت الكتيبة بتأمين انسحاب القوات من طرابلس. لذا، انتشرت على طول خطوط التماس لتحل مكان القوات المرابطة في المواقع الأمامية، وتكون آخر من يصعد إلى السفن. مساءً، تلقيتُ اتصالاً من منطقة الميناء علمتُ منه أنّ ضيوفًا في الانتظار، وكانوا رفاقًا من قيادة الجبهة الديمقراطية، حضروا لوداعنا وللاتفاق النهائي على ترتيبات المرحلة المقبلة. وفي الطريق، ووسط العتمة، لمحتُ مطعمًا صغيرًا لا يزال يعمل، فتذكّرتُ أنّنا من دون طعام منذ الصباح، وطلبتُ من عمر وسمير أن يعودا لإحضار بعض السندويشات، ونزلتُ وحدي من السيارة متكئًا على عصاي. ففي لندن كان الأطباء قد وضعوا مكان جبيرة الجبس جهازًا بلاستيكيًا شبيهًا بذلك الذي يستخدمه مرضى شلل الأطفال، وذلك لحماية الساق ومساعدتها على السير. وفي ظروف الحرب يعوق هذا الجهاز حرية الحركة، لذلك نزعته ووضعته في البيت. وما إن سرتُ بضع خطوات على الرصيف، حتى تعثّرتُ ببقايا إسمنت جاف وسقطت أرضًا. كان الألم شديدًا، إذ تحطّمت عظام ركبة ساقي المصابة أصلًا. ونُقلتُ على الفور إلى أحد المستشفيات، فقد كان المستشفى الميداني بقيادة الدكتور يانو قد أُغلق بعد نقل الجرحى بباخرة مستشفى قبل أيام. لم نجد طبيب عظام مقيم في المستشفى، فذهب الدكتور عصمت مع يسار إلى منزل أحد الأطباء لإحضاره لكنّه رفض الخروج في الليل إذ كان قد تعرّض لاعتداء من بعض المسلحين في أثناء عيادته ليلًا لأحد مرضاه، ولم يخرج إلّا بعد أن تأكّد من هوية الدكتور عصمت. قال الطبيب إنّه لا يستطيع أن يفعل شيئًا، فهذه تحتاج إلى عملية معقدة تستغرق عدة ساعات ونحن سنغادر في الصباح الباكر. ولوقف الألم، قام بوضع الساق في جبيرة جبس، وقال إنّ لدينا 48 ساعةً لإجراء العملية الجراحية قبل أن تحصل مضاعفات غير مرغوب فيها.

تمّت جميع الترتيبات ليلًا، ستنُزلنا الباخرة في قبرص، ومن هناك سنذهب إلى باريس عن طريق فيينا. على رصيف ميناء طرابلس. سلّم علي ليسار ثلاثة آلاف دولار هي كل ما حملناها معنا. كيف لم يدُر في ذهن الذي حجز لنا للسفر بالطائرة أنّ المسافر جريح وساقه لا يمكن ثنيها بسبب الجبس، وأنّه يحتاج إلى ترتيبات خاصة في الطائرة. وفي مطار لارنكا، تعاون معنا القبارصة ولم يتقاضوا أيّ مبالغ إضافية، على الرغم من أنّنا، فعليًا، شغلنا ثلاثة صفوف؛ أي ما مجموعه تسعة مقاعد، لكنّهم تقاضوا منّا الدولارات كلّها التي منحنا إياها علي ثمنًا لرحلة فيينا - باريس، وهكذا وصلنا إلى باريس من دون أن يبقى معنا دولار واحد.

استقبلنا عدد كبير من الزملاء والأصدقاء على سلم الطائرة، وفي طليعتهم الدكتور غسان بركات، وفؤاد شقيق (الشهيد) مروان وآخرون. لكنّ المستشفى الذي كان من المفترض أن يستقبلنا، اعتذر بعد أن عرف التاريخ الطبي للساق ومدى الالتهابات السابقة التي أصابتها، فكان أن نُقلتُ إلى المستشفى العسكري المعروف باسم «فال دي غراس».

للمستشفى العسكري الفرنسي تقاليد خاصة، فبعد أن أُنجزت الفحوصات اللازمة وقُرّر إجراء عملية جراحية، حضر الجنرال مدير المستشفى لعيادتي، وقال لي إنّهم مُضطرون إلى نقلي لسكن خاص لمدة ليلتين، إذ وافق أن كان اليوم الثاني لدخولي المستشفى عيد الميلاد المجيد، وكان من عادة رجال الصحافة أن يستغلوا فترة الأعياد في زيارة غرف المرضى لعلّهم يظفرون بجندي فرنسي جريح من إحدى المهمات الخاصة، فتكون رواية الموسم. وأضاف معتذرًا أنّهم لا يستطيعون إغلاق أيّ غرفة في وجوههم في هذا اليوم. لذا، فهم مضطرون إلى نقلي خارج المستشفى لمدة يومين، حفاظًا على أمني أيضًا، وهكذا كان. أجريت جراحة لي عبر نزع عظمة من منطقة الخاصرة وزرعها في منطقة الركبة. وبعد أيام، غادرت إلى منزل في أحد أحياء باريس وكان يتردّد عليّ أسبوعيًا فنيّ مختبر للقيام بالفحوصات اللازمة. وبعد فترة، حُوّلت للعلاج الطبيعي بعد أن قضيت ثلاثة شهور لا أغادر المنزل. وعند مراجعتي النهائية للمستشفى قبل السفر، تبيّن وجود مشكلة في جمع تقاريري

الطبية وصور الأشعة. ففي كل مرة كنتُ أغادر فيها المستشفى وأعود إليه، أُدخل باسم مختلف حفاظًا على الأمن؛ وبذلك وبعد انتظار أكثر من أربع ساعات، حصلتُ على تقاريري الطبية بأربعة أسماء مختلفة.

ذات يوم، زارني السفير الفلسطيني في باريس. وفي ذلك اليوم، عرفتُ أنّ الفرنسيين قد وضعوا نقطة حراسة في محلّ «بقّال» تونسي على مدخل المبنى، إذ وافق أن كان الحارس يومئذ منتدبًا سابقًا لحراسة السفير، فما إن رآه حتى قام لتحيته. يومها عرفتُ أنّ ثمّة إجراءات أمن فرنسية خاصة تحوط بي. وفي يوم مغادرتي باريس متجهًا إلى تونس، تقدّم منّي على باب الطائرة تمامًا شخص فرنسي لا أعرفه. ناداني حتى أنتبه إليه: كولنيل طاهر.. كولنيل طاهر. تقدّم وأدّى تحيةً عسكريةً، صافحني ومضى، معلنًا بذلك انتهاء مهمتهم عند هذ الحدّ. قدّر الأطباء الفرنسيون أنّني بعد عشر سنوات من العملية؛ أيّ في عام 1993، سأحتاج إلى تركيب مفصل صناعي. لكنّي ما زلتُ حتى الآن أستخدم ركبتي ذاتها.

العودة إلى لبنان

حوّل علي أيامه الأخيرة في طرابلس الواقعة تحت الحصار إلى ورشة عمل دائم؛ فقد استدعى عشرات الإخوة من الجنوب وبيروت والجبل والبقاع. قابلهم ورتب معهم خطط عملهم ضد العدو الصهيوني، ونقل الأسلحة والذخائر من شمال لبنان إلى جنوبه عبر جميع الوسائل المتاحة والمبتكرة، وأبلغنا قراره: «لن أخرج، سأتوجه إلى الجنوب»، فقد كان يدرك أنّ الثورة تسترجع عافيتها عبر الصراع ضد العدو الصهيوني. لذا، رفض ركوب البحر، ووافقه إخوانه على ما يريد، إلّا أنّ الرياح جرت بما لا يشتهي؛ فقد أُصبتُ في الليلة الأخيرة، ما اضطره إلى مرافقة الكتيبة إلى الجزائر، ويومها بكى علي، كان يبكي كطفل صغير ضلّ الطريق، ولم تمضِ بضعة أسابيع حتى كان وإخوانه في طليعة العائدين إلى ساحة الصراع.

في البداية، لم تكن فكرة العودة إلى لبنان مُستساغةً كثيرًا عند أبو عمّار،

ولم يكن متأكدًا من نجاحها، لكنّ حجم المبادرة في الثورة كان واسعًا، بل لعلّ جزءًا لا بأس به من النجاحات التي تحقّقت عبر مسيرتها كان يقف وراءها مبادرة مناضل أو مجموعة. عادت مجموعات الجرمق بقيادة مروان وعلي وأبو رحمة وأحمد منتصر والعشرات من إخوانهم عن طريق البحر عبر قبرص باتجاه طرابلس، أو عن طريق مطار بيروت، حيث كان عماد مغنية[19] يرتب استقبالهم متجاوزًا الإجراءات المعتادة في المطار والرقابة السورية عليه، ليستقر بهم المقام في بيروت وطرابلس وصيدا، وعادت العمليات خلف خطوط العدو في الجنوب مرةً أخرى، وشيّعت بيروت جنازة الشهيدين خليل حمادة وحامد الحداد اللذين استشهدا في عملية كبيرة للجرمق بالقرب من نهر الليطاني في الجنوب.

بعد أن أصبح وجود الجرمق حقيقةً واقعةً في لبنان، بدأ الأخ أبو عمّار بإرسال مئات المقاتلين مجددًا إليه، وبفتح قنوات اتصال جديدة مع خصوم الأمس، وأصبح ميناء جونيه إحدى نقاط الوصول الآمنة إلى لبنان، ووُجد كمال مدحت[20] كضابط ارتباط في المنطقة الشرقية من بيروت، وخيّمت ظلال الخلاف السوري - الفلسطيني على تحالفات كل منهما في الساحة اللبنانية، وأضحى الهاجس السوري منع مجموعات عرفات من الوجود في لبنان، وضرب القوى اللبنانية المتحالفة معه، بل منْع أيّ وجود فلسطيني مؤثّر حتى لو كان حليفًا لسورية، ومنع القوى اللبنانية أو الفلسطينية المختلفة من المشاركة في عمليات المقاومة في الجنوب اللبناني، في محاولة واضحة لصبغ هذه المقاومة بلون واحد.

لكنّ علي وإخوانه عادوا وفي ذهنهم هاجس واحد: كيف يمكن تصعيد الكفاح المسلح ضد العدو الصهيوني، وتوحيد جهد جميع القوى المؤمنة بالجهاد ضده؟ وقد كان هدفهم واضحًا للعيان ورؤيتهم ثاقبة، وسلاحهم مسدّد

(19) (شهيد)، (1962-2008) ناضل في صفوف حركة فتح قبل أن ينضم إلى حزب الله ويصبح قائده العسكري. اغتيل في دمشق عام 2008.

(20) عمل في لجنة 77 ومن ثمّ مرافقًا للقائد العام، وجرح في طرابلس، وقد عاد إلى لبنان ونال شهادة الدكتوراه، ثمّ استشهد في منطقة صيدا في 23 آذار/مارس 2009.

نحو العدو الصهيوني، والبذور التي زرعتها الثورة قد أنبتت وأينعت أزهارها التي استحالت حممًا ضد المحتل. لذا، كان لا بد من أن توضع العراقيل في وجه الذاهبين للقاء العدو. وكعادته اختار علي الموقع الأصعب. فقد اختار الانحياز إلى شاتيلا التي أحالها شوكةً في عين المعتدي، وحصنًا صامدًا لا يُقهر على ضآلة مساحتها، «وبُهت الذي كفر»، وظنّ أنّ قتل علي يُسقط شاتيلا، والتفّت شاتيلا حول علي تحميه ويحميها، وتُخرجه سالمًا من وسط كواتم الصوت والعبوات الناسفة، فقد كان علي لا يهتم بالجراح التي يُصاب بها قدرَ اهتمامه بإيجاد جرعة ماء لطفل ظمآن. وعندما استشهد لم تسقط شاتيلا، واحتضنته في رحمها لتبدأ به حياتها من جديد. لقد وفّر علي جميع مستلزمات الصمود في شاتيلا، ولم ينسَ حليب الأطفال وحفّاضاتهم والفوط الصحية للنساء، وأقام مخبزًا ومطبخًا مركزيًا ومستشفى ميدانيًا.

تروي لي آمنة جبريل[21]، رفيقة علي في شاتيلا، أنّه حتى اليوم إذا تشاجر شخصان في المخيم، ولم يُفلح الجهد لوقف المشاجرة، يكون الاستنجاد بـ «رحمة علي» كافيًا لإنهاء الشجار فورًا ومن دون شروط. ومن يعرف أنّه في أحد الأيام فاضت المجاري في أزقة المخيم المحاصر، يعرف أنّه ما كان من علي إلّا أن نزل في أحد المناهل وقام بتنظيفها دون أن يطلب من أحد أن يساعده!

حسبي هنا أن أذكر أنّني التقيتُ الدكتور يانو، الطبيب اليوناني الأصل والفلسطيني الانتماء والقلب، وهو الذي كان يعرف عليًّا إبّان عمله في المستشفى الميداني في النبطية، واقترب منه أكثر في طرابلس، أنّه يعزم على الذهاب إلى شاتيلا، فقلت له: «لا يوجد مستشفى في شاتيلا، وأنت جرّاح وسيكون صعبًا أن تُجهّز به مستشفى ميدانيًا فيّ ظل الحصار المفروض عليه». فقال لي: «الآن لا يوجد مستشفى في شاتيلا، لكن يوجد فيه علي أبو طوق، ولذا سأتمكّن من تجهيز المستشفى، وسيكون في حاجة إليّ هناك».

(21) عضو مجلس ثوري لحركة فتح.

يروي بلال الأقرع[22] أنّ نشاط الكتيبة في العمليات خلف خطوط العدو قد تصاعد بإشراف مباشر من (الشهيد) علي الذي حضر في إحدى المرات إلى صيدا من بيروت - وقد كان مكلّفًا بالإشراف على تلك العمليات - وقد اجتمع إلى أبو الفتح وبلال وبعض الإخوة، وطلب منهم تجهيز فصيل كامل لإعادة احتلال قلعة الشقيف، وطرد مجموعات أنطوان لحد منها، والتشبث بها مرةً أخرى، وصدّ أيّ هجوم معاكس عليها، قبل الانسحاب منها بعد أيام. يومها، جادله أبو الفتح بأنّ هذا العمل يكاد يكون استشهاديًا، وبأنّه يشتمل على مخاطرة كبيرة، إلّا أنّه أذعن أمام إصراره على هذا العمل، وبدأ علي يسترسل في شرح أهميته الكبرى، وأعرب عن عزمه أن يكون شخصيًا على رأس هذا الفصيل، وبدأ بالاتصال بالإخوة المقيمين في منطقة النبطية لتأمين نقل المشاركين واستقبالهم في هذه العملية الكبرى. ذهب علي إلى بيروت على أن يعود بعد أسبوع إلى صيدا للبدء بالتنفيذ، إلّا أنّ تطوّر الحوادث في مخيم شاتيلا دفعه إلى الذهاب إلى داخل المخيم وتولي مسؤولية الدفاع عنه.

في كل يوم تقريبًا كان علي في تواصل معي عبر النقطة العسكرية في قبرص. أطمئن عليه في البداية، ونتحاور في أفضل السبل للخروج من حرب المخيمات والعودة إلى قتال العدو الصهيوني في الجنوب، ويقوم بتكليفي أنا وغيري بالاتصال بمختلف القوى والفعاليات والشخصيات للقيام بمبادرة ما لوقف القتال، وكاد الجهد أن يفلح في ذلك لولا استشهاده.

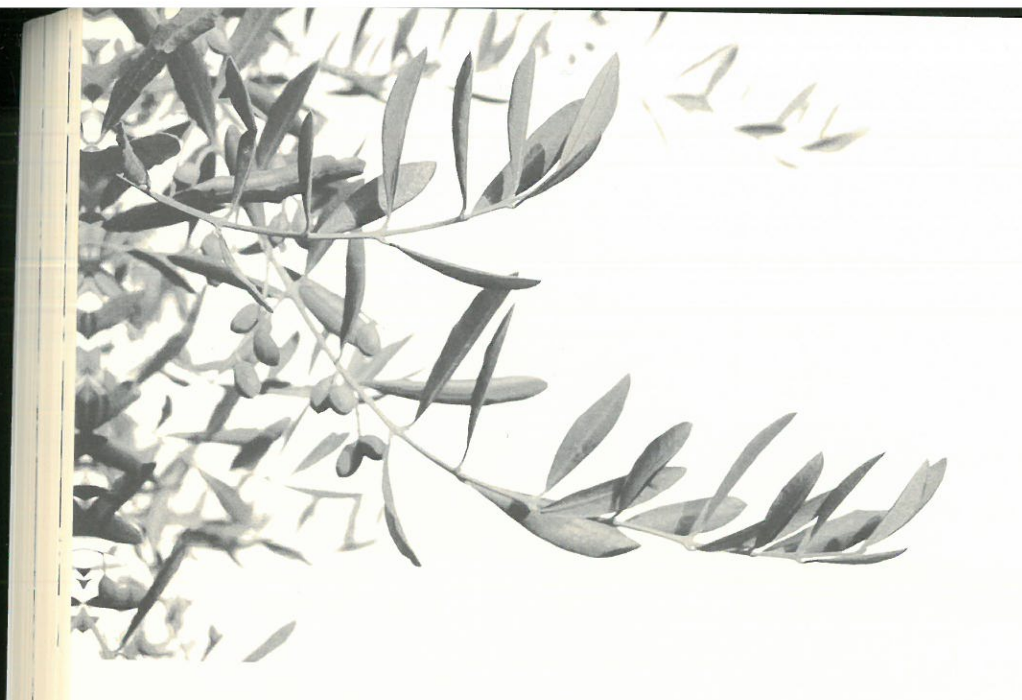
تأرجحت علاقة علي مع ياسر عرفات بين المحبة العميقة والتوتر الشديد، لم يكن علي من صنف القادة الذين يتلقّون التعليمات ليقوموا بتنفيذها فحسب، بل كان يناقش ويعترض، وكثيرًا ما ينفّذ ما يعتقده هو حتى لو خالف أيّ تعليمات صادرة. كان عقله ومركزية قضية فلسطين واحترام الشعب وقتال العدو الصهيوني بوصلته. في الأيام الأخيرة قبل استشهاده، توترت علاقته بأبو عمّار، وشهدت نقطة الاتصال العسكرية في قبرص هذا التوتر عبر الهاتف.

(22) (عميد) من كوادر الكتيبة. شارك في عدد من عملياتها. وهو حاليًا مقيم في مخيم عين الحلوة.

كثرت التقارير المغرضة من بعض المستفيدين في حق علي تتهمه بالاتصال بجهات خارجية وتلقي الأموال منها، وبأنّه يُعدّ لانشقاق جديد، كما كان ثمّة خلاف في طريقة فكّ الحصار عن المخيم وتوقيته، ووقف إطلاق النار، وأحيانًا على المبدأ ذاته. كان علي يعتقد أنّه يجب الإسراع في هذا الأمر. ففي كل لحظة تمرّ ثمّة شهيد جديد، وأوضاع الحياة في المخيم باتت خارجةً عن أيّ وصفٍ، ومسجد المخيم الصغير استحال مقبرةً امتلأت بجثامين مئات الشهداء، والعمليات الجراحية تُجرى من دون تخدير، وفي مرحلة لاحقة بعد استشهاد علي، غادر الطبيبان مخيم شاتيلا وأصبح الجرحى ينزفون حتى الموت بلا علاج.

بعد استشهاد علي، كان ثمّة حساب مشترك بين علي وآمنة، وفيه مبلغ كبير من المال، سأل أبو عمّار آمنة عن مصدر هذه الأموال معتقدًا أنّ العثور عليها يثبت تقارير الوشاة، فأجابته آمنه جبريل بثقة: «هذه من الأموال التي كُنت تحوّلها إلينا، لكنّ الفرق أنّ علي لم يكن يصرف فلسًا واحدًا إلّا في مكانه، في حين أنّ الآخرين يبذّرونها يمينًا وشمالًا، وينقلونها إلى حساباتهم الشخصية». يومها بكى أبو عمّار بحرقة شديدة.

قصة مخيم شاتيلا قصة تستحق أن تُروى بكل تفصيلاتها، بعد أن حوّل علي أبو طوق ورفاقه بدمائهم أكواخ شاتيلا إلى أكثر الحصون منعةً في القرن العشرين.



الفصل الثاني عشر

عودة إلى الأردن

غادرتُ باريس إلى تونس حيث المقر الجديد لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية. كان جزء كبير من الكتيبة قد عاد إلى لبنان عبر منفذ طرابلس، ومنها توجه إلى مخيمات بيروت. فتحت حركة التوحيد ذراعيها مرةً أخرى للمقاتلين العائدين، ودفعت طرابلس ثمنًا لذلك في حرب جديدة اشتعلت في عام 1985. أدرك ياسر عرفات وجود فرصة جديدة تلوح، فبدأ، بعد أن كان مترددًا في البداية، بإرسال مئات المقاتلين إلى لبنان؛ بعضهم رجع وفي ذهنه أهداف سامية تتعلّق بالصراع مع العدو الصهيوني وحماية المخيمات الفلسطينية، وسرعان ما اندفع من طرابلس باتجاه بيروت والجنوب، لكنْ ثمّة أفراد استمرأوا البقاء في طرابلس الآمنة، وفضلوا عدم المغامرة على الخروج منها باتجاه الجنوب، وعادوا إلى تجاوزات معهودة في تجربة الثورة سابقًا في الأردن ولبنان لم تضع لها الثورة في ذلك الوقت حدودًا، وسببت نفورًا منها، واستُخدمت في التحريض ضدها. أرسل الإخوة في طرابلس ولبنان شكواهم من هذه التجاوزات، في الوقت الذي كنتُ فيه أتلقى العلاج في فرنسا.

عند وصولي إلى تونس نزلت ضيفًا على أخي عدنان أبو الهيجا، وفي الليلة ذاتها ومع اقتراب بزوغ الفجر، أرسل أبو عمّار في طلبي، فالتقيته في تونس في منزل السفير الفلسطيني حكم بلعاوي[1]، وكان معي أبو خالد حسام. استقبلنا أبو عمّار بودّ شديد وترحاب كبير؛ فهي المرة الأولى التي أراه فيها منذ خروجنا من طرابلس. تحدّث أبو عمّار بحب وانفتاح، وبدا قلقًا بشأن الوضع في لبنان وكيفية إدارته. نقلتُ شكوى الإخوة ورجوته ألّا

(1) أصبح عضوًا في اللجنة المركزية بعد المؤتمر الخامس الذي عُقد في تونس.

يرسل إلّا من كان ملائمًا لهذ المهمة. كان وجودنا الجديد بلبنان ما زال في بداياته، ولم يكن أبو عمّار مُمسكًا بخيوطه كلّها، وذكرتُ له ممارسات أحد الأشخاص السلبية متسائلًا عمّن أرسله، فردّ بأنّ من لا يعجبكم ويمارس مثل ذلك عاقبوه أو تخلصوا منه. فأجبته بأنّ على من أرسلهم أن يتخلص منهم. احتد النقاش قليلًا ثمّ هدأ، على أن نستأنف النقاش بعد وصولنا إلى عمّان التي كان سيتوجه إليها خلال ساعات. كان لأبو عمّار حساباته، فلعلّه كان يعتقد في البداية أنّ جلّ ما يمكن أن نحققه هناك لن يتعدى الوجود العسكري الرمزي، وبعض العمليات العسكرية ضد الجيش الصهيوني، لكنّ واقعًا مثل واقع الساحة اللبنانية بمتغيّراتها اليومية جعلت من إمكان تحقيق وجود أكبر أمرًا متاحًا، بل إنّها جعلت الفرقاء المختلفين – ومنهم من كان خصمًا بالأمس ومن سيكون خصمًا غدًا – يطلب مساعدته على هذا الموقف السياسي أو حسم تلك المعركة العسكرية[2]. دفعت هذه المتغيّرات والمترافقة مع الشعور بابتعاد مسار التسوية، إلى محاولة الإمساك بالورقة اللبنانية أو بجزء منها، وكان الوجه الغالب عليها متعلّقًا بالصراع السوري – الفلسطيني، وأصبحت هذه الورقة مثار اهتمام أبو عمّار الأول الذي دفع إليها بجزء كبير من قواته وكوادره.

يومها، كانت فرصتي في الذهاب إلى عمّان، من دون مرافقته أمرًا متعذرًا، وكنتُ قد أعربتُ له عن عدم رغبتي في الاستقرار بتونس، معتقدًا أنّ هناك ما يمكنني أن أقوم به في الأردن الذي سبقني إليه عدد كبير من رفاقي في طليعتهم حمدي وأبو حسن قاسم.

كانت العلاقات الأردنية – الفلسطينية تشهد تحسنًا ملحوظًا، ومئات الكوادر قد بدأت بالعودة إلى الأردن الذي سمح بفتح مكاتب لحركة فتح فيه، ما يجعل من إقامتي فيه أنا وغيري أمرًا متاحًا.

(2) يُنظر: ممدوح نوفل، مغدوشة: **قصة الحرب على المخيمات في لبنان** (رام الله: مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، 2006). ومن الأمثلة الصارخة مساندة «فتح» لحركة أمل في قتالها ضد حزب الله في إقليم التفاح.

في عمّان التقيتُ والدتي التي لم أرَها منذ أكثر من عشر سنوات وتعرّفتُ إلى جيل جديد من عائلتي. بعد أيام، طلب منّي ضابط الارتباط الفلسطيني مع جهاز المخابرت العامة أن أرافقه إلى مبنى المخابرات لرغبتهم في التعرّف إليّ. كانت جلسةً لطيفةً ومثمرةً، ضمت عددًا من ضباط المخابرات ورحب بي الباشا سميح بينو[3] كضيف، وقال لي إنّ البلد بلدي، وأستطيع البقاء فيها الفترة التي أرغب فيها. ثلاثة من الضباط الحاضرين للقاء أصبحوا في ما بعد مديرين للمخابرات، في حين تقاعد آخرون برتبة لواء. دار النقاش حول حرب 1982 وطبيعة الجيش الإسرائيلي، أظنّ أنّهم فوجئوا بمن يعطي تقديرًا دقيقًا لجيش العدو، ومستوى تعليم ضباطه، ونسبة القتلى المرتفعة من الضباط في صفوفه التي تفوق المعدلات السائدة، ودور قيادته في الحياة السياسية، وقلت إنّ من لا يعرف حقيقة خصمه لن يستطيع مقاتلته، ولعلّ مصدر دهشتهم كان نتيجة اعتيادهم على سماع بعض البطولات الوهمية الزائفة من بعض الذين حُقّق معهم، وربما كان يتوقّع منّي شيئًا شبيهًا بادعاء بطولات وهمية، أو كان يختبرني في ذلك لمعرفة حقيقة من يخاطب.

بعد شهور عدة التهبت ساقي مجددًا، وأشار عليّ الدكتور كامل عفيفي أخصائي العظام بضرورة السفر إلى الخارج لاستكمال العلاج، لم أكن أمتلك جواز سفر، فجواز سفري الأردني دُفن تحت بناية في حيّ الفاكهاني في بيروت، لكنّي تمكنتُ من استخراج هوية ودفتر عائلة، استنادًا إلى دفاتر عائلة أخي وعمي. وكنتُ قد قدمتُ طلبًا إلى دائرة الجوازات التي أحالتني إلى المخابرات العامة للحصول على موافقتها. بدأتُ مراجعات يومية. ومنذ اليوم الأول، طُلب منّي أن أذهب عصرًا، وقد وفّر هذا الأمر مؤونة الانتظار والإجراءات الروتينية الطويلة التي يتعرّض لها المراجعون في الصباح. عصر كل يوم كنّا نمضي ساعة أو ساعتين في حوار ونقاش في موضوعات شتى، لم يأخذ ذلك شكل التحقيق، ولم يكن هناك من يُسجّل شيئًا مكتوبًا، لكنّ الأيام تمرّ ولا يبدو أنّ هذا سينتهي، وكان بعض الأهل قد

(3) أصبح وزيرًا ومسؤولًا عن مكافحة الفساد.

تدخّل مع أصدقائه لحلّ هذا الموضوع ضمن منظومة المجتمع الأردني – الفلسطيني الصغير الذي يعرف الناس فيه بعضهم، وتربطهم أواصر القربى والنسب والمصالح.

في أحد الأيام كنتُ في زيارة صلاح التعمري[4] في منزله بعمّان برفقة الشهيد نور علي، وكانت هناك زوجته دينا[5] التي بادرت بالاستفسار عن وضعي فأخبرتها بضرورة سفري للعلاج. في مساء اليوم نفسه، أخبرني صلاح أنّ موضوعي قد حُلّ. لا أعرف ما الذي جرى، لكن في اليوم التالي استدعاني الباشا سميح بينو إلى مكتبه وطلب لي فنجانًا من القهوة، وما إن انتهيتُ من شربه حتى كان كتاب الموافقة على إصدار جواز سفر لي قد وُقّع، ما أتاح لي السفر لاستكمال علاجي، لكنّي بقيت فترةً عليّ فيها أخذ إذْن مُسبق لمغادرة البلاد، وكان الأمر ينتهي من دون تعقيدات، وعبر اتصال هاتفي من ضابط الارتباط أو بوساطة من أحدهم، إلى أن أُلغي هذا الإجراء بانتهاء الأحكام العرفية.

عمّان قاعدة ارتكاز جديدة

عاد عدد كبير من الإخوة إلى الأردن. أغلب من كان في سورية رجع إلى عمّان بوسائل مختلفة، بعضهم عبر المنافذ الرسمية وآخرون متسللون عبر الحدود. تساهلت السلطات الأردنية مع الجميع، وصدر عفو عام عن أولئك الذين فرّوا من الجيش الأردني خلال حوادث أيلول 1970 والتحقوا بالمقاومة. بعض الإخوة الذين توجهوا إلى الساحة اللبنانية بعد الخروج من طرابلس عادوا إلى الأردن، بعد أن توصلوا إلى قناعة مفادها أنّ الساحة اللبنانية في ظلّ الصراعات التي تعصف بها ويختلط فيها الحابل بالنابل، والغث بالسمين، لم تعُد الساحة الملائمة لممارسة قناعاتهم بأولوية النضال ضد العدو الصهيوني،

(4) أحد كوادر «فتح» القيادية وعضو في المجلس التشريعي.

(5) ملكة سابقة للأردن وطليقة الملك حسين، تزوجت لاحقًا من صلاح التعمري، وكانت تقيم معه في صيدا حيث تعرفت إليها هناك.

إذ أصبحت الصراعات الداخلية وملاحقات أجهزة الأمن السورية هي المهيمنة على الساحة اللبنانية في تلك الفترة[6].

في الأردن، وُجد العشرات من كوادر الكتيبة ولجنة 77 والمئات من كوادر حركة فتح، وفي ظلّ أجواءٍ من تحسّن العلاقات الأردنية – الفلسطينية، ووقوف الملك حسين مع ياسر عرفات في النزاع السوري – الفلسطيني. وتُوّج ذلك بعقد جلسة المجلس الوطني الفلسطيني في العاصمة الأردنية لتجديد شرعية قيادة منظمة التحرير، وسط معارضة التيارات المؤيدة لسورية[7].

لم ينقطع إخوتنا عن الأردن طوال الفترات الماضية[8]، واستمر نشاطهم الموجه نحو الأرض المحتلة منها، وفي ظل أوضاع صعبة، وبعد فقدان الساحة اللبنانية والسورية كان لا بد من تعويضها بالعمل الدؤوب في الأردن.

للوجود في الأردن ميزة كبرى تتعلّق بسهولة الاتصال بالأرض المحتلة. ففي غضون أيام قليلة، وأحيانًا ساعات، تستطيع أن تستقبل شخصًا أو أن ترسل رسولًا، لكن كان ثمّة عقبات إضافية تتعلّق بفقْد قواعد التدريب الموجودة في سورية وصعوبة إرسال أيّ مقبل من الأرض المحتلة إلى لبنان، فكان لا بد من حلّ هذه المسألة.

أُسست بعض نقاط التدريب المحدودة في عدد من الدول الأوروبية الصديقة، لكنّ فاعليتها كانت محدودةً من حيث مستويات التدريب التي كانت تأخذ طابعًا نظريًا في أغلب الأحيان، أو من حيث اقتصارها على

(6) شهدت تلك الفترة حروب المخيمات وحصارها وملاحقة أجهزة الأمن السورية للكوادر الفلسطينية، كما شهدت قيام مجموعة صبري البنا باغتيالات في الساحة الفلسطينية وتصفية أعداد كبيرة من المنتسبين إليها، في حين شهد الوضع اللبناني اشتباكات بين عون وجعجع والحزب التقدمي الاشتراكي و«أمل»، وتصفية حركة «المرابطون» واشتباكات دامية بين حزب الله و«أمل» وغيرها في الوسطين الإسلامي والمسيحي.

(7) الدورة السابعة عشرة للمجلس، وقد عُقدت في الفترة بين 11–24 تشرين الثاني/ نوفمبر 1984.

(8) يُنظر: الفصل الثامن.

بعض الطلاب الدارسين فيها أو في جوارها. لذا، كان لا بد من حلّ هذه المسألة في الأردن من خلال بيوت آمنة لا يعرف المتدرب أين تقع، اكتشفت السلطات بعضها، وصادرت سلاحًا، واعتقلت عددًا من الإخوة مثل عمّار، أبو رحمة، أبو حسين، أبو فراس، مروان زلوم، مهند، ثائر، تيسير وآخرين. لكن لم يُقدّم أيّ منهم للمحاكمة، وأُفرج عنهم بعد فترة من الاعتقال، وقد قال لي أحد الضباط لاحقًا، إنّ تعامل السلطات معنا ومع غيرنا من الذين كانوا ينشطون باتجاه الأرض المحتلة لم ينبع من الخوف على الأمن الداخلي. فهم كانوا متأكدين أنّ هذا السلاح لن يُستخدم على أيّ نحوٍ ضدّ أمن الأردن. ولعلّ في هذا ما يفسّر طبيعة التعامل في تلك الأوقاتِ التي ربما لا تنطبق على أوقات لاحقة، خصوصًا بعد توقيع اتفاق أوسلو ومعاهدة وادي عربة. لقد امتلأت تلك المرحلة بعشرات الجنود المجهولين، وكان الأردن خلية نحلٍ كاملة، خصوصًا في زمن الانتفاضة الأولى التي كنتُ فيها أحد أعضاء لجنة دعمها ومتابعتها التي شُكّلت بقرار من أبو عمّار من أعضاء موجودين في عمّان.

سرايا الجهاد في فلسطين حكاية لم تُروَ

الزمان: 14 شباط/ فبراير 1988

المكان: ليماسول - جزيرة قبرص

مجموعاتٌ من الموساد والوحدات الخاصة الصهيونية وصلت إلى جزيرة قبرص في مهمة محددة؛ هي تفجير سفينة العودة المستعدة للإبحار باتجاه حيفا، وهي تحمل عشرات الفلسطينيين والمتضامنين الأجانب، في مسعًى لتأكيد حقهم في العودة إلى ديارهم، إلّا أنّ ثمّة طارئًا قد حدث. فقد رصدت وحدات الموساد وجود حمدي التميمي وأبو حسن قاسم في ضيافة مروان كيالي المقيم في قبرص، التي كان يشرف منها على الأوضاع في لبنان. اتصل رئيس الموساد برئيس الوزراء الإسرائيلي يتسحاق شامير مستئذنًا إيّاه في تغيير هدف العملية، إذ إنّ هؤلاء احتلوا منذ مدة الرقم واحد في لائحة المطلوبين

للموساد الإسرائيلي. وحذر رئيس الموساد من أنّ اغتيالهم قد يمنع تفجير الباخرة في ميناء ليماسول. فجاء ردّ رئيس الوزراء قاطعًا، الأولوية لعملية الاغتيال، أمّا الباخرة فبإمكاننا اعتراضها على طول الطريق من ليماسول إلى حيفا.

خرج الثلاثة صباحًا في سيارة مروان الفولكس فاغن إلى أحد المقاهي، ومكثوا فيه نحو ساعتين، وفي طريق العودة إلى المنزل انفجرت السيارة عن بعد، واستشهد حمدي وأبو حسن قاسم ومروان فورًا. كانت قبرص في عطلة رسمية ومشغولة بعيدها الوطني وعيد الحب، وأتاح تراخي ردة الفعل القبرصية لوحدات الموساد لاحقًا تفجير سفينة العودة، أيضًا، على رصيف ميناء ليماسول، وخرجت الصحف في صباح اليوم التالي تتحدّث عن تفجير السفينة واغتيال أولئك الذين كانوا يشرفون عليها.

كان الرابط الوحيد بين العمليتين هو قيام العدو الصهيوني بتنفيذهما. قطعًا لم يكن للشهداء الثلاثة أيّ دور في التخطيط أو الإشراف على سفينة العودة، لكن ما الذي دفع العدو الصهيوني إلى إعطاء الأولوية لاغتيال الشهداء الثلاثة حتى لو أدّى ذلك إلى إبحار سفينة العودة باتجاه الساحل الفلسطيني، حيث تصبح مهمة اعتراضها أصعب وذات تبعات أكبر؟ ما هي قصة الشهداء الثلاثة؟ بل ما هي قصة سرايا الجهاد في فلسطين التي كانوا قادتَها ومؤسسيها؟ وهي القصة التي لم تُحكَ بعدُ، ولم تُروَ على نحو دقيق، ما جعلها عرضةً لاجتهادات متنوعة. فتارةً يُنسب نشاطها إلى حركة فتح، وتارةً أخرى إلى حركة الجهاد الإسلامي. وفي الحالتين يجري القفز عن مرحلة أساسية في تاريخ المقاومة في فلسطين. كيف بدأت؟ ولماذا انتهت؟ هذا ما ستحاول هذه الأوراق الإجابة عنه.

الشهداء الثلاثة

يتحدر الشهيد أبو حسن قاسم (محمد بحيص) من قرية يطا في منطقة الخليل، وقد تخرج في جامعة القاهرة في عام 1966، ليعمل بعض الوقت في البنك العربي، قبل أن يتفرغ للعمل الثوري في صفوف حركة فتح، وكان ضمن

ثاني دورة أمنية عسكرية تتلقى تدريبها في مصر بعد حرب عام 1967 وكان ترتيبه الأول عليها. وفي عام 1971، اختاره (الشهيد) كمال عدوان ليكون ضابطًا لعمليات الأرض المحتلة، كما أسند إليه مهمة تأسيس قسم المعلومات في القطاع الغربي. ولاحقًا، قام مع الشهيد حمدي بتأسيس لجنة التنظيم 77. عُرف عن أبو حسن قاسم قيادته الميدانية، إضافةً إلى تميّزه الفكري وثقافته الواسعة، إذ أشرف بنفسه، وبمشاركة من حمدي و(الشهيد) الحاج حسن، على عبور عدد كبير من الدوريات المقاتلة باتجاه الأرض المحتلة. كنت تراه في بيروت أو دمشق، لتتفاجأ بأنّه في اليوم التالي قد عبر الحدود الأردنية - السورية متسللًا، وأصبح في غور الأردن على حدود فلسطين، حيث نجح في إقامة قواعد ارتكاز سرّية لتسهيل عبور الدوريات إلى الداخل الفلسطيني.

من أبرز العمليات التي أشرف عليها في المرحلة الأولى، وقبل تأسيس سرايا الجهاد، عملية الدبويا في الخليل التي نفذتها دورية مقاتلة استقرت في الأرض المحتلة أكثر من عام بالتعاون مع الخلايا المقيمة بالداخل. بإيجاز، يمكن القول إنّ اسمَي أبو حسَن وحمدي قد ارتبطا بالإنجازات الكبرى في داخل الأرض المحتلة، على أنّ أبرز سمة له كانت في مساهمته في تأسيس تيار مع حمدي ومروان ورفاق لهما، استلهموا منهجه من تجربة ماو تسي تونغ وهو شي منه في حرب الشعب، عُرف باسم «خط الجماهير»، ويُعدّ أبو حسن قاسم القائد الفعلي لهذا التيار الذي ضم في صفوفه ما عُرف باسم الكتيبة الطلابية واللجان الوطنية في لبنان والمئات من المناضلين الفلسطينيين والعرب.

في وقت كان فيه أبو حسن يلتحق بحركة فتح في الأردن، كان (الشهيد) حمدي (محمد باسم سلطان التميمي)، والمولود في الخليل يتعرض للاعتقال من السلطات الصهيونية، ليكون أصغر معتقل في سجون الاحتلال بتهمة مساعدة دوريات الفدائيين المطاردين في منطقة الخليل. أُفرج عن حمدي الذي استأنف نشاطه مرةً أخرى، وعندما اعتقل الاحتلال بعض أفراد مجموعته، غادر الأرض المحتلة، ليصبح من قادة القطاع الغربي في حركة فتح، وتوأم أبو حسن الدائم، وشريكه في المهمات النضالية في لبنان وسورية والأردن. أصيب

حمدي في بداية الحرب الأهلية في لبنان برصاصة في صدره كادت تلامس قلبه. وقبل أن يُشفى، انتقل إلى سورية لمتابعة عمله في الأرض المحتلة ليجري اعتقاله من النظام السوري. كما عرفته السجون الأردنية، أيضًا، عندما اعتقل مع إحدى الدوريات المقاتلة العابرة باتجاه الأرض المحتلة.

مروان إبراهيم الكيالي من أب فلسطيني وأم لبنانية، وهو من أصول يافاوية، وقد عرفته الجامعة اللبنانية قائدًا من قادة الحركة الطلابية فيها، وإليه وإلى إخوانه ورفاقه يُعزى الفضل في تأسيس الجبهة الوطنية الطلابية في الجامعات اللبنانية التي رسّخت منهج أولوية النضال الوطني للدفاع عن الجنوب، والوقوف في وجه الاعتداءات الإسرائيلية على لبنان، وحماية الثورة الفلسطينية. عند اندلاع الحرب الأهلية، كان من قادة الكتيبة الطلابية (الجرمق) التي أضحت من كتائب قوات العاصفة، وعندما اخترتُ قائدًا للكتيبة، اختير مروان نائبًا لقائد الكتيبة، وتلقّى دورات عسكريةً متقدّمة في الاتحاد السوفياتي، بعد أن كان هو ورفاقه قد تعلّموا الحرب عبر ممارستها. وبعد حرب 1982، أضاف مروان إلى رصيده القتالي السابق، في بنت جبيل والشقيف، إشرافه على عشرات العمليات خلف خطوط القوات الصهيونية، مع رفيق دربه علي أبو طوق وإخوانهما. وبعد الخروج من طرابلس، اختير مروان عضوًا في لجنة لبنان في حركة فتح، وهو ما تطلب منه الإقامة في قبرص للإشراف على الاتصالات مع المخيمات الفلسطينية في لبنان، وترتيب عودة المقاتلين من المنافي إليها.

في إطار «فتح»

في منتصف السبعينيات، وفي خضم النقاشات والحوارات التي دارت بين الأوساط اليسارية في حركة فتح، وفي الثورة الفلسطينية، والحركة الوطنية اللبنانية، تميّز تيار يساري عن باقي التيارات الأخرى بأطروحاته النظرية وممارسته العملية. وعلى المستوى النظري، استلهم هذا التيار منطلقات «فتح» وخط الكفاح المسلح، ورفض أيّ تراجع أو تراخٍ حولهما، كما يؤشر إلى ذلك البرنامج المرحلي الذي عُرف باسم برنامج النقّاط العشر، وعَدّ قيادة «فتح»

قيادةً وطنيةً ورفض تخوينها، على الرغم من اختلافه معها في برنامج النقاط العشر وسعيها للمشاركة في التسوية، معتبرًا أنّ دوره في الساحة الفلسطينية يتمثل بالمشاركة الفاعلة والمباشرة في القتال، وهو ما ترجمه في تأليف السرية الطلابية والعمل في القطاع الغربي وتطوير المقاومة، ودعوته إلى تغليب التناقض الرئيس مع العدو الصهيوني على التناقضات الثانوية، وبناء أوسع جبهة وطنية، وتأييد التضامن العربي في مواجهة العدو، كما رفض شعارات عزل الكتائب، ودعاوى التقسيم في لبنان، ونادى بوحدة جميع القوى الوطنية، بما فيها القوى التقليدية لضمان دحر التقسيم، وحماية الثورة، ووحدة لبنان، ووقف الاقتتال الفلسطيني السوري. فضلًا عن ذلك، حرص على البحث والتفكير في آليات إقامة وحدة متبادلة التأثير بين الثورة الفلسطينية والثورة العربية. وعلى المستوى الدولي نادى بعدم الانجذاب إلى المحاور الدولية، محذّرًا من الوقوع في استقطاباتها، ما دفع مناوئيه إلى اتهامه بالماوية. أمّا على المستوى الجماهيري، فقد كان لصيقًا بها، محافظًا على قيمها وثقافتها العربية الإسلامية، حتى أطلق عليه بعضهم اسم «خط الشعب» أو «خط الجماهير».

على المستوى العملي، اختار التيار أن يكون في الموقع الأصعب، وربط النظرية بالممارسة العملية، إذ شارك بفاعلية في الدفاع عن الثورة الفلسطينية والجماهير اللبنانية، في أثناء الحرب الأهلية اللبنانية التي كان يدعو دائمًا للوصول إلى حلّ توافقي بشأنها، لكنّه كان شديد الصلابة في القتال للدفاع عن المناطق الوطنية من خلال السرية الطلابية واللجان الوطنية. ومن ثمّ، شكّل انتقاله إلى الجنوب التزامًا منه بمواصلة النهج ذاته، وربطه بالنضال داخل الأرض المحتلة؛ وذلك عبر استمرار محاولة إرسال الدوريات القتالية إلى داخل فلسطين. ولعلّني أذكر أنّ عدة كوادر في الكتيبة قد توجهت عبر الأراضي السورية والأردنية في دوريات قتالية نحو الأرض المحتلة، وقد نجح بعض عناصرها في حين اعتُقل بعضها الآخر.

حقّقت أجنحة التيار (الكتيبة ولجنة 77 واللجان الوطنية) إنجازات متميّزةً في مواجهة العدو الصهيوني والدفاع عن الثورة؛ كما حدث في بنت جبيل ومارون الراس (1978)، قلعة الشقيف (1982)، العمليات المستمرة خلف

خطوط العدو، الدفاع عن الثورة في البقاع وطرابلس والمساهمة في معركة تحرير الجبل. كما نجحت في عمليات عدة متميّزة داخل الأرض المحتلة أبرزها عملية الدبويا في الخليل، دورية التياسير، عملية باص القدس رقم 18 وعشرات غيرها.

جاء انتصار الثورة الإسلامية في إيران في مطلع عام 1979، ليعزّز بعض المفاهيم السائدة لدينا، ويمنحنا شعورًا بأنّ موازين القوى في المنطقة على وشك أن تتغيّر بذهاب الشاه حليف إسرائيل، وحضور الإسلام الثوري بطاقاته وإمكاناته الكبيرة التي من الممكن أن تساهم في إحداث هذا التغيير الجذري عبر إضافة هذه الطاقات الثورية إلى الصراع مع العدو الصهيوني. لم تتغيّر أو تختلف منظومة القيم لدينا لكونها ملتصقة، أساسًا، بالثقافة العربية الإسلامية. أمّا المنسوب الإيماني بالمعنى العقدي، فقد بدأ يتبلور ويزداد مع مرور الأيام لدى الكثير من الإخوة، إلّا أنّ العامل الأهمّ في تلك المرحلة كان في إعادة اكتشاف الإسلام، بوصفه طاقة ثوريةً كبيرةً يمكن أن تساهم في عملية التحرير.

لماذا السرايا؟

بعد الخروج من بيروت، كان هناك توجه عام حول ضرورة تكثيف العمل في داخل الأرض المحتلة للتعويض عن فقدان الثورة الفلسطينية موقعها في لبنان. في بداية عام 1983، استحوذ على (الشهيدين) حمدي وأبو حسن قاسم فكرة استقطاب قطاعات جديدة للمساهمة في الكفاح المسلح ضد العدو الصهيوني. وقد تابعنا بقلق محاولات العدو الصهيوني في داخل الأرض المحتلة لإيقاع الفتنة بين التيارات الوطنية والإسلامية وإيجاد شرخ دائم بينهما.

بعد حرب 1967 والانطلاقة الثانية لحركة فتح، لم يشأ الإخوان المسلمون أو أيّ تيار من التيارات الإسلامية الأخرى تأسيس فصيل فدائي كما سعت أغلبية التيارات السياسية في ذلك الوقت. وبدلًا من ذلك، اتفق الإخوان مع قيادة «فتح» على تأسيس مجموعة قواعد في القطاعين الأوسط والشمالي في الأردن تضم العناصر الإسلامية الراغبة بالانضمام إلى العمل المسلح، وعُرفت

هذه القواعد باسم «قواعد الشيوخ»، وقد أبلت بلاء حسنًا في القتال ضدّ العدو الصهيوني، وكان من قادة هذه القواعد كل من عبد الله عزام[9]، أحمد نوفل[10]، الشيخ ذيب أنيس[11]، الشيخ حامد ناصر[12] وأبو شهاب أبو طالب[13]. توقفت تجربة قواعد الشيوخ عند اندلاع حوادث أيلول 1970 وخروج الثورة من الأردن، ومعها توقفت مشاركة الإسلاميين في الكفاح المسلح الفلسطيني.

لاحظ الشهداء أنّ هناك الكثير من الإخوة المستقلين الراغبين في الجهاد في فلسطين، لكن كانت لديهم قناعاتهم الخاصة حول تجربة الثورة الفلسطينية أو أفكارها، أو كانوا يؤمنون بأنّ عليهم أن يقاتلوا تحت راية إسلامية. كما لاحظوا أنّ هنالك بدايات لتأليف مجموعات إسلامية ذات نفس جهادي؛ مثل الجماعة الإسلامية في غزة والتي عُرفت لاحقًا باسم «حركة الجهاد الإسلامي» أو الجماعة الإسلامية المجاهدة في لبنان بقيادة الشيخ إبراهيم غنيم، إضافةً إلى بعض المجموعات ذات الانتماء التنظيمي لجماعة الإخوان المسلمين، ومجموعات أخرى ضمن الاتجاه الإسلامي العام. فهذه الجماعات كانت ترنو جميعها إلى ممارسة أشكال مختلفة من الجهاد على أرض فلسطين.

كانت تجربة انتصار الثورة الإسلامية في إيران ماثلةً في الذهن، وكذلك بداية ظهور المقاومة الإسلامية في لبنان وتطوّرها. وضمن هذه الأجواء، ومنذ عام 1983، بدأت فكرة سرايا الجهاد في فلسطين في التبلور، واستهدفت أفرادًا ومجموعات، مستلهمةً فكرة «قواعد الشيوخ» التي شارك عدد ممّن كان بها في إطلاق هذا المشروع، كما ساهم فيه مع مرور الأيام عدد من الشخصيات الإسلامية المستقلة.

---

(9) توجه لاحقًا إلى أفغانستان ليصبح من قادة المجاهدين فيها، اغتيل في تشرين الثاني/ نوفمبر 1989.

(10) أستاذ التفسير في كلية الشريعة بالجامعة الأردنية.

(11) نائب سابق في البرلمان الأردني عن دائرة الزرقاء.

(12) صاحب دار نشر في عمّان.

(13) موظف متقاعد من وزارة الأوقاف وكان المسؤول الإداري للقواعد.

نجحت سرايا الجهاد في القيام بعدة عمليات نوعية في داخل الكيان الصهيوني، كما قامت بتدريب وتسليح لعدد من الكوادر والمجموعات الأولى من حركة حماس، واتصلتُ (بالشهيد) مصباح الصوري الذي هرب مع رفاقه من سجن غزة وأرسل رسالةً إلى الشهيد حمدي الذي بادر على الفور بالرد عليها وبمتابعة المجموعة وتسليحها، هذه المجموعة التي عُدّ استشهاد أبطالها أحد أسباب الانتفاضة الأولى. لم تكن السرايا تنظيمًا، ولم تهدف يومًا إلى أن تكون إضافةً تنظيميةً للفصائل الراهنة، وإنّما رأى الإخوة (الشهداء) أنّ هدفها يتمثّل بالزجّ بقطاعات أوسع من الشعب الفلسطيني في الكفاح المسلح، وأنّ مهمة السرايا الأولى هي التدريب والتسليح ونقل الخبرة المتراكمة لجيل جديد؛ من أجل تصعيد النضال ضدّ العدو، وبناء أوسع جبهة ضدّه، كما أنّها لم تكن جزءًا من «فتح» أو امتدادًا لها أو انشقاقًا عنها. وفي الوقت نفسه، لم تكن جناحًا عسكريًا لأيّ تنظيم من التنظيمات الإسلامية كما هو شائع. إنّ إلقاء نظرة على بعض عمليات السرايا قد يلقي ضوءًا أكبر عليها، وينير بعض الزوايا التي لا تزال مجهولةً للعموم.

عملية حائط البراق (باب المغاربة)

اعتادت وحدات النخبة في الجيش الإسرائيلي إقامة احتفال أداء القسم للضباط وصف الضباط أمام حائط البراق في القدس الشريف. كان هذا هو الهدف الذي وضعه الشهداء نصب أعينهم، على الرغم من صعوبته؛ فحتى المنتسبون إلى الجيش الصهيوني لا يعلمون بموعد الاحتفال إلّا قبل ثلاثة أيام من موعده، ولا يسمح لكل منهم إلّا بدعوة ثلاثة فقط من أقربائه، ويوم الاحتفال تُغلق المنطقة بأسرها.

حين التقى (الشهداء) أبو حسن وحمدي بالإخوة عبد الناصر وطارق الحليسي وإبراهيم عليان في عمّان تبادر إلى أذهانهم هذا الهدف، إذ كان هؤلاء الأبطال يعرفون هذه المنطقة جيدًا. ومنذ تلك اللحظة، بدأ الإعداد للعملية. استُطلع الهدف مرات عدة، وتبيّن أنّ هذا الاحتفال يتوافق وقوعه في أحد أيام الأحد، وأنّ أفضل طريقة لمهاجمته هي عبر إلقاء قنابل يدوية

من أحد أسوار القدس القريبة على منطقة الاحتفال. لذا، أُجري تدريب على التسلل للوصول إلى تلك المنطقة، وبقيت مشكلة تدريب المجموعة؛ فهي لا تمتلك أيّ خبرة عسكرية سابقة في إلقاء القنابل اليدوية. فبعد الخروج من بيروت، وصعوبة وصول أبناء فلسطين المحتلة إليها، لم يكن لدى أبو حسن وحمدي سوى خيار واحد؛ وهو تدريبهم في الصحراء الأردنية، على ما يحتمل ذلك من مخاطر كبيرة. وفي ما يتعلّق بمشكلة تزويدهم بالقنابل اليدوية، قررّ أبو حسن وحمدي - بالنظر إلى أهميّة الهدف - تجاوز ما هو معمول به من استخدام نقاط ميتة لتسليم السلاح المطلوب، وهي قاعدة تقتضي بأن يقوم أحد الأشخاص بوضع السلاح في مكان ما، ويرسم بشأنه مخططًا ليُسلّم لاحقًا إلى الجهة التي ستقوم باستلامه. غير أنّ هذه العملية التي تضمن سلامة الطرفين وعدم معرفة أي منهما للآخر قد تأخذ وقتًا، إضافةً إلى أنّ السلاح قد يضيع في بعض الأحيان، أو لا يمكن العثور عليه بسهولة. لذا، قررّ أبو حسن وحمدي أن تُسلّم القنابل مباشرةً من أحد الأبطال الذي سبق له، قبل أعوام (1983)، أن نفّذ عملية شهيرة في القدس، عُرفت باسم «عملية الباص رقم 18»، وهي عملية سقط فيها عشرات الصهاينة، من دون أن تتمكّن قوات الاحتلال من معرفة منفذيها. قام سمير أبو نعمة بتسليم القنابل اليدوية المخبأة في حقيبة غيتار موسيقي مباشرةً إلى أحد الإخوة. وقد تمكّنتُ قوات الاحتلال لاحقًا، بعد إلقاء القبض على المجموعة، من التعرّف إلى سمير أبو نعمة واعتقاله ليصبح الآن عميد الأسرى المقدسيين، بعد رفض سلطات الاحتلال الإفراج عنه في صفقات التبادل المختلفة. ثمّ إنّ الوضع المالي عند أبو حسن وحمدي كان حرجًا للغاية. فما كان من أبو حسن إلّا أن باع سيارته لتمويل العملية.

اتفق أبو حسن وحمدي مع أبطال العملية على أن يتصلوا هاتفيًا في ساعة محددة من كل أسبوع إذا لمحوا علامات دالّة على مراسم لتخرّج الضباط، وأُعطيَ رقمَ كابينة هاتف في أحد ضواحي لندن. واللافت في الموضوع أنّ رمضان شلّح أمين عام حركة الجهاد الإسلامي حاليًا، كان يقيم في لندن في تلك الفترة وكان عليه مع زميل له أن يقطع أسبوعيًا أكثر من 80 كيلومترًا ليصل إلى هذه الكابينة، ويبقى منتظرًا الهاتف الموعود. أخيرًا، جاء الاتصال

في 15 تشرين الأول/ أكتوبر 1986، وأُعلم الدكتور رمضان وزميله بأنّ عرس شقيقته سيكون هذه الليلة.

أوقف أبطال العملية سيارتهم قريبًا من المكان، ومشوا باتجاه الهدف حاملين حقيبة الغيتار، ونفّذوا العملية بكل دقة، وألقوا على التجمع العسكري من ضباط وضباط صف لواء غفعاتي ما بحوزتهم من قنابل يدوية، وانسحبوا بسلام وسط حالة الفوضى التي سادت. اعترف العدو بإصابة نحو 80 جنديًا بين قتيل وجريح، وتؤكد روايات مقدسية أنّ عدد القتلى من بينهم تجاوز العشرة.

وصل بيان إلى مكتب وكالة الصحافة الفرنسية في القدس يُعلن مسؤولية سرايا الجهاد عن العملية، إلّا أنّ عدة جهات داخل «فتح» وفصائل فلسطينية أخرى تبنتها أيضًا، بل إنّ إحدى الجهات قدّمت خرائط ومخططات تفصيلية مزورةً عن العملية إلى أبو عمّار لتأكيد ضلوعه فيها، لكن يشاء القدر أن يتعرّف أحد المارة إلى سيارة الإخوة، وأن يُلقى القبض عليهم في الشهر ذاته، ويعلن العدو بعد فترة جميع التفصيلات المتعلّقة بها.

قال مسؤولون أميركيون بعد الاطلاع على تقارير خاصة عن العملية إنّها تشكّل مؤشرًا لمستوى جديد من العمليات الفدائية، وإنّ الذين خططوا للعملية ونفذوها ليسوا من الهواة، بل قد يكونون الطليعة الأولى لعمليات من نوع جديد داخل إسرائيل. وقال خبير أميركي «إنّ هذا عمل فدائي كلاسيكي، وليس عملًا إرهابيًا»، في حين قال أحد الدبلوماسيين الغربيين إنّ الحادثة ذكّرته بعمليات المقاومة الأوروبية ضد النازية التي صُنعت منها روايات سينمائية كبرى[14].

«عطاف» بداية العمل الاستشهادي

بموازاة عملية حائط البراق، وقبلها، وبعدها أيضًا، استمر تنفيذ العمليات العسكرية المحدودة من زرع عبوة أو إطلاق نار على دورية، إلّا أنّ العمل الأساسي كان منصبًا على عملية نوعية أخرى تفوق عملية حائط البراق جرأةً

(14) جريدة القبس الكويتية، 20/ 10/ 1986.

وتعقيدًا. كانت تلك هي العملية التي استهدفت تفجير مقر رئاسة الحكومة الإسرائيلية، عبر عملية استشهادية تقوم بها عطاف عليان.

في عام 1980 تعرّفت عطاف إلى حمدي سلطان الذي رتب لها الوصول إلى لبنان للتدرب على السلاح. استمرت علاقة عطاف (بالشهيد) حمدي، وفي عام 1985 اقترحت أن تقوم بعملية استشهادية، ومنذ ذلك التاريخ بدأ العمل الدؤوب للقيام بهذه المهمة. قرّر أبو حسن وحمدي أنّ هدف العملية سيكون تدمير مقر رئاسة الوزراء الصهيونية في القدس عبر سيارة متفجرة تقودها عطاف عليان. استُطلع المكان جيدًا، واكتُشف أنّ جزءًا من العاملات في هذا المبنى مجندات يأتين إلى العمل بسياراتهن الخاصة. ومن هنا، بدأت شهور طويلة من الإعداد المُضني من اختيار نوع السيارة لتكون من النوع الشائع استخدامه لدى المجندات، وتأمين المتفجرات اللازمة لهذه المهمة، وتجهيز السيارة وتفخيخها، وتهيئة عطاف للقيام بهذه المهمة.

كانت عطاف من عائلة محافظة، وعليها في يوم العملية أن تكشف عن رأسها، وتتبرج وترتدي لباسًا قصيرًا مثل الذي ترتديه المجندات. وكيف يكون كل هذا وهي ذاهبة في عملية استشهادية ستلاقي فيها وجه ربها؟ جُمعت عطاف بأحد كبار العلماء المسلمين وممّن كان لهم تجربة سابقة في «قواعد الشيوخ»، وأباح لها ذلك، بل إنّه شجعها عليه. كُتبت وصية عطاف بمساعدة أحد المثقفين والأدباء العرب المتميزين، فجاءت وصيتها قطعةً من الأدب النفيس، وفُصّلت لها ملابس عسكرية شبيهة بملابس المجندات، وحصلت على رخصة قيادة للسيارات، وأنهت عطاف جميع استعداداتها للاستشهاد.

من سيُجهّز السيارة لهذه العملية؟ وقع الاختيار على المهندس سليمان الزهيري من طولكرم، ولكن لم تكن لدينا الخبرة الفنية الكافية للقيام بمثل هذه الأعمال. لذا، أوفد المهندس الزهيري إلى باكستان عند عبد الله عزام، حيث تلقى هناك التدريب الملائم، وكان عزام في ذلك الوقت مهتمًا بالجهاد في فلسطين، ولعلّ قيامه بتدريب المهندس الزهيري كان أحد أسباب اغتياله في ما بعد.

عاد المهندس الزهيري، اشترى سيارةً، وخبأها في مستودع، أغلقه، وبدأ يستلم المتفجرات من نقاط عدة ويصنّع متفجرات شعبية أخرى. وحُدّد موعد تنفيذ العملية، إلّا أنّ أبو حسن وحمدي الذين كان يسكنهما هاجس حول حجم المتفجرات اللازمة لتفجير المبنى، قرّرا تأجيل الموعد بعد ورود معلومات عن مصدر لديه بعض قذائف المدفعية من مُخلّفات الجيش الأردني في الضفة الغربية، فرأوا في ذلك فرصةً ذهبيةً لتحقيق النتائج التي يطمحون إليها. طُلب من المهندس الزهيري استلام هذه القذائف وإضافتها إلى العبوة في السيارة، لكن يبدو أنّ هذا المصدر كان تحت أعين الاحتلال وعملائه، وبذلك أُلقي القبض على المهندس سليمان وعلى عطاف قبل ساعات من التنفيذ، ولم يُكتب النجاح لأول عملية استشهادية كان من المقرّر أن تُنفّذ على أرض فلسطين.

أثار إعلان العدو عن هذه العملية ردّات فعل واسعة. فلم يُخفِ أبو عمّار قلقه الشديد من أنّ الإعداد لعملية بهذا المستوى واستهداف مقر رئاسة الوزراء الصهيونية كان يُخطّط له من دون علمه وموافقته. كان أبو عمّار يدرك أنّ ثمّة خطوطًا حمراء في هذا الصراع، وأنّ هذا الهدف سيتبعه ردّ على هدف مماثل، لذلك خاطب أبو جهاد قائلًا: «انت عارف المجانين دول كانوا حيودونا فين؟».

بدوره (الشهيد) أبو حسن قاسم أنّ مرحلةً جديدةً قد بدأت، وتوصّل إلى قناعة مفادها أنّ استمرار وجوده في عمّان يشكّل خطرًا أمنيًا كبيرًا. لم يكن بحوزة أبو حسن أو حمدي جواز سفر يتيح لهما السفر عبر المنافذ الرسمية. لذا، قرّرا أن يغادرا تسللًا عبر الحدود باتجاه سورية، ومنها إلى لبنان حيث ستتوافر لهما حرية أكبر في الحركة. تدخلتُ وأقنعتُ أبو حسن بأن يغادر هو أو حمدي، على أن يتبع الآخر بعد فترة زمنية تحسبًا لأيّ احتمال، وبالفعل هكذا كان. غادر أبو حسن برفقة هارون الفدائي المتمرس على اجتياز الحدود. وفي الأراضي السورية اعترضتهما، مصادفةً، دورية من الهجانة ظنّتهما مهربين. وبعد التأكد من هُويتهما نُقلَا إلى أحد أقبية الاستخبارات السورية حيث تعرّضا لتعذيب شديد، وأُفرج عنهما بعد أكثر من عشرة شهور

نتيجة تدخل كثير من الأصدقاء. كان أبو خالد العملة زعيم «فتح الانتفاضة» بانتظار أبو حسن عند خروجه من المعتقل، وحاول إقناعه بالانضمام إلى الانشقاق وتولي مسؤولية الأرض المحتلة. عرض أبو حسن صيغةً للتعاون في داخل الأرض المحتلة، فرفضها أبو خالد، ومنح أبو حسن مهلة 24 ساعةً فقط لمغادرة الأراضي السورية. على الفور، رُتّب نقل أبو حسن إلى لبنان بواسطة (الشهيد) عماد مغنية.

في الأردن، عاش (الشهيد) حمدي متخفيًا يخشى اعتقال السلطات له بعد وضوح دوره في عمليتي البراق وعطاف عليان، أو أن يتعرّض لمحاولة اغتيال من العدو الصهيوني. في نهاية كانون الثاني/يناير، اتصلت بي أجهزة الأمن الأردنية، وأبلغتني أنّها تريد مقابلة حمدي في اليوم التالي لضرورات تتعلّق بحياته، وأنّها اختارت هذه الطريق للاتصال به كي لا يشعر بالقلق. بالفعل ذهبت مع حمدي للقاء، وأُفهم بطريقة غير مباشرة أنّه قد أصبح على رأس قائمة الأهداف الإسرائيلية، وطُلب منه مغادرة البلد بعد أن مُنح جواز سفر ليتمكّن من ذلك. وللأمانة أُسجل أنّ جهاز الأمن في ذلك الوقت حذّر حمدي وعرض عليه أن تبقى عائلته في الأردن، وأن يأتي لزيارتها كل فترة وفق ترتيب خاص.

استقبل أبو جهاد في تونس حمدي وأبو حسن بترحاب شديد بعد فترة جفاء استمرت فترةً. لم يعترض على فكرة سرايا الجهاد، إذ كان أبو جهاد يعُدّ موضوع الكفاح المسلح في فلسطين موضوعًا مقدسًا، ولا يتردد في أن يفتح أبوابًا واسعة لمن يستطيع تقديم جهد في هذا المجال. ثمّ إنّهما حافظا على اتصالهما بالمجموعات الفتحاوية التي كانت معهما في لجنة 77، وسعيا لتطوير عملهما. أبدى أبو جهاد رغبةً في إعادة هيكلة العمل وتطويره في الأرض المحتلة، وكلّف أبو حسن بأن يُعدّ خطةً مفصّلةً من أجل ذلك. وكان في ذهنه أن يكون أبو حسن ضابطًا لعمليات الأرض المحتلة كما كان مع الشهيد كمال عدوان، فوعده أبو حسن بأن يقدّم إليه الخطة فور عودته من جولة في الخارج لإعادة الاتصال بالمجموعات المتناثرة هنا وهناك.

قيل قديمًا إنّه لا يُغني حذرٌ من قدر. باستشهاد الإخوة أبو حسن وحمدي ومروان، بدَا كأنّ فكرة سرايا الجهاد بدأت تتراجع، إلّا أنّ السبب الحقيقي لانتهاء الفكرة يكمن في كونها فكرةً من حيث الأساس، وليست تنظيمًا قائمًا بذاته. كان ثمّة احتمال بأن تبقى إطارًا عسكريًا موحدًا للقوى الإسلامية، لكنّ هذا الاحتمال كان يخالف الواقع الذي جرى تشكّله خلال الانتفاضة الأولى. وبعد استشهاد أبو حسن وحمدي ومروان، تشكّلت قوى إسلامية منظّمة لها أجنحتها العسكرية؛ مثل عز الدين القسام وسرايا القدس، وبذلك يصبح استمرار السرايا في هذه الحالة بمنزلة إضافة فصيل جديد على الساحة، وهو ما لم يفكروا فيه من حيث المبدأ، وحسبهم أنّ فكرتهم نجحت، وأنّ البذور التي زرعوها نضجت عندما التحقت هذه القوى بالكفاح المسلح الفلسطيني.

يبقى أن نُسجّل أنّ بعض إخوة الشهداء في الانتفاضة الثانية سار على الدرب ذاته، وأنّ هؤلاء الإخوة قد انطلقوا من جوهر الفكرة ذاتها، واضعين جميع إمكاناتهم وقدراتهم في خدمة الصراع مع العدو الصهيوني وحشد جميع الطاقات ضده. وحسبي أن أذكر أنّ الشهيدين جهاد العمارين ومروان زلوم اللذين واكبا مسيرة سرايا الجهاد عادا في الانتفاضة الثانية لتأسيس كتائب شهداء الأقصى، كما أنّ (الشهيد) ميسرة أبو حمدية الذي واكب مسيرة السرايا منذ بدايتها، والذي اختير لتدريب بعض الخلايا الأولى في حماس، حُكم عليه بالسجن المؤبد أربع مرات في الانتفاضة الثانية؛ لأنّه درّب استشهاديين من «حماس» و«فتح» في الوقت نفسه وجهّزهما، وعندما استشهد تسابقت جميع الفصائل في نعيه والإشادة بمناقبه والاعتزاز بعلاقتها به.

حرب الخليج واللجان الشعبية

في أعقاب دخول القوات العراقية إلى الكويت، شعرنا أنّ خطبًا جللًا قد حدث، وأنّ الأمة العربية قد باتت على مفترق طريق. تألّفت لجنة من بعض الحكماء للوساطة بين العراق ودول الخليج، وتوافد أعضاؤها على العاصمة الأردنية، وكان من بينهم الشيخ راشد الغنوشي، الشيخ حسن الترابي، فهمي

هويدي وعدد من السادة الأفاضل من مختلف الدول العربية، وقد عُقدت بعض اللقاءات في منزلي، حيث تشرّفتُ بمعرفتهم ولقائهم قبل قيامهم بجولتهم المكوكية على الأطراف المختلفة وبعدها. ولم تُسفر تلك الجولة عن نتائج ملموسة سوى ازدياد القناعة بأنّ ثمّة حربًا مقبلةً في الأفق.

في ذلك الوقت كنتُ قد التحقتُ ببرنامج الدراسات العليا في الفلسفة في الجامعة الأردنية، وكنت أعدّ بحثًا بإشراف فهمي جدعان عن رفاعة الطهطاوي. ويعني الحديث عن الطهطاوي الغوص في تجربة محمد علي ذاتها. رأيت ما حدث في زمن محمد علي يتكرّر مع صدام حسين، وكأنّ التاريخ يعيد نفسه، لكنّه يتخذ في هذه المرة طابع المأساة. محمد علي اعتمد على الغرب في مواجهته للدولة العثمانية، لكنّه عندما انتصر عليها وأصبح يشكّل تهديدًا للغرب بوصفه قوّةً فتيةً صاعدةً، انقلب عليه الغرب الذي كان يهدف إلى ضرب الدولة العثمانية وإضعافها، ولكن ليس إلى الحدّ الذي يسمح لقوة صاعدة بالحلول مكانها، فكان أن انكفأ إلى مصر بعد تدمير أسطوله وحلّ جيشه وتفكيك صناعته وضرب نهضته. وصدّام الذي نال دعمًا واسعًا في حربه ضد إيران حتى أصبح الجيش العراقي من أقوى الجيوش في العالم، واجه المصير ذاته الذي واجهه محمد علي سابقًا، وكلاهما اعتمد على الخارج في قوته وأهمل المكنون الشعبي الهائل القادر وحده على مواجهة الأطماع الخارجية، ما دفعني إلى كتابة شيء عن هذا قبل أن تندلع الحرب محذرًا من نتائجها.

اختلفتُ في تلك الفترة مع القيادة الفلسطينية حول تقديرهم للموقف من إمكان اندلاع الحرب. كانت آثار الحرب الباردة لا تزال تسيطر على تفكير أغلب القيادة، قال لي أبو عمّار في تونس لا توجد حرب، كان في ذهنهم أنّ ما يجري لا يعدو أن يكون مناورةً سياسيةً، وأنّ صدام سيخرج رابحًا منها، وكنتُ من الذين يعتقدون أنّ الحرب مقبلة، وأنّ حشد أكثر من نصف مليون جندي في الخليج يتجاوز حدود المناورة إلى القتال الفعلي. وفي تلك الفترة، حضر أبو إياد وأبو الهول إلى عمّان في طريقهما إلى بغداد لمقابلة الرئيس صدام حسين. دار نقاش أمام مجموعة من الكوادر حول احتمالات الحرب في

مقر لـ «فتح» في جبل الحسين في عمّان، أنهاه أبو إياد بقوله إنّهم ذاهبون إلى بغداد، وسيلتقون بنا بعد عودتهم منها.

يبدو أنّهم كانوا يحملون أفكارًا فرنسيةً ليعرضوها على الرئيس صدام، وكان في تقديرهم أنّ الروس والأوروبيين لن يسمحوا باندلاع حرب في المنطقة. بعد عودتهما، سافر أبو إياد إلى تونس مباشرةً، وربما كان ذلك لنقْل نتائج زيارته، في حين استضفتُ أبو الهول على غداء في منزلي بحضور كوادر القطاع الغربي، وأكّد أبو الهول أنّ قناعته قد ازدادت بعدم وقوع حرب بعد زيارته لبغداد ولقائه الرئيس صدام حسين، مؤكدًا أنّه سيعود إلى عمّان في الخامس عشر من الشهر نفسه؛ أي بعد انتهاء مدة الإنذار الأميركي بيوم، وأنّنا سنرى معًا أنّه لم يحدث شيء. أجبته بأنّ عليه إذا أراد العودة إلى عمّان أن يحضر قبل يومين؛ لأنّ مطار عمّان سيكون مغلقًا نتيجةً للنشاط الجوي في هذا التاريخ[15]. استشهد أبو إياد وأبو الهول في 14 كانون الثاني/يناير 1991 في تونس على يد عنصر حراسة من تنظيم أبو نضال. وفي الثانية ليلًا، اتصل بي علي المصري[16] ليبلغني نبأ استشهادهما، فلتت منّي عبارة، لو مد الله في أجلهما يومًا واحدًا ليشاهدا كيف بدأت الحرب.

كان ثمّة خللٌ في تقدير الموقف عند القيادة الفلسطينية، ولم يُتدارك الأمر خلال اندلاع القتال. فبدا الموقف الفلسطيني منحازًا، بدلًا من أن يكون محايدًا وساعيًا لإصلاح ذات البين، وكان هذا من الأخطاء الاستراتيجية التي أثّرت في مسيرة العمل الفلسطيني.

في ظلّ هذه الأوضاع، ومنذ دخول القوات العراقية إلى الكويت، تداعينا في عمّان مجموعةً من الإخوة ومن اتجاهات مختلفة بينهم الأديب المبدع وليد سيف[17] وأحمد نوفل. وفكّرنا في إنشاء لجان شعبية لمواجهة ما يمكن

(15) بدأ القصف الجوي الأميركي في 15 كانون الثاني/ يناير 1991.

(16) من الكوادر الأساسية في جهاز الأمن المركزي ومسؤول لجهاز الأمن السياسي في بيروت. متقاعد برتبة لواء.

(17) أستاذ جامعي وشاعر وكاتب للدراما، من أهمّ أعماله **التغريبة الفلسطينية**.

حدوثه من تطورات. تمحورت الفكرة الأساسية حول فكرة بناء جبهة وطنية واسعة وعريضة لمواجهة التطورات المقبلة كمحاولة لتحصين الجبهة الداخلية وتوحيد الموقف، وكان مدار هاجسنا الأكبر على السؤال: ماذا يمكن أن نفعل في حال تدخل العدو الصهيوني في المعركة، مع خوفنا من أن يكون الأردن ساحةً لهذا التدخل؟

دعَونا إلى تأسيس جيش شعبي ليكون عونًا للقوات المسلحة في تأديتها لواجبها، واتصلنا بمختلف القوى السياسية، وعُقدت عشرات الندوات واللقاءات والمحاضرات في أرجاء الأردن المختلفة، وتوّجت هذه الفعاليات بمهرجان جماهيري حاشد في منطقة المحطة سُجل كأكبر مهرجان في تاريخ الأردن. وقدّرت بعض الصحف الأردنية الحضور بنحو مليون شخص، وقيل يومها إنّ الملك حسين حلّق بطائرة مروحية فوق المهرجان. وفي اليوم التالي صدرت إرادة ملكية بتأليف الجيش الشعبي. شارك في المهرجان الذي أداره وليد سيف خطباء من مختلف القوى السياسية على اتساعها. وقبل المهرجان وبعده، كانت مكاتب اللجان الشعبية موجودةً في الأحياء كلّها، وبدأت بممارسة نشاط تعبوي واجتماعي. لم تكن ثمّة شروط للعضوية، فالعمل كان طوعيًا تمامًا. وإثر المهرجان، قرّر الإخوان المسلمون المشاركة في هذا النشاط بعد أن كان لقيادتهم الرسمية موقف متحفّظ منه، على الرغم من أنّ بعض مطلقي الفكرة هم أعضاء سابقون في الإخوان. رحّبنا بذلك طبعًا، إلّا أنّ النتيجة كانت كما حذّرنا منها الأخ ليث شبيلات[18] تمامًا. فالهدف هو احتواء الفكرة وإنهاؤها. وبطبيعة الحال، ساعد على ذلك التراجع في المناخ السياسي ما بعد حرب الخليج، ووُئدت الفكرة في مهدها. لم يكن الإخوان المسلمون في الأردن مؤمنين بتقاليد العمل الجماعي والجبهوي، أو بأهمية استيعاب الآخرين، ولعلّها من المعوقات التي ضربت الربيع العربي لاحقًا وأدّت إلى انتصار قوى الثورة المضادة.

(18) شخصية إسلامية مستقلة، نائب سابق في البرلمان الأردني ونقيب مهندسين أسبق.



الفصل الثالث عشر

ما بعد اتفاق أوسلو

بعد أن فاجأت القيادة الفلسطينية كل الأطراف، بما فيها وفدها المفاوض في مدريد وواشنطن، بالتوصل إلى اتفاق أوسلو مع الكيان الصهيوني مباشرةً، جرى حوار واسع في صفوفنا حول هذا الاتفاق، وكان هناك ما يشبه الإجماع على رفضه من حيث المبدأ، وعلى عَدّه تراجعًا خطِرًا عن طريق تحرير فلسطين، لكنّ الاتفاق خلق واقعًا جديدًا أثار نقاشًا بين صفوفنا، يتعلّق بجدوى الاستفادة من الفرصة التي أتاحها لعودة البعض إلى فلسطين. كان هناك من يرى عدم جواز التعامل مع أيٍّ من مخرجات الاتفاق، بما في ذلك العودة، ضمن شروطه إلى داخل الأرض المحتلة، ويرى في ذلك حجةً تحمل في داخلها نيّات للعمل في السلطة وأجهزتها المختلفة، وما في ذلك من محاذير يحتملها الانخراط في الأجهزة الأمنية ذات الطابع الاستخباري والملزمة بالتنسيق مع العدو. وعمليًا، أصبح هذا الموضوع خيارًا فرديًا في ظلّ عدم وجود بدائل لذلك، وكذلك أصبحت طبيعة السلوك داخل مؤسسات السلطة تعتمد على طبيعة المؤسسة وعلى سلوك من يعمل فيها. فالحفاظ على تاريخ سابق مجيد أو التنازل عنه مقابل إغراءات من هنا أو هناك، صار مسألةً فرديةً منوطةً بصاحبها.

في أحد الأيام، جاءني (الشهيد) مروان زلوم (أبو فتحي)، ولم يكن قد أنهى علاجه تمامًا من جرح أصابه، وأدّى إلى بتر أصبعه، نتيجة انفجار عبوة شعبية خلال تدريب أحد الأشخاص الآتين من الأرض المحتلة في مزرعته. قال لي إنّه ذهب في دورية للأرض المحتلة، وجاء إلى الأردن من لبنان متسللًا عبر الحدود الأردنية ليعبر النهر ويشتبك مع العدو بالقرب من قرية التياسير، ويُؤسر بعد إصابته بجراح في الرأس. وقال إنّه منذ خروجه من الأسر عقب عملية لتبادل الأسرى وهو يفكر ويخطط للقيام بدورية أخرى يعبر فيها إلى

الخليل، متحينًا فرصة ملائمة لنجاح الدورية ووصولها إلى هدفها، مدركًا أنّ هنالك إمكان لاعتقال أفرادها في الأردن لدى محاولتهم عبور النهر، أو إمكان اكتشافهم من العدو الصهيوني والاشتباك معه كما حدث في المرة الأولى. لكن الآن ثمّة إمكان للوصول إلى الخليل عبر السلطة الفلسطينية خلال ساعات. وقال إنّه قد جهّز سلاحه ومجموعته في الخليل قبل أن يتحرّك. فبدا لي هذا الموقف مقنعًا تمامًا.

تحرك مروان إلى الخليل وصادف بعد ذلك بأكثر من عام أن ذهبتُ إلى الضفة الغربية بتصريح من السلطة الفلسطينية. في اليوم الأول من وصولي إلى رام الله، فوجئتُ بوصول مروان آتيًا من الخليل. كان يرتدي ملابس رياضيةً ويحمل حقيبةً مثل تلك الحقائب التي يحملها الرياضيون. فتح الحقيبة وأخرج منها بندقية كلاشينكوف ومسدسًا وأعطاني إياهما قائلًا إنّ عدونا غدّار وعلينا أن نأخذ حذّرنا، وفي يوم مغادرتي جاء واسترد سلاحه.

في الانتفاضة الثانية تابع مروان مسيرته الكفاحية، وأسس كتائب الأقصى في الخليل وتولى قيادتها، كما أسس زملاء له هذه الكتائب في أماكن مختلفة من الضفة وغزة. حمل مروان سلاحه الذي كان قد جهزه، وقاد المجموعات التي أسسها في منطقة الخليل، وطارد قوات العدو وعملاءَه، وتولى تجهيز بعض العمليات الاستشهادية؛ من ضمنها عملية (الشهيدة) عندليب طقاطقة، وبقي مطاردًا من قوات الاحتلال حتى استهدفته طائرة مروحية للعدو بأربعة صواريخ ليرتقي شهيدًا مع رفيقه سمير أبو رجب في 22 نيسان/ أبريل 2002.

في غزة، سار جهاد العمارين رفيق درب مروان على الخُطى نفسها. اعتُقل جهاد (أبو رمزي) أوّل مرّة في عام 1970 مدة ستة شهور، ثمّ اعتُقل ثانيةً في عام 1973 وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة، وبنسْف بيته. خرج جهاد من السجن إلى الحرية مع مروان زلوم في عملية تبادل الأسرى في عام 1985، ليلتحق على الفور بمجموعات العمل التي يقودها (الشهداء) أبو حسن قاسم وحمدي، وليُسجن مرةً أخرى في الأردن وتُفرض عليه الإقامة الجبرية بعد الإفراج عنه. فرّ إلى العراق مختبئًا في سيارة خضراوات ثم توجه إلى تونس وتسلل عبر ليبيا

إلى مصر في عام 1991؛ بهدف الدخول في دورية مسلحة إلى غزة. اعتُقل جهاد في مصر، وكأنّه قد أقسم أن يزور مختلف المعتقلات العربية، وأُفرج عنه بعد عام إثر تدخّل الرئيس ياسر عرفات الذي اصطحبه معه هو والرفيق ممدوح نوفل في سيارته إلى غزة. علمت السلطات الإسرائيلية بوجودهما، وهما على قوائم الممنوعين من الدخول. ولم تنجح محاولة أبو عمّار في فرضِ أمرٍ واقعٍ على العدو، فاضطر إلى إعادتهما إلى مصر حيث اعتُقل جهاد وأُبعد إلى تونس.

عاد جهاد إلى غزة بذريعة عقد اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني، وبدأ بإعداد مجموعاته ليشكّل مع اندلاع الانتفاضة الثانية، وبالتنسيق مع مروان ورفاقه الآخرين، كتائب شهداء الأقصى. وخلال الانتفاضة لم يسلم من اعتقال أجهزة الأمن الفلسطينية التي كانت لا تزال متمسكةً باتفاق أوسلو، وقضى ثلاثة شهور سجينًا لدى جهاز الاستخبارات الفلسطيني. وما إن أُفرج عنه، حتى تلقفه جهاز المخابرات ليحتجزه مدةً مماثلةً. استشهد جهاد العمارين بتفجير سيارته في الرابع من تموز/ يوليو 2002.

ثمّة نموذج ثالث لا يقلّ أهميةً عن النموذجين السابقين. إنّه (الشهيد) ميسرة أبو حمدية. عمل ميسرة مع حمدي وأبو حسن في القطاع الغربي. وعند تأليف سرايا الجهاد، أصبح ميسرة من المسؤولين عن تدريب بعض خلايا حماس الأولى وتسليحهم، إضافةً إلى عمله في متابعة الخلايا الفتحاوية. في الانتفاضة الثانية شكّل ميسرة نموذجًا خاصًا جسّد فيه الفكرة الأساسية، وهي أولوية الصراع مع العدو الصهيوني، وحشد الجهد لمحاربته، مستغلًّا خبرته السابقة بوصفه مدربًا وخبيرًا بالمتفجرات، فدرّب ميسرة استشهاديين من «فتح» ومن «حماس» وسلّحهما وجهّزهما وأرسلهما. اعتُقل وحُكم عليه بأربعة أحكام مؤبدة. أُصيب بالسرطان في سجنه، وخاض إضرابًا عن الطعام للسماح بعلاجه، وتصاعدت الدعوات في العالم كلّه للإفراج عنه. استشهد أبو طارق في الثاني من نيسان/ أبريل 2013 وهو مقيّد اليدين والقدمين على سرير أحد المستشفيات الصهيونية، وكان الشهيد الذي نعَتْه «فتح» و«حماس» و«الجهاد» في آنٍ واحدٍ، وخرجت كل الضفة الغربية في وداعه حتى مثواه الأخير في بلدته الخليل.

تكرّرت هذه النماذج الثورية في كثير من المناطق. وحافظ مناضلون قدامى على عهدهم لرفاقهم الشهداء، وبرز من رحم التجربة ومسيرتها وسيرتها مناضلون جدد ساروا على خطى من سبقوهم. وشهدت فيه هذه التجربة نكوصًا من بعضهم، أو تراجعهم خطوةً أو خطوات إلى الخلف، على مراحل مختلفة. وبعضهم اكتفى بما قام به من دور مجيد في السابق، وبعضهم الآخر كان تراجعه الموقت بمنزلة خطوة إلى الخلف من أجل عشر خطوات إلى الأمام.

لم تنتهِ تجربة هذا التيار بالخروج من لبنان، كما أنها لم تتوقف بتوقيع اتفاق أوسلو. فالرموز الحقيقيون له هم الشهداء والأسرى، وهو يتمحور أساسًا حول فكرة تحرير فلسطين، وهي فكرة مستمرة وراية خفّاقة يتناقلها المناضلون وتتوارثها الأجيال، مهما تغيّرت الأماكن، واختلفت الأشكال والمسميات التنظيمية.

ياسر عرفات في غزة

تساءلتُ خلال الحرب على غزة في عام 2012، وفي ذكرى ميلاد ياسر عرفات التي توافق الرابع من آب/ أغسطس: لو لم يمت أبو عمّار شهيدًا شهيدًا، كما كان يردد دائمًا، فهل كان سيقاتل اليوم في غزة مع مقاوميها، ويجلس معهم في نفق في الشجاعية، ويشاركهم قيادة معركة خالدة من معارك الشعب الفلسطيني؟

تُرى، كيف يمكن أن نفسّر سيرة الزعيم الفلسطيني الأبرز الذي أطلق الرصاصة الأولى في الثورة الفلسطينية المعاصرة في عام 1965، وأصبح مطارَدًا من الأنظمة العربية التي اتهمته بمحاولة توريطها في مواجهةٍ لم تستعد لها، ليتحوّل العمل الفدائي إلى أنبل ظاهرة في الأمة العربية، بعد نكسة حزيران/ يونيو 1967، كما وصفه الرئيس جمال عبد الناصر، وتُفتح أمامه العواصم، ويتمكّن الفدائي من التنقّل عبر الحدود العربية بورقة إجازة، بعد أن كان الفلسطيني ممنوعًا من الحركة والتنقل.

تسلّل عرفات إلى الضفة الفلسطينية، بعد حرب 1967، ليطلق منها

الرصاصة الثانية. قاتل مع الجيش الأردني في الكرامة والأغوار، وحاول تنظيم العلاقة بلبنان في اتفاق القاهرة، ليجد نفسه هناك متورطًا في حربٍ أهلية سعى جهده للخلاص منها. أقام في لبنان قواعد ارتكاز لقتال العدو الصهيوني، إلّا أنّ محاولاته في العثور على مقعد في قطار التسوية، بعد حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973، حوّلت لبنان إلى ورقة متنازع عليها بينه وبين سورية، حليفته بالأمس، وخصمه اللدود في ما بعد. غيّر استراتيجية منظمة التحرير، من تحرير فلسطين كلها، وإقامة الدولة الديمقراطية إلى إقامة السلطة الوطنية في الضفة وغزة منذ عام 1974، كما ورد في برنامج النقاط العشر. لم يمنعه ذلك كلّه من البقاء في خنادق المواجهة والقتال، وقيادة غابة البنادق، كما كان يسميها. قاتل في بيروت شهرًا إضافيًا، بعد أن قرّر الانسحاب منها، حتى يضمن انسحابًا مشرفًا لجيش ثوري مقاتل يعتز ببندقيته ويقدّس سلاحه. خرج من أبواب بيروت، ليعود من شبابيكها في طرابلس والجنوب والمخيمات، ليثبت أنّه حيث يوجد فلسطينيون توجد منظماتهم، وحيث تكون هناك مواجهة مع العدو يكون هناك الفدائي.

بعد خروجه من بيروت، وفقدانه الورقة اللبنانية، توهّم كثيرون أنّه خرج من المعادلة، وبجرأة شديدة، عاد إلى طرابلس، وقاتل فيها، وتمسّك بمواقعه في لبنان، وخاض حرب المخيمات، وكأنّه ينتظر شيئًا يعوّضه عن تلك الخسارة الكبيرة. هذه المرة، أنقذته الأرض المحتلة بانتفاضتها. فبعد «أطفال الآر بي جي» جاء «أطفال الحجارة». ولم تعد أيّ قوّة من القوى الإقليمية قادرةً على منازعته التمثيل الفلسطيني. بدا مقعده في قطار التسوية المنطلق ببطء أقرب إليه من أيّ وقت مضى، ولكن جرت الرياح بما لا تشتهي سفنه، اجتاح صدام حسين الكويت، ونشبت حرب الخليج.

كان أبو عمّار لا يزال مسكونًا بمرحلة الحرب الباردة. تأخر في إدراك المتغيّرات على المستوى الدولي، ولم يعتقد أنّ حربًا ستنشب. ظلّ على اعتقاده أنّها أزمة ستُحلّ، فتخلى عن حذره، وعن شعار حركة فتح التاريخي في عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية. وبعد الحرب، دفع ثمن هذا الموقف. سابقًا، كان مكانه المفضّل في الجو على متن طائرة لا تهدأ. أمّا

بعدها، فأصبح مقيمًا بصفة دائمة في تونس، وغير مُرحّب به في عواصم عدة. عاش وسط حصار عربي خانق، أشدّ من حصاره في بيروت وأصعب، وبدا الأمر أشبه بمرحلة أوشكت أن تأفل. فجأةً ضرب ضربته، وفاجأ الجميع بمن فيهم حلفاؤه، ووقّع اتفاق أوسلو مع العدو، وغدا بين عشية وضحاها الضيف المرغوب فيه في أروقة البيت الأبيض، وعادت طائرته تحلّق في الأجواء. في اتفاق أوسلو، اعترف أبو عمّار بدولة إسرائيل، في حين اعترفت إسرائيل بأنّ منظمة التحرير هي الممثّل للشعب الفلسطيني في أيّ مفاوضات معها. في «أوسلو»، خطيئته التاريخية، اعترف العدو بصفته التمثيلية، ولم يعترف بحقوقه، وبذلك نجح عرفات في تفكيك آثار الحصار الذي فُرض عليه، وعاد إلى مربع الفعل، لكنّه لم يعرف أنّه وقّع أيضًا وثيقة استشهاده.

أحد المقرّبين منه[1] كتب عنه أنّه كان مسكونًا بجنون الجغرافيا، كان حلمه إيجاد بقعة جغرافية ينطلق منها نحو الوطن. تحكّمت الجغرافيا بمسيرة ياسر عرفات، ولم يتمكّن من ترويضها، وأدخلته في تحالفات ومعارك، ربما لم يكن يريد التورط فيها، سعى جاهدًا للخلاص من آثارها ونتائجها.

لعلّني أضيف هنا هاجسًا آخر سيطر عليه، هو الخوف من انتظار الحدث. كان ماثلًا أمام عينيه مصير الحاج أمين الحسيني الذي انتقل بعد حرب عام 1948 ودخول الجيوش العربية فلسطين، من دائرة الفعل إلى مربع الانتظار. دفعه هذا الخوف إلى أن يسعى جهده، ليكون في دائرة من يصنعون الفعل، وليس من ينتظرون نتائجه. وفي سبيل ذلك، ركب المخاطر، واتخذ قراراتٍ أصاب في بعضها وأخطأ في غيرها. يقوده اجتهاده إلى النصر أحيانًا، ويجره إلى كارثة «أوسلو» التي تجرع مرارتها، لكنّه في جميع الأحوال لم يكن يتردد في قراراته، ولعل ذلك نابع من إيمانه بأنّ في وسعه من خلال الحركة تغيير المعادلات القائمة، أو التأثير فيها، لكنه كان متيقنًا أنّ السكون قاتل.

عندما كان يحدّثه أحدهم عن بعض الفساد المحيط به، كان يجيب أنّ التاريخ سيحاسبه على القدس، إن فرّط فيها، أو لم يتمكّن من استعادتها. وظلّ

(1) يُنظر: نبيل عمرو، **ياسر عرفات وجنون الجغرافيا** (القاهرة: دار الشروق، 2012).

وفيًا لذلك، إذ سرعان ما أدرك أنّ «أوسلو» وصلت إلى نهايتها، بعد إخفاق محادثات كامب ديفيد وطابا، وأصبح مطلوبًا منه أن يدخل في دوامة المفاوضات التي تلد أخرى. رفض العودة إلى مربع السكون، فتمرّد على «أوسلو»، ولم يعد سرًا أنّه كان مع عسكرة الانتفاضة الثانية، وأنّه موّل هذا الاتجاه وسلّحه ووجّهه ودفع به. اعتقد أنّه قادر، بذلك، على الضغط على عدوّه، وعلى فرض شروط أخرى جديدة على هذا العدوّ في أيّ مفاوضات لاحقة. وغنيّ عن القول كيف حوصر ياسر عرفات، وكيف انقلب عليه بعض رفاق الأمس. ففي حين كان يسعى لتأجيج الانتفاضة، وهو محاصر، كان آخرون يسعون إلى إجهاضها. واجه أبو عمّار مصيره بشجاعة، وذهب كما أراد شهيدًا شهيدًا.

يصعب القول، كما بدأناه، ذلك الافتراض: لو كان أبو عمّار حيًا.. لكن من يعرفه يدرك أنّه لن يقف ساكنًا والحرب تجتاح غزة، وغول الاستيطان يلتهم الضفة الغربية، ويرى سنوات المفاوضات تمضي خلف وهم بسلام زائفٍ، ودولة يستحيل تحقيقها. وهو وإن لم يكن، اليوم حيًا ليكون في غزة، كما كان في الضفة والكرامة وبيروت وطرابلس، فلعلّه الآن يعانق الشيخ أحمد ياسين، ويجلس مع عبد العزيز الرنتيسي وفتحي الشقاقي وخليل الوزير، في غرفة عملياتٍ أقيمت على عجل، توجّه المقاومين في غزة، وتعوّض التقصير الذي انتاب سلوك رفاقه السابقين، وتحاول أن تُرمّم الخلل الذي اجترحه رفاقه بعد استشهاده، عندما أعادوا إنتاج أوسلو مرةً أخرى، بصورة أكثر مرارةً من التي سبقتها، وانساقوا أكثر فأكثر مع خطة دايتون ودهاليز التنسيق الأمني مع العدو.

«فتح» في عيدها الخمسين... بقيَت الفكرة

ماذا تغيّر في «فتح»؟ بل ماذا بقي منها بعد خمسين عامًا من انطلاقتها يوم أن أطلقت الكفاح المسلح الفلسطيني في الأول من كانون الثاني/ يناير 1965؟

في البداية، ينبغي الاعتراف بأنّه لا توجد حركة في التاريخ لا تقوم بتعديلات في برامجها وأساليبها وأفكارها التي قد تخضع للتطوير بعد اقترانها بالممارسة العملية. في المقابل، لا توجد حركة انقلبت على ماضيها، وتغيّرت

أساليبها وأفكارها من الشيء إلى ضده، في الوقت ذاته الذي استمرت فيه تستلهم تاريخها العريق وتمجّده – وهو حقًّا جزء أساس من تاريخ الشعب الفلسطيني منذ الستينيات في هذا القرن – وتتغنّى بسيرة أبطالها ومعاركهم.

المتتبع لنشاط حركة فتح وتصريحات قادتها نشاط كوادرها يفاجأ تمامًا بهذه المفارقة الكبيرة. فثمّة مجموعة تقف على رأس الهرم ولا تنفك تدين العمل المسلح، والصواريخ العبثية، وتنتقد الانتفاضة التي جرّت على شعبنا الكوارث، وتؤمن بقناعة راسخة بأنْ لا سبيل لحلّ القضية الفلسطينية إلّا عبر التسوية السلمية والمفاوضات، طالت أو قصرت. وما عدا ذلك، فدونه الويل والثبور وعظائم الأمور. وفي الوقت ذاته تحتفل قواعد الحركة يوميًا بذكرى شهدائها، وتعيش حاضرها على تاريخها المجيد، وتعتمده أسلوبًا للتعبئة والتحريض والتنظيم، إذ يعتقد المرء أنّه ما زال يعيش في حقبة السبعينيات والثمانينيات.

تاريخيًا، تميّزت «فتح» بأنّها وضعت جميع شعاراتها وأفكارها ومبادئها في سبيل هدف واحد هو تحرير فلسطين، إذ إنّ فلسطين هي طريق الوحدة، وعلى دروبها تتحقّق وحدة التنظيمات والأحزاب، بل حتى الدول الساعية للتحرير أيضًا. واللقاء هو فوق أرض المعركة، والوحدة وحدة البنادق الثورية. أمّا الأرض، فهي للسواعد الثورية التي تحرّرها، وقد سعت «فتح» عبر هذه الشعارات والأفكار إلى إخراج القضية الفلسطينية من أُتون النزاعات العربية والحزبية، ومن محاولات احتواء القضية أو استغلالها من أيّ طرف عربي في صراعاته الداخلية أو الخارجية.

تاريخيًا أيضًا، تميّز التغيير في حركة فتح بالبطء الشديد، وباقتصار التداول فيه على نخبة سياسية محدّدة. وحتى عندما يُعرض هذا المتغيّر أو ذاك على المؤسسات الوطنية لإقراره ومنحه الشرعية اللازمة، ففي أغلب الأحيان تكون الممارسة باتجاهه قد بدأت قبل ذلك بوقت طويل، أو يكون قد جاء لتلبية شروط دولية. واللافت أنّ هذه المتغيّرات في البرنامج السياسي، منذ حرب تشرين حتى مرحلة أوسلو، لم تحظَ بتعبئة فكرية مواكبة لها، إذ كان الهدف

هو الحصول على قرار من المؤسسات الوطنية يتيح للقيادة المضي قدمًا في محاولتها الحصول على مقعد في قطار التسوية. أمّا في الميدان، فقد كان الواقع مختلفًا تمامًا، إذ بقيت التعبئة والشعارات ضمن سياق المبادئ والأفكار والمنطلقات الأساسية. ولعل هذا يرجع إلى عدد المعارك المتتالية التي خاضتها «فتح» والثورة الفلسطينية، ووعي القيادة حينذاك بضرورة الاستمرار على امتلاك عناصر القوة، بل زيادتها كشرط لازم للدخول في أيّ عملية سياسية.

اليوم، وبعد خمسين عامًا، تغيرت الصورة كليًا. أضحت محاولة امتلاك عناصر القوة تعني في عُرف العدو أنّ الطرف الفلسطيني غير مؤهل للمشاركة في عملية التسوية التي لا قرار لها، وكان من شروط هذا التأهيل بعد استشهاد ياسر عرفات، الموافقة على خطة دايتون، والتنسيق الأمني مع العدو، وإنهاء ما تبقى من الانتفاضة الثانية، وتجلّى هذا الموقف خلال الحرب الأخيرة على غزة. وتحوّل التمرّد على موازين القوى السائدة، وهو المبرّر الوحيد لقيام جميع الثورات، إلى ضرورة الاعتراف بهذه الموازين والإقرار بها كحقيقة أزلية غير قابلة للتغيير، والتحذير من الاقتراب من حدودها.

بعد خمسين عامًا، من العبث أن تبحث عن «فتح» الأولى في صفوفها المتقدّمة إلّا مَن رحمَ ربي. هنالك انتهت مرحلة الثورة في ذهن الكثير منهم. أمّا لدى الجيل الصاعد، ولدى القواعد الشعبية، ولدى الجمهور الفلسطيني، فإنّ «فتح» ما زالت حركة الشعب الفلسطيني، «فتح» بقي منها أهمّ ما فيها، بقي منها الفكرة، ومن الفكرة تولد ثورة.

خاتمة

بعد الخروج من بيروت وخلال علاجي في العاصمة البريطانية اجتاحتني رغبة في إكمال دراستي العليا، وبدأتُ السعي من أجل ذلك في الجامعات والمعاهد البريطانية، إلّا أنّ رسالةً قصيرةً من إخواني دفعتني إلى العودة إلى سهل البقاع في لبنان.

في نهاية الثمانينيات أُتيح لي أن أحقق جزءًا من ذلك في الجامعة الأردنية بتشجيع من صديقي فتحي البس، ودعم كبير من أستاذي الدكتور فهمي جدعان. وساهمت دراستي العليا في الفلسفة في توسيع مداركي، وتزويدي بالمنهج اللازم للبحث والتدقيق والتفكير.

أصبحت عضوًا في المجلس العسكري الأعلى للثورة الفلسطينية[1]، وعضوًا في المجلس الوطني الفلسطيني، قبل أن أفقد هذه العضوية نتيجة رفضي الذهاب إلى غزة في عام 1996 لحضور اجتماعه الذي خُصص لتعديل الميثاق. يومها، وبعد أن تأكد عدم حضوري، وعلى الرغم من وصول دعوة رسمية لي من رئاسة المجلس لحضور الاجتماع، استُبدل اسمي قبل أن تُعقد الجلسة الأولى، وهذا مثال صارخ على الخلل الواضح في تركيبة هذه المجالس. كما أصبحتُ، بالنظر إلى عضويتي في المجلس العسكري، عضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح. لكنّي أصبحتُ في المؤتمر الخامس لحركة

(1) يضم كبار الضباط في جيش التحرير والفصائل الفلسطينية.

فتح الذي عُقد في تونس عام 1989 عضوًا منتخبًا في المجلس الثوري[2]. انقطعتُ عن حضور جلسات المجلس الثوري منذ ما قبل توقيع اتفاق أوسلو، بعد أن بدأت الأخبار تتسرب عن شيء ما يجري في الكواليس. لكن، رسميًا، استمرت عضويتي في هذا المجلس حتى عُقد ما عُرف باسم المؤتمر السادس لحركة فتح في عام 2009 الذي رفضتُ حضوره لعقده في مدينة بيت لحم تحت حراب الاحتلال. لم أتخيّل، ولم أستوعب، أنّ حركةً مجيدةً ومقاومةً مثل حركة فتح يمكن أن تعقد مؤتمرها في ظل الاحتلال الصهيوني، وأمام نظر جنوده، وبتسهيل منه.

بعد استشهاد حمدي وأبو حسن ومروان انتقل إليّ عبء عملهم في الأرض المحتلة، كان الحمل ثقيلًا، والفراغ الذي خلّفوه كبيرًا، وساهم اتفاق أوسلو في تراجع العمل في هذا المجال، بل إنه أدّى إلى توقفه تمامًا.

رفضتُ اتفاق أوسلو وما زلت رافضًا له، ومع ذلك لم تنقطع علاقتي بـ أبو عمّار، على الرغم من توقفي عن حضور الاجتماعات. زرته بعد سقوط طائرته في الصحراء الليبية، والتقيتُه في زيارتي إلى رام الله في عام 2000، وكنتُ دائم الاطمئنان عليه خلال حصاره في الانتفاضة الثانية، لكنّي رفضتُ استلام أيّ موقع في السلطة الفلسطينية، كما أنّني رفضتُ، من قبل، عرضًا حمله إليّ الصديق الكبير أبو المنذر[3] مقتضاه تولي مسؤوليات مختلفة خارج الأرض المحتلة. أحسستُ أنّني لا أستطيع أن أكون في المركب ذاته. وتكفّل الإسرائيليون بحسم هذا الموضوع عندما رفضوا تجديد تصريحي الذي حصلتُ عليه عن طريق السلطة، أو الموافقة على منحي ما يُعرف باسم الرقم الوطني الذي يتيح لصاحبه البقاء في الأرض المحتلة التي غادرتها في اليوم نفسه الذي غادر فيه ياسر عرفات رام الله إلى منتجع كامب ديفيد؛ من أجل مفاوضات الحلّ النهائي التي أخفقت.

(2) يضم المجلس الثوري أعضاءً منتخبين من المؤتمر، وأعضاءً يُعيّنون نظرًا لمواقعهم العسكرية أو التنظيمية.

(3) صبحي أبو كرش، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح وسفير سابق في السعودية. توفي في عام 1994.

باستشهاد ياسر عرفات، بدأت مرحلة جديدة. مرحلة إعادة إنتاج أوسلو، ضمن معادلة جديدة تضع مقاليد الأمور في يد العدو ضمن سياسة التنسيق الأمني التي تهدف إلى الحفاظ على أمنه قبل كل شيء. حاولتُ مع بعض رفاقي أن نفعل شيئًا. تداعينا لتأليف هيئة وطنية للحفاظ على الثوابت الفلسطينية. ضمّت الهيئة في اجتماعاتها التأسيسية نخبةً كريمةً مثل صلاح الدباغ عضو اللجنة التنفيذية ورئيس الصندوق القومي الفلسطيني الأسبق وعزمي بشارة وأنيس القاسم رئيس اللجنة القانونية في المجلس الوطني الفلسطيني منذ تأسيسه، وأحد واضعي الميثاق القومي وبلال الحسن ومحمد أبو ميزر ومنير شفيق وأحمد الدبش ونافذ أبو حسنة وميرفت أبو خليل... وعشرات غيرهم. وعُقد اجتماع تشاوري عربي[4] في بيروت ضمّ أكثر من أربعمئة شخصية عربية، بالنظر إلى أنّ القضية الفلسطينية قضية عربية، من أجل تأليف لجان للحفاظ على الثوابت الوطنية في كل قُطر عربي. كان اجتماعًا حاشدًا ضم كل الاتجاهات، وشمل كل المشارب التي توحّدها قضية فلسطين.

لاحقًا، عُقد المؤتمر الأول للهيئة في دمشق الذي انتخب هيئاتها القيادية، لكنّ حوادث الربيع العربي، وتحديدًا الأزمة السورية سببت شرخًا كبيرًا في جسد الأمة، ومزّقت الحركات القومية، وأصبح الخلاف حول هذا الملف يُهدّد بانقسام أيّ حراك عربي من أجل فلسطين؛ فتراجعت الهيئة حتى تلاشت.

ماذا بقي؟ وماذا تغيّر؟ ما زالت قناعاتي بشأن القضية الفلسطينية كما هي، وما زلتُ مؤمنًا باستحالة أيّ حلّ مرحلي أو جزئي نظرًا إلى طبيعة الكيان الصهيوني، كما أنّ إيماني بحتمية النصر وحتمية تفكيك الكيان الصهيوني لم يتزعزع يومًا، وهو نابع من اقتناعي بأنّ فلسطين قضية قومية، وهي ملك للأمة العربية كلّها. ومن هنا، ينبغي مواجهة محاولات تصفية القضية الفلسطينية في صورها الجديدة. ولعلّ أخطرها محاولة العدو أن يكون طرفًا فاعلًا في محاور المنطقة، وترويج شعار السلام الدافئ مع الدول العربية، وترحيل الموضوع الفلسطيني ليكون بمنزلة منتج ثانوي لهذا السلام المزعوم، وهو أمر يستدعي

(4) عُقد في بيروت في 23 أيلول/ سبتمبر 2010.

تضافر الجهد العربي للتصدي له، لعلّ من شأنه أن يعيد القضية الفلسطينية إلى صورتها الأولى، قضية عربية مركزية.

على مستوى الأفكار، ما زلتُ أعُدّ نفسي قوميًا يساريًا، وما زلتُ مؤمنًا بأنّ الإسلام طاقة ثورية كبرى، وجزء من عقيدة الأمة وتراثها وتاريخها، لكنّي أصبحتُ على قناعة راسخة بضرورة التمييز ما بين النص المقدس وتأويل هذا النص أو تفسيره. فالتأويل هو من صناعة البشر يخطئون ويصيبون، ولا يجوز بأيّ حال أن تكتسب التفسيرات البشرية صفة القداسة، وتُمنع معارضتها أو الاحتجاج عليها. وينطبق هذا الموقف على عدم جواز اكتساب الشعارات العامة صفة «الإسلامية» حتى لا تُحسب معارضتها أو نقدها بأنّه معارضة للإسلام ذاته، مثل الشعار الشهير «الإسلام هو الحل»، مع إيماني بحق الجميع في تقديم برامجهم، بالاستناد إلى مرجعياتهم - إسلامية كانت أو غيرها - ولكن بوصفها برامج بشرية قابلة للجدل والحوار والتصويب والنقد والنجاح والفشل. كما ازددت اقتناعًا بأنّ مسائل مثل الديمقراطية، وتداول السلطة، ومشاركة النساء ومساواتهن، والحفاظ على النسيج الاجتماعي على أساس المواطنة الكاملة، بغضّ النظر عن الدين أو المذهب أو الجنس، هي من الأسس الثابتة لتقدُّم مجتمعاتنا، وأنّها تسير جنبًا إلى جنب مع التحرّر من الصهيونية والإمبريالية من دون فصل أو تقديم أو تأخير.

ثمّة سؤال يتكرّر على لسان أولادي وأصدقائي ومعارفي مفاده إن كنتُ سأكرّر التجربة نفسها لو سنحت لي الفرصة من جديد. وإجابتي المتكررة هي الإجابة المؤكِّدة «نعم». فأنا أعتزّ بكل هذا التاريخ، بسلبياته قبل إيجابياته، فمنها نتعلّم ونتقدّم، ومنها نُطوّر أفكارنا وتُشكّل معتقداتنا.



ملحق
وثائق وصور

من دفتر الشهيد علي أبو طوق بخط يده

دورية الشهيد عبد القادر عوض حداد

٨٢/٦/٢٤

قائد الدورية: ثائر

١. الشيخ أسامة، عدنان

٢. هزبر القومية ؟

المهمة: نصب كمين على الطريق المؤدي من صفيفة الى الدوك باتجاه المحور لدورية للعدو تقدر تنفذه ٣ ليالي

الصعوبات: ١- وجود حواجز للجيش التي كانت تمنع الحركة وضع وصول الفدائيين في خط التماس.
مما كلفنا خلقه صعوبة في الاستطلاع

٢- عدم معرفة الأرض بشكل جيد

٣- الدورية غير منسجمة

الدروس المستفادة

١. تقدير الموقف بشكل صحيح
- اتخاذ قرار بدون تردد

٢- تحقيق عنصر المفاجأة للعدو
وعدم ترك المبادرة من يده

استطاعت المجموعة الثالثة الوصول الى
هدفها بدون اية مشاكل حيث استطاعت
ان تصل الى جانب الدبابة وتمكنا
ان نأسر طاقم الدبابة.
حيث خرجنا برماية رشاش ٥٠٠ عندها
صمدت الدوافر رماية قنابل يدوية
في داخل برج الدبابة ورماشها
بعدا سطع ج.ج.
دام الاشتباك بقذائف ج.ج من جانب
قواتنا ورشاشات ٥٠٠ من جانب العدو
مع مدفعية الدبابات من المرتفعات
نتيجة الاشتباك اضطر العدو
لسحب احدى دباباته للخلف
تم الانسحاب من جانبنا بعد تنفيذ
المهمة تحت رماية مدفعية العدو
من الدبابات والاوناك الى
نقطة التجمع.

خسائر العدو:
تدمير مربط رشاش عيار ٥٠٠ مع
قتل وجرح جميع افراد العدو في
داخل الموقع.
خسائرنا: استشهاد احد الاخوة
المناضلين الشهيد نزال.
الدروس المستفادة:
١. عدم الاستطلاع الجيد وتحديد
موقع العدو بشكل دقيق حيث
تفاجئنا بالموقع والم تفاجئ العدو
٢. عدم توفر الانضباط الكامل
والانسجام خاصة عند مجموعة الاخوة
من القطاع الغربي.
لو توفر الانضباط لاستطعنا اسر
افراد العدو حيث كانت معنوياتهم
متدنية
٣. الاصرار على تنفيذ المهمة وتقدير
الموقف بشكل جيد ودقيق
٥. رفع معنويات بعض الاخوة المترددين
بعامل مهم اثناء التنفيذ.

دورية شهداء قلعة الشقيف

٨٢/١٠/١٤

المهمة: نصب كمين لإحدى باصات العدو في منطقة عاليه.

أفراد الدورية
يوسف قائداً
سعيد، ~~جادي~~ خليل، بلال، مجدي، وليد.

التجهيز: سيارة مدنية، أسلحة خفيفة وقنابل.

قامت المجموعة مدة عشرة أيام بالاستطلاع حيث مرت عدة باصات ولكن كان بعض الأخطاء مما أخر في تنفيذ المهمة.
~~- تقدير الوقت بالنسبة للمكان توقف~~ بالسيارة

١. التحديد مكان توقف المجموعة بشكل خاطئ مما كان يفسح المجال للباص من الإفلات
٢. الارتباك في البداية جعل تطور المهمة صعبة.

استطاعت المجموعة يوم ٨٢/١٠/١٤

من نصب كمين لإحدى باصات العدو
في طريق عاليه بحمدون
حيث فتحت النار على الباص مما عطل
السائق في البداية مما جعل الباص
يتجه إلى الخلف مع إصابة إحدى دبابات
العدو.

خسائر العدو
قتل ثمانية وجرح ٢٢ واعترف
للعدو ٩ جرحى. ثم اعترف ٣١ جريح بينهم مقدم ونقيب
خسائرنا لا شيء وتعطيل الباص.

النتائج: خلقت العملية جو من الرعب
في منطقة الجبل لنشر القوى اللاأمن
لدى العدو. حيث حصلت بعض
العمليات بعد العملية.

عملية شهداء صبرا وشاتيلا

١٧/١١/١٩٨٢

المهمة: نصب كمين بين ٣ جسر بعد عرمون
خلدة لقافلة لقوات العدو

المجموعة:
الأخ أبو علي كمال القرداوي قائداً
أفراد: عصام، عبدالله، فادي، حسن
اسم: المجموعة مجموعة الشهيد سعد صايل

تم الإعداد للدورية مدة ١٥ يوماً
حيث تحرك الأخ حسن وقام بعملية الاستطلاع
الأولي، ثم عاد الأخ حسن والأخ أبو علي
من الاستطلاع الأول وتحديد مكان
الكمين وطريق الانسحاب

صباح ١٥/١١/٨٢ تم تجهيز الدورية
باللباس اللازم وكل احتياجاتها.

تم نقل الأسلحة إلى منطقة قريبة من بيصور

يوم ١٦/١١/٨٢ تحركت الدورية من دير الحرف
إلى منطقة العبادية ثم إلى عاليه ثم
إلى بيصور إلى مكان الكمين حيث
باتت المجموعة هناك حتى ذلك اليوم
فتنقل الدورية الأخ سالم ودبابة

في صباح ١٧/١١/٨٢ يوم الشهيد الفلسطيني:
نصبت المجموعة الكمين حيث مرت
عدة دوريات للعدو ولكن لم تنفذ
الدورية المهمة لحين مرور باص للعدو

في الساعة الحادية عشرة وخمس وخمسين
دقيقة مرت قافلة للعدو تتكون
من ٢ لاندروفر في الأمام وباص و٢ لاندروفر في
الخلف

عند وصول القافلة في حيز بلدات اللبون

فتحت النيران حيث تم تدمير الآلية الأولى وهي سيارة اللاندروفر (الامام) وقذفتها أمتارا ثم تدمير الناقلة من قبل الأخ أبو الوكيل — عبد الله بعد أن قذف الأربع قاذفات ار بي جي وقام الأخ عصام بمعالجة اللاندروفر الآخر

وتم فتح نيران الرشاشات في الناقلة وعلى الآليات الأخرى التي تم تدميرها

دام الاشتباك محدود دقيقة ونصف السمت الدورية باتجاه عيتا خلال الاشتباك

استطاعت قوة للعدو أن تصل إلى منطقة الاشتباك حيث كان تسير خلف ٣ أمتار بعد واشتبكت بنيران مع أفراد الدورية.

كان هناك إجراء لدى الأخ أبو كالا بالحضار يترقبه من العدو. تقدم الأخ أبو علي من وراء الساتر الترابي ليقوم بطلب حماية الأخ عصام

نحو الناصري ورماه فقذف أنه حامل خزان كلاشن نتيجة أحد جنود العدو أطلق

استطاع أن يرمي أبو كل ما أصابه في يده ومعه فتقدم الأخ حسن حتى رمى الجندي فقتله.

أثناء الاشتباك تقدمت اللاندروفر جهة الأخ عبد الله أصابه خلال الاشتباك.

بعد اصابة الأخ أبو علي انسحب الأخ عصام مسافة ٥٠٠ م

~~صحيحاً أنه تم أسرهما بعد~~

سقط ~~جريحاً~~ أيضاً أن قتل الآخر،

استطاع الأخ (وهو جريح) الاختباء بأحراش

وتم التوجه إلى أحد المدنيين الذي قام

بإخفائه وإطعامه وتم إيصاله إلى المنطقة

الهلالية. أما الأخ حسن وغازي

حيث انسحبا إلى المنطقة المحررة

وبقيا لفترة ثم انسحبا إلى القطاع

الآخر المحرر.

خسائر العدو: تدمير باص للأفراد و[illegible]

وقتل وجرح على الأقل ٨٠ جندياً

خسائرنا: استشهاد الأخ ~~أبو علي~~ عبدالله

وأسر الأخ أبو علي.

وقد ~~كان~~ ذلك تنفيذ العملية أثر

تزايد ضغوطات المجاهدين في المنطقة

و٣) جميع الفدائيين رغم الخسارة

الكبيرة المتمثلة باستشهاد الأخ

~~أبو علي~~ عبدالله وأسر الأخ أبو علي

كانت العملية نقلة نوعية في العمل

الفدائي من حيث مكانها حيث يبعد

عن مقر ~~...~~ المفاوضات ٣ العدو عن

كم بعيد عن نقطة الانطلاق مسافة

٢ كم حسب الخريطة للعدو.

خسائره،

٨

دورية الشهيد عزمي ابراهيم

٥/٤/١٩٨٢

أفراد المجموعة ابو نضال قائد دورية

ابو حمدي، جراد، غسان، الأخ المناضل مطيع
محمود حماد من لواء الجليل.

المهمة: نصب كمين لدورية العدو
٣ جنود عينه؛ قتلنا بريح.

تحركت الدورية من وادي شارون
باتجاه المرتفعات التي نسميها الصفا
حيث وصلنا الساعة الرابعة
شاهد الدورية جزء اي تماء اخذنا
اجراءاته الاختفاء
الأخ غسان في حضير الساعة ٢ بعد الظهر
لم يستطع موقع الكمين
شاهد موقع جيد قرب حصنوا الخرخوش
وحدد نقطة انسحاب جيدة

الساعة ٥,٠ انتقلنا باتجاه نقطة الكمين
وصلنا الساعة ٦ بنبع التدريب الموجودة
في المصنع مما حصل منهم من العاملين
في المصنع ان يخرجوا ويسلطوا
الضوء علينا
انتقلنا الى موقع آخر وكانت صوت
الآليات مسموع وكانت الموقع جيد
تأخر الأخ خالد بعد الانتقال

مرت الآليات من امام ابو حمدي،
ضربت الأولى والثانية وتتبعتا آخر
الرماية فبادر الأخ ابو نضال
ثم تبعه بقذيفة اربجا عندها رماها
الأخ ابو حمدي بقذيفة B7
ثم قام الأخ محمود حماد برماية الآلية
الأولى بـ B7 وجراد اربجا ثم رمى
الأخ محمود حماد قذيفة B7 ٢ ١/الآلية
الثانية، وقام الأخ غسان برماية
الآليتين بالمناظير.
انسحبت المجموعة بشكل متفرقا

أثناء الانسحاب رمى ا/ج أ د مخزن
كلاشن ٣ أشخاص من جنود العدو كانا
يحاولا الهرب من المنزل .

تم رماية قنبلتين من الدورية ولكن
لم تصيب الهدف فانفجرت في الشارع

قامت المنزلة الأولى بالرماية من بندقيتين
M16 وبعض الطلقات من رشاش ش ٥
حيث استطاعت الاختفاء خلف المنعطف
تم تدمير المنزلة الثانية تدمير كامل
و الأولى المطبخ .
خسائر العدو تقدر بعشرة إصابات
بين قتيل وجريح .

الدروس المستفادة .
١. معنويات الدورية عالية
٢. عدم الانتظار في نقط التجمع الأولى
لتفقد أفراد الدورية
٣. حدوث ارباك بين أفراد الدورية

نتيجة عدم وضوح طريقة الانسحاب
مما جعل الدورية تنسحب بشكل
متفرق وتصبح الدورية ثلاثة أقسام

- تعرض جهاز أبو حمدة بعد رماية ٣ كلم
بدون كلمة السر جعله يفقد الاتصال
بالمجموعة وينعزل عنها مما جعله لأن
ينسحب لوحده ويصف أخلفه تكرره
زميله تشجيع خطأ تحرفه حيث
شاهد أحد المدنيين وأخبره عن
تفاصيل العملية مما أصبح المصدر خطر
حيث المعلومات تسربت للعدو خاصة
أن المدني أخبر أهالي شارعه بذلك
مما جعل استحالة استخدام المصدر
مرة أخرى الذي يشكل مصادر للعدو
- استخدام التحرك حسب طبيعة
الأرض أعطى فرصة للدورية أن تنسحب
٣ منها وبعد خطر الانكشاف
المنطقة .

- عدم وضوح طريقة الانسحاب للعائد
الدوريه وتابعته وفقدان التنسيق
بينهما جعله يتعرض بالانسحاب مرة
قد يأتي والتقاء الدوريه للثلاثة
أقسام مما شكل ثغرة أمنية

- بروز التذمر عند بعض الأخوة
عند حمل جعبة مثقلة حمل أدى
الى رمي الجعبة في الطريق مما شكل
ثغرة أمنية استفاد العدو منها
في تحديد الطريقة

- عدم أخذ مرات كافية من قبل قائد
الدوريه حمل جعبة التموين حمل الأخ
حراسه لدى رمية جعبة الأخ الآخر أيضا
- ضعف [illegible] الاستقبال [illegible] الدورية

- عدم تحديد مسافة واضحة أدى الى
ضياع المجموعة من بعضها أثناء المسير

انزال الهزيمه بالعدو وضربه في
المعنويات فهذا حصل في الأخ
ابو محمد الذي كان مترددا في بداية
الأمر

- عندما تكون المجموعة العرضه محتاجه
لابادة العدو يجب عدم اضاعتها
واستغلالها حيث كان بالامكان
انزال خسائر أكبر بالعدو

- المعرفة بهدوء يجنب الاجتهاد
- الضغط حسب الخطة أدى الى [illegible]
في تناسق المجموعة ومنع تشتتها

- لم يستطع العدو تعقب مجموعات
قبل ٦٥ دقيقة بالرغم ان له في
المنطقه القريبة لواء وحدة
بدل في معنوياته المنهاره.

المعرفة العدو بقتل أسير وجرح أسير

حركة التحرير الوطني الفلسطيني
«فتح»

نموذج برقية

الرقم المتسلسل	عدد المجموعات	درجة السرية	الوقت والتاريخ	تعليمات الارسال
(١٦/)	( )	( )	١/٤/١٩	

من :- قائد كتيبة الجرمق
الى :- العمليات / [illegible]
للاطلاع :- أ. جميع

الرقم
درجة الاسبقية للتنفيذ
درجة الاسبقية للاطلاع

قامت احدى مجموعاتنا العاملة خلف خطوط العدو في منطقة [illegible]
مجموعة الشهيد سامر صدقي [illegible] التابعة [illegible]
بنصب كمين على الطريق الساحلي في منطقة مفرق الزرارية
في يوم ٢٨/٢/١٩٨٢ لدورية للعدو مكونة من شاحنة
تحمل كشاف وناقلة جنود ونصف مجنزرة وعندما مرت
الدورية هاجمها ثوارنا بالاسلحة الرشاشة والقنابل اليدوية
والقاذفات ار بي جي حيث اصيبت نصف المجنزرة اصابة مباشرة
واستطاع احد مقاتلينا تحت تغطية نيران افراد المجموعة التقرب
والقاء قنبلة يدوية بداخلها.
كانت خسائر العدو شديدة ناقلة الجنود ونصف المجنزرة دمرت
واصيبت الشاحنة [illegible] واعترف العدو [illegible] اصابات
جنوده واصيب (٢) اثنان بجراح وعادت المجموعة [illegible]

يتبع

وقت التسليم		الوسيلة	توقيع المداوم	اسم المنشئ
وقت انتهاء الارسال				
وقت انتهاء الاستقبال				توقيع المستلم

وثورة حتى النصر

حركة التحرير الوطني الفلسطيني
«فتح»

نموذج برقية

الرقم المتسلسل	عدد المجموعات	درجة السرية	الوقت والتاريخ	تعليمات الارسال
( )	( )	( )	٢/٧/١٩٨٢	

من :- قائد الجرمق
الى :- الأخ أبو جهاد
للاطلاع :- الجميع

الرقم
درجة الاسبقية للتنفيذ
درجة الاسبقية للاطلاع

قامت مجموعة الشهيد رامي [illegible] من شهداء قلعة الشقيف
في الساعة ٢٠٠٠ من يوم ٢/٧/٨٢ بقصف مستوطنة [illegible]
[illegible] في الجليل الأعلى بالصواريخ الثقيلة وقد اصابت
الصواريخ اهدافها وقد اعترف العدو بالعملية مدعياً وقوع
خسائر مادية. هذا وقد عادت المجموعة بسلام.
عهداً لك ابطالنا الشرفاء بأن نمضي في درب تصعيد
الكفاح المسلح ضد العدو الصهيوني بعزم وثبات متحدين
الهجمة على قواعد ابطالنا والمؤامرات التي تستهدف الثورة.
لن تفلح [illegible] انحراف اتجاه بندقيتنا في تصعيد ضرباتنا في قلب
العدو.
وإنها لثورة حتى النصر

قائد الجرمق

وقت التسليم		الوسيلة	توقيع المداوم	اسم المنشئ
وقت انتهاء الارسال				
وقت انتهاء الاستقبال				توقيع المستلم

حركة التحرير الوطني الفلسطيني
"فتح"

نموذج برقية

الرقم المتسلسل	عدد المجموعات	درجة السرية	الوقت والتاريخ	تعليمات الارسال
(١/٧)	(٢)	( )	١٠٤٥ ٢١ / ٧ / ١٩	

من : قائد كتيبة الجرمق
الى : الاخ ابو جهاد / الى [illegible]
اطلاع :

الرقم :
درجة الاسبقية للتنفيذ :
درجة الاسبقية للاطلاع :

في الساعة ٠٦٢٠ من ٢٤/١٠/١٩٨٦ قامت احدى مجموعاتنا
(مجموعة شهداء قلعة الشقيف) العاملة خلف خطوط العدو
في منطقة الجنوب بالهجوم بالرشاشات والقذائف الاربجية
على احدى الباصات العدو كانت تقل عدد من ضباط
وجنود العدو على طريق الساحلي بالقرب من صيدا (؟)
في منطقة [illegible] وقد تم تدمير الباص وقتل
وجرح من فيه وعادت المجموعة الى قواعدها سالمة

وانها لثورة حتى النصر

وقت التسليم		الوسيلة	توقيع المداوم	اسم المنشئ
وقت انتهاء الارسال		[illegible]	[illegible]	توقيع المستلم
وقت انتهاء الاستقبال	١٢١٥			

وثورة حتى النصر

حركة التحرير الوطني الفلسطيني
"فتح"

نموذج برقية

الرقم المتسلسل	عدد المجموعات	درجة السرية	الوقت والتاريخ	تعليمات الارسال
(٦/٢١)	( )	( )	٩ / ٢ / ٥ ١٩	

من : قائد كتيبة الجرمق
الى : الوطن المحتل (؟)
اطلاع : الخميني (؟)

الرقم
درجة الاسبقية للتنفيذ
درجة الاسبقية للاطلاع

قامت مجموعة الشهيد خالد الاسلامبولي من وحدة شهداء
قلعة الشقيف بنصب كمين عبوات ناسفة على
طريق [illegible] / خلدة بتاريخ ٣/٥٨ (؟) وفي الساعة
١٢٢٠ ظهرا مرت قافلة للعدو مكونة من ٣ شاحنات لقوات
العدو تتقدمها سيارة مسلحة حيث سمح الابطال
لسيارة المسلحة بالمرور وتم تفجير العبوات الناسفة
مما ادى الى تدمير الشاحنتين وقتل وجرح اكثر من
(٢٠) من افراد العدو وقد حضرت الى المنطقة
خمس سيارات اسعاف وطائرة مروحية وقد
اعترف العدو بالعملية ادعى كعادته لتقليل خسائره
بسقوط ١٧ اصابات بين افراده
وعادت المجموعة الى قواعدها سالمة

وانها لثورة حتى النصر

وقت التسليم		الوسيلة	توقيع المداوم	اسم المنشئ
وقت انتهاء الارسال		الجرمق (؟)	[illegible]	توقيع المستلم
وقت انتهاء الاستقبال	١٢٥٠			

وثورة حتى النصر

٣ عمليات ضد قوات الاحتلال في لبنان

اسرائيل تعترف بسقوط ١٨ جريحاً في هجوم على أوتوبيس عسكري في عرمون

سقط امس عدد كبير من جنود الاحتلال الاسرائيلي، بين قتيل وجريح، في عملية جريئة استهدفت، اوتوبيسا، لنقل جنود الاحتلال كان يمر في منطقة عرمون. وقد اعترف ناطق عسكري اسرائيلي باصابة ٢١ جنديا ولكن من دون ان يحدد نوع الاصابات، وقال ان احد المهاجمين قتل في العملية.

في هذه الغضون ذكرت معلومات من الجنوب ان عمليتين ضد قوات الاحتلال، وقعتا، امس وليل الاربعاء الماضي، في محيط بلدتي النجارية ومغدوشة القريبتين من صيدا.

رغم تكتم قوات الاحتلال على نتائج العمليات الثلاث، الا ان شهود عيان اعطوا صورة متكاملة تقريبا للهجوم على الاوتوبيس في عرمون وللنتائج الاولية التي اسفر عنها قبل ان يضرب جنود الاحتلال طوقا محكما حول مكان الحادث ويبدأ بتمشيط المنطقة.

فقد ذكر ركاب سيارة مدنية كانت تسير على مسافة قريبة وراء الاوتوبيس، ان الهجوم وقع في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف قبل ظهر امس، في منطقة «كفرسيل» على طريق عرمون - خلدة، وعلى مفرق مبنى مؤسسة الامراض العقلية. حيث كان عدد من المسلحين يكمن بين الاشجار الى جانب الطريق».

واضاف ركاب السيارة ان عناصر الكمين فاجاوا الاوتوبيس الذي كان يقل حوالي ٤٠ جنديا اسرائيليا، وتحرسه سيارتا جيب مليئتان بالجنود ايضا. فاطلقوا باتجاهه ثلاث قذائف صاروخية من نوع «آر. بي. جي» ثم امطروه بوابل من رصاص بنادقهم الرشاشة.

وقالوا ان الاوتوبيس انقلب بمن فيه الى جانب الطريق وشبت فيه النار بعد ان اصابته احدى القذائف في سقفه.

وقال شهود الحادث انهم راوا جثثا عدة للجنود الاسرائيليين تسقط من الاوتوبيس قبل ان يضطروا الى الابتعاد عن المكان بعدما نشبت معركة بين المهاجمين والجنود الاسرائيليين الذين كانوا في سيارة الجيب.

وقد هرعت قوات احتلال اضافية مؤللة الى مكان الحادث على عجل، وطوقت المنطقة وقطعت جميع الطرق المؤدية اليها ابتداء من مثلث خلدة - وعمدت الى تمشيط المباني والاحراج المحيطة بحثا عن المسلحين. واعتقلت عددا من السكان او الذين كانوا يمرون على الطريق.

وذكر بعض المارة الذين تمكنوا من الافلات من الطوق الاسرائيلي انهم شاهدوا سيارات اسعاف اسرائيلية عديدة تهرع الى المنطقة ثم تعود باتجاه الدامور ناقلة الاصابات. كما شاهدوا الجنود الاسرائيليين يطلقون النار في كل اتجاه، وبمختلف انواع الاسلحة المتوسطة والخفيفة اثناء عملية التمشيط. وكذلك شاهدوا طوافات حربية تهبط في المنطقة ثم تقلع على عجل.

الرواية الاسرائيلية

في القدس المحتلة (ا ف ب، رويتر) صرح المتحدث باسم الجيش الاسرائيلي بان ١٨ عسكريا اسرائيليا اصيبوا بجراح في كمين نصب لهم جنوبي بيروت على بعد ثلاثة كيلو مترات من قرية «كفرسيل». وقد اصيبت سيارة الاوتوبيس التي كانت تقل العسكريين بنيران الاسلحة الخفيفة وقذائف الصواريخ المضادة للدبابات.

(التتمة ص ١٠)

«السفير» 8/11/1983

عناصر «امل» الذين انسحبوا الى خارج البلدة بعد وقوع عدد من الجرحى عرف منهم ناصر نور الدين، حسن احمد متيرك، حسن وهبي، زهرة سبليني، محمد مروة، حسن معتوق، حسن سعيد وهبي، حسن محمود شعبان وحسن بهجة رحمه الذين نقلوا الى مستشفى علاء الدين في الصرفند.

واكدت مصادر «القوات المشتركة» انه لم يسقط اي قتيل مدني او عسكري. وان الهدوء عاد الى عدلون. وباستطاعة الاهالي العودة اليها. في حين ذكرت مصادر «امل» انه تم حرق عدد من المنازل في عدلون وان بعض الاهالي نزحوا عنها.

وقالت مصادر «القوات المشتركة» انها دخلت بلدتي انصارية واللوبيا في قضاء الزهراني وانسحبت منهما عناصر «امل» بعد معركة سقط فيها عدد من الجرحى. كما تضررت بعض المنازل وتعرضت بلدتا السكسكية والصرفند ومرتفعاتهما الى قصف مدفعي وصاروخي وتراشق بالاسلحة الرشاشة.

قرى النبطية

وفي بلدة انصار - قضاء النبطية جرت اشتباكات عنيفة بدأت ليل امس الاول واستمرت طيلة نهار امس. استعملت فيها الاسلحة الرشاشة والقذائف الصاروخية والمدفعية.

وافادت مصادر «القوات المشتركة» انها تسعى الى دخول البلدة. في الوقت الذي اكدت فيه مصادر «امل» انها «لن تنسحب من البلدة مهما كلفها ذلك من تضحيات».

وذكرت مصادر امنية ان شخصا يدعى علي قانصوه قد جرح.

كان الوضع انفجر في الواحدة بعد منتصف ليل امس الاول في النبطية عندما تقدمت عناصر من «امل» باتجاه المدينة وتمركزت في دار المعلمين وتلة لنزلة وحرج علي الطاهر. فوقعت اشتباكات مع عناصر من الحزب الشيوعي. ومنظمة العمل الشيوعي الاتحاد الاشتراكي العربي. وتركزت في حي السلام وشارع مرجعيون. استعملت فيها جميع انواع الاسلحة الرشاشة الخفيفة والثقيلة.

واستمرت الاشتباكات حتى السابعة الحذر ولم تقع فيها اشتباكات. الا ان الظهور المسلح غطى المنطقة في الوقت الذي كانت فيه القرى الجنوبية الاخرى تعيش حالة من الخوف والقلق.

وانتشرت الحواجز المسلحة على طول طريق صيدا - صور. فاقامت «امل» حاجزا لها بين السكسكية والصرفند. واقامت «القوات المشتركة» حاجزا عند مفرق بلدة عدلون. كذلك شوهد ظهور مسلح في الغازية. والزرارية وكفر تبنيت.

اتصالات التهدئة

وعقد امس اجتماع في مقر قيادة «امل» في زفتا. حضره قائد «القوات المشتركة» في النبطية الرائد معين، ومسؤول «امل». والمسؤول العسكري للحزب السوري القومي الاجتماعي.

وجرى البحث في امكانية تثبيت وقف اطلاق النار. الذي خرق مرات عدة.

وانتقل الرائد معين بعد الاجتماع الى مقر عمليات «القوات المشتركة» في صيدا واجرى اتصالات. ثم عاد الى مقر «امل» في زفتا. وابلغ المسؤولين عن قرار لوقف اطلاق النار يبدأ في الواحدة والنصف بعد الظهر. واثناء وجود الرائد معين في مقر «امل»، وردت معلومات تفيد ان بلدة السكسكية تتعرض لقصف مدفعي. وعلى الاثر اعطى الرائد معين تعليماته بضرورة وقف النار فورا. والا فان حركة «فتح» ستضطر لتنفيذ الاتفاق بضرب كل من لا يمتثل لقرار وقف اطلاق النار».

والتقت قيادة «القوات المشتركة» في غرفة عملياتها في صيدا. بوفد من بلدة السكسكية في الثانية والنصف بعد الظهر.

ضم الوفد مختار البلدة ورئيس البلدية وعدد من الاهالي. وجرى خلال اللقاء البحث في اعادة الهدوء الى البلدة وانهاء التوتر على ان تدخل قوة امنية مشتركة لضبط الوضع الامني.

وذكر ناطق باسم المكتب الاعلامي للحركة الوطنية في الجنوب ان قرارا بوقف اطلاق النار قد اتخذ والتزمت به الحركة الوطنية ودعت الى «عدم الانجرار وراء الاقتتال وتفويت الفرصة على العدو».

الوضع في الجنوب كما وصفته «السفير»، قبل الاجتياح بأسابيع.



صورة مع عائلتي في نابلس، 1957.



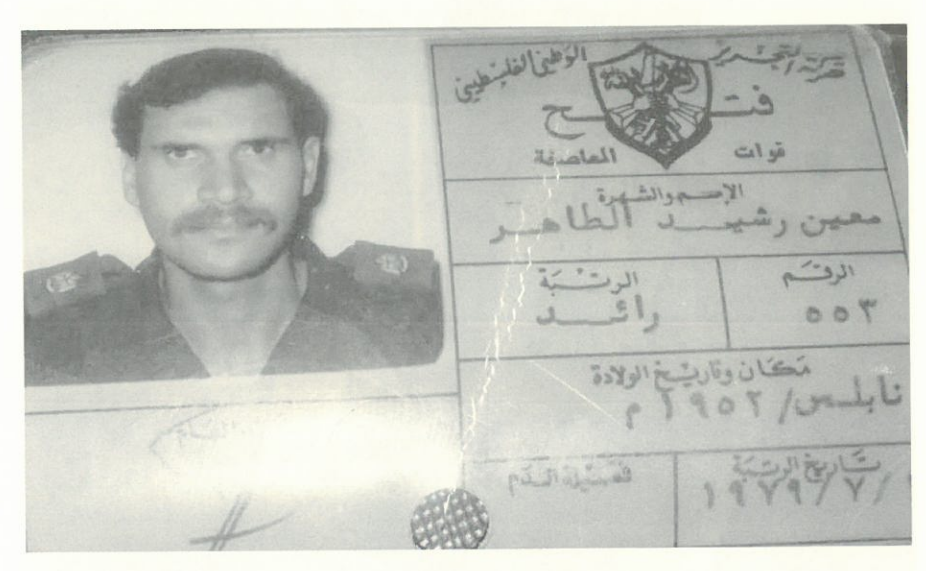
السيد هاني فحص مع أولادي في منزلي، عمّان، 1995.



في أثناء العلاج في باريس، 1983



مع يسار في أثناء علاجي في لندن، 1982.


حركة التحرير الوطني الفلسطيني
فتح
قوات العاصفة

الإسم والشهرة: معين رشيد الطاهر	
الرتبة: رائد	الرقم: ٥٥٣
مكان وتاريخ الولادة: نابلس/ ١٩٥٢م	
	تاريخ الرتبة: ١٩٧٩/٧/

هويتي العسكرية برتبة رائد، 1977.



مع ياسر عرفات في قلعة الشقيف، 1981



مع ياسر عرفات في قلعة الشقيف، 1981



زيارة ليلية لياسر عرفات إلى قلعة الشقيف، رمضان 1982



على تلال بنت جبيل، الشهيدة دلال المغربي الثانية جلوسًا من اليمين، 1976



نصب تذكاري في بنت جبيل، يجمع بين شهداء الكتيبة 1978 وشهداء المقاومة 2006



مقبرة شهداء 1978 في بنت جبيل



لوحة تضمّ أسماء شهداء الكتيبة في ضريح الشهيد علي أبو طوق



عند ضريح الشهيد علي أبو طوق، في الخلف أسماء شهداء مخيم شاتيلا



وداع الدكتور يانو في مخيم شاتيلا



ياسر عرفات يعود علي أبو طوق في المستشفى في إثر إصابته، 1981



الشهيد علي أبو طوق في أحد المهرجانات

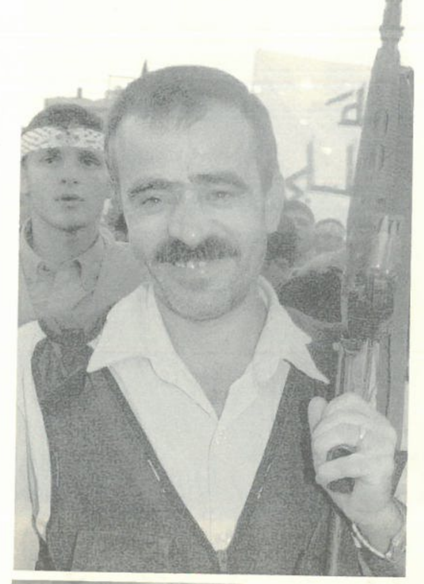
عرض عسكري للسرية الطلابية في بيروت، 1975



في الطريق إلى صلاة الجمعة في طهران، 1979



مع الإمام الخميني في قُم، 1979.



الشهيد مروان زلوم خلال
الانتفاضة الثانية في أحد
شوارع الخليل، 2000



مع الشهيد
عبد القادر
الكحلاني اليمني



في الصورة الشهيد مروان كيالي والشهيد علي أبو طوق، في الطريق من طرابلس إلى الجزائر، 1983



مجموعة من مقاتلي الكتيبة، في الطريق من طرابلس إلى الجزائر، 1983



الشهيد خليل الوزير والشهيد مروان كيالي على الباخرة من طرابلس إلى الجزائر، 1983



مجموعة من مقاتلي الكتيبة



مجموعة من مقاتلي الكتيبة





مجموعة من مقاتلي الكتيبة



مجموعة من مقاتلي الكتيبة في جباب الحمر، 1983



سيارة الشهيد مروان كيالي في ليماسول



جواد وعمر خلال تشييع جنازة والديهما، 1988



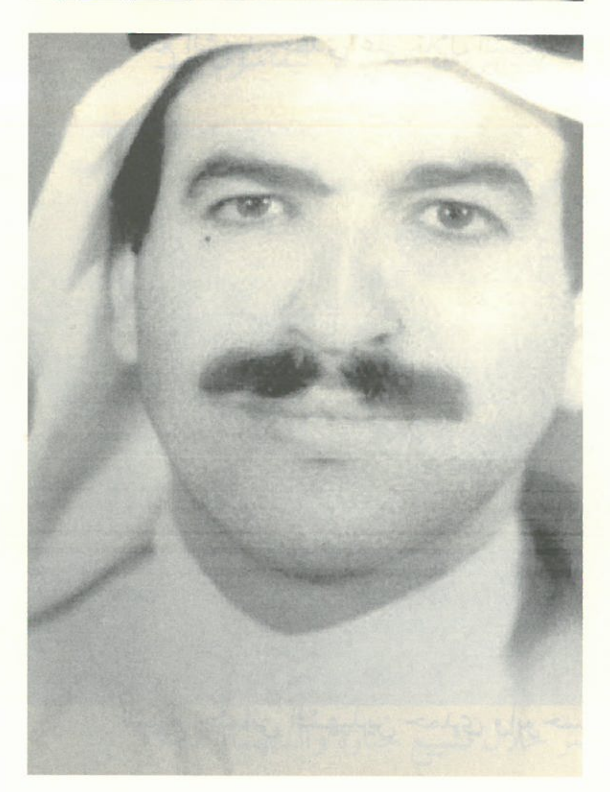
مع الشهيد حمدي على تلال النبطية، 1980



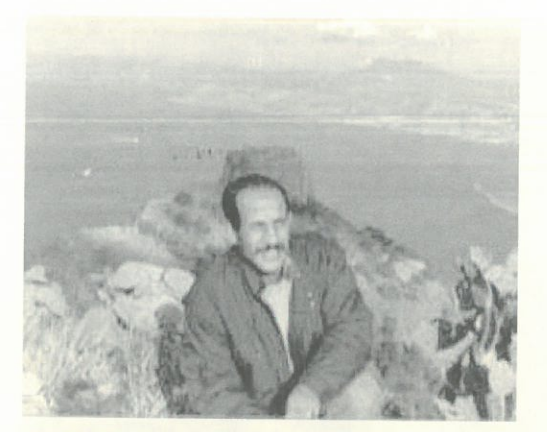
تشييع جثماني الشهيدين حمدي وأبوحسن قاسم



الشهيد الحاج
حسن، خلال وجوده
في عمّان، 1974



الشهيد أبو حسن
قاسم خلال
وجوده في عمّان،
1974



الشهيد جهاد
العمارين



الشهيد ميسرة أبو حمدية



على سفوح جبل صنين، في الصورة الشهيد أبو خالد جورج
(الثاني من اليسار)، 1976



تخريج ضباط من الكتيبة في الكلية العسكرية لحركة فتح



مجموعة من مقاتلي الكتيبة مع رشاش 37 ملم



مجموعة من مقاتلي الكتيبة، في النبطية، 1981



في مدرسة المشاة في كويتا، باكستان، 1978



الشهيد بلال الأوسط،
كلية الأركان، كويتا
باكستان



زيارة إلى معسكر تبسة في الجزائر، 1983



مع الأخ أبو رحمة
في طرابلس



من اليمين: الشهيد مروان كيالي، الشهيد نذير الأوبري، معين، فدى، يسار، أبو الفتح والشهيد علي أبو طوق. طرابلس، 1983





المشاركة في مؤتمر المشروع الوطني الفلسطيني، الدوحة، 2015



المشاركة في مؤتمر المقاطعة؛ تونس، 2016

المراجع

كتب

أبو خالد، خالد. **وسام على صدر الميليشيا** (شعر). بيروت: دار الآداب، 1971.

البس، فتحي خليل. **انثيال الذاكرة: هذا ما حصل**. عمّان: دار الشروق، 2008.

بقرادوني، كريم. **لعنة وطن: من حرب لبنان إلى حرب الخليج**. بيروت: عبر الشرق للمنشورات، 1991.

حمزة، محمد. **حرب الاستنزاف: دراسة في التحليل السياسي... والتوثيق العسكري للحرب الفلسطينية - اللبنانية ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي**. عمّان: دار الجليل، 1985.

خوري، الياس وميشال نوفل (محاوران). **حوار مع معين الطاهر: الكتيبة الطلابية: تأملات في التجربة**. بيروت: منشورات ضفاف، 2015.

دوت بوبار، نيكولا. **اليسار المتحول للإسلام: قراءة في حالة الكتيبة الطلابية لحركة فتح**. ترجمة عومرية سلطاني. سلسلة مراصد؛ 2. الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 2010.

شفيق، منير. **شهداء ومسيرة: «أبو حسن وحمدي وإخوانهما»**. بيروت: مؤسسة الوفاء، 1994.

شيف، زئيف، وإيهود يعاري. **الحرب المضللة**. ترجمة غازي السعدي. عمّان: دار الجليل، 1985.

صايغ، يزيد. **الكفاح المسلح والبحث عن الدولة: الحركة الوطنية الفلسطينية، 1949-1993**. ترجمة باسم سرحان. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2002.

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن ايوب. **المعجم الكبير**، حققه وخرّج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي. ج 19. القاهرة: مكتبة ابن تيمية، [د. ت.].

عبد الرحمن، أحمد. **عشت في زمن عرفات**. رام الله: دار الحرية للثقافة الوطنية، 2013.

عمرو، نبيل. **ياسر عرفات وجنون الجغرافيا**. القاهرة: دار الشروق، 2012.

الغبرا، شفيق. **حياة غير آمنة: جيل الاحلام والإخفاقات**. بيروت: دار الساقي، 2011.

النبتيتي، خليل. **في الطريق إلى فلسطين: سيرة نضالية**. عمّان: دار الشروق، 2014.

نوفل، ممدوح. **مغدوشة: قصة الحرب على المخيمات في لبنان**. رام الله: مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، 2006.

يوسف، محمد محمود. **على ضفاف النهر**. عمّان: دار الشروق، 2014.

دورية

«من ملاحم الصمود في لبنان إلى إعادة التاسيس في فلسطين». مقابلة مع معين الطاهر أجراها الياس خوري وميشال نوفل. **مجلة الدراسات الفلسطينية**. السنة 24، العدد 94 (ربيع 2013).

أطروحة

عرابي، ساري. «تحولات الأيديولوجيا والسياسة في الحركة الوطنية الفلسطينية: الكتيبة الطلابية نموذجًا». رسالة ماجستير، جامعة بيرزيت، 2015.

فهرس عام

-ث-

-ج-

-ح-

-خ-

-ك-

-ل-

-م-

هذا الكتاب

يرسم لوحة تجمع ما بين شتلات تبغ في الجنوب، وجذور زيتونة عتيقة في فلسطين، ويضم حكايات وصورًا من زمن مقاوم.
هو ليس سيرة ذاتية منغلقةً على نفسها، بل إضاءة على سيرة جماعية مكتملة بشخوصها وحوادثها، أطوار نموها، مناخات ازدهارها وحيثيات تراجعها. إضاءة لا تخلو من همّ الأسئلة المتولّدة عند كل مفصل، ولا من ألم الإجابات التي ظلّ بعضها عالقًا ومتجددًا في أذهان من خاضوها. هو مرآة لحقيقة الأفكار والممارسات التي تجاذبت أصحابها وشهودها في خضم التحولات في المشهد النضالي. وقبل كل شيء هو توثيق لما قدّمه روّاد تجربة نضالية وطنية كان لها دور مميّز في الثورة الفلسطينية المعاصرة.
إنه قصة الكتيبة الطلابية.

معين الطاهر

ولد في نابلس في عام 1952، درس الاقتصاد والفلسفة والعلوم العسكرية. ساهم في تأسيس الكتيبة الطلابية في حركة فتح وأصبح قائدًا لها، كما كان قائدًا للقوات الفلسطينية اللبنانية المشتركة في قاطع بنت جبيل - مارون الراس في عام 1978، وفي قاطع النبطية - قلعة الشقيف في عام 1982. كان عضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح والمجلس العسكري الأعلى للثورة الفلسطينية والمجلس الوطني الفلسطيني.
يعمل حاليًا باحثًا ومنسقًا لمشروع بحث وتوثيق القضية الفلسطينية في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.





المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

السعر: 16 دولارًا
ISBN 978-614-445-122-9
9 786144 451229